هذه حياتي



عبد الحميد جوده السحار

مطبوعات مكتبة مصر

هذه حياتي

عبد الحميد جودة السحار

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

١



هدوء مشوب بقلق يسيطر على المكان وعلى من فيه ، وما كان يعكر ذلك الهدوء إلا وقع أقدام نسوة يذهبن ويجئن بين الحمام وغرفة النوم . هذه تحمل طستا فارغا ، وتلك تحمل إناء به ماء يتصاعد منه البخار ، وأخرى تسير على أطراف أصابعها حتى غرفة النوم فيمس أذنيها أنات أمي المكتومة ، فتعود أدراجها وقد فطنت إلى أنها لا تزال تعانى آلام المخاض .

لم تكن هذه أول مرة تضع فيها أمي فقد وضعت من قبل أنثى ماتت صغيرة ، ثم وضعت بعدها أربعة ذكور ، سقط آخرهم من الشباك بينا كانت ابنة عمه تحمله وتلاعبه فمات . وقد أثار موته عاصفة من القلق والخوف فى الدار وفى دور الأسرة التى كانت قريبة من الدار ؛ كانوا جميعا يرقبون التحقيق الذى يجريه الشرطة فى فزع ، خشية أن توجه أية تهمة إلى الصبية التى كانت تحمله ، أو أن تتهم أمي بالإهمال . فلما حفظ التحقيق عادت الطمأنينة إلى القلوب ، ولم يعد أحد يذكر الطفل الذى اتخذ طريقه إلى بطن الأرض من الشباك .

ومزق صوت أمي السكون فراح النسوة يتبادلن نظرات القلق ، ورفعت إحداهن أكف الضراعة إلى السماء وراحت تبتهل فى حرارة :

— يارب حقق لها أملها .

فقال النسوة جميعا من قلوب سليمة :

ـــ يارب .

وعلا فى الغرفة بكاء وليد جاء إلى الدنيا رغم أنفه ، يستقبلها بالعويل ليبدأ رحلة الموت .

وخف النسوة إلى غرفة النوم والقلوب تدق خوفا بين الضلوع ، وفى الأعين لهفة . وما أن رأين إطراق المولدة وما فى وجهها من شرود حتى تيقن أن الله لم يحقق أمنية أمى ، فانسللن إلى حيث جئن بعد أن قلن فى أصوات خافتة مضطربة :

ـــ حمدا لله على السلامة .

وفطنت أمى إلى ما فى نبرات الأصوات من خيبة فسرى فى جوفها خوف ، وأرادت أن تقطع الشك باليقين فراحت تفحص عن الوليد الذى وضع إلى جوارها ، فاكفهر وجهها وأولته ظهرها فى غضب ، فقد كنت ذكرا و لم أكن أنثى كما كانت تتمنى .

وجاء النسوة على استحياء كأنما كان الخطأ الذى حدث من فعل أيديهن ، فقلن فى اعتذار :

ـــ هذه مشيئة الله .

ـــ من منا يستطيع أن يخلق أصبعا من أصابعه ؟

ـــ الحمد لله على ما أعطانا .

فقالت أمى فى صوت خافت :

ـــ الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

و لم يكن ما تحرك به اللسان نابعا من القلب ؛ كانت حزينة فى أعماقها وقد خطر لها خاطر فاستجابت له ، فأبت أن تلقمنى ثديها حتى أتسرب إلى بطن الأرض كما اتخذ أخ لى من قبل طريقه إليه سربا .

ومر الوقت وعضنى الجوع فبكيت ، فأحاط النسوة بسرير أمى وأخذن يتوسلن إليها :

ـــ ما ذنبه ؟ هذا حرام .

ـــ أرضعيه وأخزى الشيطان .

ـــ هذا كفر ، هذا عمل لا يرضى الله .

ووضعونى فى حجرها وكلمات التوسل تخرج لينة رحيمة من بين الشفاه ، وتحركت الأمومة فى صدر أمى فراحت تعتصر ثديها بين أصابعها ليتدفق اللبن إلى فمى ، فتدب الحياة فى الكائن الذى بدأ يتشبث بالحياة منذ أن عرف الهواء طريقة إلى رئتيه .

وجئت إلى الحياة غير راغب فيها ، وغير مرغوب فى .

٢

كان أبى ابن خالة أمى ، وقد سمى إخوتى بأسماء أخوالى ما عدا أمين الذى سقط من الشباك . ولا أدرى أكان ذلك حبا من أبى لأبناء خالته أم من تأثير أمى على أبى ؛ ولم يكن اختيار اسم لى أمرا صعبا فقد سميت عبد الحميد تيمنا باسم خالى الرابع . ومرت الشهور ولم أر غير من فى البيت ؛ كانت شقتنا الضيقة كل عالمى ، فإذا ما ضاقت أمى بى أنزلتنى إلى قدم الخير جارية جدى الأكبر ، وكانت لها غرفة فى فناء الدار المظلم تطل على الحارة ، فكانت الجارية تداعبنى أمام أمى ، حتى إذا ما صعدت أمى إلى شقتنا ألقتنى الجارية فى ركن من أركان حجرتها ، وراحت ترتق بعض ثيابها أو تخلع جلبابها الأسود لتستبدله بآخر دون أن تحفل بى .

وبدأت أحبو فخرجت إلى فناء الدار أكتشف ما فيه دون أن أعبأ بالظلام الذى يخيم عليه فى النهار ، وارتطمت بمواجير العجين وبلاليص العسل ، وكانت الفرحة تملؤنى كلما فتح باب البيت الخارجى ورأيت الشمس تغطى الحارة ، التى أقطعها محمولا إلى بيت عمتى المواجه لنا والذى كان يبعد عنا أربعة أمتار .

كان حب الاستطلاع يغرينى على أن أحبو إلى الحارة ، أن أكتشف العالم الخارجى العجيب . فكنت أحبو نحو النور كلما فتح الباب الخشبى الأخضر ، ولكن كانت محاولاتى تتحطم فى كل مرة ، فما أكاد أصل إلى العتبة حتى تخطفنى يدا أمى أو قدم الخير أو أحد إخوتى .

وذات يوم رأيت الباب مفتوحا على مصراعية ، فغافلت كل من فى الدار وانسللت أحبو إلى الحارة وأنا أستشعر سعادة . كانت الفرحة تغمرنى لأننى أصبحت طليقا فى العالم الواسع ، يداعب وجهى النسيم ، ولم تدم فرحتى طويلا فقد صك مسمعى وقع حوافر حصان جاء يعدو فى الحارة ، فتسمرت فى مكانى وقد استولى على رعب شديد ، من أين نبع كل هذا الخوف ؟ لا أدرى .

وانقض علىّ الحصان كالقدر ، وكما يحدث فى أفلام السينما إذا بيدين تنتشلانى من بين قدمى الحصان الأماميتين قبل أن أصاب بسوء . ولا أعرف حتى اليوم من الذى ارتكب هذه الفعلة الشنعاء وأنقذ حياتى ، فلولاه لما زادت رحلة الموت على سنة ، ولمت مثلما مات قنصوه الغورى تحت سنابل الخيل فى معركة مرج دابق .

ولا أذكر ماذا دار بين أمى وبين قدم الخير من معارك كل ما قيل لى بعد ذلك أن أمى التى كانت زاهدة فى يوم مولدى أشبعت الجارية ضربا و لم ينقذها منها إلا أهل البيت ، وأنها ضمتنى بعد ذلك إلى صدرها فى حنان دافق ، وراحت تسح الدموع كلما فكرت فى أننى كنت سأصبح جثة هامدة فى حجرها كما صار أخى أمين قتيلا فى أحضانها بعد أن سقط من الشباك .

ومضى عام على مولدى و لم يحتفل أحد فى بيتنا بهذه المناسبة ، ولو احتفل فى أسرتنا بأعياد الميلاد لما مضى يوم دون احتفال فى الحارة ، فقد كانت الأسرة جميعها فى بيوت متقاربة ، وكان عددنا وعدد أبناء أعمامنا وعماتنا يزيد على عدد أيام السنة .

وفى الليل استيقظت مفزوعا على عويل وصراخ يزلزل أركان البيت فبكيت ، وسمع عمى حنفى بكائى وهو يهرول على السلم فعاد وحملنى على ذراعه ، وكان يحمل فى يده الأخرى مصباح جاز لينير له الطريق ، واندفع بى إلى الحارة والصوات ينبعث من كل البيوت ، وانطلق إلى البيت الكبير وبعض النسوة والأطفال فى أثره يبكون ، فعمى قاسم قد مات .

كان عمى قاسم قد خرج على تقاليد الأسرة ؛ فرجال الأسرة كلهم تجار كانوا يغلقون محالهم إذا أذن المؤذن بالمغرب ثم يعودون إلى بيوتهم لا يغادرونها إلا فى صباح اليوم التالى لينطلقوا إلى عملهم ، فما كانوا يزورون أو يزارون وما كانت لهم

صداقات . أما عمى قاسم فقد كان تاجرا مثلهم ولكنه كان يختلف عنهم فى أنه رجل اجتماعى ، يمضى جزءا من الليل فى بيوت الأعيان يتحدث فى شئون الاقتصاد والأدب والسياسة ، فتوطدت بينه وبين كثير من رجال ذلك العصر صداقات ، فإذا ما قامت مشكلة بين رجال السلطة وأحد رجال الأسرة كان عمى قاسم هو حلال المشاكل ، فكان موته خسارة فادحة ، وزاد فى الفجيعة فيه أنه كان فى ريعان الشباب .

ودفعنى عمى حنفى إلى أمى فضاقت أمى بى . إنها تريد أن تلتدم وأن تشق ثوبها حتى لا تكون أقل حزنا على عمى الفقيد من نساء الأسرة ؛ فإظهار الحزن فى أسرتنا دليل الأصالة والوفاء . فدفعتنى أمى إلى قدم الخير جارية جدى الأكبر ، كانت أسود من الفحم وكان قلبها أسود من وجهها ، فكانت تقرصنى كلما حملتنى لأبكى فيخطفنى أى صاحب قلب حنون منها فتستريح من حملى .

وكان وفاء أهلى للموتى عجيبا ، فما يأتى يوم الخميس حتى تأتى عربة كارو لتحمل الفراش إلى المقابر ، وكان حوش القرافة قريبا من بيتنا ، فلا أدرى إن كان ذلك مجرد صدفة ، أو كان تدبيرا من رءوس الأسرة التى تعيش للموت .

وحملت من حارتنا — حارة صلاح — إلى شارع الحسينية ، وما سرنا فيه إلا عشرات الأمتار حتى وصلنا إلى قبو من الحجر ، فعرجنا منه إلى ساحة واسعة بها مراجيح وأراجوز ووابور طحين ، ورحنا نشق طريقنا بين الذين جاءوا للهو والذين جاءوا لزيارة القبور يحملون سلال الرحمة على رءوسهم وفى أيديهم حزم الخوص والورود ، حتى بلغنا بوابة الزلاقة ، وهى بوابة حديدية تفصل بين الأحياء والأموات .

ووضع أحدهم فى يد حارسة البوابة « نكلة » ، وكانت فى ذلك الوقت عملة لها قيمتها . إنها مليمان تشترى بهما بيضتين أو رغيف عيش كبير من الدقيق الأبيض الذى كانت أجولته تتدفق من وابور الطحين . ففتحت الحارسة القفل الكبير وسحبت السلسلة الحديدية التى كانت تضم ضلفتى الباب فكان لها صليل عجيب ، صليل يوحى بانفتاح أبواب الرحمة ، ودلفنا من الباب مسرورين إلى القبور .

كان لكل قبر شاهدان ، ولو أننى عشت فترة كبيرة بين هذه الشواهد إلا أننى لا

أدرى حتى اليوم علام يشهدان ؟! وكان لحوشنا شخشيخة مزينة بألواح الزجاج الملون ، فكانت لنا بمثابة المنارة للسفن الآتية فى البحار من بعيد ، كنا نسير على هداها نتلوى بين المقابر كالثعبان حتى نبلغ حوشنا الكبير .

وجاء نساء الأسرة يتوشحن بالسواد فارتج المكان بالعويل ، وما غابت الشمس وأضيئت المصابيح حتى مدت الموائد عامرة بالفطير والجبن والزيتون وما لذ وطاب من الفواكه ، والتهم النسوة الموز فى شراهة بحجة أن عمى المرحوم كان يحب الموز .

وفى الليل كنت أخرج مع أبناء عمومتى الذين يكبروننى لنلعب أمام الحوش . كانوا يقفون على القبور ويقفزون ، وكانوا يلعبون الاستغماية ويختفون خلف الأحواش ، وقد تبلغ الجرأة بأحدهم فيختفى فى داخل قبر مهجور ؛ فتعلمت منذ الصغر دون أن يلقنى أحد أن المقابر ملعب كبير ، وأنها نادى النسوة اللاتى لا يغادرن دور أزواجهن لأنه من العيب أن يخرج رجل مع زوجه فى الطريق العام . فكانت غرفات أحواش القرافة متنفس النساء حبيسات الدور ، وما كان نصيب الميت من وقتهن إلا دقائق معدودات ، ثم يأخذن فى أكل لحوم إخوانهن وأخواتهن ، فالغيبة أشهى ما يخرج من بين شفتى أية امرأة فى الوجود .

٣

تعلمت المشى وتعلمت كراهية قدم الخير ، فما أن يفتح بابُ البيت وأنا معها حتى أنسل إلى الحارة ، وقد كان بعدى عنها يريحها فكانت تتعمد أن تترك الباب مفتوحا لأخرج وأبتعد عنها . وقد خرجت ذات يوم فوجدت بيتا بالقرب من منزلنا يبنى ، فوقفت أشاهد العمال وهم يغدون ويروحون ، ثم رحت أتقدم نحوهم خطوة بعد خطوة .

كانت هناك امرأة ترتدى السواد تصدر أوامرها لهذا وذاك ؛ إنها صاحبة البيت ، والتفتت نحوى فوجدتنى قد صرت بين أرجل العمال ، فالتفتت ناحية شاب يرتدى جلبابا أبيض مقلما بخطوط زرقاء وفى إحدى يديه مرآة وفى الأخرى ملقاط وقد انهمك

فى اصطياد الشعيرات التى ظهرت فى وجهه ، فصاحت فيه :

ــ يا منيل على عينك يا عباس ، أبعد الولد .

وجاء عباس وحملنى ثم وضعنى فى حجره وراح يستأنف ما كان فيه من التقاط شعيرات وجهه . وحان وقت الغداء فجلست أم عباس وعباس يأكلان ويمسحان أيديهما فى جلبابى ، وكان هذا وهو كل نصيبى من الطعام .

وعدت إلى البيت ورأت أمى ما فى ثيابى من آثار فاتهمتنى بأننى أكلت معهما ، ولما كانت الأصول والتقاليد والشهامة تقضى بأن يرد لهما أكثر مما أكلته فقد أرسلت إليهما أمى فى العشاء ألوانا من الطعام ، فكان أن توطدت الصداقة بينى وبين عباس وأم عباس ، فكانا يمسحان أيديهما فى ثيابى إذا ما أكلا ، وكانت أمى ترسل إليهما صحافا مما تطبخه لأبى وإخوتى .

وتوطدت الصداقة بينى وبين أم عباس الصباحية فكانت تنادينى بزوجها العزيز ، وكان عباس يحملنى ويدور فى الحى بحثا عن الأموات ، فقد كانت أم عباس الصباحية ندابة تعيش على مصائب الناس . وكانت أمى تفرح بغيابى عن البيت لتتفرغ للعجين والخبيز والطبيخ والغسيل ، فكانت تكافئ أم عباس بكل ما يخرج من فرننا العتيد أو من الحلل التى تتبادل أماكنها فوق الكانون من الصباح حتى المساء حين يعود أبى من دكانه ، فالعشاء هو الأكلة الرئيسية عند التجار .

وذات يوم حملنى عباس على ذراعه وراح يقطع الحى من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب ، ثم عاد إلى أمه متهلل الأسارير وقال لها بصوت نسوى منغم :

ــ الخير النهارده يا امه كتير : ميت فى الصوابى وميت فى درب السماكين وميت فى الخواص .

ولمعت عينا أم عباس الصباحية سرورا ، ولم تستطع الابتسامة التى انفرجت عن كهف فيها أن تزيل التجاعيد التى تملأ وجهها ثم قالت :

ــ الولد ده وشه حلو علينا ، حلى له بقه .

وأعطانى عباس قالبا صغيرا من السكر ففرحت به فرحا شديدا ، وإن كان من السكر الذى أغرتنى أم عباس بسرقته من عند أمى .

كان صوت أم عباس أجش كأنما لم يخلق إلا للندب ، وكانت دقات الدفوف التى تصاحبها فى أثناء العديد تخلع القلوب ؛ ولكننى كنت أمتلئ نشوة كلما صك صوتها أذنى . كان عندى أعذب من صوت الشيخ يوسف المنيلاوى الذى فاز على كاروزو المغنى الإيطالى الأشهر فى معرض باريس ، فلا غرو فقد كانت تنادينى على الدوام بزوجى العزيز ، فكان من الوفاء أن أعجب بكل ما يصدر عنها من أصوات منكرة تعصر الدموع من العيون .

ولم يعد عباس يحملنى فى تجواله فى الحى فقد أصبحت أستطيع السير ، فكنت أمسك بذيل جلبابه وأسير إلى جواره ، وكان هو سعيدا بذلك فقد أصبحت يداه حرتين ليمارس لعبته ، كان يمسك المرآة بيد ويلتقط بالملقط باليد الأخرى الشعيرات التى كانت تغافله وتنمو فى وجهه . ولم أكن أفهم فى ذلك الوقت سبب مطاردته المستميتة للشعر الذى بدأ يظهر فى ذقنه وشاربه ، ولا سبب تأوده فى مشيته وصوته الطرى .

وانطلقنا ذات يوم بعيدا عن الدائرة التى اعتدنا أن نتجول فيها بحثا عن الرزق ، فلم نذهب من الصوابى إلى درب السماكين بل عرجنا إلى جنينة الكوة ، وسرنا فى طريق بين الأشجار والحقول . ورأيت لأول مرة فى حياتى الساقية فمددت إليها بصرى وأنا نشوان ، فقد كنت أكتشف دنيا جديدة لم أر مثلها من قبل .

كان مكان شارع الجيش اليوم مزروعا خبيزة ، وكان بعض المزارعين يجمعها وفى يده شرشرة يحشها بها ، فاستهوانى العمل فوقفت أرقبه . وسار عباس وهو مشغول عنى بالمرآة والملقط ، ولم يشعر بأننى تركت ذيل جلبابه إلا بعد أن قطع مسافة بعيدة ، فعاد إلىّ مهرولا ثم أخذ بيدى وراح ينهرنى بصوته النسوى الطرى .

وبلغنا حى الظاهر وكان كل سكانه من اليهود ، لم يكن المسلمون قد زحفوا فى مراحل رقيهم إلى ذلك الحى . ومن أحد المنازل سمعنا بكاء وذهب عباس يسأل عن الميت فعلم أنه شاب يهودى ، فدخل على أهله يعرض خدماته فاستجاب له الناس ، فخطفنى من الأرض وحملنى على ذراعه وراح يهرول منفعلا ، فقد أتم أعظم صفقة فى حياته .

وحمل إلى أمه البشرى فكادت المرأة تزغرد لذلك التطور الذى طرأ على حياتها ، فقد أصبحت ندابة أفرنجى ، وذاع فى الحارة الخبر فراح النسوة يتناقلنه من الشبابيك ، فهو نصر باهر يهم كل جيران أم عباس الصباحية !

والتقم عباس أذن أمه وأخبرها أن ليس فى الدار بن ، فقامت أم عباس إلى تنكة قهوة بها بقايا تنوة ومدت أصبعها ثم راحت تلوث به فمى وملابسى ، وأشارت إلى ابنها ليحملنى إلى أمى .

وذهب بى عباس إلى بيتنا ودفعنى إلى أمى ، فلما رأت على فمى آثار القهوة قالت لى معاتبة :

ـــ كده شربت قهوتهم !

وتظاهر عباس بأنه يتحرك للانصراف ، فقالت له أمى :

ـــ استنى .

وانتظر عباس وغابت أمى قليلا ثم عادت بقرطاس ملىء بناً ودفعته إليه ، فقال وهو يمد يده يأخذ القرطاس :

ـــ مالوش لزمه ، دا برضه ابننا .

وأسرع عباس ليصنع القهوة ويصبها فى الفناجين ، ويدور بها على الذين جاءوا مهنئين أم عباس بأنها أصبحت ندابة أفرنجى .

٤

تسرب إلى قدم الخير أن الحكومة أصدرت أمرا بتحريم تملك العبيد . إنها نشأت فى بيت جدى الأكبر ثم انتقلت إلى بيتنا مع جدى ، فلا أدرى أأخذها جدى بالميراث أم أن أخاه قد زهد فيها هربا من إيوائها وإطعامها .

وقد نشأت وأنا أرى قدم الخير فى حجرتها على يسار الداخل ، وكانت فى نظرى من لوازم البيت كمواجير العجين وبلاليص العسل المتناثرة فى فناء الدار المظلم قبالة حجرتها . وكنت أرتطم أحيانا بالمواجير وأحيانا بقدم الخير ، وكانت المواجير تؤلمنى

وكذلك كانت قدم الخير . إلا أنها كانت تتفوق على المواجير بصراخها فىّ وصياحها لتظهر تبرمها بحياتها ورغبتها فى أن يعتقها جدى .

كانت تتحرق شوقا إلى الحرية ، وما كان أحد فى بيتنا يرغب فى أن يتمسك بها ولكن الإشفاق عليها من الضياع فى الدنيا الواسعة بعد أن صارت عجوزا لا قدرة لها على العمل ، هو الذى جعل كل من فى البيت يحتملون حماقاتها .

كانت كلما رأت رجلا من رجال البيت ضحكت ضحكة خليعة لتثير غيرة نساء البيت ، إلا أن النسوة كن يقابلن ضحكتها الماجنة بابتسامة ساخرة . كن جميعا يعلمن أنها ضبطت ذات ليلة فى أحضان جدى الأكبر وأن الحاجة الكبيرة قد أشبعتها ضربا ، كان ذلك من عشرات السنين يوم أن كانت شابة حبشية قد تسيل لعاب من يملكها ، أما اليوم فهى حطام امرأة ، هيكل عظمى شد عليه جلد أسود .

وصارت قدم الخير لعبتنا المفضلة أنا وإخوتى وأبناء عمومتى ، كنا نقف فى الحارة ونتسلق الحائط حتى نصل إلى شباك غرفتها ثم نصرخ صرخة مدوية ، فكانت تهب من رقدتها مفزوعة ثم يتدفق من فمها السباب ، وما كنا نسمع منه شيئا لأننا نكون دائما غارقين فى الضحك مما فعلنا .

وكانت قدم الخير تقول لى إننى أكثرهم شقاوة وإن لم أخرج بعد من البيضة ! وكانت تحاول أن تمسك بى لتقرصنى إلا أننى كنت أفلت منها ، ولا أكتفى بذلك بل أركبها بسخريتى.وذات يوم أمرتها أمى أن تحمّينى ، فأخذتنى إلى الحمام وكان على يمين الداخل من باب البيت ، وكان به طست نحاس فوق الكانون والبخار يتصاعد منه .

وخلعت ملابسى ووقفت مطمئنا ، وإذا بقدم الخير تملأ الكوز بالماء المغلى وتصبه فوق رأسى . وصرخت صرخة مفزوعة دوت رهيبة فى البيت ، فلم تكتف قدم الخير بذلك بل ملأت كوزا آخر وراحت تتعقبنى فى أرجاء الحمام . إنها لو صبت علىّ الماء فستخرج روحى من بين جنبى ؛ إنها ولا شك تريد أن تقتلنى . وتملكنى هلع شديد فأخذت أصرخ والدموع تنهمر من عينى ، وفتح باب الحمام فإذا بأمى تخطفنى وتضمنى إلى صدرها وهى تقول فى خوف :

— فيه إيه ؟. فيه إيه ؟. إيه اللى جرى ؟.

ورأت أمى البخار الذى يتصاعد من الطست ولحمى الذى صار فى لون الدم ، ففطنت إلى كل شيء ، فوضعتنى على الأرض وانهالت على قدم الخير ضربا وهى تقول :

ـــ لانا لهى فى البيت ده .

وانعقد مجلس الأسرة فى المساء ، أمى تصر على خروج قدم الخير من البيت وجدى يقول فى إشفاق :

ـــ بس حتروح فين ؟

واشتدت المناقشات ، وأخيرا رضى الجميع أن تبقى قدم الخير فى البيت حتى تموت . و لم ترض قدم الخير بذلك القرار ؛ إنها تريد حريتها ، تريد أن تخرج من بيت ذلها ولكنها ما كانت تدرى إلى أين تذهب ، وليس لها أحد فى القاهرة الواسعة .

ومرت الأيام وفكرة الفكاك من العبودية تراود الجارية ، وذات يوم استأذنت فى الخروج لتبحث لها عن مأوى فأذن لها . وغابت طوال النهار وارتفع صوت بائع اللبن الزبادى فى الحارة ، إنه الأذان بإقبال الليل ، فقالت جدتى فى إشفاق :

ـــ يا ترى يا قدم الخير انت فين ؟

وجاءت قدم الخير بعد أن عاد جدى وعمى وأبى من دكاكينهم ، فأسرع الجميع يسألونها أين كانت ؟ فقالت : إنها كانت فى شبرا ، وقد وجدت هناك غرفة ستنتقل إليها .

وفى الصباح جاءت عربة كارو ووقفت أمام البيت ، وحملت قدم الخير صندوقها وبعض أثاث حجرتها ووضعت كل ما تملك فوق العربة الكارو ، وقبل أن تركب ألقت نظرة على بيتنا وانهمرت الدموع من عينيها ، ونظر النسوة من الشبابيك يبكين .

وأخذت أنظر إلى قدم الخير وهى تبكى وإلى النسوة من أهلى اللاتى يبكين وأنا فى حيرة من أمرى . لم أكن فى ذلك الوقت أفهم شيئا مما يجرى أمام بصرى ، كنت قد تعلمت فى الثلاث السنوات التى عشتها أن البكاء من النوافذ لا يكون إلا على الميت ، و لم يدر بخلدى أن ما كانت قدم الخير مقدمة عليه أقسى من الموت ، فالميت يموت مرة واحدة يوارى بعدها فى التراب ، أما هى فقد تموت كل صباح وكل مساء إذا ما نفد

ما معها من مال و لم يوافها الأجل . إنها وحيدة بلا عائل فى بحر الدنيا المتلاطم ، وحيدة أنهكتها السنون حتى أصبحت غير قادرة على أن تكسب ما تمسك به الرمق . لماذا تركت المجنونة بيتنا ؟! هل كانت حريتها تساوى كل هذا العنت ؟! إننى غير قادر على تقديم حقيقة الدوافع التى دفعتها إلى هذه المخاطرة الرهيبة ، ولن أستطيع معرفة حقيقة مشاعرها إلا إذا فقدت حريتى وقدرتى على العمل .

٥

كانت حارتنا أشبه بثعبان يصل ما بين شارع الصوابى وشارع الحسينية ، وكان شارع الحسينية فى ذلك الوقت هو الشارع الرئيسى فى القاهرة ، فالجيش يمر فيه إذا خرج من العباسية إلى القلعة أو إذا عاد من القلعة إلى العباسية ، واحتفال المحمل ينساب فيه من أرض مولد النبى ومكانها الآن كلية الهندسة بجامعة عين شمس ، إلى وكالة الكسوة الشريفة بالجمالية .

وكانت الحرب العالمية الأولى ناشبة فكانت القاهرة غاصة بجنود الإنجليز ، وجنود مستعمرات الإمبراطورية البريطانية التى لا تغيب عنها الشمس ، وكان شارع الحسينية هو الطريق الذى يتبختر فيه جنود الحلفاء على ظهور جيادهم .

وفى ذات يوم بينما كنت ألعب أمام المسمط المواجه لبيت أم عباس الصباحية ، فى ذلك الانتفاخ غير الطبيعى فى جسم ثعبان حارتنا ، إذا بجنود حمر الوجوه على ظهور جيادهم يدخلون حارتنا وأعينهم مصوبة إلى الشبابيك . جاءوا ولا شك ليشاهدوا جمال نساء القاهرة وليسعدوا بالعيون الساحرة . كان مجرد ظهور امرأة خلف شيش الشباك يحرك الخيال ويوقظ المشاعر الكامنة .

ودنا حصان منى والتفت راكبه إلى الشىء الصغير الواقف على الأرض الذى هو أنا ، فابتسم ثم ترجل وحملنى وقبلنى وأعادنى إلى الأرض مرة ثانية .

كانت أم عباس الصباحية جالسة فى الشمس أمام بيتها وقد رأت ما فعل العسكرى الإنجليزى . إنه قبلنى ثم وضعنى على الأرض واعتلى ظهر جواده ، كان كل شىء يسير

سيره الطبيعى ، وما كان ذلك ليرضى ندابة حتى ولو كانت ندابة أفرنجى فصاحت متصنعة الفزع :

— عباس ! واد يا عباس .. الحق الولد .

وخرج عباس يهرول وفى يده المرآة وفى الأخرى الملقط ، واندفع نحوى ثم خطفنى كأنما ينتزعنى من براثن الأسد البريطانى ، وعاد إلى حيث كانت تجلس أمه على حصيرة وهمّ بأن يجلسنى إلى جوارها ، ولكن ذلك ما كان ليرضى الندابة فقالت لابنها :

— وديه لامه وقول لها إن الإنجليز كانوا ح يخطفوه لولا اننا خلصناه من أيديهم .

كنت فى ذلك الوقت لا أفهم الدافع لها على اختراع هذه الكذبة . إن شيئا مما تقول لم يحدث ولم يخطر على بالى أن أعترض ، فكيف أكذّب من تنادينى دائما بزوجى العزيز ؟. وإنها كانت تحرضنى على أن أسرق لها السكر من عند أمى ، فكنت أفعل وأخفى السكر فى جيوب جلبابى ثم أنسل هابطا إليها لأضع السكر فى راحتيها ، وكانت تحرضنى على أن آتيها بالبن أو بما فى بيتنا من خيرات ، فما كنت أتردد فى تنفيذ رغبات زوجتى العزيزة !.

وأخذنى عباس من يدى وذهب إلى بيتنا ، ثم قال لأمى بصوته النسوى الممدود :

— احمدى ربنا ، لولا أمى كانوا الإنجليز خطفوه .

فقالت أمى فى هدوء :

— وكانوا ح يعلموا بيه إيه ؟.

— كانوا رموه هنا واللا هنا ، واللا كانوا ودبحوه فى مدبح الانجليز .

كانت هذه أول مرة أسمع فيها أن أناسا يذبحون أناسا بلا سبب . كان أقصى ما يمكن أن أتصوره أن يذبح إنسان دجاجة ليأكلها أو خروفا فى العيد أو عجلا تحت خشبة ميت ، أما أن يذبح إنسان إنسانا آخر بلا سبب فذلك يفوق تصورى . ولو كانت مداركى قد اتسعت فى ذلك الوقت لعرفت أن فى الحرب الدائرة بين الألمان والإنجليز رجالا يقتلون رجالا بلا سبب ، بل ودون سابق معرفة بينهم . لقد كنت أنقى من أن أفهم ما يدور فى الدنيا من عبث ، وإن كنت قد مارست سرقة السكر والبن والحلوى إرضاء للمرأة التى تحقق لى حرية الانطلاق من سجن بيتنا .

وفى الليل عاد الرجال من أعمالهم إلى بيوتهم وبدأت ثرثرة النسوة فراحت كل امرأة تقص على زوجها نبأ دخول الإنجليز إلى حارتنا ، فثارت مخاوف الرجال وتحركت غيرتهم فراح كل رجل يلقن زوجه ما تفعله لو اقتحم عليها إنجليزى الدار .

وفى الصباح كانت المزاليج الضخمة تركب فى الأبواب ، بل حصنت الشبابيك بأسياخ الحديد ، وزودت البيوت بهراوات وسكاكين ، وكانت هذه هى كل الأسلحة التى يستطيع الأهالى أن يدافعوا بها عن أعراضهم .

ولم تستطع أمى أن تحبسنى فى البيت طويلا فأنا دائم الحركة لا أستطيع أن أمكث فى مكان واحد لدقائق معدودة ، فتركتنى أنزل إلى الحارة لأنطلق إلى أم عباس .

واستقبلتنى أم عباس بالأحضان ، ثم أجلستنى إلى جوارها على الحصيرة فى الشمس وقد جلست ترقب بعض الكتاكيت وهى تجرى أمامها هنا وهناك ، واستهوانى جرى الكتاكيت فقمت لأقف بينها أسعد بقربها ، فإذا بأم عباس الصباحية تنادى :

— واد يا عباس ، تعال دخل الكتاكيت ليتحسدوا ، كفاية امبارح تلاتة اتشندلوا .

وبدأت أربط فى ذهنى بين الحسد والموت ، وإن عجبت كيف مات لأم عباس ثلاثة كتاكيت دون أن تندبها ؟! ، وجاء عباس ووضع المرآة والملقط إلى جوار أمه وراح يهش الكتاكيت بطرف جلبابه ، وهو يقول بصوته الطرى المنغم :

— هش .. هش بقى .

وجلست على الحصيرة ونظرت أمامى فإذا بالمسمط المواجه لبيت أم عباس مغلق لا حركة ولا جلبة ، عربات الكارو التى كانت تزدحم تحت شبابيك بيت عمتى قد اختفت ، وأصوات ارتطام المغارف بقزانات المرق قد ماتت ، حتى الأصوات تموت ، فالمكان الذى كان ينبض بالحياة صار صامتا كقبر .

والتفت إلى أم عباس وقلت لها :

— المسمط مقفول ليه ؟.

— قفلته الحكومة .

— ليه ؟.

وكان عباس قد انتهى من إخفاء الكتاكيت فى جوف البيت المظلم خشية عليها من عين الحسود وجاء يجلس إلى جوارنا . فقالت أم عباس وهى تتلفت :

ـــ دبحوا فيه الشيخة صالحة .

ولم أسأل لماذا ذبحوها فقد تملكنى شعور بالخوف ، ولم يترك عباس ولا أمه لى فرصة الاستفسار فقد راحوا يتحدثون وأنا أصغى والانفعالات القاسية تمور فى جوفى الصغير ؛ قالت أم عباس :

ـــ من ساعة ما دبحوها واحنا مش قادرين نفتح باب البيت فى الليل ، عفريتها طول الليل بيجرى فى الحارة .

وقال عباس :

ـــ امبارح طلع لى عفريتها .. خرجت بعد العشا أشترى عيش ، وانا راجع حسيت باللى بينفخ فى وشى ، حطيت ديلى فى اسنانى وقلت يا فكيك .. جريت وجرى عفريتها ورايا لغاية ما دخلت وقفلت الباب .. كنت ح اسقط من طولى .

ماذا يفعل عفريت امرأة بعباس الذى يتأود فى مشيته تأود الخيزران ؟! لم يخطر ذلك على ذهنى فى ذلك الوقت بل كان الخوف يستولى علىّ ، إنها أول مرة أسمع فيها عن عفريت يجرى وراء الناس . ماذا يريد بهم ؟ وهل يريد العفريت بالناس إلا الشر ؟ وعلى الرغم من أننى كنت بين أم عباس وابنها وفى وضح النهار إلا أن قشعريرة سرت فى جسمى ، فقمت أسير إلى جوار الحائط وأنا أتلفت حتى دخلت بيتنا .

كان فناء البيت مظلما وكان السلم أكثر ظلاما ، وكنت أسير فى ذلك الظلام دون أن ينتابنى خوف . أما فى ذلك اليوم فقد سرت بين المواجير وبلاليص العسل وأنا أرتجف ، كان يخيل إلىّ أن كل ماجور عجين عفريت يقدح الشرر من عينيه ، وصور لى وهمى أن المكان قد ملىء أشباحا ، فأردت أن أصرخ فلم أجد صوتى ، وتحاملت على نفسى حتى صعدت إلى شقتنا .

وجاء الليل فنمت بين أخوى أحمد وسعيد وفكرة العفاريت تجثم على رأسى ، وما كدت أغمض عينى حتى ارتفع صوت ديك رومى من منزل من منازل الحى . إننى سمعت ذلك الصوت مرارا من قبل ولكنه كان صوتا له دلالة خاصة فى تلك الليلة ، إنه

صوت عفريت من العفاريت التى تمرح فى الظلام .

وانكمشت وغطيت وجهى باللحاف وأنا اضطرب حتى أخذنى النوم ، ولم أنم نوما هادئا بل كنت أرى فى نومى خرافا تخرج من الحائط وتندفع نحوى لتنطحنى ، فأصرخ فلا يتجاوز صوتى مسمعى .

وتسللت الشمس إلى حجرتنا فقمت فوجدت نفسى وحدى ، فأخواى أحمد وسعيد قد ذهبا إلى المدرسة ، فأسرعت إلى حيث كانت أمى لأجد الأمن بجوارها .

فكرت فى أن أمكث فى البيت لا أبرحه ، ولكنى لم أطق أن أحبس نفسى بإرادتى ، فأخذت من أمى نكلة لأشترى بها حلوى ونزلت إلى الحارة ، ثم سرت إلى شارع الحسينية ، فلما دنوت من المسمط المغلق جريت حتى تجاوزته دون أن أتلفت خلفى .

وبلغت شارع الحسينية فإذا بعربات الحنطور وعربات الكارو ورجال على ظهور حمير مطهمة يغدون ويروحون . كانت الحياة تتدفق فى الشارع فاطمأنت نفسى وانسبت فى هدوء أتلفت ، حتى إذا ما بلغت دكان خراط خشب يخرط فى مهارة قطع الأبواب والشبابيك العربية وقفت أرقبه فى إعجاب ، وسرعان ما داعبتنى فكرة أن آتى إليه يوما لأخرط عنده نحلة ألعب بها كما فعل أخى سعيد من قبل .



وفكرت فى أن أحتفظ بالنكلة وأن أدخر ما يصل إلى يدى حتى يصبح عندى قرش صاغ أحقق به حلمى ، ولكن الملبس الذى كان يملأ البرطمانات فى إغراء فى دكان خليل ابن عم أبى أطار فكرة الادخار من رأسى ، فاشتريت بالنكلة ملبسات فى لون الورد ، وضعت إحداها فى فمى وأخذت أستحلبها فى لذة .

وسرت الهوينا أشاهد فى أحد الحوانيت الصناع وهم يشكلون الصفيح أكوازا ويلحمون بالقصدير جنوبها وقعورها ، وأشاهد فى حانوت آخر بعض الرجال وهم يصنعون الحصير ، كانت السرعة الفائقة التى يمررون بها القش من خلال الخيوط الطويلة التى تملأ النول تستهوينى ، فقد كانت صناعة الحصير ، والثور الذى يدور فى السرجة لعصر السمسم ، ووابور الطحين فى الزلاقة أهم معالم حينا ، وكنت لا أمل الوقوف عندها متمنيا أن تتاح لى فرصة ممارسة عمل من هذه الأعمال الجسام !.

وبلغت أول حارتنا فإذا بكل المتعة التى استشعرت بها تتبخر فجأة ويشتد وجيب قلبى ، تذكرت أننى سأمر على المسمط المغلق وأن عفريت الشيخة صالحة قد يظهر لى .

كانت الشمس تفرش الحارة والطريق يتألق بالنور ولكنه كان مقفرا ليس به أحد ، فسرت وحدى مرعوبا حتى دنوت من مكان الجريمة ، المسمط العتيد الذى ذبحت فيه الشيخة التى استولت على كل حواسى دون أن أعرفها أو أراها . وفجأة قرع أذنى وقع حوافر على الأرض ، كان الصوت آتيا من خلفى ، فشعرت كأن قلبى يكاد أن يفر من صدرى . ودنا منى الصوت فخيل إلى أن عفريت الشيخة قد ظهر على هيئة جدْى وأنه فى أثرى لينطحنى .

وهممت بالجرى ولكن قدمى تسمرتا فى الأرض ، وسرت فى جسدى رعدة ، وخفق قلبى فى شدة ، وأصابنى دوار وكدت أموت من الخوف . وقبل أن أنهار أفلتت منى التفاتة مرعوبة فرأيت بعينين زائغتين حمارا مقبلا وصاحبه يجد فى أثره ليلحق به ، فرحت أسكن روعى إلا أن دقات قلبى ظلت تدوى بين جنبى كالطبل ، وتلقنت ولم أتجاوز الثالثة من عمرى أن الخوف قد يفضى إلى الموت .

٦

فترت العلاقات التى كانت بينى وبين أم عباس الصباحية فلم تعد تستقبلنى بذراعين مفتوحتين و لم تعد تنادينى بيا زوجى العزيز ، فقد أعطتنى كلبا صغيرا وطلبت منى أن أرد لها هديتها من خيرات بيتنا ، فوضعت الكلب فوق السطح فى الشمس وهبطت إلى شقتنا ورحت أملأ جيوبى بالسكر ، وفيما أنا منهمك فى عملى إذ بصوت أمى الغاضب ينزل على فى قسوة السوط :

ــ بتعمل إيه عندك ؟

وارتبكت ثم قلت فى خوف :

ــ أم عباس ادتنى كلب وقالت لى هات لى سكر .

ــ قالت لك اسرقه ؟!

واعترانى خجل شديد ، وزاد فى ألمى أن أمى أمسكتنى بيديها وراحت تهزنى فى عنف والدموع تكاد أن تطفر من مآقيها وتقول :

ــ والله عال . ح تطلع حرامى .. حرامى .

وحفرت هذه الحادثة فى أعماق . وظلت صورة أمى وهى تهزنى فى انفعال شديد تستولى على ، وما كنت أتذكرها حتى يسيل عرق خجلى فأطرق وتتقاصر نفسى لكأنما الدنيا كلها تسخر منى . وقد أثر ذلك اليوم فى حياتى فما عدت أمد يدى إلى فاكهة وضعت على البوفيه لنا جميعا حتى يؤذن لى ، وظل ذلك السلوك يلازمنى حتى بعد أن تزوجت وأصبحت رجل بيتى ، فإذا نسيت زوجتى أن تقدم إلىّ مما أشتريه فغالبا ما ينفد الصنف دون أن أذوق منه شيئا .

وأرسلت أمى إلى أم عباس تلومها على تحريضى على السرقة ، ونفت أم عباس فى شدة أنها طلبت منى أن آتيها بشىء . وزاد إنكار أم عباس فى تعذيبى ، فما أقدمت عليه شىء قبيح يستنكره الجميع حتى المحرضين على ارتكابه .

وقابلتنى أم عباس بعد ذلك بوجه عابس ، لا لأننى افتريت عليها بل لأننى بحت بالسر الذى بيننا ، وعبرت عن مشاعرها بقولها :

ــ فتان . لا انت جوزى ولا عايزه اعرفك .

وفى كبرياء أعرضت عنها . لم أكن مستعدا لمعاودة التجربة القاسية التى مرت بى ، لا إكراما لأم عباس ولا لغيرها ولو صرت وحيدا منبوذا من أحبائى ، وكان يضايقنى حقا أن عباس صار يخرج وحده يجوس خلال الحى بحثا عن الموتى ، ولكنى قررت فى نفسى أن أحتمل هذا الضيق فهو أخف علىّ من الآلام المبرحة التى أقاسيها عقب السرقة . وتعلمت منذ نعومة أظفارى كيف أجمح رغباتى .

وذات صباح نزلت إلى الحارة وقد عزمت أن أسير فيها فى عكس اتجاه بيت أم عباس إلى حيث تقع المدرسة التى فيها أخواى أحمد وسعيد ، وإذا بصوت أم عباس ينادينى ، فدرت على عقبى وانطلقت إليها ، وإذا بها تستقبلنى بالأحضان وتنادينى بزوجها العزيز ، وانقشع ما فى صدرى من عتاب وأقبلت عليها سليم القلب فقالت لى :

ــ روح شوف عم خليل ازيه النهارده .

كان خليل ابن عم أبى وهو فى نفس الوقت أخو زوج عمتى وزوج ابنة عمى ، فأسرتنا كانت ولا تزال إلى حد ما لا تعرف إلا زواج الأقارب كأنما تخاف على دمائها الزكية أن تهدر ، وكانت عمتى عزيزة تردد : « أوحش بناتنا أحلى بنات الناس » . وبالإيحاء صدّق شباب الأسرة هذه الفرية فما فكر أحد فى أن يثور على هذه التقاليد .

وكان خليل يسكن فى البيت الذى فيه عمتى عزيزة وكان قد سقط فريسة للمرض ، فأثار ذلك اهتمام أم عباس الندابة فرأت أن تبعثنى رسولا لآتيها بالخبر .

ودخلت بيت عمتى وصعدت إلى حيث كان خليل يرقد ، فإذا بأم خليل وزوجته وعمتى وبعض نسوة الأسرة يبكين فى صمت ، فانسللت من البيت وذهبت إلى أم عباس وقلت لها :

ــ كلهم قاعدين بيعيطوا .

وارتسمت ابتسامة على الفم الأدرد ولمعت عين ولم تلمع الأخرى ، كانت ممسوحة . ونادت الندابة بصوت فيه انشراح قالت :

ـــ واد يا عباس ، حلّي بق الواد .

و لم أنتظر حتى يخرج عباس بل دخلت إلى القاعة المظلمة حيث كان يبحث عن شيء يقدمه إلى ، فلم يجد إلا خيارة قسمها بينى وبينه ، أما قوالب السكر فقد أصبح وجودها عندهم نادرا بعد أن عرفت أن السرقة حرام ، وأن السارق سيدخله الله النار .

ومرت أيام وأم عباس تسأل عن صحة خليل فى الصباح بحكم الجوار ، وتبعثنى رسولا أكثر من مرة فى النهار لآتيها بخبره . و لم يهدأ لنا بال حتى ضج بيت عمتى بالعويل والصوات ، فخطفت أم عباس ملاءتها السوداء وخفت تهرول متظاهرة بالحزن والأسى وإن كان عقلها يحسب فى ذلك الوقت ما سيعود عليها من خيرات .

وجاء الفراش ينصب الصوان ويشد الخيام ، فوقفت أنظر إليه وهو فوق السلم ، ثم سرعان ما يديره بين رجليه ليتقدم به دون معاونة أحد فيملؤنى العجب . كانت حركات الفراش فوق السلم الطويل هى أول حركات بهلوانية رأيتها فى حياتى ، فما كنت قد عرفت السيرك بعد .

وجاء الحانوتى بمنضدة الغسل لتغسيل الزبون ، وجاء فى أثره اثنان يحملان خشبة الميت تسبق أحدهما كرش ضخمة لكأنما كان يدفن الموتى فيها . وراح النسوة يلتدمن على نغمات أم عباس الصباحية . كان صوتها بشعا أجش وكانت دقات الدفوف رهيبة تخلع القلوب . وفجأة ساد صمت ، إنه وقت غسل الميت ، وقت نزول ملائكة الرحمة ، فلا يجوز استقبالها بما يغضبها ويغضب خالقها .

وشق السكون مرة أخرى أصوات النحيب والعويل والصوات ، فراح الجزار يجذب العجل الذى سيذبحه تحت خشبة الميت ، ووقف كل من فى الصوان بعد أن لاحت لهم الخشبة مقبلة على أكتاف الرجال .

وذبح العجل وسال الدم وسارت الجنازة وقد شغلت عنها بالجزار الذى بدأ فى سلخ العجل . وبدأت تداعبنى فكرة .. إن ذبح عجل معناه أننا سنأكل كفتة فى الغداء والعشاء إلى جوار قطع اللحم المتناثرة فوق تناجر الفت ، فذهبت إلى حيث ذهب الجزار فوجدته يخفى جزءا من الكبدة فى جيبه ويعطى لمساعده بعض قطع اللحم فينسل

بها إلى خارج الدار .

وبدأ الطباخ فى طهو الطعام على أفران الفحم ، فلما عاد الناس من دفن خليل مدت الموائد ، وانشغل النسوة عن المأتم بتسريب اللحوم والكفتة إلى دورهن ، ودارت أحاديث هامة بين الرجال حول الموائد وراح كل رجل من رجال الأسرة يبحث عن أولاده ليطعمهم . وجاءت أم عباس الصباحية إلى الطباخ وأخذت ما أخذت ، ثم ذهبت إلى الفراش وأخذت نصيبها من الغنائم ، وحمل عباس السكر والبن إلى قاعة بيتهم المظلمة .

وانتهى الطباخ من إطعام من فى المأتم وتظاهر بالأمانة ، فأرسل إلى أهل الميت ما بقى من لحم مطبوخ وقليلا من الكفتة ، أما ما بقى من صفيحة السمن فقد صبه فوق رماد الفحم ، وأخذ الرماد وخرج ، وما أسهل فصل السمن عن الشوائب بعد ذلك .

ولم ينكب بموت خليل إلا العجل الذى ذبح تحت خشبته ، ولم يحزن عليه إلا كفنه !

٧

أصوات العجين تتجاوب فى دور الأسرة المتقاربة فى الحارة ، فقد كنا فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان ، وانتشرت فى أفنية الدور المواجير وألواح العجين وصاجات الكعك ، فقد كنا نستقبل العيد بأقراص الفطير والكعك والغريبة . وجاء الليل والنسوة جميعا مشغولات بتقطيع الفطير ، والصبية منهمكون فى نقش الكعك . وارتفعت أصوات الأولاد فى الحارة ينشدون : وحوى يا وحوى ، فتملكتنى رغبة فى أن أنطلق لأحتفى معهم بالشهر الذى يسمح فيه الآباء لأبنائهم بأن يجوبوا بالفوانيس فى الليل فى حارات الحى . وقد كان عندى فانوس به شمعة كاملة لم تستعمل بعد ، ولكنى بت أرتجف من عفريت الشيخة صالحة ، وإن كنت قد سمعت أن العفاريت تسجن فى رمضان .

وجاء آخر أيام الشهر المبارك فوقفت العربة الكارو أمام بيتنا لتنقل الفرش إلى

القرافة ، فالأسرة كلها تمضى ليلة العيد مع الأموات وفاء منها للأعزة الذين خرجوا من الحياة . وأردت أن أذهب مع الذاهبين فأبت أمى لأن أبى لا يحب ذلك الذى يفعله أهله ، فبكيت فوعدتنى بأننا سنبيت فى القرافة أول أيام العيد .

وفى الفجر قام أبى يتوضأ فاستيقظت أنا وإخوتى لنأخذ العيدية . وفرحنا بما وضع فى أيدينا ، ثم لبسنا الملابس الجديدة وخرجنا إلى شارع الحسينية حيث كانت عربات الكارو تغدو وتروح ، وقد صفت فوقها نسوة وفتيات يقرع بعضهن الطبول ويغنين ، وترقص الصغيرات على الأنغام التى تهز الأعطاف ، وينبعث من عربات أخرى أصوات نسوة يرددن فى نبرات بها شجن :

يا عزيز عينى — وانا بدى اروح بلدى

بلدى يا بلدى — والسلطة خدت ولدى

وأقبلت عربة عليها رجال أشداء يزأرون فى وجه الإنجليز الذين كانوا يقطعون الشارع متسكعين ، أو الذين كانوا فى الحراسة وفى أيديهم بنادقهم ، ويقولون :

يا عزيز يا عزيز — كبة تاخد الانجليز

وكان جنود الحلفاء يسيرون بين الناس الذين خرجوا يحتفلون بالعيد ، فدنا أخى أحمد من جندى هندى ، وقال له :

ــ أنت مسلمان ؟

فقال الرجل واللحية السوداء التى تزين وجهه تتحرك ، لانفراج فمه بابتسامة مطمئنة :

ــ الحمد لله .

ودنا أخى سعيد من آخر وقال له :

ــ أنت مسلمان ؟

ــ الحمد لله .

وأعجبتنى اللعبة فدنوت من جندى ثالث وقلت له :

ــ أنت أم سليمان ؟

ــ الحمد لله .

وقال أحمد وسعيد فى فرح :

ــ دول مسلمين .

ولم أفهم العلاقة بين أم سليمان خالة أمى الموجودة الآن فى حوش القرافة ، وبين كون الجنود الهنود من المسلمين ، وكيف ربط أخواى بين أم سليمان والإسلام ؟ وهممت أن أسأل أخوى عن الفراسة التى جعلتهما يفطنان إلى أن الجنود الهنود من المسلمين ، ولكن لم أشأ أن أفصح عن جهلى فآثرت الصمت العميق .

وبلغنا القبو الذى يقود إلى الرحبة الواسعة أمام وابور الطحين وبوابة الزلاقة . كان الأراجوز وخيال الظل والمراجيح على يسار الداخل ، فالتفت إلى أخوى وقلت لهما :

ــ عايز اتفرج ع الأراجوز .

وكانت رغبتهما تطابق رغبتى ، فدفع كل منا قرش تعريفة ودخلنا نحتل الدكك الأولى . ولما امتلأ المكان بالصبية ذكورا وإناثا بدأ العرض ، فإذا بالأراجوز يدخل فى حوار مع زوجته ينتهى بضربها بالنبوت على رأسها ضربا يثير حماسنا فنهلل له فى إعجاب . ثم نشاهد المشهد الثانى وكان صلحا بين الأراجوز وامرأته ينتهى بأن يباشرها أمام أعيننا المفتوحة ، وكان ذلك المشهد أول مشهد جنسى فاضح أشاهده قبل أن أشاهد المناظر الجنسية المكشوفة فى مهرجان كان بأكثر من خمسين سنة !.

وركبنا المراجيح ، بدأنا بالصناديق وهى لعبة أشبه بالساقية ، ركبت أنا وسعيد فى صندوقين متجاورين ملتصقين ، وركب أحمد فى صندوق تحت صندوقنا . وراحت الصناديق تدور دورتها فكان قلبى ينخطف كلما بلغنا أعلى ما يصل إليه الصندوق ، وما يكاد يطمئن عندما نصل إلى الأرض حتى يعود ليغوص فى قدمى إذا ما ارتفعنا مرة أخرى إلى القمة . إن الارتفاع صعب ، وما أيسر الهبوط .

وانتهينا من ركوب كل أنواع المراجيح فاشتريت زمارة بها مثانة على شكل باذنجانة ، ورحت أنفخها ثم أكف عن النفخ فينبعث من الزمارة صوت يجرح الأذن ، ولكننى كنت سعيدا به فالأطفال يسعدون بتحطيم الأطباق واللعب والرءوس .

وذهبنا إلى باب الزلاقة الحديدى فإذا به مفتوح على مصراعيه ، فدلفنا منه وأنا سعيد ، فهذه أول مرة أمر فيها من البوابة دون أن يدفع أحد ثمن المرور . وسرنا بين

المقابر حتى بلغنا حوش القرافة فإذا به غاص بالرجال والنساء ، الرجال فى الغرفة الخارجية والنساء فى الغرفة الداخلية ، وصوانى الطعام تنتقل من غرفة النساء إلى غرفة الرجال فى أسطوانة من الخشب تدور على محور بين الغرفتين .

وراح أولاد الأسرة يلعبون خارج الحوش ، وخطر لأحدنا فكرة أن ندور على الأحواش نسأل من فيها أن يعطونا مما معهم من خيرات ، فذهبنا إلى الأحواش القريبة ووقفنا ببابها نقول :

ــ بالرحمة .. بالرحمة يا ست .

وجمعنا فى حجورنا البلح وأقراص الفطير والبرتقال ، وخفت أن أعود بما أحمل إلى حيث كانت أمى ، فلو رأتنى على ما كنت عليه فلن أنجو من أذاها فهى تضربنى على أية هفوة تصدر منى ، فأعطيت كل ما معى إلى مقرئ كان يتجول بين المقابر ، وقد كنت حقا سعيدا بما حصلت عليه من التسول .

وعدنا إلى حوش القرافة مع الظهر . كان معظم الرجال قد انصرفوا و لم يبق إلا النسوة اللاتى كن يتأهبن لإعداد طعام الغداء ، فوضعت طواجن السمك البكالاة والكبيبة المصرى والجبن والزيتون على أسطح الغرف التى يرقد فيها أعزاؤنا الأموات ، وتحلقنا الطعام الشهى وبدأنا فى التهام ما أمامنا وقد نسينا الراقدين تحت التراب ، فقد شغل كل منا بملء بطنه .

وكانت قدم الخير بين النسوة ، جاءت من شبرا لتشاركنا أحزاننا . فلما جاء العصر أظهرت رغبتها فى الانصراف فقامت أمى تصر لها أقراص الفطير والبلح وما بقى من السمك ، فدنت قدم الخير من أمى فى ذلة وقالت فى صوت هامس :

ــ أنا تعبت ، إن كنتم ترضوا انى أرجع تانى أرجع .

فقالت لها أمى فى بساطة :

ــ يا ريت ! بس أودتك مش فاضية .. حطينا فيها قمح .

وانسلت قدم الخير تحمل الصرة فى يدها وأعباء السنين على ظهرها الذى تقوس ، وقد لاح فى وجهها الأسى كأنما كانت ترى المستقبل المظلم الذى كان ينتظر من كان مثلها بلا أهل ولا أصدقاء ولا مورد رزق يمسك الرمق .

٨

اشترى جدى منزلا بشارع جنينة الكوة بالظاهر ، فذهبت أنا وأخواى أحمد وسعيد لنشاهد البيت الجديد . وكان بيتا صغيرا تزينه شرفات من الخشب شبابيكها من الزجاج الملون ، وقد طلى من الخارج بأشرطة صفراء وحمراء فكان أشبه بمساجد ذلك الحين .

وكان أمام البيت فضاء واسع . إننا نرى من منزلنا جامع الظاهر بيبرس الذى تحول إلى مذبح للإنجليز . أين هذا البيت من بيتنا الذى فى الحارة التى كانت أشبه بثعبان يصل بين الصوابى وشارع الحسينية العتيد ؟.

ورحت أسأل فى ابتهاج متى ننتقل إلى هذا البيت ، فقيل لى إن جدتى زهرة تعارض فى انتقالنا لأنها لا تريد أن تبتعد عن القرافة ، فقلبها لا يطاوعها على أن تسكن بعيدا عن الأحبة الراقدين فى القبور .

كانت جدتى قد دفنت عمى عبد الغنى ومن بعده بقليل عمى قاسم هناك فى مدافن الأسرة التى لا يفصل بيننا وبينها إلا شارع الحسينية وبوابة الزلاقة التى يمكن أن تفتح بمليمين اثنين ، فكيف يطلب منها أن تبتعد عنى فلذتى كبدها أكثر من هذا ؟

وظلت جدتى فى معارضتها فى أن ننتقل إلى البيت الجديد ، ولكن عمى حنفى كان يريد أن يتزوج وليس له شقة فى بيتنا القديم ، ولما كان الحى أفضل من الميت فقد قبلت جدتى أن ننتقل إلى شارع جنينة الكوة ليتزوج عمى ونبدأ حياتنا الجديدة فى البيت الجديد .

ووافى ميعاد ترك الحارة فذهبت لأودع أم عباس الصباحية فشعرت بأسى ولوعة . كان ذلك أول وداع فى حياتى لأناس أحبهم ، فلن أذهب مع عباس كل صباح أجوس خلال الحى بحثا عن الوفيات ، ولن أجلس مع أم عباس على حصيرتها أمام بيتها لأنعم بالشمس فى الشتاء وبالنسيم الرطب فى الصيف ، ولن أدخل إلى قاعتها لأطعم

الكتاكيت . إنه وداع قاس ثقيل على قلبى ، وما كان يخفف من لوعة الفراق إلا الأمل فى أن أجد حياة أفضل فى حينا الجديد .

وبكت جدتى زهرة أم عبد الغنى بكاء مرا ، فقد كتب عليها أن تفارق الحى الذى شهدت فيه أحلى أيام حياتها وأمرها ؛ إنه أصبح قطعة منها . وشهقت شهقة كأنما تستنشق عبير الماضى بأفراحه وأتراحه ، شهقة احتوت ذكريات سنين طويلة .
وانطلقت جدتى وأمى إلى دار عمتى المواجه لدارنا لتوديع من فيه ، فكان بكاء ونحيب كأنما كنا سننتقل إلى الدار الآخرة .

ووقفت أم عباس تودعنا ، وجاء عباس وفى يده المرآة والملقط وراح يقول فى كلمات طرية ممدودة :

ـــ والله الحارة ح تضلم من بعديكو .. دانتو جيران الهنا ، مش ح تتعوضوا أبدا .

وخرجنا من الحارة فى اتجاه عكس الاتجاه الذى تخرج منه خشبات أمواتنا ، فما كنا منطلقين إلى المقابر بل كنا ذاهبين إلى حى جديد ، إلى حياة جديدة .

حياة جديدة ؟! أية حياة جديدة وجدتى ترتدى السواد وأمى متشحة بالسواد ، وقلوب أهل البيت تهفو إلى الأحزان كأنما الحياة مقبرة كبيرة تقود إلى مقبرة صغيرة خلف بوابة الزلاقة .

ولم أكن قد بلغت السادسة من عمرى بعد ولكننى تعلمت أن الجسد ليس إلا ثوبا خلقا إذا ما غادرته الروح ، وأن الروح إذا ما غادرت الجسد تذهب إلى السماء لتخلد مع الأرواح عند خالقها ، وأن الروح تهيم فى الفضاء ، وأنها تعرف ما سيحدث للأحبة قبل أن تقع الأحداث للأحباب ، وأنها تزور من تحب ، فكنت أعتقد أن الفراشات التى تدخل بيتنا وقد يممت نحو مصابيح الجاز إن هى إلا أرواح الأعزة الذين غادرونا إلى العالم الآخر جاءت إلينا لتطفئ نار الشوق إلى الأحباب ، فكنت لا أعترض سبيلها ولا أحاول أن أمسك بها وإن فتنتنى ألوانها !

وانتقلنا إلى الطبقة الرابعة فى منزلنا الجديد . إنها آخر طبقة ، ولم تكن الشقة واسعة ولكن بدت لأعيننا أنها فسيحة ، وقد سررنا بشرفاتها وبلكوناتها التى تطل على أسطح الجيران . أين هذا المنظر الرائع من الحارة الضيقة التى كنا فيها . إننا هنا نرى المزارع

التى ترتطم بها أعيننا ، ولا نشم إلا رائحة نفاية السمك التى تلقى فى الطريق .

وانتقلت من المدارس الخاصة التى كنت أذهب إليها لأبتعد عن البيت إلى مدرسة سليمان جاويش الأولية بالدشطونى ، وكان على بعد خطوات منها صحة باب الشعرية ، فكنت أسمع أحيانا وأنا فى الفصل صوت بعض النسوة اللاتى جئن إلى الصحة خلف مريض أو جريح وهن يولولن ، فكنت أتذكر أم عباس الندابة وأسرح خلف ذكريات أيامها فكنت لا أسمع من الدرس شيئا . وإذا ما فطن المدرس إلى شرودى يسألنى عما كان يشرح فأقف صامتا كالبغل ، فينهال علىّ ضربا بخيزرانة فى يده ولا يكف عن ضربى إلا عندما يرتفع صوتى بالبكاء .

وكان مدرس الدين يحاول أن يحفظنا السور الطوال عن ظهر قلب ، وكان يطلب من كل واحد منا أن يسمع ما حفظ ، فكنت أعتمد فى الحفظ على ما أسمع من زملائى فى الفصل . وكانت حافظتى تخوننى دائما إذا ما نهضت للتسميع ، فكان يطلب منى أن أترك مقعدى وأقف عند الحائط انتظارا لإخوانى الخائبين الذين لم يحفظوا السور ، فإذا ما انتهى من فرز الذين لا يحفظون انهال عليهم ضربا بالمؤشر الذى فى يده ، وقد كسر المؤشر ذات يوم وهو يضربنى فطلب منى أن أدفع ثمنه !

وسألنى ذات يوم لما يئس منى :

ـــ عندك مصحف ؟.

ـــ لأ ..

ـــ أمال ح تحفظ إزاى ؟ م الهوا ؟

وحسبت أن مفتاح مشكلتى فى اقتناء المصحف ، فسألت من أين أشترى مصحفا ؟ فقيل لى من الفجالة ؟.

وذهبت لأول مرة فى حياتى إلى مكتبات الفجالة واشتريت مصحفا وأنا أكاد أطير من الفرح ، ولكن ما إن فتحته حتى غاض سرورى ودق قلبى خوفا ، فما عرفت كيف أقرأ فيه . وحاولت أن أحفظ السورة المقررة علينا فلم أنجح ، وعدت إلى مدرس الدين ليضربنى كل حصة بالمؤشر الذى اشتراه بنقودى التى حصلت عليها من أبى بدموعى .

وفى الإجازة الصيفية جاء إلىّ أبى ليزف إلىّ بشرى ترك مدرسة سليمان جاويش والالتحاق بمدرسة الجمالية الابتدائية مع أخوى أحمد وسعيد ، فهزنى الفرح لأننى سأتخلص أخيرا من ضرب مدرس الدين الذى كان مقررا علىّ فى كل حصة دين ، ولكن أخوى أحمد وسعيد جاءا إلىّ يخوفانى حافظ أفندى مدرس اللغة الإنجليزية . إنه جبار يضع القلم الرصاص بين الأصابع ثم يضرب بسن المسطرة الأصابع التى يتخللها القلم ، فيكون الضرب أوجع يطيش بالعقول .

ولم أخف فى أول الأمر ، فهل تختلف اللغة الإنجليزية عن اللغة العربية إلا فى الحروف ؟ كان فى وهمى أن حمارا باللغة الإنجليزية هو هُمار ، والفرق أنه يكتب بحروف لاتينية من الشمال إلى اليمين ، فما كنت أتصور أن هناك أكثر من لغة واحدة لبنى البشر . الناس جميعا يتكلمون لغة واحدة وأنهم يختلفون فى الكتابة ، فاللغة العربية تكتب من اليمين إلى الشمال بأحرف عربية ، أما اللغات الأخرى فهى نفس اللغة العربية إلا أنها تكتب بأحرف أجنبية من الشمال إلى اليمين !

وذهبت إلى مدرسة الجمالية مشيا على الأقدام فما كانت هناك مواصلات تربط بين حى الظاهر وحى الجمالية ، وأقبلت على المدرسة منشرح الصدر ، وما انقضى أول يوم حتى فتر حماسى . جاء حافظ أفندى فى كارتة وصعد فى الدرجات التى تقود إلى فناء المدرسة قفزا ، وما إن رآه التلاميذ حتى لزموا الصمت حتى دخل حجرة المدرسين . كان قصيرا فى وجهه صرامة ، وقد قيل إنه يأتى إلى المدرسة وهو سكران ، ولكنى لم أتأكد من ذلك طوال حياتى ، فكيف أستطيع أن أشم فم عزرائيل ؟!

دخل حافظ أفندى فصلنا وراح يلقننا مبادئ الإنجليزية ، فعرفت أن الإنجليزية لغة أخرى غير العربية ولا صلة بين اللغتين ، فحمار ليست همارا بالإنجليزية بل (Donky) ، فما أكثر ما قالها لنا طوال الحصة . وضربنا حافظ أفندى فى أول الحصة ، ثم راح فى سبات عميق . وضربنا مدرس الحساب ، وضربنا مدرس العربى ، لكأنما قد جئنا إلى المدرسة لنتلقى اللطمات والصفعات والشلاليت .

وكرهت المدرسة ولكن أين المفر ؟ وقيل لى إن أردت أن تتحاشى الضرب فعليك أن تذاكر دروسك . كانت نصيحة خالصة من أبى وأمى وإخوتى ولكنى لم أفعل فقد

وقر فى ذهنى أن نهاية هذه الحياة الموت ، فالموت لا مفر منه ، فلماذا أجهد نفسى إذا كنت قد ولدت لأموت ؟ الحياة عبث ، كل ما فيها عبث . وقد استولت علىّ هذه الفكرة فى تلك الأيام لطول عشرتى لأم عباس الندابة ولكثرة من ماتوا من أسرتى ، ولأن مدرستى كانت فى الطريق بين مسجد الحسين ومقابر باب النصر ، فما كان يمر يوم دون أن أرى الجنازات ومن كانوا فى المدارس مثلى محمولين على الأعناق .

كنت أدخل فراشى فى الليل وأنا على يقين أن النهار لن يطلع إلا وأنا ميت ، فإذا ما فتحت عينى فى الصباح ورأيت النور كنت أستشعر خيبة أمل ويتملكنى حزن لأننى لم أمت و لم استرح من عبث الحياة ، فالكل باطل لا يستحق ما نبذله من جهد ، فلماذا أجهد نفسى إذا كنت سأموت .

كنت أستعجل الموت لأستريح من حافظ أفندى ومدرس الحساب ومدرس اللغة العربية ومدرس الرسم ، ولأصبح فراشة طليقة تأتى لزيارة الأحبة وهى تعلم ما لا يعلمون . كنت أشتهى أن أفر من سجن جسدى الذى يتلقى الضربات طوال النهار وطرفا من الليل إذا لم يعجب تصرف من تصرفاتى أمى التى كانت متحفزة على الدوام لضربى ، ولكن الموت أشاح بوجهه عنى وتركنى فريسة لقسوة المدرسين وجهل المربين وآلام استذكار الدروس . حتى الموت كان يضطهدنى ، فقد أبى على أن أتحول إلى روح رفافة هفهافة وأن أترك جلدى ولحمى للتراب ، كما تخرج الفراشة من شرنقة دودة القز تاركة الشرنقة لعبث العابثين .

٩

كنت لا أفقه من أمر السياسة شيئا ، ولكنى كنت إذا ما لعبت مع الأطفال ممن كانوا فى مثل سنى أغنى معهم :

ـــ الله حى ، عباس جى ، يضرب بمبه وهو جاى .

وما كنت أدرى من هو عباس هذا الذى سيجىء ، ولكنى سمعت بعد ذلك من أبى أن الخديوى عباس حلمى سافر إلى تركيا وفى أثناء وجوده هناك قامت الحرب بين ألمانيا

وتركيا من جهة وبين الإنجليز وحلفائهم من جهة أخرى ، وأن الإنجليز قد عزلوا عباس الثانى وفرضوا الحماية على مصر وعينوا السلطان حسين كامل .

كان أبى ولا ريب يتمنى انتصار تركيا ، فقد كانت صور سلاطين آل عثمان تزين بيتنا : السلطان عبد المجيد والسلطان عبد الحميد والسلطان رشاد . كان أبى متشيعا ولا ريب للخلافة ، فهو رجل متدين يسوؤه أن تنقضى السيادة التركية على مصر لتحل مكانها حماية الكفار .

والظاهر أن ذلك لم يكن رأى أبى وحده ، فقد كان الكبار يشاركوننا فى دعائنا إذا ما هتفنا أثناء لعبنا :

— الله حى ، عباس جى ، يضرب بمبه وهو جاى .

ومات السلطان حسين كامل قبل أن تنتهى الحرب العالمية الأولى ، فلا أذكر إلا أنها كانت فرصة طيبة لنا لنأخذ إجازة من مدارسنا ، فما كنا نعرف النفاق فى تلك السن المبكرة ، فما تظاهرنا بالحزن عل موت السلطان ولا تباكينا ، بل صحنا فى فرح :

— بكرة أجازة .. بكرة أجازة .. الله يخلى السلطان !

وتمنينا من قلوبنا الصغيرة لو يموت كل يوم سلطان لنفر من قسوة أساتذتنا الذين كانوا يتفننون فى ضربنا ، كأنما كانت لذتهم الكبرى أن يرونا ونحن نتلوى من الألم والدموع تطفر من مآقينا . وعرفت أن موت العظماء واحات فى صحراء حياتنا نتفيأ ظلالها من وهج المساطر والمؤشرات والخيزرانات التى تنهال على أجسادنا التى كاد يعصف بها القلق .

وسرعان ما عطلت المدارس يوما آخر لأن السلطان فؤاد اعتلى عرش مصر ، وكان سرورنا عظيما بالإجازة وبتنا ننتظر يوم موته لنحصل على إجازة أخرى ، فالإجازات كانت أقصى أمانينا لنبتعد عن شبح المدارس الرهيب .

كنت أمقت المدارس فى أول عهدى بالتعليم ، وكنت أتمنى الموت كل يوم ، فما كنت أدرى أكان طلب الموت لأننى لا أذاكر ، أم كان هو السبب فى عدم إقبالى على استذكار دروسى ؛ فما فائدة التعب إذا كان الفناء نهاية كل كد فى الحياة !

وقامت فى طول البلاد وعرضها ثورة ١٩١٩ تطالب باستقلال مصر . كانت

إنجلترا قد خرجت من الحرب منتصرة فكان عزيزا عليها أن ينهض شعب صغير أعزل ويلقى فى وجهها قفاز التحدى ، فراح عساكر الإنجليز يجوسون خلال البلاد يحاولون بالبطش إخماد أنفاس المطالبين بحقهم الشرعى . وقام الشعب يحفر الخنادق فى الطرقات ليمنع عربات الإنجليز من الانطلاق فى حرية فى شوارع القاهرة لقمع المظاهرات التى انتشرت فى كل مكان .

ووقفت أشاهد الخندق الكبير الذى قام الرجال بحفره عند باب الفتوح وأنا أستشعر زهوا وسعادة بالحماسة التى ملأت صدرى الصغير ، فأنا أشارك إخوانى بكل الإحساسات الطيبة التى شاعت فى وجدانى .

وفى أثناء عودتى إلى البيت رأيت الرجال يسدون الطريق بالحجارة ، فأسرعت أحمل ما أستطيع حمله من حجارة وأساهم مع الرجال فى إقامة سد فى الطريق الذى يفضى إلى مذبح الإنجليز .

وسمعت أن الثائرين يقلبون الترام فى ميدان الظاهر فأسرعت مع أخوى وأطفال الحى إلى الميدان لنشاهد الترام وقد رقد على جنبه فى صفوف ، وقد كنا سعداء بما نفعل ونرى ، وما كان يكدر هذه السعادة إلا الإنجليز الذين كانوا يدخلون مسجد الظاهر على ظهور جيادهم ، فقد أحالوه إلى مذبح تذبح فيه الخنازير . وقد أظهرنا استياءنا بأقوال مزمجرة ، وزاد فى غضبنا أن أحدنا قال إنهم لم يكتفوا بتدنيس حرمة جامع الظاهر ، بل إنهم دخلوا بأحذيتهم الأزهر الشريف .

الأزهر الشريف ؟! يا للذكريات العزيزة التى يزخر بها رأسى ، إننى كنت كل يوم أجوس خلال أروقته فى أثناء فسحة الغداء الطويلة ، فالمسافة بين مدرستنا والأزهر قصيرة ، فكنت أمضى وقت الفسحة فى الأزهر وأشاهد المجاورين وأتمنى لو أجاور يوما مثلهم .

وسمعت أن مدافع الإنجليز قد نصبت عند الأزهر وأن الرصاص قد أطلق على بعض المتظاهرين ، وأن شهداء قد سقطوا صرعى ذلك الرصاص الغادر ، فاستشعرت خوفا أنا الذى كنت أتمنى الموت فى كل لحظة ، ولم أستشعر بأية رغبة فى أن أكون شهيدا وإن لقنت من البيت أن أبواب الجنة تفتح للشهداء .

ما هذا الخوف الذى سرى فى وجدانى ؟ أهو خوف من الموت وإن كان فيه راحة من متاعبنا وقسوة مدرسينا ، أو خوف من المجهول الذى سنقدم عليه ، أو غريزة فينا ؟

وأصبحت أنطلق إلى الأزهر مع أخوى أحمد وسعيد وأنا أضطرب خشية أن يحصدنا رصاص الإنجليز كما حصد إخوانا لنا من قبل .

وهاج الناس وماجوا ، وجاء أبى ذات ليلة يحمل سكينا كبيرة . إنها سلاحنا الوحيد الذى سندافع به عن أنفسنا إذا ما فكر أحد من الإنجليز أو من المشاغبين أن يقتحم علينا دارنا . وذهبنا إلى العلم الأحمر ذى الهلال الأبيض والنجمة البيضاء ، علم الدولة العثمانية وبسطناه ثم عدنا وطويناه ، ننتظر اللحظة التى تنتصر فيها الثورة لنرفع ذلك العلم على شرفة دارنا ، فقد كان معنى الاستقلال فى مفهوم أهل دارنا عودة إلى الخلافة وإلى سيادة الخليفة .

وكان أبى من أنصار الخلافة وإن كان يريدها خلافة رشيدة كخلافة عمر بن الخطاب . إنه يرى أن الدعوات التى كان يفتريها الاستعمار ، كشعارات مصر للمصريين وسوريا للسوريين وفلسطين للفلسطينيين والحجاز للحجازيين إن هى إلا دعوات يراد بها تفتيت وحدة الأمة العربية ، وإن ألبسوها ثياب الوطنية .

الخلافة ضعيفة ، هذا حق ، فليبحث عن خلافة قوية تضمن وحدة الأمة العربية والوحدة الإسلامية من المحيط إلى المحيط . وكان أبى وأصدقاؤه على جانب يسير من العلم ولكنهم كانوا يمتازون بفطرة سليمة لم يفسدها التفرنج وترديد الشعارات التى يلقنها الغرب للزعماء المتفرنجين ، فيرددونها دون تعمق أو فحص كالببغاوات .

وأخذ أخى أحمد السكين الكبيرة وراح يطوح بها فى الهواء كما يفعل رعاة البقر فى السينما ، ويقص علينا فى مبالغة الأطفال كيف أنه سيطيح بها رءوس كل من تسول لهم أنفسهم اقتحام حرمة دارنا . وذهب سعيد إليه وأخذ منه السكين وراح يقلد آرت أكورد بطلنا الأمريكى المحبوب فى ذلك الوقت . ولم أشأ أن أقف مكتوف اليدين دون مساهمة فى المعركة الوهمية التى نخوضها فذهبت إلى حيث كانت الهراوات مخفية وأحضرت هراوة أطول منى وأخذت أضرب بها أعداء أتصور أنهم اقتحموا دارنا

وارتفعت أصواتنا وكل منا يحاول أن يستولى على السلاح الذى يلعب به أخوه . وفجأة أقبلت أمنا تصرخ فينا أن نكف عن الصياح ، فساد المكان صمت أشبه بذلك الصمت الذى يعقب المعارك الطاحنة .

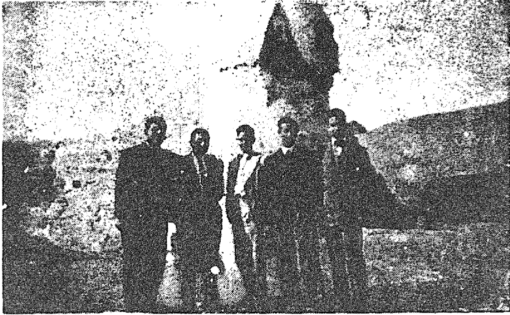
١٠

كانت الأحاديث فى كل مكان تدور حول سعد زغلول باشا وعن الوفد المصرى الذى يزمع أن يسافر إلى باريس وأن يطرح القضية المصرية — قضية الاستقلال وإنهاء الحماية البريطانية على مصر — على مؤتمر السلام ، وأن يطالب بتطبيق حق تقرير المصير على مصر والسودان . وفاضت الأحاديث عن رشدى باشا وعدلى باشا يكن ، وتشعبت إلى الحديث عن الحزب الوطنى ومصطفى كامل باشا ومحمد بك فريد . وسألت أخوى عمن يكون مصطفى كامل باشا فقالا لى : إن تمثالا له موجود فى مدرسته القريبة من مدرستنا . فألحفت أن أرى التمثال ، فانطلقنا من مدرستنا بشارع الجمالية ، ثم عرجنا إلى شارع الدرب الأصفر وهو شارع ضيق مبلط ببلاطات صغيرة بارزة ، وسرنا فيه حتى صبينا فى شارع النحاسين ، وما سرنا فيه خطوات فى اتجاه باب الفتوح حتى وجدنا عن يسارنا قبوا فخما ما إن دخلنا منه حتى كان فى مواجهتنا مدرسة أوده باشا ، إنها مدرسة متواضعة ، كان بابها من الصاج الذى يستعمل لفتح الحوانيت الحديثة وإغلاقها ، وكانت إلى جوار تلك المدرسة مدرسة مصطفى كامل باشا .

ودخلنا إلى المدرسة فوجدنا فى بهوها تمثال الزعيم الراحل . وراح أخواى يقصان على ما سمعاه عن مصطفى كامل باشا ومحمد فريد وعن الحزب الوطنى ، وكنت مشغولا عن حديثهما بالتمثال الملقى فى زوايا النسيان ، وسألت فى سذاجة الأطفال :

— ولماذا لا يوضع التمثال فى ميدان من ميادين القاهرة ؟

ولم يحر أخواى جوابا فما كانا يعرفان فى ذلك الوقت أن زعماء كل جيل يحقدون على زعماء الجيل الذى سبقهم ويحاولون طمس أمجادهم خوفا من أن تبهر



أمجاد الآباء أمجاد الأبناء ! أنانية تضر الآباء والأبناء والشعوب الحائرة بين الحقائق والافتراءات وتزوير تاريخ البلاد . ما الذى يضر زعيما إذا كان زعيم غيره قد خدم بلاده بكل ما فى ظروف عصره ؟ أينقص ذلك من عظمة الزعيم أو القائد الذى جاء بعده ؟ إن تاريخ كل أمة سلسلة من تاريخ عظمائها ، ومتانة السلسلة تقاس بأضعف حلقاتها . إننا بمحاولة التشكيك فى وطنية زعيم أو قائد إنما نشكك فى صلابة تاريخنا . آه لو برىء زعماؤنا من الاتجار بالشعارات ومن تشويه وجه كل من سبقوهم لأصبحنا أمة ، وما تتكون الأمم إلا بأمجاد بنيها .

لم تكن كرة القدم قد انتشرت فى ذلك الوقت فلم يكن التعصب لأندية بعينها ، بل كان التعصب لأحزاب وزعماء ، وإن لم تكن هناك خلافات جذرية فى المبادىء وآراء الزعماء . كان الجميع يريدون الاستقلال لمصر والسودان وكان عدوهم واحدا : الاستعمار ، فكانوا جميعا صادقين فى التخلص من ذلك الكابوس ، وإن اختلفت الوسائل فما اختلفت الغايات .

كانت المظاهرات مستمرة ، وفى ذات يوم خرج الأزهر فى مظاهرة ضخمة تهتف : الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، واقتحمت المظاهرة مدرستنا فخرجنا من

فصولنا نهتف فى حماسة : الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، وإن كنت لا أدرى ما هو الموت الزؤام . وانضمت مدرستنا بعد أن حملنا علمها إلى المظاهرة ، وإذا بصوت يهتف :

ـــ إلى المدرسة الإيرانية .

كانت الإيرانية قريبة منا ، إنها فى شارع الضبيبة . وأحسست نشوة فبدر ابن عمى بها . إنه أحسن تلميذ ينفخ فى النفير فى مدرسته ، وإنها لفرصة طيبة أن ينضم إلينا بدر فى مظاهرتنا . وانطلقت المظاهرة تهدر كالسيل الجارف ، الهتافات تشق عنان السماء ، والنوافذ تفتح على جانبى طريقنا ، والنسوة يطلقن الزغاريد من هنا وهناك . وهجمنا على المدرسة الإيرانية وأسرعت إلى الفصل الذى فيه بدر وطلبت من ابن عمى أن ينفخ فى نفيره لتخرج مدرسته على صوت النفير كما نرى فى أفلام السينما . ولكن بدرا أحجم خوفا بعد أن هم بأن يقف على تختته وأخرج النفير لينفخ فيه .

وخرجت المظاهرة إلى شارع الضبيبة تهتف بسقوط الاستعمار وبالاستقلال التام أو الموت الزؤام ، وانسابت كتل بشرية تسد الطريق ، وإذا بلورى يحمل عساكر بلوك الخفر يعترض المظاهرة فارتفعت أصوات تهتف :

ـــ الثبات .. الثبات .

وهبط عساكر بلوك الخفر وفى أيديهم الهراوات وانهالوا بها على المتظاهرين ، وبدأت المظاهرة تتفرق وأصوات تردد :

ـــ الثبات .. الثبات .

وأصيب بعض الطلبة وسالت بعض الدماء ، وسرعان ما أطلق المتظاهرون سيقانهم للريح فى كل اتجاه ، وتسمرت فى مكانى من الخوف وإذا بعسكرى يحملنى إلى اللورى . وتلفت فوجدت أنى الأسير الوحيد فبكيت وارتفع صوتى بالنشيج ، فإذا بعسكرى يلطمنى لطمة قوية ثم ينزلنى من اللورى وهو يقول لى :

ـــ على امك ، ما تمشيش فى مظاهرة تانى .

كانت لطمة آلمتنى ولكن فى اليوم التالى خرجت فى مظاهرة كانت منطلقة إلى مدرسة باب الشعرية ، كان فى هذه المدرسة أصدقاء طفولتى : فريدون وأخوه عباس

زين العابدين ، فكنت متحمسا لأن تشارك مدرستهما فى المظاهرة ، فسرنا فى شارع أمير الجيوش حتى إذا بلغنا مدرسة باب الشعرية كسرنا بابها المغلق وانتشرنا كالجراد فى كل فصولها .

واقتحمت الفصل الذى كان فيه عباس فألفيته منهمكا فى الإجابة عن أسئلة امتحان آخر السنة ، فقد كان اليوم يوم امتحان ، فخطفت منه ورقة الامتحان ومزقتها وإذا به يقول فى فزع :

— ورقة الامتحان .. ورقة الامتحان .

— ما فيش امتحانات . يا للا معانا .

وأسرع بعض التلاميذ بتمزيق أوراق امتحانهم ، وخرجت المدرسة معنا وانضمت إلى المظاهرة الضخمة التى انطلقت فى حى باب الشعرية تهتف بسقوط الاستعمار وبالاستقلال التام وبحياة زعيم الأمة سعد زغلول .

وعدنا إلى منازلنا وسمعنا أن البوليس المصرى يضرب تلاميذ المدرسة الإعدادية ، وكانت المدرسة عند بداية شارع العباسية أمام مذبح الإنجليز ، فانطلقنا إلى هناك فسمعنا أن حيدر وشاهين كانا يربطان التلاميذ من شعورهم ثم يشدانهم إلى ذيل الحصان ثم ينطلقان بجواديهما فى الطريق يسحبان التلاميذ خلفهما ، وفى اليوم التالى كانت القاهرة كلها تردد :

— وشاهين ما مات ، خلف بنات ، خلفهم تسعة ، قاعدين ع القصعة ، ودى جاتهم لسعة .

١١

ساد بيتنا وجوم ، فعمتى زينب تتلوى من الألم فى بيتها . وانعقد مجلس الأسرة من جدى وأبى وعمى وجدتى وراحوا يتشاورون فى الأمر ، فوجدوا أن خير ما يفعلون أن يحملوها إلى بيتنا .

وحملت عمتى إلى دارنا وهى تصرخ من الألم ، وجدتى لا تملك إلا أن تذرف

دموعها ، و لم يفكر أحد فى استدعاء طبيب فما كان الطبيب يدخل دارنا إلا لكتابة شهادة الوفاة .

وكانت جدتى زهرة قد دفنت من قبل عمى عبد الغنى وعمى قاسم وذاقت لوعة الثكل ، وإنها لترتجف من أن تفقد زينب ، ولكنها لم تفعل أكثر من البكاء . وقال قائل :

ــ هاتوا لها دكتور .

وارتسم الفزع على وجوه الجميع ، فما كان المغص يستدعى استدعاء طبيب ، لقد سقوها كل ما جاء فى تذكرة داود وكل ما أشار به العطارون ومدعو الطب ، وما أكثرهم بين أصدقاء التجار .

وازداد ألم عمتى وكانت لا تحتمل ألما ، فرن صوتها فى البيت فانخلعت القلوب ، وأصبح جدى بين أمرين أن يدع ابنته تموت أو يستدعى الطبيب . فاختار أن يطلب طبيبا وإن كان فى قرارة نفسه يؤمن أن طريق الأطباء لا يقود إلا إلى القبر .

وجاء الطبيب وفى يده حقيبة ، فراح النسوة يتطلعن إليه من خلف الأبواب ، وانطلق الطبيب إلى حيث ترقد عمتى فساد المكان سكون قلق ، كان الجميع يرقبون فى خوف قراره الخطير .

ووقف جدى وأبى وعمى خارج غرفة المريضة ، وأبت جدتى أن تدخل مع الطبيب ، وكانت أمى أكثر الموجودات شجاعة فقبلت أن تقف مع الطبيب فى أثناء فحصه عن عمتى كأنما قد قبلت أن تقوم بعمل فدائى .

وراح الطبيب يجس بأصابعه موضع الألم فازداد صراخ عمتى ، فقال الطبيب :

ــ مصران أعور حاد ، لازم تروح المستشفى حالا .

وانتقل الخبر فى أرجاء شقة جدى كالبرق ، فلما سمعت جدتى أن ابنتها لا بد أن تنقل إلى الاسبتالية سقطت مغشيا عليها ، فرشوا على وجهها الماء وقربوا من أنفها بصلة وراحوا يربتون على خديها .

وراح جدى يتوسل إلى الطبيب أن يعالج ابنته فى البيت ، فأخذ الطبيب يحاول أن يقنعه أن أجراء عملية مثل هذه لا يمكن اجراؤها فى البيت ، إنها تستدعى فتح البطن ،

وراح كل من فى البيت يردد فى خوف :

ـــ فتح بطن ! فتح بطن ! ومين يعيش بعد ما يفتحوا بطنه ؟!

وأصر الطبيب على أن يحملها فورا إلى المستشفى ، فالمصران على وشك الانفجار ، فإذا لم تجر العملية فورا فهو غير مسئول عن حياة المريضة .

وحملت عمتى إلى المستشفى القبطى بين نحيب كل من فى الدار . ولولا بقية من إيمان لشيعت عمتى بالصوات . وذهبت أمى معها إلى المستشفى لتكون إلى جوارها إذا ما ماتت أو قدّر لها أن تخرج من غرفة العمليات وهى على قيد الحياة . وسار جدى بين أبى وعمى حنفى وهو يسح الدموع ، وسارت جدتى خلفها وهى محمولة على أذرع كل من فى الدار ، فقد كانت عمتى سمينة ينوء بحملها رجلان . وظلت جدتى تولول حتى إذا ما غابت عن عينيها لم تحتمل قسوة الفراق فسقطت على الأرض غائبة عن الوجود .

و لم يغمض لأحد جفن تلك الليلة ، كان الحديث كله حول المصران الأعور ومن نجا بعد إجراء هذه العملية الخطيرة التى تستدعى شق البطن ! وكانت جدتى مرهفة الحس ، فما إن تسمع أية حركة على السلم حتى تهرول إلى باب الشقة وتفتحه ثم تنظر وتعود لتقول فى يأس :

ـــ دى القطة .

وبعد منتصف الليل جاء جدى وأبى وعمى من المستشفى وقالوا فى فرح :

ـــ الحمد لله ، العملية خلصت .

فصاحت جدتى فى لهفة :

ـــ طب أروح اشوفها .

فقال عمى حنفى دون وعى :

ـــ بس لسه ما فاقتش من البنج .

بنج ؟! إن جدتى لا تفهم مما يقال أمامها شيئا ، كل ما تدريه بحواسها أن ابنتها لا تزال فى خطر ، إنها تثق فى أبى فذهبت إليه وقالت :

ـــ ازيها دلوقت يا جودة ؟

كان أبى رقيق القلب يذرف الدموع لأوهى سبب يمس وترا فى فؤاده ، فقال لها وعبراته تترقرق فى عينيه :

ــ بخير . بخير والله .

وراحت جدتى ترقب الصباح ، وقبل أن تشرق الشمس كانت قد ارتدت حبرتها السوداء وراحت تحث جدى على أن يصحبها إلى الاسبتالية .

وطلبت من أبى أن أذهب معه لزيارة عمتى . كان حب الاستطلاع يدفعنى إلى التشبث بهذه الزيارة فما كنت قد رأيت مستشفى من قبل ، وكنت فى قرارة نفسى أشتهى أن أرى أمى فى موقفها البطولى وهى إلى جوار سرير عمتى ، فقد كنت معجبا بأمى وإن لم يمر على يوم دون أن أتلقى منها اللكمات والصفعات واللطمات وضرب المقشة والقبقاب .

وصعدت فى درج المستشفى وأنا أتلفت حتى لا يفوتنى شىء . كان منظر الممرضات الأجانب والراهبات فى ثيابهن البيضاء المنشاة يبهرنى وقد كن يسرن على أطراف أصابعهن حتى لا يحدث وقع أقدامهن صوتا يزعج المرضى ، فألفيت نفسى بلا شعور أخفف الوطأ لكأنما انتقلت إلىّ عدوى الهدوء . وسرت فى ممر طويل إلى جوار أبى نسترق الخطى ، فإذا بأمى تستقبلنا مستنيرة وتقول لأبى فى فرح :

ــ الحمد لله ، فاقت من البنج .

وتلقى أبى الخبر بسرور شديد ، ووسعنا الخطى ودخلنا إلى حيث كانت عمتى فألفينا جدى يكاد يرقص من الفرح . وقد عبر عن فرحه بأن مد يده فى عبه وأخرج محفظته وراح ينثر النقود على الممرضين والممرضات ، فإذا بالغرفة تمتلئ بأصحاب الثياب البيضاء فالمورد العذب كثير الزحام .

وتركت المستشفى فى رفقة أبى فإذا بالمظاهرات تسير فى شارع عباس تهتف بسقوط تصريح ٢٨ فبراير ، وما كدنا نبتعد عن المظاهرة حتى ألفيت بعض الصبية يهتفون :

ــ يا عيش خمسة بقرش .. يا عيش خمسة بقرش .

لم يكونوا يحملون خبزا فعجبت لهتافاتهم ، إنهم يسيرون فى شبه مظاهرة فسألت

أبى عما يفعلون فقال لى :

ـــ لما بنحب نضحك على الأولاد الصغيرين بنديهم جنيه شيكولاتة وبنقول لهم : خدوا جنيه . أهم الانجليز عملوا معانا كده ، ادونا استقلال فالصو وقالوا لنا اننا خلاص بقينا أحرار ، وعينوا السلطان فؤاد ملك على مصر عشان يوهمونا اننا خلاص بقينا مستقلين وبقى لنا ملك . اللعبة دى ما دخلتش على الناس الوطنيين . فيه ناس كل همهم انهم يقبضوا ، ما يهمهمش يقبضوا من مين . الحكومة جمعت الناس دول فى عابدين عشان يهتفوا للملك . الناس والوطنيين مش عاجبهم الحال ده ، عايزين يقولوا إن اللى بيهتفوا فى عابدين واخدين فلوس ، ما يقدروش يقولوا بصراحة ان اللى بيهتفوا فى عابدين « يعيش الملك » قبضوا ثمن هتافهم ، قاموا اجّمّعوا فى المظاهرات اللى شفتها وهتفوا « يا عيش خمسة بقرش » يعنى كل ما يهتفوا « يعيش الملك فؤاد » خمس مرات ياخذوا قرش .

ونظر أبى إلىّ فى حب و لم يهتم كثيرا بما إذا كنت قد فهمت ما يقصده أو لم أفهمه ، فإن كنت صغيرا فى ذلك الوقت لا أفهم فى السياسة شيئا فالأيام كفيلة بأن تفتح عينى على ما كان يقصده .

١٢

استيقظ بيتنا لاستقبال يوم حافل ؛ كان الجميع يغدون ويروحون فى فرح غامر ، وكانت جدتى أم عبد الغنى أكثر الموجودين بشرا ، فعمتى زينب ستخرج اليوم من المستشفى بعد أن نجحت عملية المصران الأعور ، وكانت فى ذلك الوقت من أخطر العمليات التى يجريها الأطباء المصريون .

كانت عمتى أول عضو فى أسرتنا تعرف طريقها إلى المستشفى ، فكان يوم خروجها من بيتنا إلى المستشفى القبطى أقسى من يوم أن خرج أعمامى فى نعوشهم إلى مقرهم الأخير ، فالموت ولا انتظاره . كادت روح جدتى أن تفر من جسدها جزعا على عمتى التى حملت بين الموت والحياة ، أما اليوم فجدتى كانت فى بهجة العروس التى

تتأهب لليلة الزفاف ، فقد كانت تعتقد فى قرارة نفسها أن داخل المستشفى مفقود والخارج منه مولود ، وأن عمتى بخروجها من المستشفى قد كتب لها عمر جديد .

وأرادت جدتى أن تعبر عن شكرها لله تعبيرا عمليا ، فراحت تعطى فقراء الأسرة ما تملك من نقود وتوزع عليهم ما فى صوانها من ملابس ، والحق أن جدتى لا تبخل بمالها ولا بملابسها ، ولكنها فى ذلك اليوم كانت أكثر سماحة وجودا .

وهتف من فى الدار فى فرح بأن عمتى قد وصلت وأنها تهبط من التاكسى وتسير متكئة على جدى وأبى ، فإذا بجدتى تلتمس منهم أن يصمتوا وأن يلتمسوا الهدوء حتى لا تصل أصواتهم إلى الجيران ، فقد كان الخوف من المجهول يلفها ، فإن كانت ابنتها قد نجت من مشرط الطبيب فهى تخشى عليها أن تصاب بعين توردها موارد الهلاك .

وهبطت جدتى فى الدرج لاستقبال عمتى فى فرح ، ولم تملك إحدى قريباتنا زمام نفسها فانطلقت زغرودة تدوى فى البيت ، فعلا الوجوه وجوم فأسرتنا تحسن استقبال الموت ولا تحسن استقبال الأفراح ، فإننا فى المناسبات السعيدة نجلب الأحزان بتذكر الذين ماتوا ونذرف عليهم الدموع ، لكأنما طبائعنا قد كونت من الشجن .

وأسرعت أمى صاعدة خلف عمتى فما غادرتها يوما مذ دخلت المستشفى ، وقد كانت فرحتى غامرة بعودة أمى ، كانت أول مرة تغيب فيها عنا وقد أحسسنا لغيابها وحشة ، وإن استرحت فى المدة التى مكثت فيها فى المستشفى مع عمتى مما كانت تخصنى به من ضرب كل يوم لشقاوتى وعفرتتى .

وانشغل من فى البيت عنا ، فهبطت أنا وأخى أحمد وأخى سعيد لنلعب الكرة فى حارة ضيقة يطل عليها بيتنا ، لم يكن للحارة اسم فأطلقنا عليها اسم حارة بحر ، نسبة إلى بواب بيت يطل على الحارة من الجانب المواجه لبيتنا .

كان العم بحر هذا نوبيا حاد القسمات قاسى الطبع ، وكان يثور ثورة عارمة إذا ما مارست القطط أو الكلاب الجنس على مشهد منه ، وكان كثيرا ما يحاول أن يطردنا من الحارة وكانت محاولاته تذهب أدراج الرياح .

كنا على الرغم من ضيق الحارة وقصرها نلعب فيها ونجرى ويتصبب العرق من أجسامنا . وكان فؤاد الشامى هو الوحيد الذى يستطيع أن يضرب الكرة بقدمه من

أول الحارة حتى نهايتها ، وكنا نرمقه فى إعجاب فقد كان مفتول العضلات ممتلئا صحة .

وكان فؤاد محدثا لبقا ، كان يقص علينا مغامراته ونحن نصغى إليه ساعات طويلة دون ملل . وفى ذات يوم رأى سودانيا فى يده كرباج فأخذه منه وهزه فى الهواء ، ثم قال إنه يستطيع أن يغتصبه من يد أى إنسان قبل أن يهوى به عليه ، فقلت مقلدا فؤاد إننى أستطيع أن أهجم على أى إنسان فى يده كرباج وأن أنتزعه منه ، فقال فؤاد فى بساطة :

— ح نشوف .

وقال حسين صديقى الصغير فى فرح :

— أنا آخذ الكرباج .

وأخذ حسين الكرباج ووقف متحفزا ينتظر فى تنمر هجومى عليه وأنا أعزل من كل شىء ، وجمعت أطراف شجاعتى وهجمت عليه فراح يجلدنى بالكرباج وهو يتقهقر أمام هجومى ، كان وقع الكرباج علىّ أشد من لسع النار . إن دموعى تريد أن تنهمر لتنفس عن الآلام المبرحة التى كنت أتلوى منها ، ولكننى خجلت أن أبكى على مشهد من كل أطفال الحى ، وتجلدت وهجمت على حسين وانتزعت منه الكرباج ، فقال لى فؤاد :

— والله بطل .. بطل صحيح .

وقال حسين فى زهو :

— بس كل علقه سخنه .

ولم أنبس بكلمة بل انسحبت فى صمت ، حتى إذا ما بلغت مدخل بيتنا أخذت أطلق العنان لعبراتى ، لعل دموعى تخفف من نار الألم التى تشوى جسدى وتكاد تزهق روحى .

وكانت كلمات فؤاد ترن فى أعماق فكانت تخفف عنى بعض آلام نفسى ، فأنا بطل وللبطولة ثمن ، وقد كان الثمن تمزيق جلدى . وجففت دموعى وعدت أتحامل على نفسى إلى حيث كان فؤاد وأطفال الحى لأسمع بعض عبارات الثناء لعلها تعوضنى

عما قاسيت من آلام ، فإذا بالأطفال يخوضون فى حديث آخر ، وإذا بالكرباج قد اختفى مع صاحبه السودانى ، وإذا بى وحدى أتجرع غصص الآلام دون أن أحظى ولو بكلمة إشفاق من أحد . لم يعد أحد يذكر بطولتى وكان عزائى أننى وحدى الذى قدر هذه البطولة وأعطاها ما تستحقه من تبجيل ، لم يضع مجتمعنا الصغير وسام الشجاعة على صدرى ولكننى فى قرارة نفسى أكبرت فى نفسى شجاعتى وإن كلفتنى آلاما مبرحة لن تلبث أن تزول ، إن كل ألم جسمانى لا بد أن ينقضى حتى آلام الموت .

١٣

مس أذنى صوت صراخ وأنين من بعيد ، فأسرعت إلى الشرفة أنظر فرأيت فؤاد الشامى وأخاه مختارا قد ربطا إلى الشجرة الكبيرة التى تواجه بيتنا وأباهما ينهال عليهما ضربا بخيزرانة فى يده وقد نم الضرب عن انفعاله الشديد . كان فؤاد ومختار يصرخان من شدة الضرب وأباهما يرغى ويزيد وقد ملأه الغيظ والضيق .

كان أبوهما تاجر سجاد فى خان الخليلى وقلما كنا نراه فى الحى ، ومن الغريب أننى لم أكن أعرف لفؤاد بيتا . كان يظهر بيننا كأبطال الأساطير ويختفى دون أن نحس كيف اختفى ولا إلى أين ذهب ، وما كنا نرى أباه إلا وهو يضربه أو وهو يعدو خلفه ليلحق به .

ولا أذكر أننى رأيت فؤاد يذهب إلى المدرسة كما كنا نفعل ، كنا نعود من مدارسنا إلى بيوتنا فنجد فؤاد فى انتظارنا ليقص علينا مغامراته ، وكانت كلها مستقاة من حادثة رية وسكينة ، السفاحتين اللتين ظهرتا فى الإسكندرية وكانتا تقتلان ضحاياهما من الفتيات والنساء ويدفنانهن فى فناء دارهما وقد شغلت جرائمهما الرأى العام كله فى ذلك الوقت .

تعب الأب من ضرب ولديه لتأديبهما ، وما كاد يفك وثاقهما حتى أطلقا سيقانهما للريح وأخذا يسبانه بأقذع السباب ، فما يملك إلا أن يعدو خلفهما كالمجنون .

وطرد الأب ابنه مختار من البيت الذى ما كنت أعرف له موقعا لأن مختار هو الأخ

الأكبر ، لعل ذلك الطرد يعيد الولدين إلى عقليهما ، فراح مختار يهيم على وجهه فى طرقات الحى وقد ارتدى جلبابا على لحمه فى الشتاء القارس ، حتى إذا ما عضه الجوع خطف رغيف عيش من دكان أى بقال يقابله وراح يلتهمه فى شراهة والبقال ينظر فى صمت وقد أحس عطفا أو غيظا ، فهو يعلم أنه لو احتج أو بدرت منه بادرة استياء فسيصبح الدكان أثرا بعد عين .

ولم يأبه فؤاد كثيرا لطرد أخيه من البيت ، وما أحسب أن ذلك قد شغل تفكيره ، فإنه كان يقف فى حارة بحر يروى لنا طرفا من مغامراته التى ما كانت تتجاوز خياله وأمانيه ، أو يحضر قفازات ملاكمة ، ولا أدرى من أين كان يحصل عليها ثم يختار من بيننا اثنين ليتلاكما تحت إشرافه ويوجه إليهما ما يشاء من ملاحظات ، وكانت ملاحظاته كلها تخضع لأهوائه فما كان يدرى شيئا عن الملاكمة وقوانينها .

اختارنى أنا وصديقى حسين لنتبارى ويكون هو الحكم بيننا . ولبست لأول مرة قفازات الملاكمة وكنت سعيدا بها ، فقد شاهدت فى سينما أوليمبيا مباراة ديمسى وكربنتيه على بطولة العالم ، وكنت أتخيل نفسى فى ذلك الوقت أحد أبطال هذه الرياضة العنيفة .

وقال لنا فؤاد إن الجولة خمس دقائق ، ولا أدرى من أين جاء بهذا التشريع فجولة الملاكمين المحترفين لا تزيد على ثلاث دقائق ، فما بالك بأطفال مثلنا لم نكن قد بلغنا العاشرة أو الحادية عشرة على أكثر تقدير .

وبدأت المباراة بينى وبين حسين ، وعقدت العزم فى قرارة نفسى على أن أثأر لتلك العلقة الساخنة التى لعب فيها الكرباج السودانى الدور الرئيسى المؤلم ، فهجمت على حسين ورحت أكيل له اللكمات ، وما أسرع ما أحسست أن ذراعى قد خذلانى . راحت الأرض تدور بى والأشخاص تتراقص أمام عينى وصوت فؤاد الشامى يصل إلى أذنى كأنما يصل إلىّ من بئر عميقة . وأردت أن أنهار على الأرض ولكن كيف أنهار لأصبح أضحوكة إخوان الحى ؟ إن الوقت يمر بطيئا بطيئا لكأنما الخمس دقائق قد أصبحت خمسة قرون ، ورأيت حسين يترنح أمامى . إن فؤاد يرانا نرقص كحيوانات ذبيحة ولكنه لا يرحمنا بل يحرضنا على الاستمرار فى الملاكمة ، لكأنما كنا ديكين

يتشاجران وهو يتسلى بمشاهدتهما .

وكان حسين أكثر شجاعة مني فقد توقف عن اللعب ، وقال إنه لا يريد أن يستمر فى اللعب حتى يموت ، والحقيقة أننى كنت قد بدأت أحس أن الموت قد بدأ يتسرب إلى جسمى المنهوك .

وقال فؤاد مؤنبا إننا لا نصلح أن نكون ملاكمين ، فلم نلعب إلا دقيقتين فقط وأمامنا ثلاث دقائق أخر . ولم يحفل حسين لقوله وراح يعترض على طول الوقت ولم أنبس بكلمة لا لأننى كنت موافقا على أن يستمر اللعب خمس دقائق ، بل لأننى كنت عاجزا تماما عن الكلام .

ونمت فى تلك الليلة نوما عميقا واستيقظت مبكرا ، فانسللت إلى الشارع لأرى إعلان سينما إيديال شوقا لمعرفة الفيلم الذى سيعرض فى ذلك الأسبوع ، فقد كان اليوم يوم الاثنين موعد تغيير البرنامج .

وخرجت من شارعنا شارع جنينة الكوة إلى شارع سكة الظاهر ، فرأيت مختار قادما يتلفت وهو يرتدى جلبابه وقد ظهر صدره العارى ، ولاح عليه الهزال ، إنه يكاد يموت من الجوع . وثارت فى جوانحى شفقة عليه لم أستطع أن أقف مكتوف اليدين ، فعدت إلى دارنا وطلبت من أمى مصروفى اليومى ، وكان قرشا صاغا ، وكان من الممكن فى ذلك الوقت أن تشترى به أشياء كثيرة .

وهبطت فى الدرج قفزا ورحت أعدو إلى أقرب بقال فى الحى ، واشتريت بالقرش عيش فينو وجبنة رومى ، وكنت أرصد مختار فى قلق وهو يذرع الشارع دون هدف كحيوان عضه الجوع يبحث عن طعام فى أى مكان .

ووقفت فى مكانى برهة ، لم أجد فى نفسى الشجاعة أن أقدم « السندويتش » إلى مختار فقد تقاصرت نفسى واعترانى خجل شديد ، فإننى أضعف دائما أمام جرح إحساسات أى إنسان .

إننى مريض بمرض الكرامة ، إن أى تصرف تافه يجرح كرامتى يصيبنى بخنق ويولد فى ثورة طاغية ، لذلك أتحاشى ما وسعنى الجهد أن أجرح كرامة الناس ، فماذا أفعل حتى لا أجرح كرامة مختار ؟!.

سرت فى الاتجاه العكسى الذى يسير فيه مختار وأنا أرفع « السندويتش » فى يدى كأنما كنت أحمل شمعة تنير لى طريقى ، فلما التقيت بمختار فى عرض الطريق رأى مختار ما أحمل فى يدى فانقض علىَّ وخطف السندويتش وراح يلتهمه فى شراهة وأنا أرقبه فى فرح ، فقد وفر علىّ حرج تقديم السندويتش إليه .

وصارت عادتى فى كل صباح أن أحمل السندويتش فى يدى وأن يخطفه مختار منى ، حتى عاد مختار إلى بيت أهله ولا أدرى متى عاد وكيف عاد ، فقد حرمنى من مصروفى اليومى فترة الشتاء ، وكان أقسى ما كابدته من حرمان أننى طوال تلك المدة لم أذهب إلى السينما ، وكان عزائى أننى أنقذ إنسانا من أن يموت جوعا ، فما أقسى أن يموت من الجوع ، والمحال على جانبى الطريق مليئة بالخيرات .

١٤

كان أولاد عمى قاسم الذين كانوا فى مثل سننا يمضون النهار فى اللعب معنا وكثيرا ما كانوا يبيتون عند جدى ، فكنا ننام معهم على مراتب تطرح لنا على الأرض ، فما كان فى البيت كله سرائر تكفى عددنا الكبير . كنا ننام على مرتبتين كالسردين فى علبة الصفيح ، وكان جدى يطعم أبناء عمى بيده ، وكانت جدتى لا تبخل عليهم بالفلوس التى كانت تضعها فى طاسة هندية صغيرة وتوزعها على من يدخل عليها من أحفادها وما أكثرهم من بنين وبنات ، وكان أبى يمسح رءوسهم بيده فى عطف ، وكان كل من فى البيت يبالغ فى إكرامهم لأنهم أيتام ، وما كنت على الرغم من صغر سنى أستريح لذلك العطف المبالغ فيه فقد كنت أستشعر أنه يجرح شعور الأطفال ويظهرهم بيننا بمظهر الضعفاء .

كنا وأولاد عمى نلعب فى الفضاء الفسيح أمام بيتنا ، نتسلق الشجرة الضخمة القائمة فى وسط الفضاء ، أو يجرى بعضنا فى أثر بعض كالشياطين . وانسحب النهار و لم ندر أن الليل قد أقبل إلا بعد أن صك صوت بائع اللبن الزبادى آذاننا ، فاتجهنا إلى البيت فقد آن أوان العشاء ، وتناولت طعامى مع أبى وأمى وإخوتى ثم هبطت إلى شقة جدى لأبيت مع أبناء عمى .

وهبط أبى وعمى حنفى إلى شقة جدى ودار حديث عن التجارة بين جدى وولديه ، وقامت جدتى وأحضرت بطيخة كبيرة وقطعتها وراحت توزع علينا شقق البطيخ ، حتى إذا ما امتلأت بطوننا أخذنا فى طلب أشياء لا ضرورة لها حتى كدنا نفسد جلسة الكبار ، فطلبت منا جدتى أن نقوم لننام .

ودخلت أنا وإخوتى وأولاد عمى إلى حيث طرحت المرتبتان ، وأخذنا نتدحرج فوقهما ونحن نضحك وقد ارتفعت أصواتنا ، وإذا بأصوات نسوة تعلو على أصواتنا فانجفلنا مفزوعين ، وقبل أن نذهب لنرى ماذا حدث إذا بأمى تدخل تولول وتقول إن جدنا قد مات . مات ؟! إنه كان يأكل معنا البطيخ من لحظات ، وفى مثل لمح البصر

مر بخاطرى كل المحرمات التى ستفرض علينا ، الذهاب إلى السينما سيصبح عيبا ، أكل السمك سيحرم ، لن تدخل الكنافة ولا البسبوسة ولا أى صنف من الحلوى بيتنا قبل مرور أربعين يوما ، ومن يدرى فقد تقرر أمى أن جدى يستحق أن نحزن عليه سنة ، وعلينا أن ندخل صامتين مطرقين لا تنفرج شفاهنا عن بسمة وإلا اتهمتنا أمنا بموات الشعور والإحساس . وطلب منا أن نترك الشقة وأن نهبط إلى الشقة فى الدور الأرضى التى كانت معدة للعبنا .

وقبل أن نتحرك كان نبأ موت جدى قد انتشر فى الأسرة وفى الأحياء المجاورة ، فإذا بالرجال والنساء يتقاطرون على دارنا يسبقهم الصوات . ومر الليل بطيئا مملا ولم يغمض لأحد فى حينا عين ، فصوات النسوة يدوى موحشا بغيضا يخلع القلوب ويطير النوم من الأجفان .

وجاءت عربة الفراش وشمر الرجال عن ساعد الجد ليقيموا سرادقا كبيرا فى الفضاء المواجه للبيت . وانقضى ليل طويل .. طويل ، وجاء النهار فجاءت أم عباس الصباحية لتندب جدى ، لكأنما كانت الجنازة فى حاجة لمن يشعل نارها .

ووقعت عيناى على أم عباس بعد مدة طويلة لم أرها فيها ، كانت قبيحة الشكل لا يمكن أن يحتمل الإنسان النظر إليها . إن من تقع عليها عيناه لا يحتاج إلى فراسة ليكتشف أنها نذير فناء ، ترى هل عملت ندابة لأن شكلها يؤهلها لذلك أو أن سحنتها قد اكتسبت كل ذلك القبح من عملها ندابة ؟ وعجبت فى نفسى كيف انجذبت فى طفولتى إلى هذه المرأة ، وكيف كنت أفرح كلما نادتنى بزوجها العزيز !

ومزقت دفوف أم عباس سكون الحى ، وحطم صوتها القبيح الأجش أعصاب الجيران . وتقاطر التجار على السرادق ، وإذا بحركة غير عادية تجرى أمام باب البيت ، كان بعض الرجال يسحبون عجلا والتعليمات تصدر لهم من هذا وذاك ، وقد وقف جزار متأهبا وفى يده السكين . وارتفعت أصوات النسوة متشنجة متتابعة ، فقام الرجال فى الصوان لكأنما كانت تلك الأصوات إيذانا بأن جثمان جدى قد خرج من شقته ليوضع فى الخشبة .

وخرجت الخشبة محمولة على الأكتاف ورجال من حولها يبكون ، وحدثت جلبة

وضوضاء ، كان بعض الرجال يحاولون أن يطرحوا العجل تحت الخشبة ليذبحه الجزار . ووقفت أنظر لا أفهم سر ذبح العجل تحت جثمان جدى . كل ما استطعت أن أفهمه أن بعد ساعات سيكون ذلك العجل كفتة ، وسألتهم لحمه أنا وكل من فى الدار وكل من سيأتى لتعزيتنا من الأهل والجيران . مسكين ذلك العجل لكأنما كان أجله مربوطا إلى أجل جدى .

وخرجت الجنازة رهيبة لتمر على دكاكين الأسرة ـــ ودكان جدى فى البنهاوى ـــ قبل أن تصل إلى ضريح الحسين ، فقد كانت عادة أسرتنا الصلاة على الميت فى مسجد الحسين ، ولو مات أحد أفراد أسرتنا فى طنطا لسارت جنازته على الأقدام من طنطا إلى الحسين .

وما غابت جنازة جدى عن أعيننا حتى راح النسوة ينسللن من المخزنة إلى دورهن ، فصعدت إلى الشقة التى اجتمعت فيها نساء الأسرة فألفيت كل منهن تسترق الخطى إلى المطبخ أو إلى مكان بعيد عن الأنظار لتلتهم قطعة خبز وقطعة جبن وبعض بيضات وهى تتلفت خشية أن يراها أحد ، فقد كان الأكل فى المآتم عندهن عيبا لا يغتفر .

وعاد الرجال من دفن جدى فجمع أبى أطفال الأسرة ليأكلوا ، فتحلقنا صينية كبيرة عليها إناء كبير ملىء فتة وبعض صحاف الكفتة ، فرحنا نأكل فى شراهة ونتصايح ، وقد نسينا تماما أن جدنا العزيز قد مات .

ورحنا بعد الغداء نجرى ونلعب حول السرادق الكبير ، ونتسلق الشجرة الكبيرة المواجهة لبيتنا ، حتى إذا ما رأينا الكلوباتى قد جاء بالكلوبات أسرعنا إليه نرقبه وهو ينفخ بمنفاخ صغير كل كلوب قبل أن ينيره . ووقفت مشدوها لا أفهم الصلة بين نفخ الكلوب وإنارته ، إن الجاز يشتعل ، أما حكمة الهواء فقد غابت عنى وأتعبت رأسى دون أن أهتدى إليها .

وتقاطر الرجال إلى السرادق الكبير ، وراح صوت الشيخ على محمود القوى يتردد فى الحى دون ميكروفون . وبجوار السرادق أوقدت نارا فإذا ببعض الرجال يخرجون إلىّ ويصرخون فى وجهى ويتهموننى بأننى أريد أن أحرق السرادق بمن فيه .

وتضايقت وإن انكمشت فى ملابسى ، فلم يخطر على قلبى أن أحرق السرادق ،

كان هدفى أن ألعب وان أسلى الأطفال الذين يلعبون معى .

وانسللت إلى البيت ، كان النسوة قد نمن من التعب ، وقد حمل الطباخ أدواته وانصرف . وعلى الرغم من نور الكلوب الذى وضع فى بير السلم كان كل شىء هادئا ، فدخلت الشقة التى كانت معدة للعبنا وكان الطباخ قد استولى عليها ، فرأيت أحد أبناء أعمامى وما أكثرهم يقبل فتاة قد هبطت لحمل ما بقى من طعام إلى الشقق العلوية . إنه ارتبك لما رآنى ، وظننت فى ذلك الوقت أنه عابث ولكن بعد أن كبرت وقرأت قصص القصاصين الكبار تيقنت أنه كان حزينا لموت جدى وأنه كان ينفس عن حزنه ، فسومرست موم كتب أقصوصة عن أم فقدت وحيدها فخرجت تهيم على وجهها من لوعة الأسى ، و لم تستشعر راحة نفسية إلا بعد أن ارتمت فى أحضان شاب وأطفأت لهيب النار التى كانت تشوى كبدها ، فالحزن يثير الغرائز الجنسية ، فإذا ما أطفئت تلك الغرائز كان فى ذلك تنفيس عن حرقة الأحزان .

١٥

لم يعد لعب الكرة فى حارة بحر الضيقة يرضى نهمى إلى لعب الكرة وتطلعت إلى ميدان أوسع ، فذهبت إلى البكرية أمارس هوايتى أمام بيت شفيق منصور المحامى ، كنا فى ذلك الوقت أطفالا ولكن الأمة كلها كانت تتبع أخبار زعمائها . عرفنا من أحاديثنا فى أثناء اللعب وبعد اللعب أن شفيق منصور كان منفيا فى مالطة مع سعد باشا زغلول زعيم الأمة ، وأنه قد عاد من منفاه وأنه كان مرشحا ليدخل وزارة سعد باشا التى ألفها .

كان بيت شفيق منصور أشبه بالبيوت التى نقرأ عنها فى الروايات ، فما كنا نرى منه إلا السور الخارجى والباب الحديدى ، وما كان يدخله إلا بعض الشباب بين وقت وآخر ، ولا أذكر أننى رأيت ظل امرأة تطل منه ، أو أنثى تدخل إليه أو تخرج لقضاء حاجة .

وكنت كل يوم أذهب إلى البكرية لألعب الكرة مع الفريق الذى كوناه هناك ، وما

كنا نكتفى بأن نلعب مع أنفسنا بل كنا ندعو فرق الأحياء المجاورة لتلاعبنا فى الطريق ، فقلما كانت تمر به عربة حانطور ، فالسيارات كانت نادرة فى شوارع القاهرة .

وذات يوم بينما كنا نلعب إذا بصوت بائع الجرائد يصيح :

— قتل السير لى ستاك ، قتل السردار .

وتلفت بعضنا إلى بعض وكان مع أحدنا خمسة مليمات ، فاشترينا الصحيفة والتففنا نقرأ قصة اغتيال سردار الجيش المصرى فى السودان .

وتتابعت الأحداث سريعا ، فطلبت الحكومة الإنجليزية نصف مليون جنيه تعويضا ، ونزول الجيش المصرى من السودان ليبقى هناك الجيش الإنجليزى وحده . وكانت مطالب قاسية لم يقبلها سعد باشا زغلول فاستقال ، وجاءت حكومة زيور باشا لتنفذ كل ما طلبه الإنجليز . وراح الناس يتحدثون عن جماعة اليد السوداء التى اغتالت السردار ، وانقسمنا نحن الأطفال بين مؤيدين لسياسة الاغتيال ومستنكرين لها ، وفى الحقيقة كنا ننقل الآراء التى نسمعها فى دورنا ونعتنقها ونتحمس لها .

إن اغتيال رجل أية كانت مكانته حرمنا من نصف مليون جنيه ، وكان الجنيه المصرى أمتن من الإنجليزى فى ذلك الوقت ، وطردنا طردا من السودان . كان هذا رأى ، وكان الرأى الآخر أن الاغتيال سوف يحطم عجرفة الإنجليز ، وسوف يلقنهم أن فى مصر رجالا لن يستسلموا للاحتلال .

وفاضت الصحف بأنباء الحادث ، وقيل إن الهلباوى قد أرشد إلى القتلة وأنه سيصبح شاهد ملك . وبينما كنا نلعب كعادتنا إذا برجال الشرطة ومعهم بعض رجال البوليس من الإنجليز يأتون إلى بيت شفيق منصور ويقتحمونه ، فوقفنا بعيدا ننظر ، وسرعان ما عادوا وشفيق منصور مقبوضا عليه .

وراحت الأمة تتتبع فى اهتمام أنباء التحقيق ، ثم أنباء المحاكمة التى كان يرأسها قاض إنجليزى هو المستر كيرشو . وتسربت أنباء عن المقابلة العاصفة التى كانت بين اللورد أللنبى المندوب السامى البريطانى وبين سعد زغلول رئيس الوزراء عندما قدم اللورد مطالب الحكومة البريطانية إلى سعد زغلول . وقيل إن سعد زغلول أظهر شجاعة نادرة المثال ، وقيل إن الشيشينى وأحمد ماهر والنقراشى قد وجهت إليهم تهمة

الاشتراك فى اغتيال السردار إحراجا لسعد باشا . وقد علمت عندما كبرت وعرفت كيف أقرأ الإنجليزية أن أغلب الشائعات التى تسرى بين الجماهير لها أساس من الصحة ، فقد وصف إميل لودفيج المقابلة التى تمت بين اللورد أللنبى وسعد زغلول وصفا يثلج صدر المصريين المحبين لبلادهم ، قال إن الشيخ كان شجاعا شجاعة نادرة ، معتزا بوطنه ، لم يقبل أن يفرط فى حق من حقوقه ، وقد آثر الاستقالة على تلبية طلبات المستعمرين .

وأصبح من المألوف أن نرى الناس فى الطرقات وأمام الحوانيت يقرءون فى اهتمام كل ما يجرى فى المحكمة فى الصباح ، وقد ظهر من الجماهير عطف كبير على الأخوين عبد الحميد عنايت وعبد الفتاح عنايت ، فقد كان عبد الفتاح ما يزال طالبا بالحقوق ، والنفوس تشفق على الشباب الغض وتخاف أن تكون النهاية حبل المشنقة .

وشغلت القضية كل البيوت ، وكانت الأمانى تبرىء ماهر والنقراشى والشيشينى لأن فى تبرئتهم تبرئة للوفد الذى كان أغلب المصريين يرون فيه الأمل فى تخليص مصر من نير الاستعباد .

وحدثت مفاجآت فى القضية ، قيل إن هناك خلافات بين القاضى كيرشو وهيئة المحكمة ، وأشيع أن القاضى لا يقبل أى ضغط عليه وإن كان الضغط آتيا من حكومة الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس . واستبشر الناس خيرا حتى إن بعضهم كان يرى أن المحكمة ستراعى ظروف عبد الفتاح عنايت .

وصدر الحكم بإعدام شفيق منصور ومحمود إسماعيل وعبد الحميد وعبد الفتاح عنايت ومن اشترك معهم من عمال العنابر ، وبرىء أحمد ماهر والنقراشى والشيخ أحمد جاد والشيشينى ، وحنق الناس للحكم بالإعدام على أخوين فى قضية واحدة ، وبلغ غضب الناس السلطات الحاكمة فاستبدل حكم الإعدام بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وكانت الأغنيات الشعبية فى ذلك الوقت تعبر أصدق تعبير عن مشاعر الناس ، فإذا بمجموعات من الشبان يسيرون فى طرقات القاهرة يغنون :

ماهـــــر والنقـــــــراشى والشيـــــخ أحمد جـــــاد
والشيشينـــــى معاهـــــم والنـــــــــاس الأمجاد

وتطلب الأغنية من الشعب أن « يبل الشربات » لأن رجال الوفد قد برئوا من تهمة الاشتراك فى اغتيال السردار .

ونشرت المجلات صور المتهمين وهم فى طريقهم إلى المشنقة ، وكتبت الصحف عن الإجراءات التى تتخذ قبل الشنق ، وذكرت بعض الصحف أن بعض المتهمين كانوا يهتفون لمصر قبل أن يقدموا رءوسهم لعشماوى .

وفى ذلك اليوم لم نلعب الكرة أمام بيت شفيق منصور احتراما لشعور أهل الدار ، ومشاركة منا نحن أطفال الحى فى الحداد . ووقفت أنظر إلى بيت الفقيد من بعيد ، كأنما أنظر إلى بيت ملئ بالأسرار ، وما دار فى خلدى فى ذلك الوقت أننى كنت سأفقد عمرى فيه فى مستقبل أيامى لولا لطف الله .

١٦

أصبح كل شىء فى بيتنا أسود بعد موت جدى ، بياضات المقاعد صبغت باللون الأسود ، والمرايا الكبيرة فى غرفة الاستقبال غطيت بقماش أسود ، ونساء البيت تسربلن بالسواد ، حتى جلابيب الخادمات صبغت بالسواد ، وحرم علينا أكل السمك والفواكه والحلويات . وكنا نطيق كل المحرمات ولا نضيق إلا بحظر الذهاب إلى السينما ، فقد كانت أمى تعتبر الذهاب إلى السينما من الكبائر فى الأيام العادية ، فما بالك بالذهاب إليها فى مدة الحداد ، وأقصر مدة حداد عند أمى إذا ما مات لنا قريب بعيد كانت سنة . ترى كم ستطول مدة حدادها على جدى العزيز ؟

كنا قد أدمنا الذهاب إلى السينما ، وما كنا نكتفى بأن نذهب مرة واحدة فى الأسبوع إلى سينما قريبة من حينا ، بل كنا نطوف على كل السينمات فى حفلة الساعة الثالثة ، فقد كان علينا أن نكون فى البيت قبل أن تغرب الشمس ، وإلا تعرضنا لضرب المقشات والصفعات واللطمات من أمى التى كانت تجد لذة عجيبة فى ضربى .

كانت كلما ضاقت بى تقول :

ـــ والله ما حيتلف أملك غير السيما .

لكأنما كانت تقرأ مستقبلى !

كنا بعد عودتنا من المدرسة نذهب إلى ميدان الظاهر حيث ينتهى الترام الذى يصل بين الظاهر والسيدة زينب مخترقا شارع الخليج المصرى (شارع بور سعيد الآن) ، وكنا نتنافس فى جمع تذاكر الترام التى لم يمزقها المفتش ، لأننا كنا نستطيع أن ندخل سينما الشعب إذا دفعنا خمسة مليمات وتذكرة ترام سليمة .

كانت سينما الشعب تقع خلف عمارات الخديوى بشارع عماد الدين ، وكانت تعرض روايات مسلسلة تستولى على ألبابنا ، وكنا نخصص لها يوم الاثنين من كل أسبوع . ولم تكن سينما الشعب وحدها هى التى تتعامل بتذاكر أو كوبونات ، فقد كانت سينما الكلوب المصرى القريبة من المشهد الحسينى تخفض قرشا من ثمن التذكرة لمن يقدم كوبون سجاير ماتوسيان ، وكان ثمن التذكرة فى الصالة التى تهبط إليها فى بضع درجات قرشا ونصف قرش ، أما تذكرة البلكون فكانت بقرشين كاملين . وكانت سينما الكوزمجراف الأمريكانى تتعامل بكوبون يوزع مع نوع من أردأ أنواع الشيكولاته ، وما كنا نشترى السجاير ولا الشيكولاته بل كنا نشترى الكوبونات من باعة متخصصين يقفون عند مدخل السينما .

كان يوم الأحد مخصصا لسينما الكوزمجراف ويوم الخميس لسينما إيديال ويوم الإثنين لسينما الشعب ويوم الجمعة لسينما الكلوب المصرى ، وكنا كالدراويش الذين يخصصون كل يوم من أيام الأسبوع لزيارة ضريح من أضرحة أولياء الله الصالحين .

وكنت وأخواى أحمد وسعيد من أنصار سينما إيديال ، وكان فؤاد الشامى من فريقنا فقد انقسمت الشلة إلى مؤيدين لسينما إيديال ومؤيدين لسينما أوليمبيا ، وتحمس كل فريق للنجوم الذين يمثلون فى الدار التى يحبها .

لم يكن التعصب للأهلى أو للزمالك قد ظهر بعد ، فما كان أحد ليهتم بمباراة الكرة ، ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش دون أن يتعصب لشىء فقد كان تعصبنا لسينما إيديال يكاد أن يكون جزءا من حياتنا . كانت كل دار من الدارين تعرض إنتاج أفلام شركة معينة من شركات الإنتاج ، فلم يحدث أن نجما من نجوم سينما إيديال عرضت له أفلام فى سينما أوليمبيا إلا مرة واحدة ، فقد عرضت سينما أوليمبيا فلما لنجم محبوب من

نجومنا فاعتبرناه نجما خائنا وقاطعنا أفلامه .

ومن حسن حظنا أو من أسباب تعصبنا أن سينما إيديال كانت تعرض أفلام أشهر نجوم السينما فى ذلك الوقت : توم ميكس ودوجلاس فيربانكس ومارى بيكفورد ولارى سيمون (زيجوتو) وآرت أكورد وشارلى شابلن وإيلين سيدجويك . وكانت إيلين تقوم بدور البطلة فى روايات المغامرات وكانت تنتصر على الرجال ، وكان ذلك يزيد فى زهونا ويمدنا بحجة قوية على أصدقائنا مؤيدى سينما أوليمبيا ، فما كان عندهم (شجيعة) مثل إيلين .

كانت الأمور تسير طبيعية قبل موت جدى ، فقد كنا ننسل من دورنا ونذهب إلى السينما دون أن يفطن إلى غيابنا أحد ، أو دون أن تثير أمى الدنيا . أما فى زمن الحداد فقد تعقدت الأمور ، فغيابنا عن البيت معناه الذهاب إلى السينما وارتكاب إحدى الكبائر التى لا تغتفر .

كانت سينما إيديال تعرض رواية مسلسلة لأحب نجم إلى قلوبنا ، رواية لآرت أكورد . إن مشاهدة آرت أكورد تستحق المغامرة ، فسرنا إلى باب الشعرية ومنها إلى درب مصطفى ثم الواسعة وكان هذا الحى للبغايا ، فلم نلتفت إلى الساقطات الجالسات على جانبى الطريق بل أخذنا نوسع الخطا حتى نصل قبل أن يبدأ العرض الذى كان يستولى على كل تفكيرنا .

كان فؤاد الشامى يروى علينا مغامراته وكانت لا تزال حتى ذلك الوقت من وحى خياله ، فكنا لا نشعر بطول الطريق الذى نقطعه ، بلغنا العتبة الخضراء وما كانت العتبة مزدحمة كما هو الحال الآن . كان بها موقف للسوارس وسيلة المواصلات بين العتبة والحسين ، وموقف للحمير والحمارة ، فرحنا نقطع الميدان مهرولين لا خوفا من السيارات فقد كانت السيارات فى القاهرة فى ذلك الوقت تعد على الأصابع ، بل لأن ميعاد بدء العرض قد أزف .

وعرج أنصار سينما أوليمبيا على دارهم المفضلة ، ووسعنا خطانا لنصل إلى عابدين . ومن بعيد رأينا الزحام حول شباك التذاكر ، فأخذ فؤاد منا قروشنا واندفع فى خضم الزحام يدفع هذا وذاك ، وسرعان ما عاد إلينا مزهوا فقد استطاع أن يحصل على

التذاكر بفضل قوة عضلاته المفتولة .

ودخلنا من باب الترسو وجلسنا على الدكك الخشبية نتطلع فى شوق عظيم إلى الشاشة ، كانت تلك اللحظات من أمتع لحظات عمرى ، ولا أذكر أننى فرحت بشىء نلته فى حياتى بمثل ذلك الفرح الذى كان يغمرنى كلما مددت بصرى إلى شاشة سينما إيديال !

إننى شاهدت أروع استعراضات الليدو فى باريس ، وكان لى حظ مشاهدة أعظم الأعمال الفنية فى كل عواصم أوروبا ، وللحقيقة أقرر أن جلستى على دكك سينما إيديال فى الدرجة الثالثة كانت أمتع من جلستى فى المقاعد الوثيرة فى ملاهى روما وباريس وأثينا وكوبنهاجن وبودابست وموسكو .

وبدأ العرض فرحنا نصفق تصفيقا مدويا لما لاح لأعيننا بطلنا المحبوب آرت أكورد على صهوة جواده . كنا نحبه حبا طاغيا وكان يخيل إلينا من فرط إعجابنا به أنه يبادلنا حبا بحب . ومرت ساعتان مترعتان بالنشوة ، وانتهى العرض فخرجنا مسرعين لنقص على أصدقائنا رواد سينما أوليمبيا ما فعله آرت أكورد بأفراد العصابة التى كان يطاردها من أفاعيل . قال أخى سعيد وهو مبهور :

ـــ آرت أكورد نزل من على حصانه وهجم على واحد من الحرامية وخطفه من رجليه ، بقت رجليه لفوق ودماغه لتحت ، وفضل يدق دماغه فى الأرض لغاية ما داخ.

فقال أحد أنصار سينما أوليمبيا ساخرا :

ـــ نتشه .

وقال آخر :

ـــ ودا معقول ؟ دا كلام برضه يدخل العقل ؟

وثارت مناقشة حامية بين أنصار إيديال وأنصار أوليمبيا ، فأراد فؤاد الشامى أن ينهى تلك المناقشات فقال فى تحد :

ـــ أنا اقدر أعمل اللى عمله آرت أكورد .

وتحداه الصغار أنصار أوليمبيا ، وقبل فؤاد التحدى ، وفيما كنا نسير فى الشوارع

الضيقة التى تقود إلى الواسعة إذا بفتى يدفع عربة يد محملة بأعواد القصب ، فجذب فؤاد عودا من أعواد القصب فاتجه إليه الفتى يعاتبه ، فما كان من فؤاد إلا أن لكم الفتى لكمة قوية فى وجهه فسقط الفتى على الأرض .

ومرت لحظات قلقة ، وانتظرنا ماذا سيفعل الفتى بعد تلك اللكمة ، فإذا به يقوم فى صمت وقد تقاصرت نفسه ، وراح يدفع عربته دون أن يلتفت أو يحتج . آثر السلامة ورضى بالمهانة التى لحقت به .

وعرف فؤاد أنه قوى وأن جرأته تنزل الرهبة فى القلوب ، فمشى بيننا منفوشا كديك رومى ، وكانت بداية فؤاد الشامى .

١٧

أصبحت حارة بحر لا تتسع للعبنا ، ولم يعد شارع البكرية يصلح لإقامة المباريات بيننا وبين الأحياء المجاورة ، لذلك زحفنا إلى أرض المثلث خلف شركات البترول بغمرة . كنت طوال صباى أسمع عن ترعة غمرة وكانت تراودنى فكرة الانطلاق إلى الترعة لاكتشاف عالم جديد لم تقع عليه عيناى بعد ، فكنت أجتاز شارع عباس (شارع رمسيس الآن) ، ثم أتقدم خافق القلب حتى أطل على كوبرى باغوص ، ثم لا أجد فى نفسى الشجاعة على اقتحام الكوبرى أو السير تحته فقد كنت أتصور أن الترعة تمر تحت الكوبرى وأن مياه الترعة تغمر المكان ، وأن عرائس البحر ترصد المارة لتخطف منهم من يحلو فى عينيها ليعيش معها فى عالمها السحرى العجيب الذى سمعت عنه أغرب القصص .

كنت فى شوق إلى أن أعيش فى قاع البحر مع عرائسه ، وأن أحيا الحياة الأسطورية المذهلة التى تروى عن الأبطال الذين تزوجوا الجنية ، ولكن الخوف من المجهول كان يستبد بى فعشت موزعا بين الرغبة والرهبة ، وقد راح خيالى يمدنى بأعذب الرؤى والأحلام .

انطلقنا فى الطرقات يمرر كل منا الكرة إلى زميله حتى بلغنا شارع عباس ونحن

منهمكون فى الجرى وراء الكرة ، ولم يفكر أحدنا فى أن يلتقطها حتى نجتاز الشارع بل اخترقنا الشارع والكرة تتناقل بين أرجلنا ، فما كانت هناك سيارات تنطلق فى تتابع كالسهام بين المحطة والعباسية .

وهبطنا إلى الطريق الذى يمر تحت الكوبرى ، فأخذت أتقدم فى حرص وقد أرهفت حواسى ، فعما قليل سأكتشف ذلك المجهول الذى كنت أتصوره شيئا عجيبا لا شبه بينه وبين ما رأيت فى القاهرة . رأيت تحت الكوبرى رجالا بسطاء قد افترشوا الأرض وقد انهمك بعض الحلاقين فى حلق رءوسهم ، وعربات الكارو تغدو وتروح كما تغدو وتروح فى باب الشعرية وأمير الجيوش وكل الشوارع التى تربط بين بيتنا ومدرسة الجمالية . واجتزنا الكوبرى وقد تبددت الخيالات ، وعرجنا يمينا ورحنا نصعد فى طريق ازدحم بعربات الجاز الذاهبة إلى شركات البترول أو المقبلة منها . وسرنا مسافة قبل أن تظهر لنا الترعة ، كانت ترعة الإسماعيلية تنتهى عند غمرة فى ذلك المكان المزدحم بعربات السكك الحديدية .

ورأينا قطارا يسير الهوينى فقال فؤاد الشامى :

ــ فاكرين الخدعة الكبرى لما كان بيجرى م الحرامية والقطر جرى من قدامه ، ولقى إن الحرامية ح يلحقوه راح فايت من بين عجل القطر ؟

ــ فاكرين .

كان شارلس هتشنسون بطل رواية مسلسلة اسمها الخدعة الكبرى ، وكان من الصعب على رواد سينما إيديال أن ينطقوا اسم البطل أو يحفظوه ، فأطلقوا عليه اسم الخدعة الكبرى وفتحوا الخاء ، وكان فؤاد الشامى من المعجبين بذلك البطل لذلك أراد أن يقلده فقال :

ــ مين يقدر يفوت زيه من بين عجل القطر ؟

فقال أخى سعيد :

ــ أنا .

وكأنما ضايق صديقنا فريدون أن ينفرد سعيد بالبطولة فقال :

ــ وأنا .

و لم ينتظرا إشارة فؤاد ، بل انحنى سعيد وفريدون وراحا يتحينان الفرصة ليندفعا مسرعين بين عجلتين متحركتين من عجلات القطار ، كان القطار يسير بطيئا فاندفع سعيد وفريدون بين عجلتين وأصبحا تحت عربة القطار و لم يخرجا من الناحية الأخرى فقد انتابهما رعب شديد ، فاستلقيا على وجهيهما حتى مرت جميع العربات ثم نهضا لا يجدان لسانيهما من الرعب . ومرت لحظات كانا يقاومان فيها الفزع ثم تحركت الشفاه فأخذا يمجدان شجاعتهما وفؤاد الشامى ينفخ فى غرورهما .

وبلغنا أرض المثلث فوجدنا فريقا من الأزهر يتدرب هناك ، فعرضنا عليهم أن نلاعبهم فقبلوا ، فإذا بأصواتهم تملأ أرض الملعب :

ـــ القهقرى يا شيخ عبد المقصود القهقرى .. أصب المرمى يا أستاذ .

وراح فؤاد الشامى يلعب ألعابا خشنة فكان الشيوخ يتحاشون الهجوم عليه . واشتهر أمر فؤاد الشامى فى أرض المثلث ، كنا إذا ما لعبنا ضد فريق وجرى فؤاد صوب من معه الكرة من الخصوم صاح المتفرجون :

ـــ حاسب ! فؤاد الشامى وراك .

فكان اللاعب يقفز فى الهواء ويترك الكرة فيأخذها فؤاد فى يسر ، وبذلك أصبح فؤاد قلب دفاعنا المرعب .

وبعد كل مباراة كنا نسير على حافة ترعة غمرة ، وكان يجذب نظرى الصيادون الذين يصطادون السمك هناك ، وذات صباح ملأتنى رغبة أن أنطلق لأصطاد فى الترعة ، فعرضت الأمر على صديقى فوزى وكان أهله من البهائيين فأطلقوا عليه اسم عباس تيمنا باسم عباس البهاء رسول البهائية .

كنت أنا وعباس زميلين فى مدرسة كان أهلنا يبعثون بنا إليها فى الصيف ليستريحوا من عفرتتنا ، وأذكر أن مدرسة الفصل كانت تقبلنى كلما دخلت علينا . وفى ذات يوم قبَّلت عباس فتملكتنى غيرة شديدة فهجمت على عباس أنشب فى وجهه أظافرى . كنت منذ أيام أم عباس الندابة قد تعلمت أن الزواج حيازة وأن ليس هناك معنى لقولهم إن أم عباس زوجتى إلا أنها ملكى ، فكيف سمحت مدرستى لنفسها أن تقبِّل غيرى ، لم أكن قادرا على أن أضربها فضربت صديقى الصغير تعبيرا عن استيائى .

وانطلقنا إلى ترعة غمرة وأنا نشوان . كانت أول مرة أذهب فيها لأصطاد و لم يكن معى غابة ولا شص ، فقد رأيت الأولاد ينزلون إلى الترعة ويصطادون بزجاجة كسر طرفها فعزمت على أن أفعل مثلهم .

خلعت حذائى على الشاطئ ونزلت إلى الماء حتى وصل إلى ركبتى ، ونزل عباس معى ورحنا نحاول أن نصطاد بالزجاجات التى أمسكناها بكلتا يدينا . وبعد محاولات دخلت سمكة صغيرة إلى الزجاجة فكدت أطير من الفرح ؛ إنها أول سمكة أصطادها فى حياتى وإنها للذة كبرى أن يجنى المرء ثمار جهده .

وانتهت مغامرتنا بأن اصطدنا بضع سمكات واستولت على تفكيرى فكرة ، كان معى قرش تعريفة وإننا نستطيع أن نشترى به رغيفين وأن نتناول غداءنا من عرق الجبين .

وعرضت الفكرة على عباس فرحب بها ، وجمعنا بعض الأوراق والأعشاب وسألنا أحد المارة أن يعطينا عود ثقاب فأعطانا أحدهم عود ثقاب أحمر ، فحككته بقطعة



حجر فاشتعل ، وأوقدنا نارا أخذنا نشوى عليها السمك .

وعاد عباس برغيفين كبيرين ساخنين فرحنا نأكل بشهوة ، وقد كانت تلك الأُكلة من ألذ الأكلات التى تناولتها . وبعد أن شبعنا أخذنا نتشاور ، لماذا نعود إلى بيوتنا وقد أكلنا ؟ من الأفضل والأعقل أن ننتظر إلى جوار الترعة نرقب الصيادين حتى يحين موعد لعب الكرة ، فننطلق إلى أرض فاكوم أرض المثلث ونوفر الذهاب والإياب وتعب أرجلنا .

وبدأ اللعب فنسينا البيت ومتاعبه ، بل نسينا أنفسنا ، حتى إذا ما غابت الشمس فى الأفق الغربى قفلنا عائدين إلى بيوتنا فى هدوء ، فما خطر على قلبى أن هناك من انشغلوا بغيابنا وأننا فعلنا شيئا منكرا .

وأسرع إلى أحمد وسعيد عندما لمحانى مقبلا وقالا لى فى استنكار :

ــ كنت فين ؟

ــ كنت فى أرض المثلث .

ــ وما جتشى ع الغدا ليه ؟

ــ اتغديت .

ــ طب اطلع بقى شوف إيه اللى مستنيك .

وسقط قلبى فى حذائى ، وأراد عباس أن يبرىء نفسه من تهمة الغياب عن البيت طوال النهار فقال وهو ينظر إلىّ :

ــ كان ح يغرق فى الترعة لولا أنا نجيته .

ولم يكن هناك وقت لأكذبه فقد انتشرت الفرية فى سرعة عجيبة ، حتى إنها بلغت أمى قبل أن أصعد لأتلقى وعدى .

وصعدت إلى الطبقة الرابعة من منزلنا حيث كنا نسكن وأنا أكاد أموت من الخوف ، لماذا ستضربنى أمى ؟ ألأننى وجدت طعاما فأكلت فلم يعد هناك ضرورة ملحة تدفعنى إلى العودة ؟ كنت لا أرى البيت أكثر من مكان آكل فيه وأنام فيه ، ولم أعرف بعد ذلك القلق المدمر الذى ينتاب الوالدين إذا ما غاب ابنهم عن موعد عودته . ومن أين لى أن أعرف مثل تلك المشاعر التى ما كنت قد أحسست بها بعد ، كنت ابنا

و لم أكن أبا ، كنت أنشد التحرر وكنت أضيق بالمشاعر الأبوية ، وكنت أقرر فى أعماق أننى لن أكبل أولادى إذا ما قدر لى أن يكون لى أولاد فى مستقبل حياتى بمثل ما كبلنى أبواى بمشاعرهم ، ولكن هيهات !

وما إن رأتنى أمى صاعدا فى الدرج منكس الرأس حتى خفت إلى قفزا وجذبتنى من يدى إلى الغرفة الداخلية لتضربنى ولا يصل صوت استغاثاتى إلى جدتى التى كانت تحتج دائما على ضربى .

وبدأ الصفع والركل ، وأسرع عمى حنفى وإخوتى محمد وأحمد وسعيد ليخلصونى من يدى أمى دون جدوى ، بل أخذت تضربنى فى عصبية وهى تقول :

ــ إذا كان لازم تموت .. تموت قدام عينى أحسن .

و لم أفهم الفرق بين أن أموت بعيدا عنها أو أموت فى يديها ، واشتد الضرب حتى لم أعد أحتمله فانفلت من يديها وانطلقت إلى البلكونة لأقفز من الطبقة الثالثة فرارا من الآلام التى كنت أقاسيها .

وجرى خلفى عمى وإخوتى وجذبونى إلى الخلف قبل أن أقفز من البلكونة ، ووضعونى فى وسط الحجرة وانهالوا علىّ جميعا يضربوننى دون رحمة .

وحملت إلى سريرى ودموعى تغسل وجهى وصدرى يهبط ويصعد فى تتابع سريع . وجاء أبى يمشى على أطراف أصابعه ونظر فى وجهى ليطمئن أننى لا أزال على قيد الحياة ، وذهب إلى الشباك يحكم إغلاقه حتى لا أعاود القفز منه ، و لم أنم تلك الليلة و لم تغمض لأبى عين ، فقد مضى طوال الليل يغدو ويروح بين حجرته وحجرتى ، وقد خفف من آلامى حنان أبى الفياض وإن لم تتحرك شفتاه بكلمة . ترى ماذا سيكون حالى لو عاملتنى أمى بنفس الحنان الذى كان يغمرنى به أبى ؟. لا شك أننى كنت سأكون رجلا آخر ، رجلا يلاطم الحياة وتلاطمه بعد أن تلفظه جميع المدارس ، فقد كنت فى تلك السن أمقت المدرسة أشد المقت حتى إذا ما نهضت من نومى ورأيت سطوع الشمس ، شعرت بضيق شديد لأننى لم أمت فى أثناء النوم . إنها أمى التى كانت ترغمنى على الذهاب إلى المدرسة ، حتى حصلت على الشهادة الابتدائية بعد سبع سنوات أذرع فيها شارع سكة الظاهر فباب الشعرية فأمير الجيوش فالنحاسين

فالدرب الأصفر ، فمدرستى التى كان لا ينقطع سيل الجنازات عنها ، فهى فى الطريق بين المشهد الحسينى والمقابر ، فما كان يمر يوم إلا وأنا أذكر الموت ، ولا شك أن النعوش التى كانت تلازمنى كظلى كان لها أثر عميق فى نفسى . بل إنها صارت إحدى مكوناتى : فقد عشت منذ نعومة أظفارى أفكر فى الموت وأعتقد أنه الحقيقة الوحيدة فى هذا الكون ، وأشرد طويلا مفكرا فيما بعد الموت ، وما أكثر الصور الحسية التى أمدنى بها خيالى فى ذلك الوقت للحساب ووضع الموازين والصراط والجنة والنار ، وما أمتع الحوار الذى كان يدور فى وجدانى بينى وبين أقاربى الذين تجرعوا كئوس الموت . كنت أسألهم عما رأوا فى الآخرة وكنت أجيب عن الأسئلة بألسنتهم إجابات أستمدها مما اختزن فى ضميرى من معلومات ساذجة سمعتها من جدتى أو أمى أو بعض أصدقائى من الأطفال . كان الموضوع أكبر من تصورات غلام لا يزال فى المدارس الابتدائية ، ولكننى كنت شغوفا باستطلاع كنه الحياة الثانية ، وكنت ألقى سمعى وكل حواسى إلى مدرس الجغرافيا المتدين الذى كان يحلو له أن يحدثنا عن الدين وعن الموت وما بعد الموت ، وكان حديثه أمتع من حديث مدرس الدين وأحب إلى قلبى .

١٨

عدنا والشمس تميل للغروب من مدارسنا فألقينا حقائب كتبنا وأسرعنا إلى حيث كان فؤاد الشامى ينتظرنا فى حارة بحر ، وما كنت أفكر أين يمضى فؤاد سحابة يومه ومن أين يأتى ولا إلى أين يذهب ، كان يخيل إلىّ أنه قد زرع فى الحارة وأنه أحد معالمها .

واجتمعنا حول فؤاد فراح يحدثنا عن مغامراته وعن التدريبات الرياضية التى يقوم بها كل يوم . إنه يدعى أنه يحمل الأثقال وأنه دخل ذات يوم السجن و لم يقل لنا لماذا بل قال إنه لم يدع تدريباته اليومية فى محبسه ، إنه كان يرفع السجان بين يديه عدة مرات كما يفعل بالأثقال .

وحدثنا عن الحرب التى دارت بين الأتراك واليونان ، وراح يصف فى مبالغة

ما يفعله الجندى التركى باليونانى ، إنه يغرس السونكى فى عدوه ثم يرفعه فى الهواء ويلقيه خلف ظهره ويأخذ ما معه من طعام ويلتهمه . و لم يكن فؤاد يكتفى بالرد بل كان يمثل الحادثة بوجهه ويديه وصوته فيقول كما يقول الجندى التركى الذى يتخيله :

ــ قو .. قا .

ثم يمثل كيف يلتهم الجندى التركى طعام اليونانى القتيل :

ــ همهم .. قوقا .. همهمهم .

ويستمر فى الطعن والأكل لكأنما الجندى التركى لا يشبع وكأنما الجندى اليونانى قد وقف صامتا كالبغل لا يفعل شيئا ولا يحرك ساكنا حتى يطعنه التركى ويلقيه خلف ظهره ويلتهم طعامه وهو يصيح :

ــ قو .. قا .. همهمهم .

كان فؤاد الشامى واسع الخيال ، ولو استمر فى المدارس لكان من كبار كتاب المغامرات .

وجرنا الحديث إلى ذكر المصارعة فقال فريدون ، وكان على الرغم من صغر سنه وصغر حجمه يحب أن يكون منافسا لفؤاد فى القوة وفى سرد المغامرات :

ــ إبراهيم كامل فاز ببطولة مصر فى وزن الريشة .

وما كنت بعد أعرف ما تعنيه الكلمة ، ولكن فؤاد أخذ يشرح لنا الأوزان ويعرفنا الفرق بين وزن الريشة ووزن خفيف الثقيل ، وأسهب فى شرح أصول المصارعة فقال أحدنا :

ــ انت لعبت مصارعة يا فؤاد ؟

فراح فؤاد يتحدث عن انتصاراته فى المصارعة ، ثم ختم حديثه بقوله :

ــ أنا ح اتحدى إبراهيم كامل على اللقب .

وأحضرنا ورقة وقلما وراح فؤاد يكتب تحديه لإبراهيم كامل على لقب بطولة مصر ، وختم الرسالة بتوقيع فؤاد السورى . وسألناه عن السبب فراح يخبرنا أنه أصلا من سورية وأن الشام تضم سورية ولبنان والأردن وفلسطين . وفى صباحا اليوم التالى اشترينا صحيفة الأهرام ، و لم تكن صحف الإثارة قد عرفت بعد فى مصر و لم تكن

مهاترات السينما والكرة قد استولت على الصحافة الجادة ، بل كان كبار الكتاب والأدباء يسطرون ذوب نفوسهم لخدمة قضايا الوطن ولبناء الإنسان المصرى الجديد ، فقلبنا صفحات الأهرام ووقفنا عند عمود الرياضة ، فقرأنا فى نشوة نبأ تحدى فؤاد السورى لإبراهيم كامل .

ورد إبراهيم كامل بقبول التحدى ، فوجدنا مادة للتحدث حتى يحين الموعد الذى تحدد للمباراة .

وغاب فؤاد الشامى عنا بعض الوقت ثم عاد يقول إنه كان يتدرب للقاء الكبير وإنه يدعونا لنشاهده كيف سيصرع بطل مصر . وراح يشرح لنا كيف سيبدأ المباراة وكيف سينتصر بالكتف ، وما كنت قد رأيت مصارعة إلا فى السينما فاشتقت إلى الذهاب مع رفاق الحى إلى النادى لأرى شابا أعرفه يلعب لنيل لقب بطل مصر . ولكن أمى أبت أن توافق على ذهابى فانكمش أخواى أحمد وسعيد و لم يذهبا ، كانا يطلقانى لطلب الإذن أو الشىء من أمى ويرقبان النتيجة من بعيد ، فإن كان فى الأمر ضرب أو زجر كان ذلك من نصيبى ، وإن حظيت بموافقة على فعل شىء أو أخذ شىء انسحبت الموافقة عليهما ، فكان علىّ الغرم وحدى وكان الغنم شركة بيننا .

ورحت أتخيل صورة فؤاد الشامى منشورة فى صحيفة الرياضة بالأهرام وقد كتب تحتها بطل مصر فى وزن الريشة .

و لم أستطع فى ذلك اليوم أن أدخل فراشى لأنام ، كنت متلهفا على سماع النبأ العظيم ، فما إن سمعت أصوات الرفاق وهم عائدون من المباراة حتى هبطت فى الدرج عدوا دون أن أستأذن أمى وليكن ما يكون .

وأسرعت إلى فريدون أسأل عما حدث ، فقال لى فريدون إن المباراة انتهت بعد ثانية واحدة من إعطاء الحكم إشارة البدء . تقدم فؤاد ليصافح إبراهيم كامل ، فخطف إبراهيم يد فؤاد بعد المصافحة ورفعه فى الهواء وألقاه أرضا ، وصفر الحكم وأعلن الحكم انتصار إبراهيم كامل على خصمه بالكتف القانونية .

واستأت لما سمعت ذلك من فريدون و لم أصدقه ، وعللت ذلك بحقده على فؤاد ، ولكن الرفاق جميعا أكدوا لى ما رواه فريدون .

وفى اليوم التالى جاء فؤاد ولم يخفف من غلوائه ، بل قال مبررا هزيمته :

— خدنى على خوانة .

كان فؤاد يستشعر فى قرارة نفسه مهانة ، وقد فطن إلى أن مكانته قد اهتزت بيننا ، فكان لا بد من أن يقوم بمخاطرة يسترد بها مكانته ، فجاء إلينا وهو يركب بسكليته وراح يتمايل بها يمينا وشمالا حتى كاد فى كل مرة يلمس الأرض ، ثم قفز من فوقها فى رشاقة ووقف أمامنا وقال :

— أنا ح أهزأ الترمواى .

ونظرنا إليه فى دهشة . إننا نعرف التهزىء فى الكرة ، إنه مراوغة الخصم والمرور منه ، فكيف يتأتى لفؤاد أن يهزئ الترام . وقبل أن نفيق من دهشتنا ، قال :

— مين ييجى معايا .

فقلت دون تفكير :

— أنا .

وركبت أمام فؤاد الشامى على البسكليت ، وذهبنا إلى شارع الخليج المصرى وهو شارع بور سعيد الآن ، وكان شارع الخليج ضيقا جدا حتى إن الواقف على سلم الترام كان يشيح بكتفه فى بعض المناطق حتى لا يرتطم بجدران المنازل .

وخرجنا من شارع الزعفرانى إلى شارع الخليج ورفاق الحى يسيرون خلفنا ليروا المغامرة الجديدة ، وأصبحت أنا وفؤاد فى شارع الخليج ، وإذا بفؤاد يندفع بالبسكليت بين قضبان الترام فى سرعة حتى أصبحنا أمام ترام مقبل مسرعا ، ولم يبق بيننا وبينه إلا بضعة أمتار .

وسقط قلبى فى حذائى وانتابنى خوف شديد ، وزاد اضطرابى لما رأيت سائق الترام يفرمل فى حالة هستيرية وأصوات الركاب الجالسين خلفه تنطلق مفزوعة مدوية ، ولم أر ماذا اعترى رفاقى الصغار ، وفى مثل لمح البصر انحرف فؤاد يمينا ومرق كالسهم بين ترامين ، الترام الذى هزأه وترام آخر كان مقبلا من الاتجاه الآخر ، وفى لحظة كأنها دهر تعطلت كل حواسى وإن كدت أموت من الخوف .

وخرجنا من بين الترامين فأحسست كأنما خرجت من القبر ، وشعرت بالهواء

منعشا يصافح وجهى . وعدنا إلى مكاننا المختار نجلس على شبابيك البدرومات أروى قصة شجاعتى ويروى فؤاد الشامى كيف هزأ الترام ، وكيف أن سائقه كاد يموت من الرعب ، وكيف أن بعض الركاب قد أصيب من جراء الفرملة المفاجئة ، وكيف أن السائق أطلق الشبكة لتلتقطنا إذا ما صدمنا ، وكيف وكيف . وما أخصب خيال فؤاد ، كانت له قدرة عجيبة على كساء حادثة بسيطة بلحم من المبالغات .

وكانت حادثة تهزىء الترام خطوة أخرى فى الطريق الذى اختاره لنفسه : طريق المغامرات .

١٩

كان دكان أبى فى شارع سوق الجراية ، وكثيرا ما كنت أفكر من أين جاء هذا الاسم ، وكنت أسأل من هم أكبر منى سنا فقيل لى إن الحكومة كانت تصرف للمجاورين بالأزهر جراية ، أى أنها تجرى الأرزاق على طلاب العلم بالأزهر ، فكان الطلاب يحملون إلى ذلك الشارع الخبز ويبيعونه هناك ، فعرف المكان بسوق الجراية .

وكان يرقد فى حضن دكان أبى دكان العم سيد الشامى ، وكان العم سيد ضئيل الجسم يرتدى جلبابا بنيا من الصوف ويضع الطربوش على رأسه ، وكان يبيع التمباك . كان طوال النهار يقص التمباك أو يلصق بالنشا أطراف الأكياس التى يعدها لوضع التمباك فيها ، وكثيرا ما كان أبى يطلب منا أنا وإخوتى أن نذهب إلى العم سيد لنعاونه فى لصق الأكياس ، فكنت أجد لذة فى هذا العمل فى أول الأمر ، وسرعان ما يتسرب إلىّ الملل واستشعر آلاما فى كتفى فأنسل من مكانى فى صمت لأعود إلى الجلوس بجوار الخزانة الكبيرة التى كانت فى ظهر دكان العم سيد . وكان ذلك المكان فى دكاننا لجلوس أبى وجلوس الخواجات الذين يأتون لبيع الزيت أو الشاى أو ورق اللحم أو لتسلم قيمة فاتورة حل أجلها ، وكان أصدقاء أبى المقربون يشربون القهوة أو يدخنون السجاير هناك .

وكان العم سيد من المحبين إلى أبى . إنه طبيب الحى ، فما من حالة تعرض عليه إلا

يجد لها دواء فى تذكرة داود ، وكانت ثقة أهل الحى فى كفاءته تفوق ثقتهم فى أعظم طبيب عرفته مصر فى ذلك الوقت .

جاءه أبى ذات يوم يشكو إليه أن سحابة بدأت تخيم على عين أخى فتوح ، وأخى فتوح كان قد ولد بعدى ، ووضعت أمى بعده بنتين ، جعلتا حياتها أكثر إشراقا ، فقد تحقق لها ما كانت تتمنى من إنجاب بنت ، وراح العم سيد يفحص عن عينى أخى فى اهتمام ثم رفع رأسه وقال :

ـــ الحمد لله . السحابة ما وصلتش لننى العين .

وعكف العم سيد يقرأ فى تذكرة داود ، وكنت فى ذلك الوقت أعتقد أنها من تأليف سيدنا داود نبى الله فما كنت أعرف شيئا بعد عن داود الأنطاكى ، ثم طلب من أبى إحضار تفاحة ، فلما جاءه بها حفرها ووضع فيها سكر نبات ، ثم طلب من أبى أن يضعها فى فرن العم أحمد شكشوك حتى تنضج .

كان العم أحمد شكشوك فطاطرى أمام دكان العم سيد ، فذهب إليه أبى وطلب منه أن ينضج التفاحة ، فوضعها فى الفرن بالقرب من النار ثم راح ينظر إلى العم سيد فألفاه منهمكا فى قص التمباك ، فالتفت إلى أبى يسأله عن سر التفاحة ، فراح أبى يروى له القصة والرجل يسمع وقطع العجين تنداح بين يديه على الرخام الذى أمامه ثم تطبق فى مهارة عجيبة لتصبح فطيرة باللحم والبيض أو فطيرة بالسكر ، وما كان فى دكان العم أحمد شكشوك صنبور ماء ، فكان الآكلون فى داخل دكانه يمسحون أيديهم بعد أن يأكلوا هنيئا مريئا بالردة الموضوعة فى قفف صغيرة بأركان المكان .

ونضجت التفاحة فأخذها أبى إلى العم سيد ، فراح يفحص عنها فى اهتمام ثم قال لأبى :

ـــ بكره الصبح ح اجيب لك القطرة .

وفى صبيحة اليوم التالى كان العم سيد يقدم إلى أبى زجاجة القطرة ويصف له عدد النقط وعدد المرات التى تستعمل فيها قطرة التفاح ، وكم كانت دهشتى لما رأيت السحابة قد انقشعت عن عين أخى ، فازددت إعجابا بالعم سيد وأصبحت أراه رجل الأسرار عندما يحدثنى عن حجر الفلاسفة ، وأنه يحاول أن يحيل فى معمله الصغير فى

بيته النحاس إلى ذهب .

وكان أمام دكان أبى الشيخ مصطفى بائع النشوق والعم إبراهيم تاجر الفحم ، وكان الشيخ مصطفى وإبراهيم نقيضين ، كان الشيخ مصطفى يرتدى الجبه والقفطان والعمامة ، يعتنى بمظهره ويطلق الضحكات المجلجلة فى الشارع ، بينما العم إبراهيم يرتدى على الدوام جلبابا أزرق وقد ترك الفحم بصماته على وجهه ويديه ، وكان لا يغادر دكانه أبدا . كان يتناول طعامه فيه ويقضى نهاره صامتا ويمضى ليله نائما بين قفف الفحم وجوالاته . وكان الناس يتهامسون أن العم إبراهيم لا يغادر الدكان لأنه يدفن فيها صفائح الذهب والفضة ، وما كنت أصدق ما يتناقله الناس عنه فقد كنت أراه يتناول طعاما واحدا وأن له صبرا عجيبا على الفول والطعمية .

وذات يوم انتشر فى الشارع أن الشيخ مصطفى عزم أبو النور على الغداء وأنهما سيذهبان إلى بيت الشيخ مصطفى فى زرع النوى للغداء . وانتشر الهمس بين الرجال وكان الهمس ينتهى بابتسامات ، وبلغ الأمر أن اثنين من أصدقاء أبى قد تراهنا على شيء لم أدر ما هو . وفى اليوم التالى تكشف كل شيء ، ذهب الرجلان إلى البيت ووضع الشيخ مصطفى كيلو الفسيخ أمام الضيف وبدأ الضيف فى الأكل فالتهم الخبز الذى فى شقة الشيخ ، وأراد الشيخ أن يلبى طلب الضيف من الخبز فأرسل إلى امرأته يطلب منها مشنة العيش ، وكان الناس يخبزون الخبز فى البيت ليكفيهم عدة أيام ، وأتى أبو النور على مشنة العيش وعلى الفسيخ وعلى السردين الذى أتى به الشيخ مصطفى لأهل البيت . ولم يشبع أبو النور وراح الشيخ مصطفى يرسل أولاده إلى السوق ليشتروا خبزا ، واستمر أبو النور فى الأكل دون أن يشبع . وأخيرا ذهب الشيخ مصطفى إلى أبو النور وقال له متوسلا :

— أرجوك . ما تفضحنيش .

وفى صبيحة ذلك اليوم كان كل تجار شارع سوق الجراية يتفكهون بما كان بين الشيخ مصطفى وأبو النور . واتضح لى أمر ذلك الرهان الذى كان بين صديقى أبى ، تراهن أحدهما على أن الشيخ مصطفى لن يستطيع أن يشبع أبو النور وكسب الرهان ، وقال وهو يضحك :

ـــ مش قلت لك ده صاروخ .

وعرفت منذ ذلك اليوم أن « صاروخ » معناها أن الرجل يستطيع أن يأكل دون أن يشبع ، وقد رأيت الفراشين فى بعض أفراح الحى يقبضون على بعض الرجال ويشبعونه ضربا وهم يجذبونه بعيدا عن الموائد ويقولون :

ـــ صاروخ ، ده صاروخ .

حاولت فى ذلك الوقت أن أجد من يشرح لى تلك الظاهرة ، ولكننى لم أقتنع بكل ما قيل لى لأن ما كان يقال شىء لا يصدقه عقل .

وضحك كل الحى مما كان بين الشيخ مصطفى وبين أبو النور إلا العم أحمد الجزار الذى كانت دكانه ملاصقة لدكان الشيخ مصطفى ، فهو عابس دائما ، وقد لفت ذلك العبوس كل زبائنه حتى قيل إن فى حياته سرا ، وتوسع الناس فى سوء ظنهم فأكدوا أن السر يتعلق بحياته الزوجية ، وكان سبب ذلك الاستنتاج أن أحدا لم ير زوجته أبدا ، ولم يُر شباك من شبابيك شقته مفتوحا ، فأطلق الناس الأعنة لأخيلتهم ليتصوروا ما شاء لهم التصور ما يمكن أن يجرى بين رجل عبوس وأهل بيته خلف أبواب وشبابيك مغلقة . ولما كانت أغلب القلوب مريضة ، ولما كانت قالة السوء أسرع انتشارا من الكلمة الطيبة ، فقد أصبحت الأوهام حقيقة والخيالات أمرا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأصبحت للرجل صورة واضحة فى الأذهان وإن كانت بعيدة عن حقيقة جوهره وعن لب الحقيقة .

٢٠

عاد فريدون من مدرسته وهو فى قمة السعادة ، فقد أتيحت له فرصة رسم سعد زغلول . كان يجيد الرسم وقد انضم إلى فرقة الكشافة بمدرسة باب الشعرية ، وجمعت الظروف الحسنة بين الفرقة وبين زعيم الأمة ، فقدم المشرف على الفرقة التلميذ الصغير إلى بطل ثورة ١٩١٩ ، وقال للزعيم إن التلميذ يسعده ويشرفه أن يتفضل حبيب الشعب ويسمح لابنه الصغير أن يرسمه .

فابتسم سعد باشا وسمح لفريدون بأن يرسم له صورة بالفحم ، فكان أول ما بدأ به فريدون أن رسم أذن الزعيم ، فسأله سعد مداعبا :

ــ اشمعنى بديت بودنى ؟

فقال فريدون على الفور :

ــ لأنى سمعت أن سمع دولتكم قوى .

هذا ما قاله فريدون وهذا ما وعيته مذ سمعته منه ، والله وحده يعلم إن كان ذلك قد وقع فعلا أو أن القصة كلها من نسج الصبى الصغير ، فقد كانت هناك منافسة قوية بين فريدون وبين فؤاد الشامى ، كان كل منهما يطلق لخياله حرية السبح والسرح إذا ما تحدث عن نفسه وعن مغامراته .

وكان التنافس يصل بين الاثنين إلى درجة التحدى ، فكان كثيرا ما نرى فؤاد الشامى وفريدون يلعبان لعبة الذراع الحديدية . كان يركز كل منهما كوعه على قاعدة شباك البدروم الذى يجلس عليه دائما فى حارة بحر ، ويقبض كل منهما بكفه على كف غريمه ثم يحاول كل منهما أن يثنى ذراع الآخر ، حتى يطرحه أرضا ، وكان فؤاد والحق يقال ينتصر على فريدون فى كل مرة ، ولكن فريدون يدعى أن فؤاد كان يميل بكل جسمه وهو يحاول أن يثنى ذراع خصمه ولم يكن ذلك من أصول اللعبة .

وكان فؤاد يزعم أنه أقوى من لعب هذه اللعبة وكان يقول متحديا :

ــ من يلاعبنى برا دى فير ؟ Bras de Fer

وكان فى لسانه لثغة فكان ينطقها نطقا فرنسيا صحيحا ، وذات يوم جاء ليلعب معنا محمد ابن عمى عبد الغنى ، وكان غلاما ساذجا إلا أنه كان قوى البنية ، وسمع فؤاد وهو يتحدانا جميعا ويزعم أن أحدا لم يخلق بعد ليهزمه فى لعبة الذراع الحديدية ، وقبل محمد ابن عمى التحدى فى تواضع ، ثم ركز مرفقه على قاعدة الشباك وقبض على كف فؤاد وفى يسر عجيب ثنى ذراع فؤاد ، فصاح فؤاد :

ــ لا .. لا .. دا مال بكل جسمه .

وقبل محمد عبد الغنى أن يلعب مع فؤاد مرة تانية وهزمه فى المرة الثانية . وضايق فؤاد أن يهزمه غلام حدث فأتى بكرة حديدية يتصل بها قضيب قصير من الحديد ،

وقبض على قضيب الحديد وراح يرفع الكرة للتدليل على قوة رسغه ونظر إلى محمد عبد الغنى فى تحد ، فمال محمد وقبض على قضيب الحديد ورفع الكرة إلى أعلا وذراعه ممددة ثابتة على قاعدة الشباك ، ثم ترك الكرة وانسل فى صمت وفؤاد يرقبه فى غيظ شديد .

وضايق فريدون فؤادا بتعليقاته فأسرها فى نفسه ، فلما ذهبنا إلى السينما وعدنا إلى الحى نتناقش كعادتنا كان فريدون واقفا وقد أسند رأسه إلى حديد بلكونة فى الدور الأرضى ، وحمى الحديث بين فؤاد وفريدون فما كان من فؤاد إلا أن لكم فريدون لكمة قوية فى وجهه ، فكانت لكمة قاسية وكان رد فعل حديد البلكونة أقسى . إنه تألم من اللكمة ومن ارتطام مؤخر رأسه بالحديد .

وبدأت مشادة كلامية حادة بينهما ، ثم انطلق فريدون إلى خاله شيرازى يشكو إليه ما أصابه على يد فؤاد ، ووقفنا ننتظر ما سيفعله الخال بفؤاد . كنا نتلهف لرؤية الصدام القادم ، فخال فريدون مصارع مفتول العضلات أو هكذا خيل إلى فى ذلك الوقت ، وهو قادر على أن يضرب فؤاد . وكنا جميعا نتمنى من كل قلوبنا أن يوجد فى الحى من يضرب فؤاد وأن يكسر غروره .

وجاء شيرازى وفريدون وأخوه عباس خلفه وأسرعنا إليهم لنسير فى موكب التحدى ، انضممنا صراحة إلى فريدون وتأهبنا لنشهد معه ، فقد بدأت مضايقات فؤاد لنا توغر صدورنا .

ووقف شيرازى أمام فؤاد وجها لوجه ، ودار بينهما حوار انتهى بالاعتذار والتهديد . ولم ترتح لذلك نفوسنا فقد كنا نشتهى أن تمرغ كبرياء فؤاد فى الأرض . وأردنا أن نتأسى فابتعدنا عنه وأخذنا نضخم أقوال شيرازى وتهديداته ونرقب ما نأتى به الأيام .

وكان فى الحى فريق كرة أكبر من فريقنا ، كان يضم بعض لاعبى الأندية ولاعبى المدارس الثانوية . وأراد فؤاد أن ينضم إلى ذلك الفريق ، ولم تلق إرادته استجابة فحنق على كل من فيه ، ودارت ذات يوم مناقشة بين فؤاد وبين فرغل أحد أفراد الفريق الكبير

. انتهت بأن هم فؤاد بضرب فرغل ، فما كان من فرغل إلا أن وضع يديه فى جيبى بنطلونه وراح يضرب فؤاد بكلتا رجلية ، كأنما كان يضرب كرة ضربات مباشرة .

وعجز فؤاد عن أن يتقدم ويحقق هدفه بأن يقبض على وسط فرغل ، وكانت علقة علقت بذهنى . وبعد أن انصرف فؤاد يلعق هزيمته رحنا نحتفل بتلك الهزيمة التى قد تعيد إلى فؤاد صوابه ، ولكن فؤاد عاد فى اليوم التالى كأن لم يضرب بالأمس وراح يضايقنا فى لعبنا مستغلا تفوقه الجسمانى علينا .

وتشاورنا وقررنا أن نقاطعه ، وأن نلفظه من مجتمعنا الصغير ، وكان القرار بالإجماع ، ولكن من ذا الذى يعلق الجرس فى عنق القط ؟ وتقدم أخى سعيد وقال :

ــ أنا سأتحداه .

وجاء فؤاد والتفتنا جميعنا إلى سعيد ، ترى هل ينكص على عقبيه ويتقوقع من الخوف ؟

وتقدم سعيد من فؤاد وقال له :

ــ مش عايزينك تلعب معانا .

ــ طب ما فيش لعب .

وأتى سعيد بالكرة وقال فى تحد :

ــ لأ . فيه .

ولعب سعيد الكرة إلينا لنبدأ مباراة التحدى ، فهجم فؤاد واغتصب منا الكرة وأخرج من جيبه مطواة وجعل يطعنها طعنا ثم راح يمزقها قطعا ، فقال له سعيد وهو يقف على رأسه :

ــ فالح . هو ده اللى قدرت عليه ؟

فألقى فؤاد بقطع الجلد إليه وقال وهو ينتصب فى تحد :

ــ أنا مش ح اضربكم انتم . أنا ح اضرب أبوكم هناك فى الدكان .

وذهب فؤاد من أمامنا ، والتفت سعيد إلى أشلاء الكرة وقال :

ــ أهو ده تمن طرده .. مش ح يرجع هنا تانى أبدا .

وفى المساء علمنا أن فؤاد ذهب إلى أبى يعتذر عما بدر منه ، وأن أبى هدده بألا

يقترب منا . ورحل فؤاد من حينا ونزل بالبكرية ، بحى قريب آخر قريب من حينا ، وكانت بداية انحدار فؤاد الشامى .

٢١

لم تذق مصر طعم الراحة منذ أن ولدتُ ؛ قاست ويلات الحرب العالمية الأولى وما انتهت الحرب حتى فرضت إنجلترا عليها الحماية ، وثارت مناقشات حول ضم مصر إلى ممتلكات الإمبراطورية البريطانية التى لا تغيب عنها الشمس وفرض الحماية عليها ، وقيل فى ذلك الوقت إن الحماية أخف وأهون من الضم لكأنما كتب على مصر ألاّ تعرف الاستقرار . وتكون الوفد المصرى وقامت ثورة ١٩ وقبض على سعد باشا ونفى هو وصحبه إلى مالطة ، وعاد سعد من منفاه ثم قبض عليه ثانية ونفى ثم عاد ، وجاءت لجنة ملنر وحدثت مقاطعة اللجنة ، واستمر الكفاح بين المصريين والإنجليز وظلت النار مشبوبة لم يخب لها أوار .



وكانت المشادات السياسية تشب فى كل مكان ، وكانت أغلبية الشعب وفدية حتى إن غلاة المتعصبين للوفد كانوا يقولون : الاحتلال على يد سعد ولا الاستقلال على يد عدلى . وأجريت الانتخابات وقد شغلت الانتخابات كل طوائف الشعب ، وأنفق الناخبون أموالا طائلة ، وانتشرت الشائعات حول المبالغ التى بعثرت لاكتساب الأصوات ، فقيل إن سليم عبده مرشح الوفد فى دائرة الجمالية أنفق كل ثروته ليفوز فى الانتخاب .

وفاز الوفد فوزا ساحقا ، وانطلق النواب الوفديون إلى مجلس الأمة ، واجتمع المجلس اجتماعا صاخبا خرجت أنباؤه إلى الشعب ، قالت الصحف إن المجلس انتخب سعد باشا زغلول رئيسا لمجلس النواب وقالت بعض الأخبار إن عباس محمود العقاد قال فى حماس : إن الأمة على استعداد لأن تسحق أكبر رأس فى البلاد . وفى الحال صدر مرسوم ملكى بحل مجلس النواب قرأه زيور باشا ، وكان أقصر مجلس نواب فى عمر الحياة النيابية فى مصر ، فقد كانت مدته ساعة واحدة .

وراح الناس يتحدثون فى كل شىء ، فى سبب العداوة الشديدة بين الملك فؤاد وسعد زغلول ، فقيل إن عرش مصر قد عرض مرتين على سعد باشا فى أثناء نفيه ، عرض عليه فى جبل طارق وفى عدن ، فعششت العداوة فى قلب الملك فؤاد منذ ذلك الوقت . وشغل الناس بمحاكمة العقاد وبالحكم عليه بالسجن . وابتدأت أهتم بقراءة الصحف وبمتابعة ما ينشر فى مجلة الكشكول ، ولأول مرة رأيت الكاريكاتور يلعب دورا كبيرا فى حياتنا السياسية .

كنت أحقد على الرغم من صغر سنى على سليمان فوزى رئيس تحرير الكشكول لأنه كان يهاجم سعد باشا ، كنت أحب سعد باشا لما أسمعه عنه من أبى وأصحابه ، ولكن ما كان يمر أسبوع دون أن أقرأ الكشكول وأحفظ ما تقوله صوره الكاريكاتيرية .

وفى ذلك الوقت كان أبى قد اشترى قطعة أرض فضاء بشارع سكة الظاهر وكان قد بدأ فى بناء بيت فيها لنسكن فيه ، لم يكن البيت الجديد يبعد عن بيتنا أكثر من مائة متر ، ولكن كان فرحى به شديدا لا لأنه أول بيت يملكه أبى ، فقد اشترى أبى قبل ذلك بيتا كبيرا فى شارع محمد على ، واشترى آخر بشارع صبرى بالظاهر وقد كتب فى

حجة البيت أنه منزل بضواحى القاهرة ، بل لأن أمام بيتنا الجديد لوحة إعلانات لسينما إيديال ، فلن أهرول صباح كل يوم اثنين من بيتنا الحالى إلى حيث تقع اللوحة لأعرف برنامج السينما . سيكفى فى المستقبل أن أفتح الشباك أو أقف فى البلكونة لأقرأ برنامج السينما الحبيبة إلينا .

وراح أصدقاؤنا الصغار يحسدوننا على تلك النعمة الكبرى ، نعمة أن يكون أمام بيتنا لوحة إعلانات سينما إيديال . وارتفع البناء وراح النحاتون ينحتون الحجارة التى حول باب الدار ، وقبل أن يقوم أحدهم بنحت حجر سرة عقد الباب ، جاء فريدون وكتب بخطه الجميل ١٩٢٥ ، ووقفنا نرقب النحات وهو ينحت حول ما كتبه فريدون بمهارة ، ثم رفع الحجر ليوضع فى مكانه ونحن ننظر إليه فرحين مستبشرين ، لكأنما كنا نشهد وضع الحجر الأساسى لمشروع ضخم سيعود على الأمة بالنفع العميم .

وعدنا إلى مكاننا فى حارة بحر نختار اسما للمجلة التى عزمنا على إصدارها وطبعها بالبالوظة ، فقد كان أخى سعيد قد كتب كل موادها ، كتب القصة وكتب المقالات وكتب الأزجال ، وكان سعيد وهو فى تلك السن المبكرة قادرا على أن يحرر وحده مجلة كل أربع وعشرين ساعة . واستقر الرأى على أن تحمل المجلة اسم « نهضة الأشبال » وراح فريدون يكتب بالحبر الزفر مواد المجلة ويزينها بالصور التى يرسمها ، ورحت أعاون على طبع المجلة ، وكان ذلك أول عهدى بالطباعة .

كانت طباعة البالوظة لا تطبع أكثر من عشرين نسخة واضحة ، فلما تم طبع النسخ أخذت بعضا منها ورحت أوزعها على الأحياء المجاورة وكنت فى قرارة نفسى فخورا بباكورة أعمالنا الأدبية . ومن كثرة ما قرأت موادها على البنائين الذين كانوا يعملون فى بناء بيتنا الجديد وعلى رفاق الصغار حفظت موادها عن ظهر قلب ، وكنت أفضل القصة الزجلية التى نظمها أخى سعيد ورسم صورها فريدون على قصة سرفانى المصوراتى وقصة دان ودورا وتلك القصص التى كانت تصدر فى مجلة الأولاد المصورة فى ذلك الوقت .

وجاء فريدون ذات يوم مزهوا وأخبرنا أن حسنى أفندى مدير سينما أوليمبيا قد اتفق معه على أن يرسم صورة بالألوان كل أسبوع لبطل الفيلم الأجنبى الذى يعرض فى

الدار ، و لم نصدق الخبر ولكن حدث أن عرجنا يوم الخميس فى أثناء سيرنا إلى سينما إيديال على سينما أوليمبيا ، فرأينا فوق شباك التذاكر صورة جميلة فى إطار وقد ظهر فى طرفها الأيمن توقيع فريدون ، فوقفنا مشدوهين نقرظ الصورة تارة وننتقدها تارة أخرى ، فكان ذلك أول عهدى بالفنون وبالنقد .

كان فريدون من المتعصبين مثلنا لسينما إيديال ، ولكن بعد أن تعاقدت معه سينما أوليمبيا على رسم صور أبطالها صار فريدون من رواد سينما أوليمبيا ، فالتمس بعضنا له بعض العذر ، ولكننا كرهنا فيه تلك النوازع المادية ، فلولا الجنيهان اللذان كان يدعى أنه يقبضهما ثمنا لكل صورة لما خان مبدأه .

وأصدرت سينما أوليمبيا مجلة باسم سينما أوليمبيا ، كانت تنشر فيها أخبار الكواكب وقصة مترجمة وبعض الحكم والنوادر الأدبية . وطرأت على أخى سعيد فكرة أن يكتب قصة يستوحى أحداثها من الأفلام التى يشاهدها ، وكتب سعيد قصة تقع أحداثها فى محطة سكة جديد وكيف أن « المحولجى » قد أنقذ فى اللحظة الأخيرة ابن حبيبته التى قد هجرته وتزوجت غيره وكان يلعب على قضيب القطار ، والقطار قادم بأقصى سرعة ، أنقذه بنفس الطريقة التى تتبع فى الأفلام ، ألا وهى تحويل القطار إلى قضيب آخر فى الوقت الذى يستسلم فيه الضحية لمصيره المحتوم .

وظهرت القصة فى مجلة سينما أوليمبيا وكدنا نطير من الفرح ، فها هو ذا عبقرى آخر قد ظهر فينا ، ولم أطمع فى ذلك الوقت أن يأتى يوم يكتب فيه اسمى بحروف الطباعة ، كان ذلك فوق كل أحلامى وأبعد كثيرا عما كنت أتمنى .

وكتب سعيد قصة أخرى عن بوليس سرى أطلق عليه اسم بنتون دك ، فما كانت أسماء أحمد ومحمد وفاطمة تصلح فى ذلك الوقت لتكون أسماء لأبطال القصص ، فلكى يكون الإنسان بطلا لقصة لا بد أن يكون له اسم أجنبى ، فقد كان ذلك العصر عصر الترجمة ، وما كنا نقرأ إلا قصص فانتوماس وجونسون وابن جونسون وشارلوك هولمز وقصص المغامرات الأجنبية التى كانت تنشرها صحيفة الأهرام .

ونشرت قصص سعيد فى مجلة سينما أوليمبيا وعلى الرغم من ذلك ظل ولاء سعيد لسينما إيديال ، وكان ذلك درسا فى الوفاء أعجبت به وصرت أتأسى به فى حياتى المقبلة .

٢٢

كان أخى أحمد يجلس على أول شباك فى حارة بحر ليس له من عمل إلا أن يصدر إلىّ الأوامر ، وكان علىّ أن أنفذها وإلا كان نصيبى الضرب ، التفت حوله فوجد أن أصدقاء الحى قد اجتمعوا فقال لى :

ــ اطلع هات الكورة .

فصعدت إلى الدور الرابع وأحضرت الكرة ، فراح يلعب فى اندماج حتى تفصد منه العرق فقال لى :

ــ اطلع هات قلة ساقعة .

فصعدت إلى الدور الرابع وأحضرت القلة ، فلما شرب وارتوى ناولنى القلة فأردت أن أتركها على شباكه المفضل فقال لى زاجرا :

ــ باقول لك طلعها .

وحملت القلة وصعدت إلى الدور الرابع وأنا ألتقط أنفاسى التقاطا ، ورأتنى أمى فقالت :

ــ أهو ح تفضل طالع نازل لغاية لما ينقطع قلبك .

وما إن هبطت حتى صاح أحمد بى :

ــ اطلع هات إبرة وفتلة .

وصعدت إلى الطبقة الرابعة وأحضرت له ما طلب ، وما كدت أناوله الإبرة حتى أحس أن فانلته قد بللت بالعرق فقال لى فى بساطة :

ــ اطلع هات لى فانلة .

وضاق صدرى ، لماذا لم يطلب منى أن أحضر له الفانلة عندما طلب إحضار الإبرة ، فقلت فى تحد :

ــ مش طالع .

فقام ولطمنى ثم أردف ذلك « بشلوت » وقال فى بساطة :

ــ والله ما انت فالح .

و لم أدر ما الصلة بين فلاحى وبين صعودى وهبوطى فى الدرج إلى الطبقة الرابعة عشرات المرات فى اليوم الواحد .

وكان اليوم يوم الجمعة وكان علىّ أن أذهب إلى دكان أبى لأحرسه حتى يؤدى كل من فيه الصلاة ، فأخذت اثنين من أصدقائى الذين كانوا فى مثل سنى وانطلقت إلى شارع سوق الجراية ، فوصلت أنا وصديقاى قبل الأذان بدقائق ، فأحكم أبى إغلاق الخزانة ، وترك لى مفتاح صندوق النقود وانصرف ، فراح صديقاى ينظران إلىّ فى عجب ويقولان :

ــ ساب لك مفتاح الدرج ؟!

ــ وفيها إيه ؟.

ــ الفلوس قدامك ومتخدش منها حاجة !

وسخرت من أفكارهما . إن هذه ليست أول مرة يترك فيها أبى مفتاح الصندوق ، بل إن أبى كان يبعث معى وأنا طفل بمائة جنيه أوصلها إلى جدى ، وكنت أحرس دكان عمى حنفى أثناء ذهابه للصلاة . وقد حاول عمى أن يعطينى ذات مرة قطعة شيكولاته ، فأحسست أن ذلك ثمنا لحراستى فشعرت بضيق شديد لأن عمى قد جرح كرامتى بما فعل ، كنت أحس على الرغم من صغر سنى أن الماديات تشين العلاقات الإنسانية .

وعدنا أنا وصديقاى بعد أن قضيت الصلاة إلى حارة بحر ، ولم تعد حارة بحر لنا وحدنا فقد سكن فى البيت الواقع خلف بيتنا فى الطبقة الأرضية أناس يديرون الشقة للدعارة ، وكانت الشقة مناسبة لذلك كل المناسبة ، فشبابيكها الجانبية تطل على حارة بحر وشبابيكها الخلفية تطل على حديقة واسعة والقفز من كل نوافذها ميسور ، فهى لا ترتفع عن الأرض أكثر من متر .

وكان لهؤلاء الناس ولدان أحدهما فى مثل سن أخى أحمد والآخر فى مثل سنى ، ابتدأ الولدان فى تعليم أطفال الحى شرب السجاير ، فكان الأولاد يشترون السجاير من

العم جرجس ، وكانت دكانه تبعد عن بيتنا الذى كان فى مرحلة البناء بضعة أمتار ، وكانوا يشربون السجاير فى نهاية حارة بحر تحت شبابيك الأسرة العتيدة .

وامتنعت أنا وأخى أحمد وأخى سعيد وبعض الصبية عن مجاراة الآخرين فى شرب السجاير ، فما كان أحد فى بيتنا يمسك فى يده سيجارة ، كانت بالنسبة لنا شيئا غريبا بل كانت شيئا محرما .

وراح الولدان الجديدان على الحى يجران الأولاد إلى الفساد ، اشتريا خمرا رخيصة من العم جرجس وفرشا حصيرة فى نهاية حارة بحر وجلسا عليها وأغريا الأولاد بالجلوس ، فجلس المساكين معهما وراحوا يتناولون الخمر ويضحكون . ووقفنا بعيدا ننظر فى أسى إلى أصدقائنا الصغار الذين شربوا السجاير والخمر و لم ينل أحدهم بعد الشهادة الابتدائية .

وكان أغلب سكان حينا من اليهود ، فجمع الولد الذى كان فى مثل سنى بعض فتيات اليهود الصغيرات فى بير السلم أمام باب شقته ، ونادانا ليعلمنا كيف نمارس الجنس معهن ، لكأنما كان يحاول أن يربى زبائن لأهل بيته اللاتى كن يقابلن الرجال فى الليل والنهار دون حياء .

واشتهر أمر ذلك البيت الموبوء فى الحى ، وأظهر الرجال استياءهم لوجود هؤلاء الساقطين بين الأشراف . وذات يوم فطنت إلى أن البيت مراقب ، وما كان ذلك ليحتاج إلى فراسة ، فالمخبرون كانوا يرتدون الأحذية الميرى ويلبسون جلبابا فوق ملابسهم الرسمية ، وكانت كل حركة من حركاتهم تصيح : أنا مخبر .

أمسينا بعد موت جدى نبيت مع جدتى ، وفى سكون الليل سمعنا ضجة فى البيت الواقع خلف بيتنا ، نسوة يولولن وأصوات تهتك سكون الليل :

— امسك .. امسك .

ورجال يقفزون من شبابيك البيت الذى كان يدار للدعارة ، ووصلت إلى مسامعنا أصوات تقول فى فرح :

— البيت السرى انظبط .. البيت السرى انظبط .

وراحت جدتى أم عبد الغنى تغلق الشبابيك حتى لا يخدش مثل ذلك القول البذىء

آذاننا ، وأخذت تغدو وتروح فى الشقة وهى تقول فى ابتهال :

— يارب استر على ولايانا .. يارب استر على ولايا .

وكانت دموع جدتى قريبة فسالت دموعها على خديها .

وفى الصباح الباكر كنت أنا وأخواى وأولاد الحى نجوس خلال الشقة الخالية ، نبحث عما خلفته فيها النسوة الساقطات ، ورحنا نعلق على بقايا القطن تعليقات من وحى أخيلتنا الصغيرة التى لم تسعفها التجربة .

٢٣

كانت العداوة مشبوبة بينى وبين الكتب المدرسية ، فلا أذكر أننى فتحت كتابا طوال مدة دراستى الابتدائية . رسبت فى السنة الأولى ، فلما أعدت نفس الدروس — سنة أولى — انتقلت إلى السنة الثانية ، وفى السنة الثانية رسبت طبعا ، وامتحنت فى الملحق فى الترجمة فرسبت أيضا ، وجاءت وزارة سعد باشا فأجرت ملحقا للملحق بحجة أن السنة قد ضاعت فى الإضرابات ، فامتحنت مرة ثالثة فى الترجمة ، فكيف كانوا ينتظرون منى وأنا فى السنة الثانية الابتدائية أن أترجم إلى الإنجليزية تلك الجملة التى حضرت فى ذاكرتى منذ ذلك الامتحان الرهيب : « إذا سرت فى شوارع القاهرة رأيت المبانى الضخمة العالية » . وراح واضع الاختبار يستعرض عضلاته فى اللغة العربية واللغة الإنجليزية فرسبت فى الملحق الثانى ورحت أعيد السنة .

وانتقلت بعد سنتين إلى السنة الثالثة ووقعت المعجزة التى ما كان أحد من أهلى ينتظرها ، انتقلت من السنة الثالثة إلى السنة الرابعة دون أن أرسب فى أية مادة ، وكانت دهشتى تفوق دهشة كل أهل بيتى ، فقد كان شيئا لا يصدق أن أنجح دون أن أقرأ فى الكتب التى كانت مقررة علينا .

وما كان عزوفى عن القراءة يرجع إلى كسلى بل ضنا بجهد أنفقه دون ثمرة ، فقد كانت فكرة الموت تلازمنى ، وكنت أقنع نفسى أنه عبث أن أتعب نفسى فى المذاكرة ثم أصبح ميتا ، وكنت كلما استيقظت فى الصباح وفتحت عينى ورأيت النهار قد

تنفس أستشعر هزيمة منكرة لأنى لا أزال على قيد الحياة وأن روحى لم تفارق جسدى فى أثناء نومى .

وتيقنت على مر السنين أن الموت ليس أمرا سهلا وأنه ليس رهن إشارتنا ، فعزمت على أن أغير نظرتى إلى الحياة ، أن أعمل وأن أذاكر وأن أترك الموت يأتى وقتما يشاء .

كانت حياتى كلها لهوا ، كنت أعيش لأذهب إلى السينما أو لألعب الكرة فى فريق الحى وفى فريق المدرسة وفى فسحة الغداء فى حوارى الدرب الأصفر ، فوطنت نفسى على أن أخصص وقتا للمذاكرة . ولكن من أين ذلك الوقت وأنا ألعب مع فريق المدرسة يوم الخميس ومع فريق الحى يوم الجمعة وأذهب إلى سينما إيديال وسينما الكلوب المصرى بالحسين وسينما الكوزمو جراف الأمريكانى وسينما الشعب ؟ إن الذهاب إلى السينما ولعب الكرة يلتهمان كل وقتى فلا وقت للمذاكرة . كانت نية المذاكرة متوفرة ولكن ما حيلتى وليس لدى وقت لها ؟!

طغت مباريات الكرة على الوقت المخصص للسينما لأننى كنت أذهب إلى دور العروض فى حفلة الساعة الثالثة ، ولما كنت أحسب عمرى بعدد الأفلام التى أشاهدها فكان لا بد أن أجد حلا لهذه المشكلة . وكان الحل أن نذهب إلى السينما فى حفلة الساعة السادسة ، ولكن ذلك الحل دونه صعاب فلن توافق أمى على ذهابنا ليلا إلى السينما التى تفسد أخلاقنا وتعلمنا السرقة والانحراف ، وما كنا ندرى من أين جاءت هذه الأفكار إلى أمى و لم تشاهد السينما فى حياتها قط .

ورأينا أن خير ما نفعله أن يضغط رفاق الحى على أمنا لتسمح لنا بالذهاب معهم إلى السينما فى حفلة السادسة .

وجمعنا أصدقاءنا الصغار الذين كانت أمهاتهم يزرن أمى فى اليوم الذى خصصته لاستقبال جاراتها ، كنوع من الإحراج . وصعد الصغار لمقابلة أمى والتوسل إليها لتسمح لنا بالذهاب معهم إلى السينما ، وجريت بعيدا عن البيت حتى لا أكون هدفا لثورتها إذا ما ثارت وحتى أكون بعيدا عن اللطمات والصفعات والركل واللكمات التى كانت تهوى على ظهرى فتكاد تقصمه .

ونزل رفاق الحى من بيتنا تتهلل وجوههم بالفرح ، فقد سمحت أمى بعد توسلات

والحاف فى الرجاء أن نذهب إلى السينما فى حفلة الساعة السادسة ، وكان ذلك بمثابة انقلاب وقع فى بيتنا . كيف قبلت أمى أن نذهب إلى السينما مساء وهى التى كانت تحارب ذهابنا إليها نهارا ؟!

ولم نسر على أقدامنا إلى السينما كما هى عادتنا بل ركبنا الترام من الظاهر إلى العتبة الخضراء ، فقد أعطتنا أمى نقودا لنركب . يا الله ! ما كل هذا الرضا ؟ ولأول مرة ذهبت إلى السينما مطمئنا أكاد أطير من الفرح ، فما أعظم النشوة التى نحسها إذا ما فعلنا شيئا وأهلنا عنه راضون . لم يعد هناك دافع للكذب لتبرير غيابنا عن البيت .

وسرت فى العتبة الخضراء أتلفت وقد ملأت النشوة جوانحى . كانت العتبة تموج بالناس ، عربات السوارس التى تجرى بين العتبة والحسين فى شارع الموسكى قد اصطفت عند نهاية مشوارها ، وإلى جوارها وقف الحمارون إلى جوار حميرهم يغرون بالركوب من هم على عجل من أمرهم ، وعربات الترام تجرى مقبلة مدبرة على قضبانها . كان المشهد فى الليل غيره فى النهار ، فقد أضفت الأنوار الخافتة المنبعثة من مصابيح الطرق ومن الحوانيت عليه سحرا .

ودخلنا السينما وجلسنا فى أماكننا ولم تستقر عليها أجسامنا من النشوة ، وشاهدنا هارولد لويد فى فيلمه « اصعد إلى فوق » . كان فيلما كوميديا فراحت الضحكات والقهقهات تهز السينما هزا . ومر الوقت سريعا كما تمر كل اللحظات السعيدة فى حياتنا ، وخرجنا من السينما وكل منا يذكر المشهد الذى أضحكه . ونظرت إلى أخى سعيد فألفيته مندمجا فى الفيلم يروى فى انفعال كيف كانت العقبات التى تعترض صعود هارولد لويد إلى الساعة التى كانت فى قمة البناء الذى كان يصعده مثيرة للضحك .

ترى ماذا سيكون أثر هذا الفيلم فى سعيد ؟ حدث ذات يوم أن شاهدنا فيلما قصيرا لزيجوتو فى سينما إيديال بالطبع ، وكان اسم الفيلم زيجوتو والخطر الأصفر . وكان الموضوع يدور حول مطاردة الصينيين لزيجوتو ولا أدرى لماذا ؟ فقد كانت تلك الأفلام المضحكة تدور حول المطاردة وما فيها من مضحكات .

وصعد زيجوتو فى أثناء هربه إلى سطح عمارة شاهقة وكانت فى يده مظلة عادية ، وحدث أن لحق به مطاردوه واندفع نحو سور السطح والصينيون فى أثره . وخوفا من

أن يسقط فى إيدى أعدائه نشر المظلة العادية وقفز بها من فوق العمارة الشاهقة ووصل إلى الأرض بسلام .

وعدنا إلى البيت بعد أن شاهدنا ذلك الفيلم وكان سعيد يتحدث طوال الطريق عن مغامرة زيجوتو ، ثم أكد أنه يستطيع أن يفعل ما فعله زيجوتو فلم نحاول أن نثنيه عن عزمه بل تحديناه ، وقبل سعيد التحدى . وما إن وصلنا إلى البيت حتى أتى بمظلة أبى ووقف ليقفز بها من بلكونة الطبقة الأولى من بيتنا وكانت على ارتفاع ستة أمتار ، إلا أننا التمسنا منه أن يجرب القفزة من الدور الأرضى وقبل التماسنا وهو كاره .

ووقف على درابزين البلكونة الأرضية والمظلة مفتوحة فى يده ورحنا نعد .

واحد .. اتنين .. تلاته .

وقفز سعيد وإذا بالهواء يملأ المظلة ويدفعها إلى أعلى فلا تحتمل ضغط الهواء وتنثنى أسلاكها إلى فوق ، فتبدو وكأنها قد صارت هراوة ، ودك سعيد فى الأرض دكا وارتطمت ذقنه بركبتيه ثم انتصب وقال :

ـــ بسيطة .

وإن كانت الدموع كادت تترقرق فى عينيه .

كان ذلك أيام كان تلميذا معى فى مدرسة الجمالية الابتدائية ، أما الآن فهو طالب فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية وقد نضج تفكيره فلم يعد يحاول أن يقلد ما يراه فى السينما ، بل إن السينما أصبحت توحى إليه بأفكار أخرى ، إنه قرأ نقدا لفيلم « اصعد إلى فوق » ولم يعجبه النقد . إنه يريد أن ينقد الأفلام وأن يكتب القصص ، يريد أن يعبر عن ذاته ، عن الأفكار التى تملأ رأسه ، عن المشاعر التى تموج بين جوانحه ، يريد أن تكون له مجلة ينشر فيها على الناس تلك الخواطر التى تتدفق فى كيانه ، فأفضى إلى فريدون بأمنيته فحبذ فريدون الفكرة وتحمس لها ، ثم قال :

ـــ خالى بيفكر فى إصدار مجلة .

واجتمع الشمل ، وراح شيرازى يتحدث عن المجلة التى يحلم بها وسعيد وأحمد وفريدون يحلقون معه فى سماء الخيال ، وراحوا يختارون اسما للمجلة ، فاستقر الرأى على أن يسموها « البهلوان » .

وراح شيرازى يكتب إلى الداخلية يطلب التصريح له بإصدار المجلة ، وكنت أرقب الأوراق التى تكتب والنماذج التى تملأ فى نشوة عجيبة . ولم تداعب خيالى أية أمنية أن أكتب ذات يوم فى تلك المجلة ، فقد كنت فى المدرسة الابتدائية وكل الشهادات تنطق بأن ليس هناك صلة طيبة بينى وبين الكتابة . يكفينى فخرا وزهوا أن أقرأ اسمى أخوى أحمد وسعيد مطبوعين بحروف المطبعة .

وراح سعيد يعد موضوعات المجلة ، وعكف أحمد على كتابة الأزجال ، وأخذ فريدون يرسم الصور ، وما كنا ندرى ماذا يعد شيرازى حتى كان عصر يوم لا أنساه ، جاء إلينا متهلل الأسارير يقرأ فى زهو الزجل الذى سيجعله شعارا لمجلة البهلوان :

يا بهلوان الله يعينك ويديم حياتك للأوطان
بكره تكيد اللى يكيدك إن كان عزول واللا شيطان

كلام مرصوص ساذج لا عمق فيه . إن سعيد أو أحمد يكتب كلاما أطعم من ذلك الكلام الهزيل ، ولكن ما كنا بقادرين أن تقول الحقيقة ، وكيف نجبهه بالحقيقة المرة وهو سيكون صاحب رخصة المجلة المرتقبة ؟ فرحنا نقرظ الشعار على مضض وإن كانت أذواقنا ترفضه ، وقطعنا مرغمين أول خطوة فى طريق النفاق وما أطوله من طريق .

٢٤

ذهبت إلى دكان أبى فى شارع سوق الجراية ، وكان متحفا للنماذج البشرية : عُلا الشيال يجلس على الرصيف بالقرب من الدكان . إنه قادم من واحة سيوة ، صامت كالبغل ، لا ينطق طوال النهار أكثر من كلمتين أو ثلاث . إنه يحمل اللحم والخضار والفواكه وما يشتريه أبى من لوازم البيت إلى دارنا ، فإذا ما قبض ما يمسك به رمقه أصبح من المستحيلات أن تغريه على أن يقوم بأى عمل فقد حصل على قوت يومه ، أما الغد فله رزقه .

كانت أمى كلما جاء إلى البيت تحاول أن تقدم إليه الطعام فكان يرفضه إلا أن يكون هناك أرز ، فهو يحب الأرز ولا يستطيع أن يقاوم إغراءه . وكان أبى كلما رآه يحاول أن يغريه بالصلاة فكان علا يضع أصابعه فى أذنيه ويذهب إلى مكانه على الرصيف يجلس دون أن يفكر فى يومه أو غده .

وتناثرت حول علا الأقاصيص ، قيل إن له زوجة وابنة فى الواحات وإنه يملك بضع شجيرات من النخيل ، وأنه ما جاء إلى مصر إلا فرارا من زوجته وابنته . وكان بعض الرجال يحاولون أن يجروه إلى الحديث عن ماضيه ولكنه كان يعرض عنهم ويلزم الصمت العميق .

وكان عبد المجيد أفندى كاتب الحسابات فى دكان أبى . إنه إنسان فاضل من أسرة طيبة ، كانت له عين زرقاء وأخرى عسلية اللون ، تزوج أبوه امرأة أخرى بعد أن ماتت أمه فلم يطق أن يعيش مع زوجة أبيه فى بيت واحد ، فترك مدرسة الصنائع التى كان يتعلم بها وجاء إلى دكان أبى يعمل كاتبا ليعيش بمرتبه الزهيد مستقلا حرا ، بعيدا عن أبيه وزوجته .

كان معدن عبد الحميد أفندى نفيسا ، فكان يكتسب الصفات الحميدة ويقتبس أجمل ما فى الناس من حوله ، فكان يصلى الصلوات فى مواقيتها ، وكان راضيا بعيشه ، يحمد الله على ما آتاه . وكانت أحسن صفاته أنه كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله بل كان يفرح لهم أكثر مما يفرح لنفسه .

وكان يأتى إلى الدكان أبو الركب . إنه متين التكوين يرتدى جلبابا أبيض قد اصفر لونه ، وكان الجلباب أو القميص على الأصح يصل إلى ركبتيه ، وكان يتمنطق بحبل ويحمل على كتفه حبلا ، هو كل ما يملك فى الحياة فهو حمال . وكان فى بعض الأحيان يدفع أمامه عربة صغيرة يحمل عليها ما يعجز عن حمله على كتفيه .

كان أبو الركب سليط لسانه . إنه يأبى أن يحصل على مال دون عمل ، وكان قفاه عاريا دائما يغرى بالصفع . وكان يتمادى فى سلاطته حتى يدفع من يحدثه إلى أن يصفعه ، فإذا ما فعل استحق أبو الركب الأجر . وكانت عنده تسعيرة لكل صفعة ، وما من أحد صفعه إلا وقد دفع التسعيرة التى يحددها أبو الركب . ألم أقل لك إنه

لا يستحل أخذ المال دون مقابل !

وكان على بعد خطوات من دكاننا فى نفس الصف دكان الشيخ محمود السنى . إنه رجل نحيل طيب يلبس الطربوش والجلباب وقد أطلق لحيته ، وقد اشتهر فى الحى بأنه أبو التوائم ، فخلفته كلها توائم . وكنا نشفق عليه من كثرة العيال ولكنه كان راضيا لا يشكو ولا يتبرم .

وجاء الشيخ محمود ذات يوم ليحدث أبى فى أمر من أمور العمل ، وفيما هو واقف يحدثه جاء الشيخ مصطفى بائع النشوق ووقف خلف الشيخ محمود واحتك به ، فاحمر وجه الشيخ وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم راح يسفه الشيخ مصطفى ويحقر دعاباته . ورنت ضحكات الشيخ مصطفى مجلجلة فى الحى ، فنظر العم إبراهيم وهو واقف فى دكانه نحو الصوت ولم يفكر فى أن يتقدم ليشارك فى ذلك الهزر الذى بدأه جاره الشيخ مصطفى . أما العم أحمد الجزار فقد ترك اللحم الذى كان يقطعه وجاء وهو عابس الوجه فى يده السكين ، وقال دون أن يضحك أو تنبسط أساريره :

— والله يا شيخ مصطفى أنت تستحق الذبح .

وضحك الشيخ مصطفى ، ونظرت إلى العم أحمد الجزار فى دهش ، يا للعجب ! إنه قادر على أن يمزح وإن كانت كل سماته توحى بالصرامة والجد . وخطر لى خاطر : ترى هل يداعب العم أحمد زوجته ؟ وإذا ما داعبها أيداعبها بالساطور والسكين ؟

إنه مشهد يستحق نصف عمرى أن أشاهد العم أحمد الجزار يداعب امرأة .

وراح أبى يزجر الشيخ مصطفى ويرجوه أن يحترم وقار العمامة ، أما عبد المجيد أفندى فقد ترك الدكان وذهب إلى الجامع الملاصق لدكان العم سيد الدخاخنى وما كان الوقت وقت صلاة .

ومرض الشيخ مصطفى فجاء أخوه أحمد أفندى مدرس اللغة العربية بالمدارس الأولية ليحل محل أخيه فى الدكان ، وراح يذكر وهو يضحك ضحكة هادئة أنه نائب الفاعل يحل محل الفاعل بعد حذفه . كان أحمد أفندى رقيقا مهذبا يتظاهر بالبساطة وإن كان عميقا ، وكان أظهر صفة فيه تلف أعصابه ، إنه يفزع إذا ما رأى أصبعا مجروحة ، ويشيح بوجهه إذا ما رأى العم أحمد الجزار يهم بذبح دجاجة أو أرنب .

وفى ذات يوم بينما كان قادما من شارع الزعفرانى فى طريقه إلى دكان أخيه راح يجتاز قضبان الترام الذى يخترق شارع الخليج المصرى . كانت هناك محطة وكان الترام واقفا عندها . وفى أثناء سير الناس أمام الترام سقط طفل من فوق كتف أمه أمام الترام فطارت نفس أحمد أفندى شعاعا ووضع يديه فوق طربوشه وراح يصيح :

ـــ آه .. آه .

ولم يتقدم إلى شارع سوق الجراية بل نكص على عقبيه وعاد إلى شارع الزعفرانى ، ودلف إلى أول بيت وراح يصعد فى الدرج حتى بلغ السطح ، فراح يدور فى أرجائه وهو يصيح :

ـــ آه .. آه .. آه .

واستمر يدور فى السطح دون هدف ، حتى إذا ما سكن روعه قليلا واستطاع أن يسيطر على أعصابه عاد يهبط فى الدرج ، ثم تقدم خائفا إلى شارع الخليج ، وتلفت فلما لم يجد أثراً لأى ترام راح يجتاز الشارع مهرولا . ولم يخطر له أن يسأل عما أصاب الطفل بل وسع من خطوه حتى وصل إلى دكان أخيه ، فجلس يلتقط أنفاسه ويقول متبرما :

ـــ كان ما لى أنا ومال بيع النشوق ؟

ثم يمد يده فى درج صغير ويأخذ تنشيقة يملأ بها فتحتى أنفه ، ويقدم إلىّ تنشيقة فأرفضها فقد كنت أومن أن الله خلق الإنسان طاهرا ، وأنه حرام علينا أن ندنس أجسامنا وأجوافنا بدخان السجاير أو بتراب النشوق .

كان أبى لنا قدوة ، وكانت أمى وجدتى تتحدثان دائما عن الحلال والحرام ، فكنت أزن كل تصرفاتى بذلك الميزان الدقيق ، وأعتقد اعتقادا جازما أن الله يراقبنى وأن ملائكته لا يتركون كبيرة ولا صغيرة إلا أحصوها ، فكنت أحاذر أن آتى عملا أخجل منه يوم الحساب .

وجاء الناعى إلى سوق الجراية ينعى الشيخ مصطفى ، فانتظرت أن يغلق جيرانه دكاكينهم وأن يهرعوا إلى داره فقد حدث ذلك يوم أن مات جدى . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، ونظرت إلى عيون الرجال فلم أر فيها دمعة تترقرق ، وتطلعت إلى

وجوههم فلم أر أثرا لحزن أو انفعال ، كل ما كان منهم أن قال العم إبراهيم وهو فى دكان الفحم دون أن يغادر دكانه :

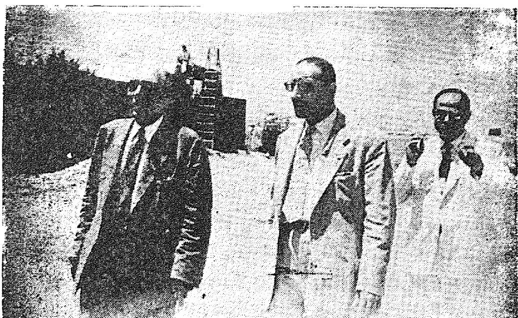
ــ الله يرحمه .

قالها فى بساطة كأن لم يكن بينه وبين المرحوم جيرة سنوات . وقال العم أحمد الجزار :

ــ أهو دلوقت بقى بين يدى كريم غفور .

ما بال الناس يقابلون خبر موت الرجل دون جزع أو اهتمام ؟! حتى أبى سمع الخبر ولم يعلق عليه لا بخير ولا بشر . لماذا كل هذا ؟ ودفعنى حب الاستطلاع إلى أن أنطلق إلى داره فى زرع النوى ، كان السكون يخيم على البيت . أين ما أرى الآن مما رأيته يوم مات جدى ؟ إن صوات النسوة فى بيتنا كان يزلزل الجبال بينا لا أسمع فى بيت الشيخ مصطفى صوت بكاء .

وخرجت جنازة الشيخ متواضعة ، وانطلقوا به إلى مسجد الصوابى أقرب مسجد إلى بيته ولم ينطلقوا به كما نفعل إلى مسجد الحسين . وتعلمت من ذلك أشياء ، تعلمت أن الناس حتى فى الموت لا يتساوون ، وأن أمواتنا يزيدون على أموات الناس درجة .



٢٥

كان العم بحر يعيش فى كشك خشبى صغير ، أقيم فى الشارع إلى جوار باب حديدى لبيت يتوسط بيتنا وبعض بيوت قليلة مجاورة ؛ فشارعنا ينتهى بسور من غاب يفصل بيننا وبين جنينة زرع النوى .

كان العم بحر نوبيا صارم الملامح مفتول عضلات الذراعين والساقين لم يعرف الشحم طريقه إلى جسمه ، وكان طوال النهار وطرفا من الليل جالسا أمام كشكه يغلى الشاى ، فما كان يرى إلا وفى يده كوب أو وهو يوزع الأكواب على ضيوفه النوبيين .

وكان العم بحر يعتقد فى قرارة نفسه أنه حامى حمى الأخلاق فى المنطقة ، فما كان يسمح لغريب أن يمر فى الشارع وفى رفقته سيدة أو فتاة ، فهو يعرف كل سكان الحى وزوارهم . وكان الربيع عدو العم بحر اللدود ففيه يُمارس الحيوان طبيعته على الملأ دون حياء ، وكان ذلك يجرح كبرياء العم بحر ويسخر من رسالته ، رسالة حراسة الأخلاق قبل حراسة الأبواب .

كانت القطط فى ذلك الموسم تشغل وقته وتفكيره ؛ فما إن تموء قطة بنداء الجنس ، وما إن يصلك أذنيه الصوت المميز الذى يهزه من الأعماق ، صوت النداء :

ـــ داوووود ... داوووود .

حتى يهب منفعلا ويخطف هراوته ويجرى ثائرا صوب الصوت ليطرد القطة ، قبل أن تقع فى مملكته الفعلة الشنعاء .

وذات يوم مزق سكون الحى فى الصباح صوت عواء كلب مفزوع ، واستمر العواء يتجاوب فى جنبات شارعنا ، ففتح السكان النوافذ والشرفات ليروا ماذا هناك ، فإذا بكلب كان يمارس الجنس على ملأ من الناس وقد ضبطه العم بحر متلبسا ، فراح يهوى على رأسه بهراوته فى قسوة وانفعال لعله يفر قبل أن تقع الأعين على المنظر الذى

ينال من كرامته ويجرح كبرياءه .

ووقع ما لم يكن منه بد وكانت الفضيحة التى أراد العم بحر أن يتجنبها ، ورأى الناس الكلب وهو يعوى ويحاول أن يفر من قسوة ضربات الرجل القاسى ، ولكنه لا يستطيع ولا يملك إلا أن يجر الأنثى فى أثناء محاولة فراره جرا .

وارتفعت أصوات من أكثر من نافذة وشرفة تنهر العم بحر وتلومه على ما يفعل ، ولكن العم بحر لم يأبه لتلك الاحتجاجات التى تحبذ الكلب الفاسق وتطلب له حرية ارتكاب الفعل الفاضح فى الطريق ، فى مملكة حاول العم بحر أن تظل طاهرة لا يدنسها إنس ولا حيوان .

وكنا على الرغم من حداثة سننا نسخر من تزمت العم بحر ؛ فما أكثر الموبقات التى كانت ترتكب فى مملكته على بعد أمتار من كشكه ، فى أكشاك مثل كشكه تحت سلالم البيوت التى أمامه وعن يمينه وشماله . إنها موبقات تسيل عرق الخجل على جبين البشرية ، فالطباخون والسباكون والخدم يأتون أولاد اليهود شهوة وهو جالس أمام كشكه يغلى الشاى ويتنمر للقطط والكلاب التى تمارس الجنس دون حياء على الملأ !

كان أغلب سكان حينا من اليهود ، فحينا هو أول محطة فى طريق ارتفاع المستوى المعيشى لليهودى بعد حارة اليهود . فإذا ما عرفت النقود طريقها إليه انتقل إلى السكاكينى أو غمرة ، ثم إلى شارع الملك أو مصر الجديدة أو المعادى .

وكانت أغلب المحال الكبرى فى أيديهم ، فكانوا يخرجون كل صباح إلى حيث يعملون فى شيكوريل أو شملا أو عمر أفندى . وكانت البنوك الفرنسية أو الإنجليزية أو الإيطالية أو البلجيكية أو العثمانية تفضل تشغيلهم على تشغيل المصريين ، لكأنما كانت مصالح الحكومة وحدها للمصريين أما ما عدا ذلك من أنشطة فكانت للأجانب وللمتمصرين من اليهود .

لم تكن سنى فى ذلك الوقت ولا مداركى يسمحان بأن تتمرد مشاعرى على ذلك الوضع ، وكانت أقصى أمانىّ أن أذهب مع أبى إلى عمر أفندى لأركب المصعد مع الناس عند صعودنا إلى الطبقات العليا ، أو إلى صيدناوى ليقابلنا صاحب المحل عند الباب مرحبا ، أو إلى شيكوريل لأسير فى ممراته كما يسير القروى الذى جاء إلى

محطة مصر لأول مرة . و لم أحلم أو يخطر لى على بال أن سياقى يوم تكون كل تلك المحال تحت إدارتى .

إن اليهود لا يمارسون أى عمل منذ غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السبت ، لأنهم يعتقدون أن الله خلق الدنيا فى ستة أيام واستراح فى السابع ، وهو يوم السبت . فكانوا لا يوقدون نارا أو يمارسون عملا فى ذلك الوقت ، فإذا غربت شمس يوم الجمعة خرجت الفتيات وربات البيوت يتوسلن إلينا أن ندخل لنشعل لهن وابور الفتايل أو لنضىء لهن مصابيح الجاز . وكنا نتقاضى لقاء ذلك حفنة من لب الجرنة وكنا نطلق عليه لب يهودى ، وكان ذلك يضايق العم بحر ، وكان يزجرنا ويحرضننا على عدم تلبية رغباتهن ، وكنا نصم آذاننا عن زجره وتحريضه . آه لو علم أننا لما كبرنا رفعنا أثمان إضاءة مصابيحهن ، وأن الثمن قد صار قبلة على خد الفتاة أو رشفة من فمها . إنه لو دار ذلك بخلده لطاردنا بهراوته كما يطارد قطط الحى وكلابه فى موسم الربيع .

٢٦

كانت الأراضى الفضاء أمام منزلنا واسعة ، وكان شارعنا ينتهى عند جنينة الكوة ، وكانت أعواد من الغاب تفصل بيننا وبين الجنينة . وكانت الحكومة قد شرعت فى شق شارع فاروق ، فجاءت عربات تلقى الحجارة والأتربة فى وسط الجنينة المنخفضة لترفع الطريق الجديد إلى مستوى شارع العباسية الذى سيبدأ من عنده شارع فاروق ، فانقسمت الجنينة قسمين : قسم انضم إلى حينا ، والقسم الآخر صار مرتعا لغلمان الحسينية والصوابى.وأخذنا ننزع أعواد الغاب فى فرح شديد فقد اتسعت مسارح لعبنا وانضمت إلى أراضى نفوذنا أرض خضراء فسيحة ، سرعان ما أصبحت ملعبا للكرة اشتهرت فى الحى باسم أرض السحارين .

كنا فى الصباح ننصب الفخاخ للعصافير ، وقد كنا نفزع فزعا شديدا إذا ما وقعت فى الفخ يمامة لأننا كنا نعتقد أن صيد اليمام حرام ، فهو فى هديله يقول :

ـــ اعبدوا ربكوا .. اعبدوا ربكوا .

لم نكن نسمع فى دورنا إلا الحرام والحلال فكنا نقيس كل أفعالنا بذلك المقياس ، ولم يكن أهلنا يرددون كلمة الحرام والحلال بأطراف ألسنتهم بل كانوا فى أفعالهم يخشون أن يأتوا ما يغضب الله فكانوا لنا قدوة . وقد غرسوا فى أنفسنا منذ نعومة أظفارنا القيم الروحية فراح ينمو معنا وجدان أخلاقى بعرف للمجتمع حقه ، فكانت حياتنا متناسقة مع أوامر الدين ونواهيه ، فكان أن أحببنا كل ما حولنا وكل من حولنا ، وكانت المصالحة بيننا وبين ذواتنا .

كنا ننتقل فى فضاء حينا الواسع كفراشات طليقة ، وكنا نبتعد كثيرا عن حينا ، وكنا نختلط بأطفال فى مثل سننا يدخنون بل ويشربون الخمر ويمارسون ألوانا من العبث لذى يرفضه المجتمع ويأباه الدين ، فكنا لا نطلق لأنفسنا زمامها ولا نستسلم لها ، بل نقاوم الإغراء ونستمسك بالطريق السوى ، فإذا حاد أحدنا عن الصراط دون أن يراه أحد هب ضميره الدينى يؤنبه ويتوعده بعذاب الله .

لم تخمد نار جهنم فى ضمائرنا أبدا ، فكل من نحتك به من أهل البيت لا يفتأ يذكرها . وكان أبى وأمى وجدتى وعمى الذى يسكن معنا فى دار واحدة يبذرون بأفعالهم الطيبة بذور الخير فى أعماقنا ، فقامت الجنة والنار فى سرائرنا جنبا إلى جنب ، وعرفنا مذ كانت لنا مدارك أن لكل فعل مثوبة وعقوبة فى الدنيا والآخرة .

وعلى بعد أمتار من بيتنا فى شارع بهاء الدين بن حنا بُنى الحمام الهندى ، ولم يكن قد استكمل بعد . بنيت حجراته ومغاطسه ، فضممناه إلى مملكة لعبنا . وكان أغلب لعبنا محاكاة لقصص الأفلام التى نشاهدها على الشاشة الفضية ، وقد وجدنا فى مغاطس الحمام الهندى التى لا تزال غرفا مبنية بالطوب غائصة فى الأرض ميدانا جديدا للقفز وإخفاء كنزنا العزيز الذى كان صرة مملوءة بقطع من الصينى المكسور ؛ فقد كنا نمثل قصة جزيرة الكنز بعد أن شاهدناها فى سينما إيدال . وقد قام فريدون برسم خريطة لحينا حدد فيها مكان الكنز ، ومزق الخريطة نصفين ، وقسمنا إلى فريقين وأعطى كل

فريق نصف الخريطة ، وترك الفريقين ليتنازعا ، لينتزع كل فريق من الفريق الآخر النصف الذى معه ليعرف مكان الكنز ويفوز به !

* * *

وانجبت أمى بعد ولادتى التى لم يرحب بها أحد أخى فتوح ، ثم أختىّ فلة وزينب . وقد قرت عين أمى بالبنتين فقد كانت أمنيتها أن تكون لها ابنة تقف على غسلها يوم موتها . ولو أن أباها كان من الخليل فى فلسطين إلا أنها كانت تقدس الموت تقديس الفراعنة ، وقد أصبحت أكثر رقة معى بعد أن تحققت أحلامها فلم تعد تضربنى لأتفه الأسباب ، وقل استهلاكها للمقشات التى كانت تنثر عيدانها على ظهرى !

وكانت تعمل عندنا سيدة تكبر أمى فى السن وكانت من نبروه . فكانت إذا سافرت إلى بلدها تعود بصفيحة فسيخ هدية ، فكانت أمى تقول لها :

ــ مالهاش لازمة يا أم على ، الفسيخ بينحر قلب العيال .

وتأمرها أن تضع صفيحة الفسيخ فى الشقة الأرضية مع خزين البيت من بصل وثوم ، فكانت أم على توسوس لنا أن نعرض عن الطعام وأن نصر على أكل الفسيخ ، لتثبت لأمى أن الفسيخ له طلب ، وأنها لم تكن مخطئة يوم أن جاءت بالفسيخ النبراوى . فكنا نقاد لوسوسات أم على ونهبط معها إلى الشقة الأرضية ونعود بالفسيخ فرحين ، وإن كانت أمى تسبنا وتلعننا ، ويزيد فى ثورتها انتصار أم على على إرادتها .

كانت أختى فلة رقيقة كالنسيم شعرها أصفر وعيناها زرقاوان ، أو هكذا كان يخيل لنا فقد كنا جميعا نحيطها بحبنا الصادق ، فهى أول فتاة فى أسرتنا التى حرمت الفتيات طويلا . وكنت فى بعض الأحيان أحرم نفسى الذهاب إلى السينما لأشترى لها دمية ، وكانت أمى تفرح بهديتى أكثر من فرح فلة بها .

وفى ذات يوم مرضت فلة فلم يفكر أحد فى استدعاء طبيب ليفحص عنها ويشخص مرضها ، بل راحت أم على تحرق البخور كل يوم لتطرد العين الشريرة التى أصابت فلة الجميلة ، ولم تعترض أمى على علاج ابنتها العزيزة بالبخور والتعاويذ .

وذبلت فلة وما خطر على أحد استدعاء الطبيب ، فما كان الطبيب يستدعى إلى بيتنا إلا لاستخراج شهادة الوفاة . ولم يقف مرض فلة عقبة فى سبيل طوافنا على دور السينما ، وكان اليوم يوم جمعة ، وكان ذلك اليوم مخصصا

لسينما الكلوب المصرى بالحى الحسينى . وكنا نذهب قبل الساعة الثالثة لنجتمع بمدير السينما لنختار معه برنامج الأسبوع القادم ، فقد عرف أننا من رواد سينما الكوزمجراف الأمريكانى وإيديال والشعب ، وأن لنا ذوقا خاصا فى اختيار الأفلام .

كانت السينما صامتة فى ذلك الوقت فى كل بلاد العالم ، وكان يستعان ببعض جمل تكتب على الفيلم تقطع تسلسله لاستخدام حوار لا بد منه ، وكان الحوار المكتوب باللغة الإنجليزية . ولما كان أغلب جمهور سينما الكلوب المصرى من الذين لا يعرفون الكتابة ولا القراءة ، بله الإنجليزية ، فكان شحاته يقف بجوار شاشة العرض ويعلق على الأحداث الدائرة :

ـــ بصوا .. أهو الشجيع ح يخرج من هنا .. خدوا بالكم م المقلب اللى ح يديه للحرامى .. البنت بتقول له أحبك وهو بيقول لها : وأنا باموت فيكى .

وتسلل أحد الأشرار وراء البطل وحاول أن يضربه ، فصاح كل من فى الدار :

ـــ حاسب !

وحدث أن التفت البطل إلى الشرير المتسلل خلفه وخطف من يده المسدس ، فدوت فى القاعة عاصفة من التصفيق ، لا لأن البطل قد نجا من الشرير وقضى عليه ، بل لأنه استجاب لتحذيرنا .

وخرجنا من السينما نتحدث عن الأحداث التى استهوتنا فى سينما الكلوب ، واخترقنا بيت القاضى ثم شارع النحاسين ثم باب الفتوح . وانسبنا فى شارع البنهاوى لنعود إلى دارنا وإذا بنا نقابل كل أصدقاء أبى عائدين من باب النصر .

وخفقت قلوبنا فى صدورنا الصغيرة وانتابنا خوف شديد . باب النصر ، إنه طريق المقابر . واقتربنا فى وجل من أصدقاء أبى وسألنا أحدهم :

ـــ انتو جايين مينن ؟

ـــ كنا بندفن فلة .

فلة ماتت ! إنها كارثة . وأحسست إشفاقا على أمى ، وشعرت على الرغم من صغر سنى بكل إحساسات الثكلى . ووصلنا إلى دارنا ، وصعدت فى الدرج إلى جوار الحائط حزينا أمسح الدموع فى صمت ينتابنى شعور بالرهبة ، فقد كنت لا أتصور

كيف أحتمل أن تلتقى عيناى بعينى أمى بعد أن ماتت حبيبتنا فلة .

ورأيت أمى ترتدى السواد وقد جلست بين النسوة كسيرة الفؤاد ، ولا أذكر أننى رأيت أمى طوال حياتى فى غير السواد . ووقعت عيناها علىّ وقد وقفت بعيدا مطرق الرأس دامع العين ، فنهضت إلى وراحت تمرر يدها على شعرى فى حنان دافق ، وقالت فى صوت خافت حزين :

ـــ عايز حاجة ؟.

فانفجرت بالبكاء فبكت أمى ، ورحنا نسفك الدمع على أختى التى ماتت بالدفتريا وعولجت بالبخور .

٢٧

كانت المبانى الجديدة قد بدأت تكسو الأرض الفضاء الواقعة قبالة بيتنا ، وأصبحت حارة بحر ضيقة لا تتسع للعبنا ، بعد أن عرفنا الأرض الخضراء الواسعة التى تخلفت من جنينة الكوة بعد أن شقتها أكوام الأتربة التى كانت تلقيها السيارات والعربات لتمهد وتصبح جزءا من شارع فاروق الجديد .

كانت جنينة الكوه تقف حائلا بين حينا وحى الصوابى والحسينية ، فلما بدىء فى شق الشارع الجديد لم يعد هناك ما يمنع إغارة غلمان الحسينية علينا ، فكنا فى أثناء اندماجنا فى مباراة من مباريات الكرة فى أرضنا الجديدة نفاجأ بسيل منهمر من الطوب والحجارة . فكان يعز علينا أن نفر أو نظهر بمظهر الجبناء ، فكنا نلتقط ما صوب إلينا من طوب ونطلق على الصبية الواقفين فوق الطريق العالى قذائفنا ، وما كنا نكتفى بذلك بل كنا نتسلق أكوام التراب ونطارد الغزاة ونجد فى أثرهم حتى ندخلهم دورهم فى الصوابى أو الحسينية .

وعلى مر الأيام توطدت صداقة بيننا وبين الصبية المشاغبين ، فكانوا يأتون لمشاهدة المباريات التى كانت تقام بيننا وبين الأحياء المجاورة وأصبحوا متعصبين لنا . وفى ذات يوم كنت أسير إلى جوار أبى ، فدنا منى صبى حافى القدمين يرتدى جلبابا ممزقا يبدو

عليه أنه لم يغسل وجهه منذ أيام ، وحيانى وقال لى :

ـــ ح تلعبوا النهاردة ؟

ـــ أيوه .. الساعة أربعة .

ونظر إلىّ أبى فى استنكار وقال لى :

ـــ صاحبك ؟!

و لم أستطع أن أنكر أو أؤيد ، بل قلت فى صدق :

ـــ بييجى يتفرج علينا واحنا بنلعب كورة .

وتذكرت وأنا أسير إلى جوار أبى كل ما كان بينى وبين نملة ـــ وكان هذا اسمه . كان نملة أكثر صبية الأحياء الوطنية التى انفتحت على حينا مشاكسة . وكان يقف على الشارع الذى لم يمهد بعد ويلقى علينا وابلا من الحجارة ، ثم يسبنا بأقذع السباب ، ثم يطلق ساقيه للريح . وقد ضايقنى منه ذلك ، فعزمت على أن أنتظره فوق الشارع فى نفس الوقت الذى يأتى فيه لأضع حدا لمضايقاته .

وانتظرته فى عصر اليوم التالى الذى وطنت فيه النفس على أن ألقن نملة درسا لا ينساه . وجاء نملة فى أسماله و لم يفطن إلى وجودى ، وانحنى ليلتقط حجرا وقبل أن ينتصب عاجلته برفسة فى مؤخرته ، فانبطح على الأرض ، وقام يسب ويلعن . فانقضضت عليه كما ينقض أبطال السينما على أعدائهم وأخذت أكيل له اللكمات وهو يسب لا يدرى ماذا يفعل ؛ ثم انتهز فرصة توقفى عن ضربه وراح يعدو هاربا .

وكانت هذه العلقة بداية عهد جديد ، فقد صار نملة من أكبر المشجعين لنا ، وصار يصاحبنا إذا ما ذهبنا إلى حى من الأحياء المجاورة لنتبارى فى الكرة . فإذا ما حدث وانهزمنا راح يلقى الحجارة على الفريق الآخر ، ثم يتولى يسابق الريح . فقد كان نملة نحيفا نحيلا يكاد أن يسقط من دفع الهواء فكان يحب أن ينتصر على ضعفه بالسباب الذى يتدفق من لسانه تدفق الشلالات ، والحجارة التى يلقيها من بعيد على أعدائه وما أكثرهم ، فقد وقر فى وجدانه أن الأصل عداوة الناس وأن المحبة لا تأتى إلا بعد عداوة !

ورحنا ننقل أثاث بيتنا إلى بيتنا الجديد وكان فى نفس الحى على بعد أمتار ، إلا أنه فى الشارع الرئيسى الذى بدأ الأسفلت يغطيه . وإنه لمما يثير زهونا ويملؤنا فخارا أن

يكون بيتنا فى شارع غطى الأسفلت بثور وجهه ، فلن يتعثر فيه الطوق المعدنى الذى طالما تعثر فى الحجارة البارزة فى شوارع حينا القديم ، وإنه ليصلح جيدا للقباقيب التى اشتريناها والتى تستعمل للتزحلق على الجليد .

كان كل ذلك يدخل السرور على نفسى ، ولكن الشيء الذى جعلنى أتهلل بالفرح أن أمام بيتنا الجديد مباشرة لوحة إعلانات لسينما إيديال ، فلن أحتاج بعد اليوم أن أستيقظ مبكرا فى صبيحة كل يوم اثنين لأنسل مهرولا إليها لأطمئن على برنامج الأسبوع . إننى سأستطيع أن أشاهد لوحة الإعلانات من أى نافذة من نوافذ شقة جدتى ، فقد تقرر أن نبيت مع جدتى فى شقة بالطبقة الأولى أمام شقة أبى ، وأن يسكن عمى حنفى فى الشقة بالطبقة الأولى أمام شقة أبى ، وأن يسكن عمى حنفى فى الشقة التى تعلو شقتنا ، أما الشقة الرابعة فقد خصصت لأخى محمد ليتزوج فيها من ابنة عمته .

وكان إلى يمين البيت سلاملك تدخل إليه من باب حديدى . إنه منفصل عن البيت أمامه رحبة أو فناء تصب فيه بعض درجات نازلة من شرفة شقة جدتى ، وهى طريق أبى إلى السلاملك فى الليل ، أما طريقنا بالنهار فقد كان القفز من الشرفة إلى الفناء أو التسلق من الفناء إلى الشرفة .

كنا نقضى النهار مع أصدقاء الحى فى السلاملك نلعب الطاولة أو نلعب الكرة فى الفناء الضيق ، أو يتحدث أخى أحمد وأخى سعيد مع زملائهم عن القصص المترجمة التى قرءوها وأنا أصغى إلى حديثهم فى لهفة ، فقد كنت شغوفا بأنباء تلك القصص ، وأتمنى أن يأتى اليوم الذى أستطيع فيه أن اقرأ مثلما يقرءون وأن أتحدث مثلما يتحدثون .

كان أخواى أحمد وسعيد يعشقان القراءة ، فكانا ينسلان أيام أن كانا معى بمدرسة الجمالية — قبل أن يحصلا على الشهادة الابتدائية — إلى المكاتب المتواضعة المنتشرة على جانبى الطرق الضيقة الملتوية المؤدية إلى الأزهر ، وكنت أنسل فى إثرهما ، وكان لا هم لهما إلا التنقيب عن القصص القديمة بين أكداس الكتب الدينية الصفراء ، حتى إذا انتهيا من جمع ما يرغبان فيه وضعاه فى الميزان ، ثم يدفعان ثمنه بحساب الأقة ، فما كان

للقصص والروايات سوق فى حى الأزهر .

كان كل منهما يحمل جزءا من « الشروة » ، وكنت أحمل نصيبى بين ذراعى وأنا مغتبط أتمنى من أعماق أن يأتى ذلك اليوم الذى ألتهم فيه هذه الكتب ؛ بل كل الكتب الصفراء التى رأيتها فى مكتبات الأزهر . إنه لشىء جميل أن يقرأ الإنسان وأن يعيش فيما يقرأ . لماذا لا أقرأ كما يقرءون وأن أحس تلك السعادة التى تنعكس على وجوههم كلما أخذوا يروون روائع ما وقر فى أذهانهم ونفوسهم مما قرءوه ؟ إننى لم أكن أقرأ كتب المدرسة لأننى كنت أبخل بأن أبذل جهدا ضائعا نهايته الموت ، فقد كنت أدخل فراشى كل يوم وأنا أعتقد اعتقادا جازما أن ليلتى تلك هى آخر ليلة فى حياتى . فإذا فتحت عينى ورأيت نور الصباح كنت أغتم لأن الموت لم يأت مع النوم . فإذا كان الموت ليس أمرا سهلا كما كنت أتخيل ، وما دام قد ازور عنى فلماذا لا أسعى فى الحياة كما يسعى الناس ؟ ولماذا لا أذاكر كما يذاكر الأصدقاء ؟ ولماذا لا أقرأ كما يقرأ أخواى وأصدقاؤنا ؟

واخترت زميلا يسكن بالقرب منا لنتذاكر معا ، فكان صلاح قنصوه ذلك الزميل الذى وقع عليه اختيارى فنقطع معا مشوار الدراسة الطويل . تقابلنا فى الإجازة الصيفية واتفقنا على أن نبدأ الاستذكار منذ أول يوم فى العام الجديد ، وكنت سعيدا لاتخاذ ذلك القرار فقد عزمت على أن أدخل السرور دواما على قلب أبى . إنه لم ينهرنى أبدا لرسوبى المتكرر . كان يدفع لى مصروفات المدرسة فى مواعيدها عن طيب خاطر ، بل كان يعاملنى معاملة فيها شىء من التدليل . أفيكون جزاؤه منى أن أرسب سنة وأن أنجح سنة ، وما ذلك لقصور فى مداركى بل لأننى أنتظر الموت فى كل ليلة . إننى سأبذل قصارى جهدى لأشق طريقى فى الحياة وليأت الموت وقتما يريد .

ودار فى خلدى سؤال حيرنى فى تلك السن الصغيرة . لماذا ينفق علينا أهلنا عن سعة ويحرمون أنفسهم من كثير من متع الحياة ؟ وما كانت تجاربى فى ذلك الوقت تسمح لى أن أحس مشاعر الأبوة النبيلة ، فعقدت النية على أن أفطم نفسى عن غير الضرورات ، وأن أتقشف فى بيت يعيش حياة ميسرة ، وألا أرهق أهلى من أمرى عسرا .

كنا نقضى مع رفاق الحى ساعات مرحة فى سلاملك البيت ، وكان من العيب فى

ذلك الوقت أن تشترى البيوتات الخبز من السوق . فكان الفران يخرج من بيتنا بألواح العجين ، فكنا ننتظر عودته فى لهفة ، لأن أمى أو جدتى أحيانا كانتا تقطعان العيش الساخن وتبثانه بالسمن وترشانه بالسكر ، وتبعثان بالعيش المبثوث إلى السلاملك فنلتهمه نحن ورفاق الحى التهاما ، وأصواتنا المرحة التى تنطلق ونحن نتخاطفه تنزل بردا وسلاما على قلوب كل من فى الحرملك .

وكان أبى فى الليل يجتمع ببعض أصدقائه : العم سيد الشامى الدخاخنى من شغل نفسه بالكيمياء وحجر الفلاسفة ، والعم إبراهيم الشرّى وكان صاحب ذكريات عن قدامى المطربين والليالى الملاح ، وكان يعمل خادما فى جامع ورث أو ملك — لا أدرى من أين — بعض قراريط فى منزل سيصبح ذات يوم على شارع فاروق مباشرة ، فكان يشغل المجلس أحيانا بالحديث عن مشروعاته فى المستقبل بعد ما يتحقق الحلم الجميل .

كان هذان الرجلان هما اللذان يداومان على الحضور كل مساء ، وكان يفد إلى السلاملك رجال من كل لون وصنف . رجال لا همّ لهم إلا الضحك وإلقاء النكات ، ورجال لا حديث لهم إلا عن أنفسهم وتزكيتها ، ورجال يخوضون فى أحاديث دينية ، فأتاحت لى الظروف أن أعيش مع جيلى وأن ألتصق التصاقا وثيقا بجيل أبى ، وأن تتفتح مداركى على تجارب أكبر من سنى ، وعلى معارف لم أتلقها فيما تلقيت فى مدرستى .

كنا فى بيتنا الجديد سعداء ، فقد تخلصنا من مضايقات العم بحر وأصبحنا نلعب فى الفناء الضيق أمام السلاملك كما نشاء ونهوى . وإنه لشىء لذيذ أن تستشعر حريتك وإنه لشىء مفرح ولا شك . ومن عجب أن الإنسان قد يفرح أحيانا لفقد الكثير من حريته ، فأخى محمد كان متهللا متفرحا لأنه سيتزوج ، كان محمد أكبرنا وما كنا نراه قبل أن ننتقل إلى البيت الجديد إلا فى المساء نتناول عشاءنا ، فهو يعمل مع أبى طوال النهار فى الدكان ، وما كان قد اختلط بنا أو شاركنا فى لعبنا . أما وقد أمسى السلاملك يجمعنا فقد بدأت علاقات جديدة بيننا وبينه ، وصار بيننا كثير من الود وكثير من الحب .

كان حديث زواجه يملأ فراغ ليالى طويلة فى السلاملك وفى الحرملك . كان كل من فى بيتنا يتأهب للحدث الكبير : أول فرح فى أسرتنا التى تتكون من أبى وأمى وستة

أولاد وأخت واحدة ، وكانت جدتى سعيدة بذلك الزواج ، فالعروسان من حفدتها ، وكان أكثر ما يدخل السرور على قلب جدتى أن توفق رأسين فى الحلال .

وانتهت الإجازة الصيفية وكلنا نتعجل الفرح ، فبدلنا الجديدة قد فصلت ، والأحذية فصلت ، وما كنا نذهب إلى دكان الترزى أو صانع الأحذية ، فقد كانت المقاسات تؤخذ لنا فى السلاملك وكانت البروفات تجرى فيه ، وكذلك جميع مقابلات أبى ، فما كان لرجل أن يقتحم حرمة الحرملك .

ذهب أحمد إلى مدرسة بنباقادن الثانوية ، وذهب سعيد إلى مدرسة فؤاد الأول الثانوية ، وأخذت أخى فتوح معى لنذهب سيرا على الأقدام إلى مدرسة الجمالية . أحسست لأول مرة أننى أصبحت مسئولا بعد أن كنت عالة على أخوى أحمد وسعيد ، وما كنت أقدر أعباء المسئولية قبل أن أمارسها .

كان أبى يعطينى كل يوم ثمن غدائى وغداء فتوح ، فإذا ما دق جرس فسحة الغداء



أخذت فتوح من يده لأطعمه فى أحد المحال المنتشرة فى الحى ، وكنت أحيانا آخذه إلى المحال المواجهة لمسجد الحسين . وحدث أن أخذته ذات يوم إلى محل كباب وكفتة . وكنت أظن أننى سأعود به بعد ذلك إلى المحال التى فى الحسين ، ولكنه أصر على أن يذهب كل يوم إلى محل الكباب والكفتة ، وما كان من المستساغ أن نتغدى كل يوم فى محل واحد ومن صنف واحد ، فأخذته إلى محل آخر . فلما عدنا إلى البيت انتظر حتى جاء أبى وراح يبكى ويدعى أننى لم أطعمه فى ذلك اليوم . فى ذلك اليوم . فرحت أقسم أننى أطعمته والغيظ يكاد يمزقنى ، وتعلمت من ذلك اليوم وقع قسوة الافتراء ، ووطنت النفس على أن أغلق أذنى دون بعض ما يقال .

ونجح فتوح فى أن يرغمنى على أن أغديه كل يوم كباب وكفتة ، وأن أشترى له بسبوسة أو هريسة بعد الغداء ، وإن كان ذلك على حساب غدائى .

٢٨

خرجت أمى وعمتى عزيزة وجدتى أم عبد الغنى لدعوة الأسرة لتشريفنا فى فرح أخى ، وذهب أبى إلى أعمامى وأولاد أعمامى الذين توفى آباؤهم ليدعوهم إلى فرح محمد ، وذهب أبى لدعوة أخوالى فما اكتفت أمى بدعوتهم ، وقد استغرقت الدعوات أياما وليالى فما كنا قد عرفنا بعد أن الدعوات للأفراح تطبع على ورق وردى مصقول وترسل دون عناء إلى المدعوين .

كانت أمى تعود فى المساء وتضع قدميها فى ماء ساخن به ملح لعل التعب الذى تحسه يزول ، وكانت جدتى تقدح زناد فكرها لتتذكر من نسيت أن تدعوه من الأحباب . وكل من دخل أو دخلت دارنا فى حارة صلاح أو فى شارع جنينة الكوة أو فى شارع سكة الظاهر من الأحباب ، سواء أكان بائع لبن أو دلالة من الدلالات اللاتى يأتين إلى دور المحجبات بألوان من الأقمشة ، فقد كان النزول إلى شارع الموسكى أو الذهاب إلى صيدناوى أو عمر أفندى لا يحدث إلا لتجهيز العرائس ، وكان يعبر عن ذلك فى زهو وتقول المرأة لجارتها فى استبشار إنها ذاهبة إلى المدينة ، وإنها ستركب الترام ! ولو

كانت أم عباس الصباحية الندابة على قيد الحياة لما ترددت جدتى فى دعوتها ، ولكنها كانت قد ماتت فقالت جدتى فى براءة :

ــ ما تنسوش تعزموا عباس .

وفى المساء كان أصدقاء أبى فى السلاملك يشاركون أبى فى تجهيزات الليلة الكبيرة ، ليلة الفرح . ومضت ليلة وهم يتدارسون من يحيى الليلة ، وقال قائل منهم : عبد اللطيف البنا . وقال آخر : صالح عبد الحى . واقترح ثالث : الشيخ على محمود . واستقر رأى أبى على أن يحيى الشيخ على محمود الليلة . وبدأ الحديث يدور حول من الذى يتصل بالشيخ على محمود ، فهتف الجميع فى صوت واحد :

ــ الشيخ عبد العزيز السحار .

كان الشيخ على محمود والشيخ محمد رفعت والشيخ الشعشاعى وجميع مقرئى ذلك العصر من تلاميذ الشيخ عبد العزيز السحار . وما كان الأمر يحتاج إلى تفكير أو إدارة فكر ، فالشيخ على محمود قد أحيا ليلة مأتم جدى ، وكان جدى ابن عم الشيخ عبد العزيز ، وما كان الشيخ على محمود ليرد لشيخه طلبا .

واسترى أبى عجلا ، وجاءت الهدايا من خراف وديوك رومية وصفائح السمن من قليوب ومن كل أنحاء القاهرة . وتكدست الهدايا فى بدروم منزلنا ، وارتفعت أصواتها كأحلى نغم فى آذاننا . وصرت أنتظر يوم الفرح فارغ الصبر . ففى الفرح سأرتدى البنطلون الطويل لأول مرة ، وستكون مفاجأة للمدرسة جميعها عندما أذهب إليها فى اليوم التالى بالبنطلون الطويل ، فما كان أحد فى المدارس الابتدائية كلها يرتدى بنطلونا طويلا .

وجاء الفراش وأقام سرادقا ضخما فى الطريق أمام بيتنا ، وفتح الباب الحديدى المؤدى إلى السلاملك على مصراعيه ، وجاء النسوة وكل واحدة منهن تحمل صرة ملابسها ، جئن ليحيين ليلة الحنة ، ودقت الطبول وقامت بعض المدعوات يرقصن كأحسن ما يكون الرقص .

وفى بدروم بيتنا قامت مذبحة ؛ عجول تذبح وخراف تنظر إلى الدم المهراق فى فزع ، والأولاد يجرون خلف الديوك الرومية ليقبضوا عليها ليقدموها فرحين إلى

الجزار . وحملت اللحوم إلى السطح حيث كان الطباخ يعد العشاء للنسوة اللاتى سيبتن عندنا .

وفى شقة عمى جىء بطسوت بها معجون الحنة ، ومزقت أثواب من القماش لتلف بها الأرجل والأيدى بعد تلطيخها بالحنة ، ومدت الموائد للعشاء فكان منظرا فريدا أن تطعم اللاتى لم تلطخ أيديهن بالحنة بعد ، اللاتى أسرعن لتزويق أيديهن .

وراح بعض النسوة يسربن شرائح اللحم وبعض أصناف الحلوى إلى بيوتهن ، فإنه من الوفاء أن يطعمن أزواجهن وأطفالهن مما طعمن !

كانت أمى تغدو وتروح بينهن تحاول أن تلبى كل طلباتهن ، وما أكثرها من طلبات ؛ إحداهن تريد أن تسخن اللبن لطفلها الرضيع ، وأخرى تريد مكانا لابنها الذى نام ، وثالثة تسلمها مصاغها لتحفظه حتى الصباح ، ورابعة تدفع إليها بملابسها التى جاءت بها لترتديها فى الفرح ...

وحان أوان النوم فراحت أمى تطرح لهن المراتب فى كل مكان على الأرض وتبحث لهن عن أغطية . وانقضى الليل والشخير ينبعث من كل مكان ، وما لاحت تباشير الصباح حتى أرسلت أمى إلى الطباخ تأمره أن يعد الإفطار لضيوفها اللاتى تكدسن فى الحجر والطرقات وعلى بسطات السلم .

وتقاطر الرجال والنساء على بيتنا منذ الصباح الباكر و لم أعر ذلك اهتماما ، كان كل ما يعنينى أن يأتى المساء لأرتدى بنطلونى الطويل وأن أخطر به فى السرادق الكبير بين المدعوين ، كان فى يقينى أن مجرد ارتداء البنطلون الطويل سيدخلنى فى عداد الرجال .

وفى الظهر مدت الموائد للرجال وللنساء ، وكان أبى يدور على الموائد محييا الذين لبوا دعوته والذين جاءوا دون دعوة .

وفى المساء جاءت بمبة كشر بلحمها المكتنز ، وقد قوبلت أشهر عالمة فى ذلك الوقت بترحاب كبير ، وكان أكثر الناس ترحيبا بها عمى محمد . والحق يقال لم يترك عمى محمد أية امرأة دخلت دارنا دون أن يغازلها أو يعلق على جمالها ، وما أكثر كلمات الغزل والقدح التى فرت من بين شفتيه فى ذلك اليوم ، لكأنما كان ذلك تسبيحا .

ومدت الموائد فكان فى كل غرفة من غرف شقة أبى مائدة طعام، وراح أبى يدعو الرجال

الذين ملئوا السرادق للعشاء ، وكان يعاونه فى ذلك عمى وبعض أبناء عمومتى من الرجال ، وما كان الرجال ينهضون مرة واحدة للأكل بل كان على أبى ومن يعاونونه أن ينتخبوا لكل مائدة مجموعة متجانسة ، كانوا لا يدرون شيئا عن البروتوكول ولكنهم كانوا يتبعون تقاليده بالفطرة .

وجاء الشيخ على محمود وبطانته واتجهوا إلى المنصة التى أعدت لهم ، وارتفع صوت الشيخ قويا يتجاوب فى جنبات الحى وما كان الميكروفون قد عرف بعد ، فجاء أناس من أقصى الشارع واندفعوا إلى السرادق فكان علينا أن نطعمهم وأن ندعوهم إلى موائد العشاء .

وظل أبى واقفا على قدميه منذ الصباح الباكر حتى كاد الليل أن ينتصف ، ودخل أخى شقته يتأهب للزفاف ودخل معه بعض أصدقائه يلقنونه معلومات خاطئة ولا ريب عن الزواج والليلة الأولى . وخرج أخى ومن حوله أبناء عمومته وبعض أصدقائه ليزوروا الحسين ، فمن تقاليد أسرتنا أن يزور العريس الحسين وأن يصلى على الميت فى الحسين ، وما كان هناك فرق كبير عندنا بين الزواج والموت .

وذهب أخى وأصدقاؤه إلى الحسين يسير أمامه بعض من يحملون القناديل الصغيرة ، وقد التف حوله شباب يحملون باقات الورد والشموع . ولم أستطع أن أستقر فى السرادق فصعدت إلى حيث كان النسوة أشاهد بمبة كشر وهى ترقص رقصة الشمعدان ، وأصغى إلى تعليقات عمتى عزيزة المرحة ، فقد كانت خفيفة الروح .

وساد همس بين الواقفين على السلم :

ـــ العريس وصل .. العريس وصل .

ووصل الهمس إلى حيث كان النسوة فانطلقت الزغاريد وصعد محمد بين اثنين من أبناء عمه وجلس فى الكوشة إلى جوار العروس ، وإن هى إلا لحظات حتى كانت بمبة كشر تزف العروسين . كانا طفلين فما كان قانون تحديد سن الزواج قد صدر بعد .

وأغلق الباب على العروسين وبدأ المدعوون فى الانصراف ، فإذا بوقع أقدام تترادف على السلم ، وإذا بكتل بشرية تكاد تسد الطريق . وتوقف الشيخ على محمود عن الشدو الجميل فانصرف من فى السرادق مع نسائهم ، وجاء الشيخ على وبطانته

ليتسلموا أجورهم من أبى ، وأسرع إليه الفراش والطباخ وكل من قدم خدمة فى الفرح لينالوا أجورهم ويطالبوا بالبقشيش .

وراحت لفائف الحلوى واللحوم تتسرب من كل باب ، وألقى الطباخ ما بقى من صفائح السمن على رماد الفحم وما أيسر أن يفصل السمن عن الرماد بعد ذلك ، ولم ينته السلب والنهب إلا بعد أن أغلق باب السلاملك وباب المنزل .

وصعد أبى إلى شقته محطما وقد بدا البيت كساحة قتال بعد انتهاء المعركة ، وأرادت أمى أن تعيد إلى البيت نظامه ولكن التعب كان قد أخذ منا كل مأخذ فنمنا حتى الصباح . ثم بدئ فى تطهير البيت بعد أن مضى كل شىء كأن لم يكن ، وراح أبى يتذكر ما كان فلم يجد إلا التعب والإسراف والأوهام ، فأقسم ألا يقيم فرحا بعدها أبدا .

أكان هذا الفرح بعض وحى قصتى التى كتبتها فيما بعد ، قصة « أم العروسة » ؟! ربما .

٢٩

كنت أهوى الكرة هوايتى للسينما ، وقد لعبت لفريق المدرسة قلب هجوم . وكنت أعرف طريقى إلى المرمى فكنت هداف المدرسة . وكنت ألعب فى ملاعب المدارس المجاورة لمدرستى ، فكنت ألعب فى مدرسة القربية وكانت تقع فى حارة متفرعة من شارع الغورية ، وفى المباريات الرسمية كنا نلعب فى أول الأمر فى أرض شريف باشا ، وكانت أرضا واسعة لها باب خشبى كبير أمام باب عمر أفندى بشارع عبد العزيز . ولم أشعر أننى صرت شيئا مذكورا إلا بعد أن لعبت عدة مباريات فى ملعب مدرسة الحاكم بأمر الله وكانت عند باب الفتوح . وكانت المنطقة تعرف بسوق الليمون لأن معظم حوانيت الحى كانت للتجارة فى الليمون والزيتون الأخضر .

إننا عقب كل مباراة هناك كنت أقابل بتحية صبية المحال والمقاهى ، لذلك صار طريقى إلى مدرستى من البنهاوى ثم باب الفتوح بعد أن كان طريقى إليها من باب

الشعرية إلى أمير الجيوش ، فإنه لشيء لذيذ أن تسير بين أناس يحبونك ويقدرونك .
التقدير .. إنه أجمل وسام يوضع على صدر إنسان ، ولا يكلف الناس شيئا لو كانوا يعقلون . ولكن الظاهر أن فى الناس جحودا وأن فى طبعهم أن يبخسوا النـاس أشياءهم . جاء يوم الخميس وما كانت عندى مباراة فى ذلك اليوم ، فسعى إلى بعض رفاقى فى المدرسة لألعب معهم مباراة فى أرض المثلث بغمرة ، فاعتذرت بأنى أرسلت حذائى لإصلاحه ، فإذا بهم يدعوننى إلى منزلهم لأختار حذاء من أحذية الكرة الكثيرة التى عندهم . وذهبت معهم من الجمالية إلى الفوطية سيرا على الأقدام ، فما كانت هناك مواصلات فى القاهرة غير الترام التى كانت تجرى بين العباسية والعتبة الخضراء ، والترام التى تنطلق إلى الجيزة ، والترام التى تسير من العتبة إلى شارع كلوت بك ثم تنطلق فوق كوبرى شبرا إلى شبرا ، والسوارس التى تزاحم الناس فى الموسكى لتربط بين العتبة الخضراء والحسين ، ولطالما نقبت عن تلك العتبة الخضراء التى ينسب إليها الميدان الذى ازدحم بالترام والسوارس والحمير والحمَّارة دون جدوى !

وبلغنا حارتهم حارة الملاح ، وإذا بالمياه التى اختلطت بالصابون قد ألقيت من الشبابيك ، وإذا برائحة عطن تنبعث من الحارة كلها . وعند باب خشبى ارتفع عن الأرض قالوا لى فى أدب جم وهم يفسحون لى الطريق :

ـــ تفضل .

سرت فى ردهة رطبة وأنا أتنفس بقدر حتى لا تملأ الروائح الكريهة كل أنفى . كنت آخذ من الهواء ما يكفينى لأعيش حتى أغادر المكان .

ودخلنا شقتهم وكانت طسوت الغسيل تكاد تغطى الأرض ، ودلفنا إلى غرفة قد انتشرت فيها الأشياء انتشارا ، وجلست على كرسى من الخيزران ووضعت الأحذية أمامى ، فرحت أقيسها حتى وجدت حذاء محبوكا على قدمى فقلت :

ـــ الجزمة دى مضبوطة .

وهممت بأن أخلعها فأسرعوا إلىّ وقالوا :

ـــ والله ما انت قالعها .

ـــ ح اقلعها وهاتوها معاكم .

ــ والله لانت مروح بيها .

وتحت إلحاحهم حملت حذاء المدرسة تحت إبطى وعدت إلى البيت وأنا أضرب فى الطريق بحذاء الكرة . وجاء ميعاد ذهابى إلى غمرة فانطلقت إلى أرض المثلث



واشتركت مع فريق رفاق المدرسة ، وانتهت المباراة بأن فزنا بإصابتين أودعتهما مرمى الخصم .

وعقب المباراة التف زملائى والفريق كله حولى . حسبت فى أول الأمر أنهم ما جاءوا إلا ليشكرونى على ما أبليت فى المباراة من مجهود حتى خرجنا منتصرين ، وإذا بى أفاجأ بصديق المدرسة يقول :

ـــ الجزمة .

فنظرت إليه فى دهش فعاد يقول :

ـــ هات الجزمة .

ـــ دلوقت ؟

ـــ أيوه .

ـــ طب مش لما اروح البيت .

ـــ لأ .

ـــ طب تعالى معايا وخدها .

ـــ لأ .. أنا عايزها دلوقت .

ـــ وأروح حافى ؟

ـــ ما ليش دعوة .

وضاقت الحلقة حولى كأنما قد هموا بأن ينزعوا الحذاء من قدمى بالقوة ، فجلست وخلعته ودفعته إلى الزميل ، ورحت أعدو بالشراب من غمرة إلى البيت مخترقا الشوارع الجانبية ، يخيل إلىّ أن الدنيا كلها قد أصبحت عيونا صوبت إلى شرابى .

وكان درسا .



كان فريدون وخاله شيرازى يأتيان إلى السلاملك ليخبرا أخوى أحمد وسعيد بآخر أنباء مجلة البهلوان ، ويعرضا عليهما بعض أفكار الكاريكاتور والمقالات ، وكان الجميع يعيشون على أمل أن رخصة المجلة ستصدر قريبا ، ولم يقلقهما أمر الطبع فقد كانت بضعة جنيهات كافية فى ذلك الوقت لشراء الورق ودفع استحقاق المطبعة .

وراح أخى سعيد يكتب الأزجال استعدادا لنشرها فى المجلة ، وكان سعيد ينظم الأزجال فى يسر ، فراح يكتب زجلا ، فلما انتهى منه تركه فى السلاملك . وذهب سعيد إلى المدرسة الثانوية التى التحق بها ، فلما عاد راح يبحث عن الزجل فلم يجد له أثرا . أين اختفى وهو واثق أنه تركه على المكتب الخشبى المتواضع القابع فى ركن من أركان السلاملك ؟

وفى الليل جاء أصدقاء أبى وجاء مع العم سيد الدخاخنى ضيف جديد . كان سمينا خفيف الظل راح يروى نوادره وهو لا يكف عن الضحك . وساد المجلس روح دعابة فإذا بالضحكات تتجاوب فى السلاملك . وقال العم سيد إن صديقه أحمد جبريل لا يعرف للدنيا هماً ، فقال جبريل وكرشه تهتز من الضحك اهتزازا :

ـــ فى الدنيا فيه بس تلاتة مبسوطين : البواب والكلب الرومى وأحمد جبريل .

وضحك جبريل ضحكة مجلجلة أشاعت المرح فى المكان ، وجاء إلى السلاملك

شيخ جاوز التسعين كان يعمل إمام الزاوية التى يخدمها العم إبراهيم الشرى . إنه اعتاد أن يأتى كل يوم سيرا على الأقدام من إمبابة إلى بيتنا فى الظاهر ، وقد غاب بالإمس فقال له العم إبراهيم :

— ما جيتش ليه امبارح يا سيدنا ؟

فقال الشيخ فى بساطة :

— حسيت بحركة وأنا جاى فى نص السكة رجعت نمت مع الست ، ما اقدرتش آجى بعدها رقدت للصبح .

وانطلقت التعليقات من كل جانب ، حتى أبى ضحك وقلما كان يضحك ، فقد كان يكتفى بالابتسام .

وفقد المجلس وقاره التقليدى . كان الحاضرون يقرءون عادة « السيرة النبوية لابن هشام » أو « فتوح الشام » للواقدى ، أو فصلا فى كتاب « الأيام » للدكتور طه حسين ، أما فى ذلك اليوم فلم يكن الجو مهيأ لمثل ذلك ، فأخرجوا كتاب أبى معشر الفلكى لقراءة الطالع ، وفى أول الكتاب مقدمة توضح كيف يحتسب الطالع ؛ فعلى من يراد معرفة طالعه أن يذكر اسم أمه وأن يعطى كل حرف من حروف الاسم رقما وتضاف بعد الأرقام وتقسم على رقم معين ، فحاصل العملية يوضح رقم الطالع فى الكتاب .

وقال العم إبراهيم للشيخ إمام الزاوية :

— اسم امك يا شيخ ؟

وضحكت ، كنت أحسب أن الشيخ لن يذكر اسم أمه فقد كنت فى ذلك الوقت أعتقد أن اسم الأم عورة لا يجوز الكشف عنها — وتذكرت أن معاون مدرسة الجمالية قد قرأ اسم أمى وهو ينظر فى شهادة ميلادى فثرت وأردت أن أعبر عن ثورتى بأن أهجم عليه وأن أصفعه ، ولكنى كنت أهون من أن أفعل ذلك — وذكر الشيخ اسم أمه ، وأجريت العملية الحسابية وخطفت الكتاب لأقرأ طالعه ، وأخذت أقرأ والرجل يهز رأسه موافقا حتى وصلت إلى جملة فلم أقرأها خجلا واحمر وجهى وألقيت بالكتاب ، فخطفه أخى أحمد وراح يقرأ حتى بلغ الجملة التى توقفت عنها فراح يقرأ :

ـــ وعلى ذكره شامة .

وضحك أخى محمد ، وإذا بكل الحاضرين يضحكون وإذا بالشيخ يقول :

ـــ حقا والله حقا .

فازداد الضحك وتناثرت التعليقات ، وراح جبريل يطلب أن يقرأ طالعه ويذكر اسم أمه بطريقة ظريفة ويعلق على طالعه :

ـــ عارفه قبل أبو معشر . كله ضحك وفرفشة ، الدنيا ضحكة .. ضحكة وبس .

وكان من عادة أبى أن ينصرف فى الساعة العاشرة مساء وأن يستمر الضيوف إلى أى وقت يشاءون فالسلاملك لهم ، فأبى ينام مبكرا ليستيقظ فى الفجر للصلاة ، ولكنه فى تلك الليلة نسى ميعاد دخوله إلى فراشه واستمر ساهرا حتى انصرف الجميع .

ومرت أيام وإذا بأخى سعيد عند عودته من المدرسة يفاجأ بابن عمى بدر وهو يرفع مجلة السيف فى يده ويلوح بها فى الهواء ، ويقول لسعيد فى فرح :

ـــ تعال اقرأ .

ودفع بالمجلة التى كانت تطبع على ورق أصفر فى حجم الصحف إلى أخى ، فراح سعيد يقرأ الزجل الذى تعب فى البحث عنه وقد وقع باسم بدر محمد ، ولم يغضب سعيد ولم يثر ، كان متهللا لأن ما كتبه قد نشر .

كانت مجلة « السيف » و « الناس » مجلتين متنافستين ، وكانتا تهتمان بنشر النوادر والنكت والأزجال والمقالات السياسية الفكاهية ، وكان الأستاذ محمود رمزى نظيم يكتب زجلا كل أسبوع فى مجلة السيف وقد دب خلاف بينه وبين رئاسة التحرير إن كان لمجلة السيف رئاسة تحرير ، فكف عن الكتابة فيها وكان ذلك فرصة مواتية لسعيد ، فإنه سرعان ما بعث إلى المجلة بزجل آخر ، فنشر الزجل تلو الزجل فى البريد والمجلة تنشر أزجال الأستاذ الكبير ونحن ننطلق إلى العتبة الخضراء يوم صدور المجلة لشرائها ورؤية الزجل مطبوعا بأحرف الطباعة ، فتمتلئ نفوسنا زهوا وفخارا .

وفى ذات يوم رأى سعيد أن يذهب إلى إدارة المجلة بعد عودتنا من سينما إيديال ليسلم

الزجل بنفسه ، فانطلقنا إلى السينما الحبيبة ، وكان يحلو لنا أن نسمى نجوم السينما بأسماء عربية ، فأطلقنا على وليم هارت : « على الديان » وأطلقنا اسم « برعى » على ممثل كان يقوم بدور الشرير دائما ، وحدث أن عرضت سينما إيديال فى ذلك اليوم رواية « لبرعى » كان يقوم فيها بدور « الشريف » الذى يطارد العصاة والخارجين على القانون ، فضجت السينما بتصفيق طويل استمر طوال عرض الفيلم ، وكنا فى نشوة وانفعال لأن « برعى » قد تاب وأناب وعرف طريق الاستقامة .

وذهبت أنا وسعيد بعد انتهاء حفلة الساعة الثالثة إلى دار مجلة « السيف » وقدمنا إلى رئيس التحرير الزجل ، فنظر الرجل إلى أخى سعيد وقال له :

ـــ هو الأستاذ بعتك ؟

فقال سعيد فى زهو :

ـــ أنا سعيد جوده السحار .

وأخذ الرجل الزجل من يد سعيد وهو ينظر إلى الصبى الذى فى السنة الثانية الثانوية فى استخفاف ، و لم يظهر بعدها أى زجل لسعيد فى مجلة « السيف » .

٣١

جاء إلى السلاملك راغب النجار وهو عامل يهوى القراءة والأدب . كان يستعير بعض الروايات من أخوى ثم يقرؤها فى نهم ولذة ، ثم يتحدث مع نزلاء السلاملك الشبان عن جونسون وابن جونسون وفانتوماس وطرزان . وكنت أصغى إلى الأحاديث وأتمنى فى قرارة نفسى أن يأتى اليوم الذى أقرأ فيه بعض هذه القصص التى كانت تشترى بالأقة من مكاتب الأزهر ، فما كان للقصص قيمة فى تلك المكاتب .

جاء راغب ومعه عامل آخر يملك رُخصة مجلة ، رخصة مجلة ؟! إنها الأمل المنشود . وراح أحمد وسعيد وفريدون يرحبون بذلك العامل ، ويصغون إلى أزجاله ، إنها أزجال جنسية يلعب فيها بالألفاظ و لم يكن أمامنا إلا الإعجاب به ، فهو صاحب رخصة مجلة « المدفع » .

ودار الحديث حول إصدار المجلة فتم الاتفاق على أن يقوم فريدون برسم صورة الغلاف والصور الكاريكاتيرية ، وأن يكتب سعيد وأحمد الأزجال وبعض المقالات ، وأن يترجم أحد الزملاء قصة . وكان كل دورى فى هذه المسرحية أن أصغى إلى مواد العدد الأول وهى تقرأ ، وأن أشاهد رسومات فريدون فى إعجاب ، وأن أحلم بباعة الصحف وهم ينادون على مجلة « المدفع » .

و لم يستطع مشروع المجلة أن ينزعنا من لعب الكرة أو الذهاب إلى السينما ، فقد ظهر فى ذلك الوقت لشارلى شابلن فيلم « الغلام » وكثر الحديث عنه فى الصحف والمجلات الفنية ، وعرفنا منها اسم الطفل « جاكى كوجان » قبل أن نشاهد الفيلم . وذهبنا لنشاهد أول فيلم طويل لشارلى شابلن : إن أما تضطرها الظروف لترك وليدها فى الطريق لأنه ابن غير شرعى رفض أبوه أن يعترف به ، وجاء شارلى وهو أفاك من الأفاكين كما اعتاد أن يظهر فى كل أفلامه وعثر على الطفل فأخذه ورباه . ولما كبر الغلام عهد إليه بتكسير ألواح الزجاج ثم يأتى شارلى صانع الزجاج لإصلاحها . وفى آخر الفيلم تعثر الأم على ابنها وتأخذه من شارلى ، فرحت أبكى بكاء لم أبك مثله فى أعنف تراجيديا .

وخرجت من السينما وقد احتل الفيلم كل تفكيرى ، وتمنيت لو أننى ولدت فى أمريكا لتتاح لى فرصة الظهور فى فيلم . و لم يؤثر الفيلم فى خيالاتى بل أثر فى تصرفاتى ، فرحت أحطم زجاج فوانيس الطريق وأعدو فى الشارع قبل أن يلمحنى العسكرى .

وحدث ذات يوم أن ضبطنى العسكرى وأنا أحطم بحجر أحد فوانيس الحى ، ولمحته وهو يدنو نحوى فجريت وجرى خلفى ، فدخلت فى حى البكرية وهو يجرى خلفى وأخذت أحاوره فى أزقتها . و لم ينقذنى إلا أننى اختبأت فوق سطح بيت إلى أن جاء الظلام ، وتسللت إلى بيتنا و لم أغادره ثلاثة أيام .

وتوطدت صداقة بينى وبين أخى محمد فكان يأخذنى معه كلما خرج للنزهة يوم الجمعة . إنه كان يهوى الذهاب إلى حديقة الأزبكية وينطلق إلى كشك الموسيقى يصغى إلى فرقة موسيقى البوليس التى كانت تعزف هناك بقيادة الصياد . وقد توطدت صداقة متينة بينه وبين الصياد . وكانت الاجتماعات السياسية واجتماعات الطلبة تعقد

غالبا عند كشك الموسيقى وقد كان فرحي عظيما عندما ذهبت إلى هناك أول مرة فقد أحسست أنني ازور مكانا له خطره وله قدسيته فى تاريخ بلادى .

وكان أخي محمد يأخذنى كل يوم جمعة مساء فى الصيف إلى سينما حديقة الأزبكية ؛ كانت مناضد حولها كراسى وكان ثمن التذكرة أربعة قروش . وكانت التذكرة تعطينا حق طلب من البوفيه قيمته قرشان ، فكنت أشترى سميط وبيض ثم أطلب جيلاتى ، وما كنت أدفع شيئا فقد كان محمد يتكفل بكل مصاريف ذلك اليوم .

وأنجب محمد بنتا وقد أشاع ذلك السرور فى بيتنا ، أبى أصبح جدا لأول مرة وصارت أمى جدة وصرت أنا وإخوتى أعماما . وكانت عمتى زينب أكثر أسرتنا سرورا ، فهى لم تنجب فاتخذت بنت أختها زوجة أخي محمد بنتا لها ، وقد فرحت حقا لأن ابنتها الطفلة صارت أما .

كانت الأحاديث فى السلاملك تدور بين أخوى أحمد وسعيد وأصدقائهما حول الروايات التى قرءوها وحول المجلة ، وكانت الأحاديث فى الليل بين أبى وصحبه تدور حول الكتب التى كانوا يقطعون الوقت بقراءتها والتعليق عليها . فاشتهيت أن أشارك فى تلك الأحاديث . وشحذ ذلك همتى فعزمت على أن أقرأ كما يقرءون وأن أدلى برأيى فيما يقولون ، فأقدمت متهيبا على قراءة « ماجدولين » للمنفلوطى ، ولكن ما إن قرأت بضع صفحات حتى أحسست سرورا يغمرنى ؛ إننى أستطيع أن أفهم ما أقرأ وأن أتأثر به وأنفعل له .

ومرت الساعات وأنا عاكف على الكتاب فنسيت كل ما حولى ، وعشت مع أبطال الرواية حتى أوشكت على نهايتها . ومس أذنى أصوات مهمهمة فذهبت إلى حيث كانت الأصوات منبعثة والكتاب فى يدى ، فرأيت ابنة أخي الصغيرة نائمة شاحبة اللون تلتقط أنفاسها فى جهد ، وأهل الدار حولها مطاطئى الرءوس فى حزن . ففطنت إلى أنها فى النزع الأخير فانقبض صدرى ، وعلى الرغم من ذلك لم أستطع أن أترك ماجدولين وهى تجود بآخر أنفاسها فأسرعت إلى القراءة وسالت عبراتى ونسيت كل شىء إلا أن ماجدولين تموت . وذهبت ماجدولين فى الغابرين ، وانطلقت

الأصوات مفجوعة مولولة فى الحجرة التى سجيت فيها ابنة أخى ، فخيل إلىّ أن الصوات ما انطلق إلا لموت ماجدولين .

٣٢

ذكرت صحف ذلك اليوم أن الملك فؤاد سيفتتح شارع الأمير فاروق ، فراح حديث السهرة فى السلاملك فى تلك الليلة يدور حول الملك فؤاد وكيف كان يعيش قبل أن يصبح سلطانا على مصر فى طرقات القاهرة ، والديون التى كانت عليه لبعض أفراد الشعب العاديين . وقال إبراهيم الشرى معلقا :

ــ عايز الحق .. فؤاد ملك مرقع ، تربية شوارع .

وراح بعض الحاضرين يدافعون عن تولية فؤاد ، ويقولون لولا أن قبل فؤاد الحكم لولى الإنجليز « أغا خان » ملكا على مصر . وجر الحديث بعضه بعضا والحديث ذو شجون ، فإذا بالحاضرين يذكرون بعض النوادر عن إسماعيل وعن توفيق وعن السلطان حسين ، وأمست الندوة منبرا سياسيا تتصارع فيه المذاهب والآراء . وإذا ببعض الرجال يتحمسون للحزب الوطنى ومصطفى كامل ، وإذا بالحديث يتطرق إلى ثورة ١٩ ومواقف سعد زغلول . وانعقدت مقارنات بين مواقف مصطفى كامل ومواقف سعد ، ودار الحديث حول الخلافة . قال قائل إن القضاء على الخلافة وإزكاء نار الوطنية فى الشعوب إن هو إلا خدعة استعمارية لتمزيق وحدة العرب وإضعاف المسلمين .

ورأى الحاضرون أن اتحاد الدول الأوروبية وقيامها فى وجه محمد على وتحطيم الأسطول المصرى فى معركة تاكاريت هو دليل على خوف الدول الأوروبية من انتفاضة إسلامية تعيد للإسلام مجده ، وتغرس فى قلوب المسلمين العزة والكرامة ، فيثورون على ما هم فيه من ذل الاستعمار والامتيازات الأجنبية .

وتحرك شيطان رجل من الحاضرين فراح يتحدث عن العلاقة التى كانت بين الملك فؤاد والملكة نازلى ، وكيف أرغم فؤاد على الزواج من نازلى ، وكيف أخفى تاريخ

ميلاد فاروق،وضايق ذلك الحديث والذى فطلب أن نبدأ فى قراءة الأيام للدكتور طه حسين ، فراح أخى أحمد يقرأ والشيخ إبراهيم الشرى يعلق على ما كتب الدكتور طه ، فإذا ما حرك أحد فصول الرواية إعجابه راح يسب أبوى الدكتور وهو يهز رأسه فى نشوة ، وقد ظهر فى وجهه أنه قد بلغ قمة الانفعال .

وبدأت صلتى بالأدب فى السلاملك على أيدى أناس بسطاء ، أبى وتاجر دخان وخادم فى زاوية ، وشيخ الزاوية المسن الذى كان يتناول بعض الموضوعات الدينية التى تزخر بها الكتب الصفراء المكدسة فى حى الأزهر .

وفى السلاملك عرفت كيف تصدر المجلات الأدبية ، ففى كل يوم كان يجتمع أخواى أحمد وسعيد وصاحب رخصة مجلة « المدفع » وفريدون وبعض الأصدقاء لمراجعة مواد العدد الأول وتنسيقه والتحليق مع الأحلام .

وقد كدنا نطير من الفرح ذات يوم عندما جاء إلينا صاحب رخصة المجلة يزف إلينا نبأ عثوره على مطبعة فى حى الحسين اتفق معها على طبع المجلة لقاء جنيهات لا تصل إلى العشرة ، ولا أدرى كيف حصل أخواى والزملاء على ذلك المبلغ الكبير . كل ما أذكره أن المبلغ قد جمع وأن جزءا منه قد دفع إلى المطبعة قبل بداية الجمع والطبع ، وأن الجميع قد ذهبوا إلى موزع الصحف والمجلات فى العتبة الخضراء واتفقوا معه على توزيع المجلة .

وبينما كنا سعداء جاء نبأ وفاة الزعيم سعد زغلول فأحسسنا حزنا يعتصر أفئدتنا . كنا نحب سعدا فرحنا نردد فى أسى بعض أقواله فى مناسبات وطنية :

ـــ تقطع يدى ولا يقطع السودان عن مصر .

ـــ وقالوا فيما يختص بالرياسة أقوالا غريبة ، قالوا إنه لا يليق بكرامة الحكومة ألا يكون رئيسها رئيسا للمفاوضين .. باطل ما قالوا ! فالسيادة فى الأمة وهى تعطيها لمن تشاء ، فللأمة وكيل أجمعت عليه رغم أنف كل معارض . ومن التواضع ألا أقول إنى رئيس ولكن الأمة هتفت ولا تزال تهتف بأنى رئيسها . هل يخل بكرامة الحكومة أن رئيسها يكون مرءوسا لوكيل الأمة ؟!

ـــ الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة .

ومرت حياة سعد زغلول فى لحظات بعد أن أصبحت ذكرى ، وراحت كل المجلات والصحف تنعى زعيم الأمة ، فكان على مجلتنا التى أوشكت على الظهور أن ترثى الزعيم الخالد ، فكلف أخى سعيد بكتابة الرثاء ، فتركناه وحده فى السلاملك يعتصر قريحته ورحنا نقول مع القائلين :

ـــ سعد باشا قبل ما يموت قال ما فيش فايدة .

ـــ سعد باشا قال وهو بيموت أنا انتهيت .

وكان حافظ إبراهيم شاعر النيل لا يفارق سعدا ، سافر معه إلى قريته « مسجد وصيف » وبقى إلى جواره حتى اللحظات الأخيرة ، وقد رثاه بقصيدة تقطر لوعة . وكان أحمد شوقى أمير الشعراء غائبا عن البلاد فلما عاد رثا نبى الوطنية ، وفاضت الصحف بتاريخ سعد ومواقفه وما قاله الزعماء عنه . إن غاندى قال إنه تعلم الوطنية من سعد ، وإن كل ثوار ذلك العهد قد تأثروا به . وكتبت الصحف فيما قاله سعد قبيل دخوله فى مفاوضات سنة ١٩٢٤ ، فقد أعلن مستر ماكدونالد رئيس الوزراء البريطانى أن المفاوضات ستجرى على أساس التحفظات الواردة فى تصريح ٢٨ فبراير ، فقال سعد فى مجلس النواب : إنى لست مرتبطا بما يقوله رئيس الوزارة الإنجليزية فى مجلس النواب البريطانى ، ولكنى مرتبط بالدعوة التى ترد إلى : فإذا كانت الدعوة مطلقة وكنت أرى أن أدخل المفاوضات طليقا من كل قيد دخلتها .

ونشرت الصحف خط سير الجنازة الرسمية ؛ إنها ستسير فى شارع محمد على فى طريقها إلى القلعة ، أى أنها ستمر أمام بيت نملكه فى شارع محمد على . فذهبت مع أبى وأمى وإخوتى إلى هناك لنشارك الشعب فى توديع الزعيم ، ارتدى النسوة السواد ، ووقف الرجال على جانبى الطريق وفى أيديهم المناديل يجففون الدموع . وانسابت أصوات موسيقى حزينة آتية من بعيد ، ودنت الجنازة : فرق الجيش الموسيقية تسير فى المقدمة ، ثم جثمان الزعيم على مدفع ومن خلفه كبار المشيعين ، ثم الأمة كلها تبكى وتنوح وأصوات مبحوحة ثكلى تهتف :

ـــ إلى جنة الخلد يا سعد .. إلى جنة الخلد يا سعد .

وأجهشت النسوة بالبكاء وذرف الرجال الدموع ، وحاول كثير من الواقفين أن

يقتربوا من النعش الذى يحمل الزعيم ولكنهم لم يفلتوا من الحصار الذى ضربه البوليس على الواقفين على جانبى الطريق ، وبالجماهير الذين ملئوا الأفق لكأنما كان ذلك اليوم يوم النشور . ودار بخلدى سؤال : أإذا مات زعيم ماتت الأمة ؟ إن الزعيم يؤثر فى شعبه ولا ريب ، فمن شجاعته تستمد الشجاعة ، ومن تضحياته تتعلم التضحية ، ومن صموده تستمد الصمود ؛ ولكن لكل عصر دولة ورجال ، فما إن يموت زعيم حتى يقوم زعيم تحاول الدعاية والإعلام أن يوطدا له أركان زعامته ، وتتسلل الحقيقة فى بطء شديد لتسفر عن حقيقة معدنه .

وكللت صحف الوفد بالسواد ، وراحت تنشر المقالات الطوال عن سعد ، وفى نفس الوقت تتكلم عن خليفة سعد ، واهتم الناس باجتماعات لجان الوفد المصرى ، وفى ذات صباح أعلن أن مصطفى باشا النحاس انتخب خليفة للزعيم الراحل .

وعدنا لنهتم بأمورنا الخاصة ، كان شغلنا الشاغل ظهور العدد الأول من مجلة « المدفع » ، كان أخواى أحمد وسعيد وزملاؤهما يذهبون كل يوم إلى المطبعة فى الحسين ويعودون فرحين ببعض البروفات لتصويبها . وبدئ الطبع وطبع الغلاف فإذا بالأسى يظهر فى كل الوجوه ، كان غلافا باهتا ضاعت معالمه ، لا يكاد يظهر منه إلا توقيع فريدون ورحنا نواسى أنفسنا . وسرعان ما عاد الحزن إلى قلوبنا الصغيرة فقد تأخر صدور العدد الأول عن موعده ، وبعد جهود وانفعالات وعتاب ولوم وأمل ورجاء وخوف ظهر العدد الأول فى الأسواق ، فانطلقت أنا وأخى سعيد إلى ميدان الظاهر واشترينا نسخة من هناك ورحنا نقلبها فرحين ، ونسأل بائع الصحف عما باع منها فقال لنا :

— ده أول عدد بعته .

و لم نشأ أن نصدم أنفسنا فأرجعنا ذلك إلى أن البائع لا ينادى على المجلة ، وذهبنا إلى ميدان العتبة لنراقب توزيع العدد فلم نعثر للمجلة على أثر ، وعللنا ذلك باحتمال نفادها . أحلام أطفال !

وفى نهاية الأسبوع صفعتنا الحقيقة المؤلمة ، عادت المجلة إلى الموزع كما هى و لم تعط

النسخ التى بيعت بعض ما تحملنا من مصروفات .

ومات أمل طالما أسعدنا أوقانا .

٣٣

ظهرت نتيجة الابتدائية وكنت من الناجحين، حصلت عليها بعد سبع سنوات بعد أن يئست من الموت الذى كنت أنتظره فى كل ليلة . كنت لا أفتح كتابا خشية أن الموت قد ينزل بى فى أية لحظة فيبدد ما بذلت من جهود . فلما أيقنت أن الحياة قد كتبت علينا وأنه لا بد من المكابدة بدأت فى الاستذكار مع صلاح قنصوه الذى صار يلازمنى كلما فتحت كتابا من الكتب ، وقد أتت التجربة ثمارها فكنا من المفلحين .

وقررت أنا وصلاح أن نقدم أوراقنا لمدرسة فؤاد الأول الثانوية ، كانت المدرسة فى أول الأمر فى قصر الزعفران حيث جامعة عين شمس الآن وكان أخى سعيد قد التحق بها ، وقد ذهبت معه ذات يوم إليها لمشاهدة مباراة على أرضها بينها وبين المدرسة الخديوية . وكنت فى ذلك الوقت من أحسن لاعبى الكرة فى المدارس الابتدائية فإن مدربنا كان حارس مرمى مدرسة المعلمين الثانوية ، وكان يستعين بى لألعب قلب هجوم لمدرسته . وعلى الرغم من ذلك خيل إلى أن لاعبى الثانوى من طينة أخرى ومن مستوى يفوق مستوى لاعبى الابتدائى . فمن ذا الذى يخطر له على قلب أن تلاميذ ابتدائى مثل طلاب الثانوى ؟ فلم أفكر فى أنه قد يأتى ذلك اليوم الذى ألعب فيه لهذه المدرسة العتيدة .

وقبل أن أحصل على الابتدائية انتقلت مدرسة فؤاد الأول الثانوية من قصر الزعفران إلى مبنى مدرسة الحسينية الابتدائية فى العباسية ، فذهبت أنا وصلاح وقدمنا أوراقنا دون جهد أو تعب ، فقد كان الالتحاق بالمدارس فى ذلك الوقت أمرا ميسورا . إن أهلنا كانوا يتركوننا فى الشوارع فنجد أنفسنا فى المدارس ، أما عندما أصبحنا أولياء أمور فقد كنا نترك أبناءنا فى المدارس فنجدهم فى الشوارع .

وتوثقت الصلة بينى وبين شارع فاروق وإن كانت الدولة لم تحتفل بافتتاحه رسميا ،

فقد قصر المسافة بيني وبين المدرسة وبيني وبين سينما إيديال . فكنت فى أثناء ذهابى إلى العتبة الخضراء أفضل أن أسير على قضبان الترام التى لم تمد بعد تجنبا للزلط والحجارة ، وكثيرا ما كنا نتسابق فوق تلك القضبان وكان ذلك مصدر سعادة لنا .

وكبرنا وتغيرت نظرتنا للحياة ، فبعد أن كنا نقيس نجاح الفيلم بعدد اللكمات ومقالب الحرامية ، أصبحنا نقيس نجاح الفيلم بالمواقف العاطفية وطول القبلة . إن شيئا مال يتحرك بين جوانحنا ، وبدأت تطورات نفسية وعضوية تظهر على تصرفاتنا ، وفى ذات يوم بينما كنت أسير أنا وصبى من أصدقائى فى مثل سنى راح كل منا يتحسس الحمصة التى فى مقدمة أنفه ليتأكد من أنها قد انفلقت ، وكان انفلاقها دليلا على أننا قد وصلنا إلى سن البلوغ . ولم يكتف كل منا بأن يتحسس حمصة أنفه بل راح كل منا يتحسس حمصة أنف زميله ، وقد لاحظ ذلك بعض الجالسين على مقهى « وطنى » فضجوا بالضحك ، فإذا بالخجل يتملكنا ونوسع من خطانا .

وظهر فى ذلك الوقت رودولف فالنتينو ساحر النساء فأصبح من أحب النجوم إلى قلوبنا ، واستولى على كل مشاعرنا بروايتى الشيخ وابن الشيخ ودماء ورمال . وكانت الروايات التى يرتدى فيها الزى العربى أكثر تأثيرا فى شباب ذلك العصر ، حتى إن كمال سليم قد أطلق سوالفه ولبس ملابس الشيخ وصور فى صورة تحاكى رودولف فالنتينو ، ووضعت الصورة أمام محل المصور فى إطار فى عرض الطريق بالقرب من سينما أوليمبيا ، فكنا نقف عندها طويلا نقارن بين كمال سليم وبين فالنتينو ونحن نغبطه على ما هو فيه من نعمة كبرى ، نعمة أن تكون له مثل هذه الصورة فى مثل ذلك الشارع ، شارع عبد العزيز .

ورحت أحلق ذقنى قبل الأوان لتطول سوالفى ، وقد استطالت فعلا وسعدت بأن أصبحت كسوالف رودولف فالنتينو ، وقد سجلت ذلك فى أكثر من صورة غير أننى كنت أرتدى ملابسى العادية .

وأصبحت طالبا فى الثانوى فصار علىّ أن أقرأ جزءا مما يقرءون فى السلاملك بالليل ، فبدأت بالنسبة لى تجربة جديدة.ولما كلفت بقراءة بعض صفحات من كتاب « فتوح الشام » للواقدى أحسست أننى أصبحت شيئا فى ذلك الجمع الذى يضم

كثيرا من الشيوخ والرجال .

كان الواقدى يروى حوادث التاريخ فى أسلوب قصصى شائـق ، وكان يهتم بالتفاصيل المثيرة التى تستولى على القارئ . وإن أنس لا أنسى سرده العجيب لوقوع ضرار بن الأزور فى أسر الروم ، وكيف ارتدت أخته خولة بنت الأزور ملابس الفرسان وهجمت هى ومن معها على الروم هجوما عنيفا . كانت الفارس الصنديد الذى لا يشق له غبار . وقد هزنى السرور وأنا أقرأ كيف احتالت حتى خلصت أخاها من الأسر . وأعتقد أن فى تاريخ الواقدى ـــ سواء أطابق التاريخ أم كان من نسج الخيال ـــ مادة رائعة تصلح أساسا للباحثين عن الفروسية وروايات المخاطرات ، وللواقدى الفضل الأول فى تعلقى بالتاريخ وحبى إياه .

وأحيانا كنت أصغى إلى من يقرأ فى السيرة النبوية لابن هشام أو أقرأ للحاضرين بعض فصولها . وابن هشام قد أخذ عن ابن إسحاق ولم يهتم أحد منهما بأن يسرد أحداث السيرة حسب زمان وقوعها ، فكنت أجد مشقة فى قراءة العنعنات وفى التتبع الزمنى للأحداث ، وتمنيت لو أن أحدا كتب السيرة بأسلوب قصصى حسب وقوع أحداثها . ترى هل بذرت فكرة كتابة السيرة فى نفسى منذ ذلك الوقت ؟ أعتقد أن ذلك كان يفوق أحلامى المتواضعة ، فقد كانت أقصى أمانىّ أن أكون لاعب كرة فى مدرستى .

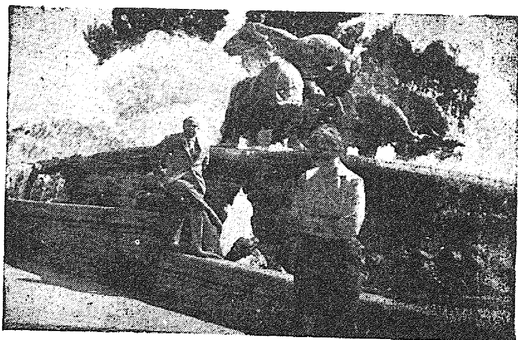
وجاء يوم الافتتاح الرسمى لشارع فاروق وكان الملك فؤاد سيقوم بالافتتاح ، فاصطف الجند منذ الصباح الباكر على جانبى الطريق ، واجتمع الناس خلف الجند وتراصت الكتل البشرية من ميدان الحسينية حتى ميدان العتبة ، ومنع الناس من أن يعبروا من أحد جوانب الشارع إلى الجانب الآخر .

وكانت العداوة مشتعلة فى ذلك الوقت بين الوفد والسراى ، وكان منزل عبد الحميد البنان نائب الجمالية الوفدى يقع بالشارع الجديد بالقرب من ميدان الحسينية على بعد أمتار من بداية الشارع الذى سيفتتحه الملك بعد قليل .

وفى غفلة من الجند تسلل رجل يحمل كلبا من منزل البنان وراح يدفع الجموع المحتشدة بمنكبيه حتى وصل إلى حيث اصطف الجند للمحافظة على النظام . وألقى

بالكلب فى عرض الطريق فراح الكلب يعدو لا يجد له منفذا ، واستمر فى عدوه فى الشارع حتى بلغ ميدان العتبة وقد استقبله الناس بعاصفة من التصفيق والهتافات والقهقهات العالية . ولم يحاول أحد من الجند أن يعترض طريق الكلب فقد أخذتهم جميعا المفاجأة وشلتهم عن الحركة أو التفكير .

وجاء ركب الملك فؤاد يتهادى وقد جلس إلى جواره الأمير فاروق ، فارتفعت صيحات الشعب بالهتاف للأمير ، فالقلوب البريئة مهما كانت جريحة تنسى كل شىء أمام الطفولة الرقيقة ، واستقبل الملك فؤاد الأول بمثل الحماس الذى استقبل به الكلب .



كان صلاح فنصوه يأتى إلى بيتنا يوما وأذهب إلى بيته يوما لنذاكر معا ، وكان بيت صلاح فى شارع الملكة نازلى ـــ شارع رمسيس الآن ـــ بالقرب من شارع التوفيقية . وما كنا نبدأ فى الاستذكار قبل أن يغادر أخوه محمود البيت ، فمحمود موظف فى الدرجة السابعة ينام بعد عودته من الديوان حتى الغروب ، ثم ينهض ويأخذ فى ارتداء قميصه الحريرى ذى الزراير الذهبية ، ويربط رباط عنقه المستورد من باريس ، ثم يدس رجليه فى بنطلونه الكحلى وهو يحادثنا فى موضوعات الساعة . وسرعان ما يخطف الجاكتة من فوق الشماعة وهو مستمر فى حديثه ، كانت بذلة والحق يقال من أفخر الأقمشة الإنجليزية ، فهو موظف قادر على أن يدفع خمسين قرشا كل شهر لأحسن الترزية فى مصر سدادا لثمن القماش والتفصيل .

وكان محمود يلقى علينا التحية قبل أن يخرج ليمضى سهرته على قهوة الفن بشارع عماد الدين ، القهوة التى يؤمها كبار الفنانين فى ذلك العهد ، فكنا نرمقه وهو ينصرف فى إعجاب وإكبار ، ونتعجل الزمن لنصبح مثله فى الدرجة السابعة لنرتدى فاخر الثياب مثل ما يرتدى ، ونزين أصابعنا بخواتم كتلك التى تزين أصابعه ، ويكون لنا حق السهر حيث يجلس الفنانون والأدباء .

وكان أخى محمد يكلفنى بأن أشترى تذاكر فرقة رمسيس أو فرقة فاطمة رشدى أو الريحانى أو على الكسار ما دمت قريبا من شارع عماد الدين ، فما كان يمر أسبوع دون أن نذهب معا إلى مسرح من مسارح القاهرة . وكان مجرد ذهابى إلى شارع عماد الدين يملؤنى غبطه ، فرؤيتى للريحانى فى القهوة أو لفاطمة رشدى ـــ صديقة الطلبة ـــ وهى جالسة أمام مسرحها وإلى جوارها إيلى الدرعى الرجل اليهودى المسن تاجر الأقطان الذى كان من شدة إعجابه بالفنانة يمول فرقتها المسرحية ، كانت تعتبر حدثا فى حياتى . فما أكاد أعود إلى البيت حتى أتحدث عن حسين رياض وأحمد علام وهما

يهرولان فى شارع عماد الدين حتى لا يتأخرا عن البروفات ، وعما التقطته أذناى من حديث فاطمة رشدى لهما الذى يقطر سخرية ومرارة لتأخرهما خمس دقائق عن موعدهما .

وفى يوم الجمعة ذهبنا إلى مسرح رمسيس . كان للمسرح تقاليده ؛ الستار يرفع فى موعده ، وكنا نجلس صامتين كأنما كنا فى معبد . ورفع الستار عن رواية الذبائح لأنطون يزبك ، كان أخى سعيد قد قرأ الرواية فى السلاملك ، ولم يكتف بالقراءة بل قام بتمثيلها . وكنت قد قرأت ما كتب عنها من نقد فى مجلة المسرح ، إنها مجموعة من الفواجع التى تهز رواد مسرح رمسيس من الأعماق ، كان يوسف وهبى يهدر فوق المسرح ، وفتوح نشاطى يندمج فى دوره الدرامى العنيف ، وأمينة رزق تولول ، ودموع المشاهدين تنسكب من العيون . والتفت إلى الجالس إلى جوارى فإذا به شيخ كبير حفر الزمن فى وجهه أخاديد ، والدموع تجرى من عينيه فى الأخاديد حتى إذا بلغت ذقنه راحت تتساقط على الأرض كأنما صنبور قد فتح لينقط نقطة نقطة ، فما تمالكت أن ضحكت فإذا بالشيخ يلكزنى بكوعه فى جنبى ويقـول لى فى همس غاضب :

ــ إذا كان ما عندكش شعور إيه اللى جابك ؟

واضطررت أن أكتم الضحك فما كانت فواجع مسرح رمسيس تهزنى ، كنت أعشق أن أرى يوسف وهبى فى أدواره الكوميدية وقد كان يتألق هو ومختار عثمان فى المواقف الضاحكة ، وإن أنس لا أنسى لهما مسرحية « شارع عماد الدين » فقد ضحكت فيها ضحكا مرحا طليقا كذلك الضحك الذى كنت أضحكه كلمـا شاهدت فيلما لملوك الفكاهة فى سينما إيديال .

وفى يوم من أيام الجمعة التى أصبح لى فيها حق السهر ، ذهبت مع إخوتى إلى مسرح برينتانيا لنشاهد فاطمة رشدى وأحمد علام فى مسرحية مجنون ليلى لأمير الشعراء أحمد شوقى ومن إخراج المخرج العبقرى عزيز عيد . كان المسرح لا موضع فيه القدم ، وكان فى الصالة وفى أعلى المسرح كثير من أولاد البلد . ورفعت الستار فساد القاعة سكون عجيب ، وانساب الشعر من بين شفاه فاطمة رشدى وأحمد علام ليعبث بأوتار

القلوب ، فإذا بالانفعال يبلغ قمته فتدوى القاعة بالتصفيق ، وتنطلق من الحناجر صيحات :

ـــ أعد .. أعد .

لكأنما كان المشاهدون ينصتون إلى لحن جميل . وانتهت المسرحية وخرجنا ونحن نكاد نترنح من فرط النشوة ، وأذكر والأسى يحز فى نفسى أننى شاهدت المسرحية بعد ذلك بسنين طويلة فى دار الأوبرا ، مع طلبة من الجامعة ، فإذا بالقاعة تتجاوب بالتعليقات السخيفة وضحكات السخرية ، فلم يتذوقوا المسرحية . صارت الفصحى غريبة على آذانهم لبعد الشقة بينهم وبين لغتهم الجميلة .

وراحت الصحف والمجلات الفنية تتحدث عن اتفاق بين وداد عرفى وعزيزة أمير على إنتاج أول فيلم مصرى فتلقينا الخبر بين مكذبين ومصدقين ، فقد كنا نحسب أن نجوم السينما من طينة غير طينة أمثالنا من المصريين . ولم يكن اسم وداد عرفى جديدا علينا فقد قدمت له فريقة رمسيس مسرحية ، وأخذنا نتتبع أخبار المشروع فى شوق ولهفة ، وسرعان ما أحسسنا خيبة الأمل لما حملت إلينا الصحف أن خلافا قد دب بين وداد عرفى وعزيزة أمير ، وأن العمل قد توقف فى فيلم « ليلى » أول فيلم مصرى .

وكان وقع النبأ أليما فقد كنا فى شوق إلى أن نرى على الشاشة الفضية أبطالا مصريين مثل مارلين ديتريتش وجون باريمور وجريتا جاربو والعزيزة بيللى دوف ، وكنت وأنا فى سن المراهقة من أشد المعجبين بها ، ومن حسن حظى أن أفلامها جميعا كانت تعرض فى سينما إيديال وأنها كانت وفية لصداقتى فلم تسمح بعرض أفلامها فى أية دار أخرى من الدور لمنافسة لدارى المفضلة .

وعادت الصحف وحملت إلينا بشرى أن العمل فى فيلم « ليلى » قد استؤنف ، وأن الصحفى أحمد جلال سيقوم ببطولة الفيلم وإتمام إخراجه .

وأعلن عن قرب عرض الفيلم بسينما متربول وكانت خلف شيكوريل ، فأعطانى أخى محمد نقودا لأشترى تذاكر فكانت فرحتى لا تقدر . وقد وقفت فى الصف الطويل أمام شباك التذاكر ساعات دون أن أتبرم ، ومن أين يأتينى التبرم أو الملل وأنا أزحف نحو الشباك لتحقيق حلم كبير ؟

وجاء اليوم المرتقب وتجمع الناس أمام دار العرض ، ودخلنا فرحين مستبشرين إلى الصالة . وبدأ العرض وقلوبنا ترقص من الفرحة ، وكل لقطة تهزنا . وأخذنا جميعا نصيح مأخوذين كلما ظهر شيء فيه الطابع المصرى : قلة .. طبلية .. ملوخية .. طربوش .

وخرجنا من قاعة العرض نكاد نطير من الفرح ، لم يفكر واحد منا أن ينقد الفيلم بل كنا نلتمس للأخطاء المعاذير ، وكنا فى غاية البشر لأننا شهدنا مولد صناعة السينما فى مصر .

٣٥

كانت الوزارات فى مصر أشبه بلعبة الكراسى الموسيقية ، فمنذ أن ولدت إلى أن أصبحت طالبا فى السنة الأولى بمدرسة فؤاد الأول الثانوية لم تتغير وجوه اللاعبين كثيرا : صاحب العطوفة حسين رشدى باشا ، صاحب الدولة محمد سعيد باشا ، صاحب الدولة يوسف وهبة باشا ، صاحب الدولة محمد توفيق نسيم باشا ، صاحب الدولة يحيى إبراهيم باشا ، صاحب الدولة سعد زغلول باشا ، صاحب الدولة أحمد زيور باشا ، صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا . وما كنت أهتم كثيرا بالسياسة فقد كنت أرى أن الكلمة فى بلادى ليست لعظمة السلطان أو جلالة الملك بل هى لمندوب بريطانيا ، سواء أكان الفيلد مارشال أللنبى القائد العام لقوات جلالة الملك فى القطر المصرى أو المندوب السامى البريطانى ، إننا نحكم من قصر الدوبارة مقر السلطة البريطانية وما قصر عابدين إلا لإيهامنا أن أمورنا بأيدينا وأننا نحكم أنفسنا بأنفسنا .

واجتاحت البلاد موجة من الفرح ، فالنحاس باشا رئيس الوفد وزعيم الأمة قد ألف وزارة ائتلافية. وقامت مظاهرات الابتهاج فى المدارس، وصار هذا الحدث حديث كل الصحف والبيوت . وفى السلاملك دار حديث سياسى ، راح العم إبراهيم الشرنى يتحدث عن بطرس غالى باشا وعن تأليفه للنظارة فى عهد عباس حلمى ، وتشعب الحديث والحديث ذو شجون فدار حوار حول كيفية مقتل بطرس غالى وكيف قتله

الوردانى ، واختلف الحاضرون فى الدوافع لمقتله ، وقد أثار كل ذلك تعيين واصف بطرس غالى باشا وزيرا للخارجية .

وتحدث البعض عن تعيين سعد زغلول باشا لنظارة المعارف العمومية فى وزارة بطرس باشا ، وكيف أمر سعد باشا أن تنقل لافتة الوزير من مكانها إلى حيث وضعت لافتة دانلوب المستشار الإنجليزى لنظارة المعارف المصرية لما وجد الوزير أن مكتب المستشار البريطانى أفخم من مكتب الوزير . ودار الحديث حول ما كان بين سعد باشا وبين دانلوب من خلافات ، وكيف نجح سعد باشا فى جعل التعليم باللغة العربية بعد أن كان باللغة الإنجليزية .

كل ما تذكرته فى ذلك الوقت عن سعد باشا أنه عندما تولى رئاسة الحكومة قرر أن يقام ملحق لكل من رسبوا فى الملحق لانشغال الطلبة بالقضية الوطنية فى أثناء إجراء الملحق الأول ، وقد رسبت كما كان منتظرا فى ملحق الملحق ، فماذا ينتظر من طفل لا يستذكر دروسه انتظارا للموت فى كل ليلة ؟!

وتذكرت يوم أطلق الرصاص على سعد ، وقد ذاع فى حينا أن رجلا أرمنيا هو الذى أطلق عليه الرصاص فراح الغوغاء يهاجمون الأرمن فى منازلهم . واتجهوا إلى بيت قريب من بيتنا كانت أسرة أرمنية تسكن فيه ، فغاص قلبى فى ذلك اليوم خوفا وإشفاقا على خاتشو ، فقد كان خاتشو حارس مرمى فريق حينا ، وقبل أن يصل الثائرون إلى الأسرة الأرمنية ويلقوا برجالها وأطفالها ونسائها من الشرفات جاء من يؤكد أن مصريا مجنونا هو الذى أطلق الرصاص على زعيم الأمة ، ونجا خاتشو من الموت كما ينجو منه أبطال الأفلام فى آخر لحظة .

وتذكرت ما قرأته عن المنفلوطى عندما أصبح المنفلوطى من الكتاب الذين ألتهم كتبهم التهاما . إن المنفلوطى مات فى ذلك اليوم ، وقد كان المشيعون لجنازته يعدون على الأصابع ، وقد اعتذر أمير الشعراء أحمد شوقى عن ذلك النكران بأن المنفلوطى مات فى يوم الهول الأكبر .

واشتدت المناقشات فى السلاملك وأنا أصغى دامع العين ، فدخان السجاير تكاثف فى المكان حتى ملأ الأعين والأنوف . إنى أكره رائحة الدخان منذ ذلك اليوم

الذى اشتريت فيه علبة سجاير بعشرة مليمات واختفيت خلف كشك العم داود وكان وراء بيتنا القديم وأمام الشقة التى كانت تدار للدعارة ، وحاولت أن أدخن كل ما فى العلبة ، عشر سجاير مرة واحدة ، فإذا بالدموع تنهمر من عينى وأستشعر اختناقا بعد السيجارة الرابعة ، فالقى بالعلبة وما بقى فيها وقد عزمت على أن لا أعود إلى السجاير أبدا .

فكرت فى أن أفر من المكان ولكن النقاش كان لذيذا ، فقمت أفتح النافذة و لم يعترض أحد . كنا فى شهر مارس وبرودة ذلك الشهر أهون من عذاب الدخان المتكاثف ، وراح سائل يسأل : هل يمكن أن يدوم ائتلاف بين الوفد والأحرار الدستوريين ؟ وقال آخر : لماذا لم يشترك الحزب الوطنى فى الوزارة ، وقيل : إن سياسة الحزب الوطنى أن لا مفاوضة إلا بعد الجلاء . وسأل سائل : ما الفرق بين سياسة الوفد وسياسة الأحرار الدستوريين ؟ وقيل كلام كثير لم أرتح إليه . قيل إن الوفد يطالب بحقوق البلاد وفى الجلاء والاستقلال التام ، وإن سياسة الأحرار أن ما لا يؤخذ كله لا يترك كله . وطال الحديث عن دور الأمير عمر طوسون فى تأليف الوفد المصرى ، وأن هناك كراهية شديدة بين الملك فؤاد والأمير .

وراح الحاضرون يحللون حكمة اختيار كل وزير لوزارته لكأنما كانت هناك حكمة حقيقية من تأليف وزارة ائتلافية لن يطول بها العمر أشهرا . وكنت فى قرارة نفسى أستشعر أن تغيير الوزارات هى لعبة الحكام لشغل الرأى العام عن أهدافهم الحقيقية .

وعلق على اختيار مكرم عبيد أفندى وزيرا للمواصلات طويلا ، فهذه كانت أول مرة يشترك فيها مكرم عبيد فى الوزارة . راحوا يتحدثون عن لباقته وعن براعته وقدرته الخطابية وعن أشهر مواقفه فى المحاماة ، ودار رأسى فانسللت من السلاملك قبل أن ينفض الاجتماع الخطير ، وأنا أعجب فى نفسى من أن إنجلترا تكاد تحكم العالم ، وأن إمبراطوريتها لا تغرب عنها الشمس . كنت فى دهش من أمر زعماء المستعمرات جميعا ، لماذا يحارب كل زعيم الإمبراطورية العاتية وحده ؟ لماذا لا يجتمع زعماء مصر والهند والمستعمرات وأن يقرروا الثورة على الأسد البريطانى فى يوم واحد ؟ أن يعلن العصيان المدنى فى كل ممتلكات التاج البريطانى فى وقت واحد ، وأن يستمر حتى يجلو

الإنجليز عن مستعمراتهم ويعودوا إلى أوطانهم فى الجزر البريطانية ؟

كنت أعتقد أن الأمر سهل ، وقد كنت بريئا فى ذلك العهد ساذجا فى تفكيرى ، فلم أعمل حسابا للمطامع والأهواء ومكر الاستعمار وأساليبه فى خداع الشعوب وقمعها وتغذية المطامع الرخيصة .

٣٦

كان معظم سكان حينا من اليهود ، وقد كنا ونحن أطفال لا نبتعد كثيرا عن بيوتنا لأن أهلنا قد غرسوا فى روعنا أن فطير الفصح الذى يتناوله اليهود فى عيد الفصح لا يكون فطيرا شرعيا إلا إذا عجن بدم مسلم ، فكنا إذا سرنا فى شارع هادىٔ بعيدا عن العمران قبيل الفصح نستشعر خوفا ورهبة خشية أن نختطف ونذبح ، وكنا إذا غبنا عن دورنا بعد الغروب ترسل أمهاتنا من يبحث عنا ويعود بنا سالمين .

وكان لليهود أعياد كثيرة : عيد الفصح ، وعيد الضليلة وهو عيد المظلة . وكانت الشرفات تقام فيها مظلات من الجريد وسعف النخل ، وقد ورثوه عن عيد كان يقام فى الربيع فيه تشد المظلات فى الخلاء ، ويخرج فيه الشباب لاختيار شريكات حياتهم من الفتيات اللاتى كن يتزين ويبرزن فتنتهن لهذه المناسبة ، وعيد المسخرة وهو عيد الكرنفال ، وفيه يتجاوز الهزر كل حد وتمارس فيه الفتيات حريتهن ، وكان عيد نشارك فيه مرحبين فيلقون علينا الماء من النوافذ ونلقى عليهم الماء من النوافذ ، وكل يضحك فى سرور . إنه عيد الغانية إستير التى صارت فى التوراة القديسة إستير لأن كسرى أخشوريوش كان قد أمر بقتل كل اليهود فى مملكته ، وقد استطاعت إستير بمعاونة عمها مردخاى أن تفتن كسرى وأن تتزوجه وأن تصدر عفوا عن كل اليهود الذين كانوا فى إمبراطورية فارس من إيران إلى مصر .

كان لى أصدقاء من اليهود من الجنسين ، فقد كنت ألعب مع الولدان والبنات على السواء فى وقت كان الناس ينظرون شزرا إلى أية محادثة بين ولد وبنت فى الطريق . وبعد أن انتقلنا إلى بيتنا الجديد توطّدت صداقة بينى وبين أسرة يهودية كانت تسكن فى الشقة

الأرضية المواجهة لباب السلاملك . كانوا أبا وأما وثلاث بنات . وكان ألبير كلما رآنى جالسا فى الحر أمام بيتنا يهبط ليجلس معى يحادثنى ويقص علىّ مغامراته ليكتسب عيشه ، فقد كان على الجميع أن يعملوا . وكان فخورا بأخته فرتينيه فهى تعمل فى شيكوريل وتتقاضى ثلاثة جنيهات فى الشهر ، وكان ذلك مبلغا كبيرا يسيل لعاب الكادحين من اليهود .

كانت فرتينيه تصادق صديقا يرافقها فى العودة كل يوم ليدفع لها ثمن تذكرة الترام ، وتخصص آخر لينفق عليها يوم الأحد يوم عطلتها . وقد رآها كل الصبيان الذين كانوا يجلسون معى ومع ألبير وهى فى صحبة صديقها المسلم . وقد ضايقنا أن أخت صديقنا تصاحب شابا أسمر ، فاجتمعنا ذات يوم نناقش ذلك الأمر الخطير ، فكيف تنحرف أخت صديقنا دون أن نحذره . واستقر رأينا على أن من الواجب أن نخبره . ولكن من ذا الذى يجرؤ على أن يفجأه بذلك النبأ العظيم ، وفى موجة من الحماس قلت :

— أنا .

وجاء ألبير وجلس معنا ، فنظر إلىّ الأصدقاء نظرات تحد كأنما كانوا يقولون لى :

— قول .. قول إن كنت شجاع .

فقلت وقد احمر وجهى وكاد صوتى أن يذوب فى حلقى قبل أن يخرج واهيا من بين شفتى :

— ألبير .. فورتينيه ماشية مع واحد مسلم .

وانتظرت ثورته ، وكم كانت دهشتى عندما قال فى هدوء :

— سيبها ، بكره .. وتاخذ فلوسه .

وصفعتنى الكلمة التى آذت أذنى ، قالها فى بساطة لكأنما أخته ستأتى أمرا مشروعا تستحق عليه أجرا. إنها كلمة لا تقال وما خطر لنا على قلب أن نسمعها، فساد الصمت بيننا إلى أن قطعه ألبير بحديثه المستفيض عن كفاحه وآماله وأمله فى أن يتزوج فتاة غنية تدفع له « دوته » تمكنه من أن يفتح دكانا يستقر فيه ، عوضا عن تجواله فى شوارع القاهرة من طلوع الشمس حتى غروبها ينادى على ما يحمل من إبر وابور الجاز وحبل الغسيل ومشابك الغسيل .

وكنت أقضى ساعة الغروب قبل أن تدب الحياة فى السلاملك عندهم ألعب الطاولة مع الأب . وكثيرا ما كان الأولاد يجتمعون حولنا ليشاهدوا المباراة التى كانت تشتد أحيانا حتى تخرج الأب عن وقاره فيسب دين الزهر والأولاد يضحكون فى مرح،وكان ألبير ينتهز هذه الفرصة وينسل إلى بيتنا ويقول لأمى إننى عندهم وأنى أطلب زجاجة زهر ، فتعطيه أمى زجاجة من الزهر الذى كانت تقطره فى البيت .

وكنت أعجب من أين يعرف ألبير أن أمى تقطر زهرا وما أخبرت أحدا بذلك ؟ كان ألبير يسمع فى الصباح أثناء خروجه للتجوال فى شوارع القاهرة الخادم وهى تنادى على بائع الزهر ، وكان ينتظر حتى تتم الصفقة وقد يشارك فيها فكان يفطن إلى أن موعد تقطير الزهر قد آن ، فكان ينتظر يوما أو يومين ثم يذهب إلى بيتنا يطلب زجاجات الزهر باسمى .

وجاء موعد صيامهم . إنهم يصومون من غروب الشمس إلى غروب شمس اليوم التالى دون أن يتناولوا شيئا . وانقضى الليل وكاد النهار أن ينتصف وكنت جالسا عند الباب الحديدى ، وإذا بالشرفة الأرضية تفتح وتظهر فيها فورتينيه . فلما رأتنى حيتنى وطلبت منى أن أنتظرها .

ونزلت فورتينيه وجاءت إلىّ بخطوات ثابتة وقالت لى :

— تعال معايا .

— على فين ؟

— أسلى صيامى .

وسارت وسرت إلى جوارها حتى بلغنا ميدان الظاهر ، ثم انطلقنا إلى شارع إدريس راغب وطلبت منى أن أدخل معها أحد البيوت لتزور إحدى صويحباتها . ودخلنا وصافحتنا الصديقة مرحبة ولم يبد عليها أية دهشة لكأنما كان شيئا عاديا أن يأتى لزيارتها شاب وشابة . إننى كنت فى الخامسة عشرة وكانت هى تزعم أنها فى السابعة عشرة ، وانسلت الصديقة من الغرفة وتركتنا وحدنا .

ولفت فورتينيه ذراعيها حولى وراحت تقبلنى وأنا فى حيرة من أمرى ، أهذا فعل فتاة صائمة ؟ ألا يبطل ما تفعله صيامها ؟ ولم أفرح كثيرا بما كانت تفعله . ضايقنى

أننى أصبحت أداة لتسليتها ، مجرد أداة تسلية .

وبلبل أفكارى حديث ألبير عن الجنس وتعبيره الهادئ عن الفعل الفاضح . وظل ما فعلته فورتينيه فى ذلك اليوم يحيرنى ، ولم أفطن إلى تعليل تصرفاتهم إلا بعد أن كبرت وقرأت توراتهم وتلمودهم ، إن الزنا لا يعتبر زنا عندهم إلا إذا كان بين يهودى ويهودية ، وكذلك القتل والسرقة . فالزنا مع غير اليهود لا يعتبر زنا ، وسرقة غير اليهودى حلال ، وقتل غير اليهودى حلال ، وتناول الربا من غير اليهودى حلال ، لأنهم هم وحدهم الناس ، شعب الله المختار ومن عداهم أمم ، كلاب البشرية .

٣٧

كان أخى سعيد قد رسب فى السنة الثالثة الثانوية فكان يرى ألا يعيد السنة وأن يلتحق بأية مدرسة أهلية فى السنة الرابعة ليتقدم منها إلى امتحان البكالوريا ، ولكن ذلك لم يصادف هوي فى نفس أبى فراح يقنعه بأن يقبل الأمر الواقع وأن يعيد السنة فى مدرسته ، وقبل سعيد ذلك على مضض .

ورحنا نذاكر دروسنا ، وفى أيام الخميس من كل أسبوع كنا نذهب لنتبارى مع فريق من فرق الكرة المنتشرة فى الأحياء المجاورة . وما من أرض للعب الكرة فى القاهرة إلا وقد تشرفت بنا ، لعبنا فى أرض مولد النبى وكانت ساحة فسيحة مكان كلية هندسة عين شمس الآن ، ولعبنا بأرض مولد النبى بالنظارة وهى الأرض المجاورة لجامعة عين شمس — قصر الزعفران — وأطلق عليها أرض النظارة لأنها كانت أرضا فضاء بها برج خشبى تابع للجيش يرصد منه بعض الجنود الأفق لإطلاق مدفع الظهر أو لإطلاق المدافع فى المناسبات الأخرى ، ولعبنا بأرض العيون وكانت بشارع أحمد سعيد بالعباسية بالقرب من عيون الماء التى تغذى القاهرة ، ولعبنا كثيرا بأرض سيدى جلال وكانت أرضا منخفضة بقايتباى كنا ننحدر إليها من فوق تلال أشبه بتلال الدراسة ، وكنا فى أثناء عودتنا بعد اللعب نجد جماجم وعظاما فكان كل منا يلتقط عظم ذراع أو عظم ساق ثم نأخذ فى المبارزة ونحن نقفز من هنا وهناك لكأنما كل منا

قد صار فارسا من فرسان العصور الوسطى قد امتشق سيفه . ولماذا لا نفعل وقد رأينا فيلم الفرسان الثلاثة وكل منا يريد أن يكون درتنيان !

وكنا ننساب بين القابر بعد غروب الشمس ونحن نغني :

أهــــو جـــــالك المحضر   يـا واكل الحق استـحضر
للحجـــز والنيلــة والــــ   بلا لـزرق والبـلا لحمـر

وكثيرا ما كنا نغني ونحن ننقر على جمجمة أو نحاول أن نحصل على نغم من قرع عظام الموتى ، حتى إذا ما اقتربنا من باب النصر ألقينا ما فى أيدينا من بقايا من كانوا مثلنا يمشون فى الأرض مرحا .

سمع الموتى منا كل أغانى سيد درويش التى كانت نغما فى كل فم فى ذلك العصر ، وسمعوا المنولوجات التى كنا نحفظها عن ظهر قلب :

مـــرة مـــاشي بادلـــــع   فى ميدان عابدين بتمخطر
ولابس لـــبس جديـــــد   ومعايـــا كمان نـقديــــة

وسمعوا أغانى حامد مرسى التى كان يشدو بها فى مسرح على الكسار أمام علية فوزى ، ثم عقيلة راتب من بعدها :

فى يوم جميل من ذات الايام   والجو كان صافى ورايـــق

نقلنا إلى الموتى كل مباهج عصرنا وجعلنا القبور الساكنة تكاد أن تنبض بالحياة ، ترى ماذا سينقل إلينا أبناؤنا من حضاراتهم بعد أن نسكن قبورنا ؟ قنابلهم المدمرة ؟! قنابلهم الذرية ؟! أن تطير قبورنا فى الهواء ؟ أكتب علينا أن نذوق الموت مرتين ؟!

وأصيبت إبهام قدم سعيد من جراء حذاء الكرة إصابة أجرى بعدها عملية إزالة ظفر إبهام قدمه وحالت العملية بينه وبين الخروج ، فعزم سعيد على أن يستذكر دروس السنة الرابعة وأن يتقدم إلى امتحان البكالوريا من المنزل .

كان أحمد فى السنة الرابعة وكان رياض فوزى قد حصل على البكالوريا فى السنة السابقة ، فكانا يجلسان كل يوم فى السلاملك ليشرحا لسعيد الدروس التى سيمتحن فيها . وانقضى الشتاء ولا حديث فى السلاملك إلا حديث السياسة وقراءة الصحف التى كانت تبارك الائتلاف والصحف التى كانت تلعنه ، ومنذ أول يوم لتشكيل

الوزارة الائتلافية ظهرت بوادر الاختلاف .

وجاء الصيف ففرش أخى محمد أبسطة على الرصيف عند الباب الحديدى المؤدى للسلاملك ، وجلسنا على وسائد صفت فوق الأبسطة ، وجاء أخى بالفوتوغراف وجلجل صوت أم كلثوم فى الحى الهادىء :

إن كـــــــنت اسامح وانسى الأسيـــــــة

وكأنما عز على الأسرة اليهودية التى تسكن أمامنا أن تترك الميدان لنا وحدنا ، فإذا بفورتنيه تدير أسطوانة سيد درويش :

آه أنــا هــويت وانتهيت .

وما إن تنتهى الأسطوانة حتى تضع أسطوانة أخرى للشيخ سيد : آه أنا عشقت .

ويصل صوت أم كلثوم وصوت سيد درويش إلى الرحال المجتمعين فى السلاملك فيذكرهم بذلك الحدث الفنى الكبير الذى وقع من سنين : اشتراك محمد عبد الوهاب مع منيرة المهدية فى رواية أنطونيو وكليوباترة . كنت لا أطيق أن أستقر فى مكان . فما بدأ صوت سيد درويش يشدو : آه أنا عشقت حتى فررت إلى السلاملك ، وأفرخ روعى الحوار الفنى الدائر بين الرجال البسطاء الذين كانت تستهويهم السير والقصص العصرية . راح أحدهم يقارن مقارنة فنية بين تلحين سيد درويش للفصول الأولى وتلحين عبد الوهاب للفصول الأخيرة ، وعقدت مقارنات بين عبد الوهاب ومن سبقه من كبار المغنين ، وتحدثوا حديث الخبراء عن معدن صوت منيرة المهدية ، ونوقش الخلاف الذى دب بين عبد الوهاب ومنيرة ، وأجمع الكل على أن منيرة لم تنجح نجاح عبد الوهاب عندما مثلت دور أنطونيو بعد أن انسحب عبد الوهاب من المسرحية ، واختلف الحاضرون فى تقييم أداء صالح عبد الحى لدور أنطونيو .

كانت جلسة فنية صاخبة وكان إبراهيم الشرى أكثر الحاضرين جدلا . إنه يحفظ كثيرا من أغانى عبده الحمولى والشيخ سلامة حجازى والشيخ يوسف المنيلاوى ، وهو يجيد الحديث عن المقامات الصوتية ، وكانت له أذن موسيقية فما كان يسمع نغما حتى ينقر بأصابعه على بطن قدمه التى كانت دائما فى متناول يده يعبث فيها بأصابعه .

وانتهيت من امتحان آخر السنة وكنت واثقا من النجاح قبل أن تعلن النتيجة ، فقد

واظبنا أنا وصلاح على المذاكرة منذ أول يوم فى السنة . وانقضت السنة و لم أشاهد مباراة واحدة لفريق مدرستى ، إلا أن كل من شاهدنى وأنا ألعب كان يرى أننى أفضل من كثيرين من الذين يلعبون فى فريق المدرسة ، فكنت أتحرق شوقا إلى أن ألعب لمدرستى . ولكن كيف وأنا أكره أن أزكى نفسى أو أن أتقدم لأكون موضع اختبار ، إن الشىء الذى أخشاه دائما أن تمتهن كرامتى أو أن أكون موضع سخرية .

وذهبت أنا وصلاح إلى المدرسة لنطلع على النتيجة فإذا بسكرتير المدرسة يقرأ أسماء المنقولين إلى السنة الثانية . قرأ اسم صلاح فأخذ قلبى يدق فى شدة بين جنبى ولفتنى رهبة كادت تفقدنى وعيى ؛ كنت واثقا من النجاح ولكن الخوف تملكنى . وقرأ الرجل اسمى فإذا بصلاح يقفز إلى ويحتضنى فى فرح ويقول فى نشوة الأطفال :

ــ نجحنا .. نجحنا .

وعدت إلى البيت مسرورا وكنت أنتظر أن يطغى حديث نجاحى على كل حديث فى البيت وفى السلاملك ولكن الجميع كانوا مشغولين بحديث آخر ؛ أقال الملك فؤاد الوزارة الائتلافية وكلف محمد محمود باشا بتأليف الوزارة الجديدة .

وفى السلاملك كان موضوع الإقالة حديث الندوة ، فإنها أول إقالة فى تاريخ مصر الحديثة . وما سبب تلك الإقالة ؟ تصدع الائتلاف ، ولماذا لم يطلب الملك من النحاس باشا الاستقالة ؟ إنه اختار الإقالة إمعانا فى إذلال الوفد . وتشعب الحديث وراح كل من الحاضرين يؤكد أنه على علم بالدوافع والأسباب ، و لم أنفعل بالأحداث كثيرا فقد كنت أنظر إلى السياسة على أنها لعبة قصر الدوبارة وقصر عابدين . إنها لعبة مندوب بريطانيا وجلالة الملك والساسة الذين يعيشون للسياسة ، وإن مصالح الشعب الحقيقية إن هى إلا جسر مؤقت يطؤه الجميع بأقدامهم ليصلوا إلى أهدافهم ومصالحهم الشخصية .

كنت من صغرى أعتقد أن لا أحد يحقق مصالح الشعب إلا الشعب ، ولا أحد يسعد الشعب غير الشعب ، لذلك لم أنتم إلى حزب و لم أتحمس لحزب وإن كنت فى بعض الأحيان أميل إلى حزب الأغلبية ما دمنا قد قبلنا الأسلوب الديمقراطى لحياتنا ، و لم يمنعنى ذلك من أن أعجب بتصرفات بعض رجالات أحزاب الأقلية .

ولعبت الصور الكاريكاتيرية فى ذلك العهد دورا كبير فى السياسة . كانت الصحف الوفدية تسخر من محمد محمود باشا ذى اليد الحديدية ، وكانت صحف الأحرار الدستوريين تسخر من النحاس باشا . وقلت الصور والمقالات التى تهاجم إنجلترا والاستعمار البريطانى الجاثم على أنفاسنا . تفرقنا أحزابا وشيعا .

وظهرت نتيجة البكالوريا فإذا بسعيد ينجح وإذا بأحمد يرسب . وحزن أحمد وغضب وقرر ألا يعود إلى المدارس أبدا . وذهبت كل المحاولات التى بذلت لتثنيه عن عزمه سدى ، فأخذه أبى معه إلى المحل ليعمل هناك إلى جوار أخى محمد ، وقد ارتاح أحمد لذلك القرار الذى أراحه من عناء المذاكرة وترقب نتائج الامتحانات فى خوف وقلق .

٣٨

مات رودولف فالنتينو أشهر عاشق عرفته السينما فشغلت الصحف والمجلات الفنية بأخبار وفاته ونشر صور النساء اللاتى توشحن بالسواد حدادا عليه واللاتى أغمى عليهن حزنا لفقده ، فلطالما حرك أخيلتهن بأعذب الرؤى والأحلام .

كان فالنتينو معبود النساء فحججت المعجبات إلى قبره شهورا ، ووجدت المجلات فى ذلك الحدث مادة لإشباع فضول الفارغين من قرائها . و لم أهتم بذلك كثيرا فقد تعلمت مذ أن فتحت عينىّ على الحياة وقضيت طفولتى مع أم عباس الندابة أن الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة فى هذه الدنيا .

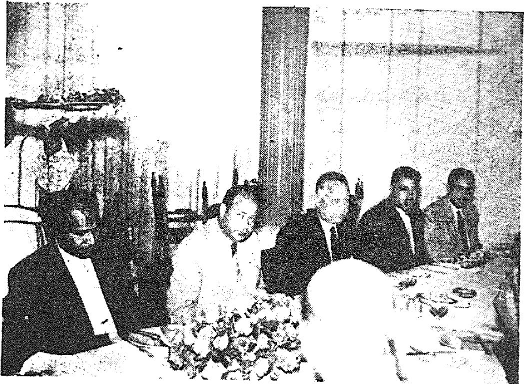
وكأنما كان موت فالنتينو إيذانا بموت السينما الصامتة ، فقد راحت المجلات الفنية تحمل أنباء بداية مولد السينما الناطقة . إن الصوت قد سجل فى بادئ الأمر على أسطوانات ، وقد أقبل الناس على هذا الفن الجديد مما شجع المشتغلين بصناعة الفيلم على ابتكار وسيلة أخرى يسجلون بها الصوت على نفس الفيلم مع الصورة .

وقامت معركة حامية بين أنصار الجديد وأنصار القديم . تنبأ شارلى شابلن بإخفاق السينما الناطقة وقال إن السينما الصامتة سينما عالمية بينما السينما الناطقة لا تزيد على سينما

محلية ، وإن السينما الناطقة تحطم أقدم فنون العالم « البانتوميم » أى فن التعبير بالتمثيل الصامت دون كلام أو ألفاظ ، إنها تفسد الجمال العظيم الذى يوحيه الصمت .

وعرضت شركة أفلام وارنر فى القاهرة أول فيلم ناطق . إنه فيلم « المغنى المجنون » لآل جونسون وكان مغنيا مشهورا . وتدفقنا إلى دار العرض الفاخرة سينما جوزى بالاس بشارع عماد الدين لنشاهد المعجزة الجديدة . وخرجنا من الدار مبهورين ، سمعنا لأول مرة موسيقى الجاز وصوت المغنى وكنا مبهورين بالتجربة أكثر من انبهارنا بشدو المغنى ، فما كنا نفقه شيئا من أغانيه .

وكتبت المجلات الفنية أن شارلى شابلن مصمم على موقفه من السينما الناطقة . إنه يمثل ويخرج فيلم « أنوار المدينة » ولن ينطق أى ممثل حرفا فى هذا الفيلم . وكان تيار السينما الناطقة جارفا ، فعلى الرغم من أنه لم ينبس بكلمة إلا أنه وضع موسيقى تصويرية لفيلمه . كان لا بد أن يجارى عصره وإلا حكم على نفسه بالموت الفنى كما مات أعظم نجوم السينما الصامتة عندما اتضح أن أصواتهم لا تصلح للفن الجديد . وعرض فيلم



« أنوار المدينة » فى القاهرة وانقسمت ثلتنا حوله ، البعض يتحمس لما فعله شارلى والبعض يرى أن ما فعله شارلى إن هو إلا خطوة فى طريق اعترافه بالسينما الناطقة .

وذات يوم بعد أن انتهى منير مدير سينما إيديال من سحب اليانصيب الذى كانت السينما تجريه على دراجة وبعض جوائز أخرى ، أعلن أن السينما تزف إلى روادها الكرام أنها ستعرض فيلما فرنسيا ناطقا فدوت الصالة بالتصفيق ، فما كان يهمنا أن يكون الفيلم ناطقا بالإنجليزية أو الفرنسية أو حتى بالصينية ، فما كانت اللغة تهمنا كثيرا . كل ما أدخل البهجة على نفوسنا أن دارنا الحبيبة قد سبقت سينما أوليمبيا فى عرض الأفلام الناطقة ، وإنها لفرصة لنذل أصدقاءنا المتحمسين للدار المنافسة .

وجاء ميعاد عرض الفيلم الناطق وكان يدور حول مارى أنطوانيت ، فانطلقت إلى السينما ورحت أزاحم الكتل البشرية التى تكدست أمام شباك التذاكر . وبعد جهود مضنية حصلت على تذكرة فكان فرحى شديدا فإننى داخل إلى السينما لأرى حدثا عظيما يستحق كل ما تكبدت من جهود ليكون لى حظ معايشته .

وعلى الرغم من الزحام الهائل لم تقع حادثة نشل واحدة وما أدرى ما سر ذلك ، هل كان كل الرواد مثلى لا يملكون أكثر من ثمن التذكرة أو أن النشالين كانوا من المتعصبين لسينما إيديال فأبوا أن يكدروا صفو إخوانهم الذين تدفقوا إلى الدار ليعيشوا سويعات فى أبهج نشوة وانفعال ؟!

وأسرعت إلى مقاعد الألواج فلم يعد يليق بطالب مثلى فى الثانوية أن يقعد على دكك الدرجة الثالثة ، فإذا بالناس قد حشروا فى الألواج حشرا ، وإذا بأناس قد وقفوا لم يجدوا لهم أماكن فكان على كل من فى الألواج أن يقفوا حتى يستطيعوا أن يتابعوا ما يعرض على الشاشة . ووقف أمامى رجل أجنبى طويل القامة عريض الأكتاف لا أدرى أكان حليق الذقن أو أنه أجرد لم ينبت فى ذقنه شعر ، وحاولت بكل الطرق أن أشاهد شيئا من الفيلم المعروض دون جدوى . كانت الأصوات تصل إلى أذنى ، ولكن أيكفينى أن أسمع الأصوات دون أن أشاهد الصور التى تتتابع على الشاشة ؟!

وطلبت من الرجل فى رفق أن يتحرك قليلا لأستطيع أن أرى ، فإذا به يبتسم لى ابتسامة لم أفهم معناها وإذا به يتحرك بنصفه الأسفل حركات تنم على أنه ليس رجلا ،

ففزعت وتركت اللوج ووقفت فى الممر إلى جوار الحائط لا أحد يقف أمامى ويتعمد أن يلصق ظهره بى ، ونسيت ما حدث وأنا أتابع أول فيلم ناطق يعرض فى السينما التى طالما شاهدنا فيها أفلام توم ميكس وآرت أكورد وماري بيكفورد ودوجلاس فيربانكس وشارلى شابلن وزيجوتو وكل أبطال المغامرات والفكاهة .

ولكأنما شبت السينما معنا ، كانت تعرض أفلام المغامرات والضرب لما كنا نقيس جودة الفيلم بعدد ما فيه من لكمات ومقالب حرامية ، وصارت تعرض الأفلام العاطفية لما صرنا نقيس جودة الفيلم بعدد ما فيه من قبل . وعلى قدر ما فرحنا بظهور السينما الناطقة حزنا على نجومنا الذين أسعدونا فى عهد السينما الصامتة الذين قيل إن أصواتهم لا تصلح للسينما الجديدة ، كان إشفاق عليهم عظيما لكأنما كنت أشاهدهم وقد أوقفوهم إلى الحائط وأطلقوا عليهم جميعا الرصاص . وما ذنبى أنا فى هذا التصور وقد شهدت فى أفلامهم مثل ذلك المشهد لكثير من المكافحين الذين تعاطفت معهم بل وتعلقت بهم وأحببتهم ؟

وفى أرض قريبة من سينما إيديال راحت إدارة السينما تبنى دارا جديدة ، دار سينما رويال . إنها لن تستعين فى الصيف بالمراوح للتغلب على الحر بل إن سقفها سيتحرك ليفتح فتكون سينما صيفية فى الصيف وشتوية فى الشتاء . أتستطيع سينما أوليمبيا أن تحقق مثل هذه المعجزة ؟ وذهبنا إلى رفاق الحى المتعصبين لسينما أوليمبيا لنغيظهم بهذا النصر الجديد ونتحداهم أن تصنع لهم أوليمبيا ما صنعته إيديال لعشاقها . كانت أوليمبيا توزع « نوتا » وكانت إيديال توزع « نوتا » ، وكانت أوليمبيا تصدر مجلة وكنا نتوسل إلى منير مدير إيديال أن يصدر مجلة حتى لا يكون لهم فضل علينا . كنا فى أعماق نفوسنا نستشعر قهرا وإن كنا نحاول أن نهون من أمر المجلة ، ولكننا صرنا الآن نتكلم فى ثقة واطمئنان فمن ذا الذى يستطيع أن يجادل فى أن مجلة تفضل دارا جديدة مجهزة بمعجزة هندسية ، انفتاح سقفها وانغلاقه بأزرار كهربية ؟ إنها وثبة بل طفرة لن تستطيع أوليمبيا فى السنوات القادمة أن تحققها .

وطابت نفوسنا .

كنت أستغل كل لحظة فى إجازتى الصيفية ، فكنت فى الصباح أتمدد فى سريرى وأقرأ القصص التى كنت أضعها تحت الوسادة ؛ وبعد تناول الغداء كنت أذهب إلى أحد ملاعب الكرة مع فريق حينا الجديد ، فقد غاب عن الفريق أخى أحمد بعد أن التحق بدكان أبى وشغل سعيد عنا بعض الوقت استعدادا للالتحاق بالجامعة ، ولم يلعب فتوح معى فله ثلة غير ثلتى وكنت أراه فى أوقات اجتماعنا لنتناول طعامنا ، فأبى كان يحرص على أن نجتمع فى الغداء وفى العشاء ولعل ذلك كان سببا من الأسباب التى قربت بينى وبين إخوتى .

وكنت بعد عودتى من اللعب أدخل الحمام وألقى بكل ملابسى لتغسل ، ولم تعد أمى تنهرنى كما كانت تفعل عندما كنت صبيا ولم أعد أفر منها أو من الشباشب التى كانت تقذفها خلفى كلما أفلت من بين يديها أثناء ضربى . صارت أمى أكثر رقة وغمرتنى بعطف زائد لكأنما كانت تريد أن تعوضنى عن أيام طفولتى .

وكنت فى أيام الجمع أخرج مع أخى محمد إلى سينما حديقة الأزبكية أو إلى مسرح من المسارح المتنافسة فى شارع عماد الدين . كنت أشاهد مسرحيات يوسف وهبى وفاطمة رشدى والريحانى وعلى الكسار وجورج أبيض وأمين صدقى ، ولم يشف كل ذلك نهمى إلى الفن . فلما جاءت فرقة أحمد الشامى إلى الظاهر ، وكان أحمد الشامى يمثل شخصية « كشكش بك » مقلدا الريحانى ، كنت أنسل إليها فى الليالى التى لا أخرج فيها مع أحد من إخوتى .

وكنت أذهب مع سعيد إلى دور السينما ، فقد كان أخى محمد لا يحب أن يشاهد الأفلام الأجنبية . وكانت الأفلام المصرية نادرة ، فبعد أن شاهدنا فيلم « ليلى » انتظرنا ستة أشهر لنشاهد فيلم « قبلة فى الصحراء » للأخوين إبراهيم وبدر لاما .

وفى بعض الليالى كنت أجلس مع أبى وصحبه فى السلاملك .كان محمد محمود باشا رئيس الوزراء وكان يجوب البلاد يأمر بردم البرك والمستنقعات ، فكانت الصحف

الوفدية تسخر منه بالأزجال والصور الكاريكاتورية وقد أطلق عليه بعضهم وزير « السخام والبرك » ، فكانت التعليقات تدور حول ما يكتب فى الصحف ، وكنت أشارك فيما يدور من حديث إلا أننى فى قرارة نفسى كنت أرى أن ردم البرك والمستنقعات عمل وطنى لا يستأهل الهزء والزراية ، وأن الهجوم القاسى الذى كان يتعرض له الزعماء من الأحزاب كان سببا فى أننى لم أنشأ حزبيا و لم أرض لنفسى أن أكون مطية لأهواء نفر كل همهم الوصول إلى الحكم باسم الأغلبية تارة وباسم مصلحة البلاد العليا تارة أخرى .

واقترب موعد انتظام الدراسة فكان الحديث فى السلاملك يدور حول موقف الطلبة من الوزارة ، فقال قائل :

— أليس فى البلد طبقة تثور لمصلحة البلاد غير الطلبة ؟

— إنهم يستشعرون المصلحة الحقيقية للبلاد لأنهم يزنون الأمور بلا مطامع ولا أهواء .

وتحركت الذكريات فراح أحدهم يتحدث عن دور الطلبة فى ثورة ١٩١٩ ، فقال أحد الموظفين معلقا : إن اللورد كروزن قال عنهم : « إن ثورة ١٩ إن هى إلا حركة صغار التلاميذ وهى شعلة سأطفئها ببصقة . إن الموظفين وهم أرشد عنصر فى مصر لم يساهموا فيها » . فلولا إضراب الموظفين لما هزت ثورة ١٩ الإمبراطورية البريطانية .

ودار حوار حول إضراب الموظفين فى ثورة ١٩ وكيف لعب عبد الرحمن فهمى دورا كبيرا لتحقيق ذلك . وقيل إن الموظفين كانوا يجتمعون بمنازل إبراهيم دسوقى أباظة وعبد الهادى الجندى بك ومراد الشريعى بك ، وأثنى بعض الحاضرين على جهود أحمد ماهر والنقراشى .

ولما كان الحديث يجر بعضه بعضا فقد خاض الحاضرون فى تشكيل الوفد المصرى وفى الجهود التى بذلها عبد الرحمن فهمى بك سكرتير لجنة الوفد المركزية فى الدعاية للقضية المصرية ، وجمع الأموال وسفر الوفد إلى مؤتمر الصلح فى فرساى ، ولجنة ملنر التى جاءت للتحقيق فى أسباب الثورة ومقاطعة اللجنة ، وجهود عبد الرحمن فهمى فى إغلاق كل الأبواب فى وجه اللجنة ، إنه كان يرسل إلى القرى يقول لأهلها « إذا جاءت

اللجنة تسألكم عن أسباب الثورة قولوا لها : اسألوا سعد فى باريس وهو يجيبكم » .

و لم تقف جهود عبد الرحمن فهمى فى جمع كلمة الموظفين على الإضراب ولا فى مقاطعة لجنة ملنر ، بل إنه استطاع أن يقنع محمد سعيد باشا رئيس الوزراء بأن يستقيل احتجاجا على إيفاد لجنة ملنر وتجاهل وكلاء الأمة .

ولما كان الحديث ذا شجون ، فقد تطرق الحوار إلى السودان والدستور . تحدثوا عن لجنة الثلاثين التى كلفت بوضع الدستور ، وكيف أن اللورد أللنبى طلب من عبد الخالق ثروت عدم ذكر السودان فى طلب الدستور ، وكيف صمم عبد الخالق ثروت باشا على أنه لن يقبل أى مساس بالدستور ولا أى انتقاص من حق مصر فى السودان ولا حق السودان فى مصر باعتبارهما وطنا واحدا .

كان حديثا يدخل البهجة على نفسى ويبعدنى عن الحزبية المقيتة .

وطال الحديث عن عبد العزيز فهمى وعبد اللطيف المكباتى وباقى أعضاء لجنة الثلاثين ، وتفجرت الذكريات فإذا بالبعض يذكر أن عبد الخالق ثروت باشا قد أوحى إليه أن يستقيل ، وأن نسيم باشا جاء إلى الحكم من بعده ليرفع ذكر السودان من صلب الدستور ويحقق رغبة أللنبى .

و لم يمر ذكر ذلك الحادث البغيض دون أن يشع منه بصيص من الوطنية المجردة عن الهوى ، فقد ذكر بالحمد والإجلال موقف يوسف سليمان باشا فى مجلس الوزراء الذى حذف الجزء الخاص بالسودان . إنه وقف يخطب معارضا أمر الحذف وقد بلغ به الانفعال غايته ، فلما لم يؤخذ برأيه اعترضته حالة من الغضب والتأثر حتى لقد أغمى عليه وحمل إلى منزله .

وعاد المجتمعون فى السلاملك يذكرون ثورة ١٩ ومقالات سينوت حنا بك وكيف خطب القسس فى المساجد وخطب شيوخ الأزهر فى الكنائس . وكأنما عز على المتحمسين للحزب الوطنى أن يكون سعد والوفد المصرى رسل الوطنية فرووا ذكرياتهم عن جمال الأفغانى ومصطفى كامل ومحمد فريد وعن مواقفهم الوطنية قبل أن يثور المصريون ثورة ١٩١٩ . وقد كانت اجتماعات السلاملك معلما لى ، تعلمت فيها

أشياء كثيرة فى السياسة والفن والحياة وكان لها الفضل الأول فى ألا أكون حزبيا ، فما أكثر المواقف الوطنية الرائعة التى وقفها رجالات مصر من كل الأحزاب وفى كل العصور .

٤٠

كان يهود حينا يفخرون بمناسبة وبلا مناسبة أنهم حماية وأنهم رعايا إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو أية دولة أجنبية مهما حقر شأنها ، وأنهم يتمتعون بالامتيازات الأجنبية ، وأن لهم محاكمهم الخاصة فهم لا يحاكمون إلا أمام المحاكم المختلطة . وكانوا يقولون فى زهو إنهم ليسوا أولاد عرب . وكان ذلك يغيظنى ، فكيف يكون للأجانب حقوق تفوق حقوق الوطنيين ؟ فكنت إذا سرت فى مظاهرة من مظاهرات الطلبة — وما كان أكثرها فى أيام دراستى — كنت أهتف من أعماق صادقا بسقوط الامتيازات الأجنبية إذا ما هتف أحد بسقوطها .

شيئان كنت أعرف حقيقة شعورى نحوهما ، مقتى الشديد للاستعمار وكراهيتى التى لا حد لها للامتيازات الأجنبية . أما صراعات الأحزاب فكنت أقف متأرجحا بينها لا أعرف إلى أين أنحاز أو إلى من أنحاز ؟ فقد كنت فى ريبة من الدوافع الحقيقية التى فرقت بين إخوان الأمس ، وما كنت أجد سببا معقولا لأن نتفرق شيعا فالعدو واحد والهدف واحد ، فما الذى مزق أواصر وحدتنا ولم يجعل قبلتنا واحدة ؟

كانت الأسرة اليهودية التى تسكن فى الدور الأرضى أمام الباب الحديدى للسلاملك تزعم أنها حماية فرنسية ، ولا أدرى من أين جاءتها هذه الرعاية وكل أفرادها قد ولدوا فى حارة اليهود قبل أن ينزحوا إلى الظاهر فى رحلة اليهود الداخلية : حارة اليهود فالظاهر والسكاكينى فمصر الجديدة أو المعادى فالمقاعد الوثيرة فى مجالس إدارة المحال الكبرى والبنوك وشركات التأمين .

كان رب الأسرة رجلا قصيرا نحيلا نتف الزمن مقدم شعر رأسه ، مضعضع العينين ، لا يغادر البيت إلا نادرا فكان يقاسى من وطأة الملل ، فما إن يرانى حتى

ينادينى لنقطع الوقت فى لعب الطاولة . وكانت فورتينيه وأختها التى تصغرها فى السن يشاهدان أحيانا التنافس بينى وبين أبيهما وما كانتا محايدتين ، بل كانت فورتينيه تقبض على إحدى ساقى بفخذيها وكانت أختها تفعل مثلها بالساق الأخرى ، فكنت ألقى بالزهر وأقول فى صوت خافت مبحوح مرتعش متشنج :

— شيش بيش .

وكنت أعجب فى نفسى كيف أن الرجل لم يفطن من صوتى إلى اضطرابى وإلى أننى لست فى حالة طبيعية .

وفى ذات يوم كان الرجل وزوجه وحدهما فى البيت ، ودعانى الرجل لنقطع الوقت فى لعب الطاولة ، وفيما كنا منهمكين فى اللعب أقبلت زوجته وكانت امرأة سمينة لم تعد تهتم بمظهرها ، وكان كل همها أن تجهز الطعام للأفواه الجائعة التى تأتى للغداء وللعشاء ، وأن تأخذ من كل فرد من أفراد الأسرة نصيبه من تكاليف ما أكل ، وكثيرا ما كانت تقوم مشادات بين فورتينيه وألبير حول دفع نصيبهما : فورتينيه تريد أن تدفع أقل مما يدفعه ألبير لأنها لا تلتهم نفس الكميات التى يلتهمها ، وكانت تلك المشادات غريبة علىّ فما كنت أدرى كم أتكلف وما سألنى أحد أن أسدد ثمن ما أكلت أو ما لبست .

وقفت الزوجة قليلا ترقب ما نفعل ثم جلست لتقشر بطاطس ، فإذا بالأب يتوقف عن اللعب ويتفرسنى مليا ثم يقول لزوجته فى بساطه وهو يشير برأسه نحوى :

— دا ما يحبلش .

وصعد الدم فى رأسى وأحسست كأن نارا تشوى وجهى وكدت أصعق ، فإذا بالأم تقول فى استنكار :

— ليه كده ؟. ليه كده ؟. كسفت الولد .

ونهضت أبحث عن قدمى لأفر من المكان .

ومرت أيام وأنا أتحاشى أن أقف عند باب السلاملك الحديدى حتى لا أرى الرجل ولا أتيح له فرصة مناداتى وإن كنت قد علمت أن فورتينيه قد تركت شيكوريل والتحقت بدكان لتفصيل القمصان وبيع الكرفتات بشارع محمد على بالقرب من دار

الكتب .

وفى الليل جلست فى السلاملك أصغى إلى نقد لمقال نشر فى المقطم ، و لم يدهش أحد لما جاء فى المقال مما يتعارض مع المصالح الوطنية فقد قيل إن المقطم منذ أن صدر يعتمد على الأموال البريطانية ويخدم الاستعمار البريطانى .

وبدأ أخى أحمد فى قراءة حديث عيسى بن هشام وأصغى الحاضرون وهم ينفخون دخان السجاير فى لذة ونشوة ويعلقون على الأحداث . وفيما أنا ألقى سمعى إلى ما يقرأ أخى إذا بى أفاجأ بفورتينيه واقفة لدى الباب ، فخفق قلبى رهبة وجف حلقى وتمنيت لو أن الأرض قد انشقت وبلعتنى . وفطن الرجال إلى وقوفها فالتفتوا نحوها فقالت فى ثبات عجيب :

— بابا عايز عبده .

و لم ينبس أحد بكلمة و لم يلتفت أبى نحوى غاضبا بل أشار لأخى أن يستمر فى القراءة ، وانسللت من السلاملك وأنا ذاهل عن نفسى وإن عجبت من هدوء أبى . لم تكن فورتينيه طفلة و لم أعد طفلا بعد فقد تأكدت من أن الحمصة التى فى مقدمة أنفى قد انفلقت وغلظ صوتى وفردت امتلائى طولا .

إن أبى مذ كنا أطفالا كان يبعث بنا إلى طرابيشى وكانت دكانه فى وجه البركة ، وكانت دكاكين العاهرات على جانبى ذلك الشارع . ويا طالما رأينا الساقطات يجلسن شبه عاريات أمام محالهن أو وهن يدخلن مع الرجال ويغلقن الأبواب خلفهن ، وكان يترك لنا حرية الدخول أو الخروج ويسمح لنا بمجالسة الكبار نصغى إلى ذكريات مغامراتهم دون حرج ، كان على يقين من أننا خلقنا لنتلاطم مع الحياة فليس من الحكمة أن يعزلنا عن الدنيا ثم تضطرنا الظروف أن نجد أنفسنا فى خضمها دون سلاح . إنه يعلم بفطرته السليمة أن القدوة هى الدرع الواقى من الانزلاق ، فكان لنا نعم الأسوة والمثال .

وخرجت مع فورتينيه وانطلقنا إلى حيث كانت أسرتها مجتمعة وكانوا يتسامرون . و لم تمض دقائق حتى تيقنت أن أباها لم يبعث فى طلبى فقد كان مشغولا فى حديث مع أولاده . وما كدت أستقر فى جلستى بينهم حتى قالت فورتينيه :

ــ بابا ، أنا ح اتفسح الليلة دى مع عبده .

وانكمشت فى مكانى وانتظرت ثورة الأب العارمة فلن يدهشنى أن يخطف كرسيا ويهوى به على أم رأسى . وقرع أذنى صوته وهو يزمجر :

ــ اسمع . أنا ما عنديش بنات تتأخر عن الساعة حداشر .

حداشر ؟! ومن قال له إننى أستطيع أن أتأخر حتى تلك الساعة ؟ إن أبى ينام فى العاشرة ، وإنه لا ينام إلا بعد أن يطمئن إلى أننا جميعا فى فراشنا ، فقد حدث ذات ليلة أن ذهبنا لنسمع محمد عبد الوهاب فى بيت العروسى وبقينا هناك حتى بعد منتصف الليل فبقى ينتظر عودتنا ، ومن بعدها قررنا جميعا ألا نسهر حتى لا نضطره إلى السهر .

وجذبتنى فورتينيه من يدى لنخرج ، وقبل أن أتبعها قال الأب :

ــ ما تروحوش باللو .

كانت السينما فى ذلك الوقت تعلمنا رقصة الشارلستون وكنت قد أتقنتها شفاهة ولم أجرب أن أرقصها ، فمن قال لذلك الأب القمىء أننى أجرؤ على دخول مرقص أو مخاصرة فتاة على الملأ ؟!

وسرنا أنا وفورتينيه فى شارعنا الذى ينتهى فى ميدان الظاهر وراح أناس من الحى يرقبوننا وهم يعجبون ، وقد سمعت بقالا يقول :

ــ عيلته طيبة كلها ، ما فيهاش حد فسدان إلا الولد ده .

ووصلت معها إلى الميدان وأنا مسلوب الإرادة ، وما إن وقفت على محطة الترام حتى التفتت إلى وقالت :

ــ أنا متشكرة ، روّح انت بقى .

وتسترت بالليل وفى غفلة من أهلها انسللت إلى السلاملك وجلست شارد اللب ، ثم ذهبت إلى فراشى وخطفنى النوم . وبعد أن انتصف الليل استيقظت على أصوات وجلبة ، فأسرعت إلى الشباك أنظر فإذا بأبى فورتينيه يرغى ويزبد ويصيح :

ــ كنت فين لغاية دلوقت ؟ وجاية كمان فى عربية ! مين ده اللى معاكى ؟

وقالت فورتينيه فى تحد :

— إيه ؟ أخو صاحب المحل .

وكأنما ألقمت أباها حجرا فصمت كالبغل .

٤١

كانت الصحف الوفدية قد سخرت من كل مشروعات الإصلاح التى قامت بها وزارة محمد باشا محمود ، وكانت مجلات الوفد قد نجحت بالصور الكاريكاتورية أن تثبت فى الأذهان أن رئيس الوزراء صاحب يد حديدية وأنه وزير السخام والبرك . فما إن بدأت الدراسة فى المدارس حتى هيج زعماء الطلبة الوفديين جموع الطلاب فقامت المظاهرات تهتف بسقوط الوزارة التى قيدت الحريات وعبثت بالدستور .

وخرجت المظاهرات إلى الشوارع وسادت عقلية التقطيع ، فراح بعض المخربين يلقون الحجارة على مصابيح النور فى الطرقات ، وما كنت أدرى ما العلاقة بين المطالبة بسقوط الوزارة وبين تحطيم ممتلكات الدولة ، وقد كنت أطلق على تلك العهود عصر تحطيم الفوانيس فقد كنا نسرع بتهشيم كل ما يضىء استجابة لرغبات الحزبية العمياء .

كان محمد محمود باشا قد سافر إلى إنجلترا لعقد محالفة بين الأمتين المصرية والبريطانية ، وكان مشروع المحالفة قد نشر فى مصر فهاجمته الصحف الوفدية وحاولت صحف الأحرار الدستوريين أن تبرز ما فى المشروع من محاسن وأن تؤكد نجاح المحادثات التى قام بها رئيس الوزراء مع وزارة الخارجية البريطانية ، ولكن الشعب كان لا يثق إلا بالوفد صاحب الأغلبية ، فصم أذنيه عن دعاوى الأحرار الدستوريين وأطلق لسانه فى الوزارة ورئيسها واتهم الجميع فى بساطة ويسر بالتفريط فى حقوق البلاد ، فقدم محمد محمود باشا استقالته وتشكلت بعد ثلاثة أشهر وزارة عدلى يكن باشا الثالثة .

وهدأت الفورات بعد استقالة الوزارة لكأنما قد جلا الإنجليز عن البلاد وألغيت الامتيازات الأجنبية ، وانتظمت الدراسة فى المدارس وأعلن الأستاذ المشرف على الرياضة عن ميعاد اختيار لاعبى الفريق الأول والفريق الثانى لكرة القدم فجاء إلى كثير

من أصدقائى يحرضوننى على أن أنزل ميدان الاختبار ولكننى رفضت . قالوا لى إن مستواى أفضل من مستوى كثير ممن يلعبون لفريق المدرسة إلا أننى وضعت أصابعى فى أذنى وإن كنت أتمنى من كل قلبى أن ألعب لفريق المدرسة . إننى أمقت أن أتقدم لأى امتحان فإنى أضن بنفسى أن أكون موضع سخرية ، وإننى أفضل أن أترك كل شيء وأن أكبح رغباتى وشهواتى وأن أحرم من حقوقى على أن تجرح كرامتى أو أن تخدش كبريائى .

ووقفت فى فناء المدرسة عند التقاء خط التماس بالخط الذى يمر بالمرمى فى نفس مكان الضربة الركنية ، وجاء إلىّ صديقى وزميل المذاكرة صلاح قنصوه وراح يتوسل إلىّ أن أذهب حيث يخلعون ملابسهم استعدادا للعب . إنها فرصة ويكفى أننى ضيعت السنة الماضية . وأبيت أن أستجيب له ، ونزل الذين يرشحون أنفسهم إلى أرض الملعب وألقيت عليهم نظرة فيها شيء من حسد فقد كنت أحسدهم على جرأتهم وثقتهم بأنفسهم . ترى هل أفتقد الثقة بنفسى أو أننى كما قيل لى من أكثر من مصدر مريض بالحساسية المفرطة ؟!

لقد بلغ بى الأمر أننى أصبحت أخجل من أن أطلب من أبى مصروفى أو أية نقود أخرى ، وقد فطن أبى إلى ذلك فكان يعطينى دون أن أسأل فآخذ ما يعطينى شاكرا ، فقد وقر فى وجدانى أننى عبء على أهلى ، ولو كنت أدرى مقدار ما غرس الله من حب فى قلوب الآباء لأولادهم ما فرضت على نفسى ذلك الحرمان الذى ما كان له ما يبرره .

وقسم الأستاذ المشرف على الرياضة الطلبة الذين نزلوا إلى الميدان إلى فريقين ثم أطلق صفارة البدء ، فإذا بالصورة الحقيقية تتضح . إن بعضهم وإن كان يرتدى ملابس الكرة لم يسبق له أن لعب الكرة فى حياته ، وضحك المشاهدون وضجوا بالضحك فى كثير من الأوقات فقد كانوا يشاهدون ألعابا كوميدية ، وكنت أضحك وقد أشفقت على نفسى وأنا أشاهد ما يبعث على السخرية . أكان صلاح يريد لى أن أكون مبعث ضحك مثل هؤلاء الذين لا يعرفون أقدار أنفسهم ؟!

وحدث أن جاءت إلىّ الكرة وأنا واقف على الخط عند راية « الكورنر » فضربت

الكرة ضربة فنية فإذا بها تستقر فى المرمى ، فصاح الأستاذ المشرف على الرياضة :
ـــ انت .. تعال .

وذهبت إليه فطلب منى أن أنزل للعب ، فذهبت إلى غرفة الملابس ولبست ملابس الكرة وأنا سعيد . لم أعرض نفسى ولكنى طلبت ، وضمنى إلى فريق من الفريقين المتنافسين . وكانت ميزتى التى عرفت بها فى اللعب أننى أعرف طريقى إلى المرمى ، فأحرزت هدفا ثم هدفا ، فإذا بالأستاذ يطلب منى أن أنتظر ليجربنى مع الفريق الأول للمدرسة .

وجاء دور اختيار لاعبى الفريق الأول فلعبت لعبا هنأنى عليه صديقى صلاح ونحن فى طريق عودتنا إلى المنزل نبدأ فى استذكارة دروسنا ، فقد عزمت أن لا تقف الكرة حائلا بينى وبين مستقبلى . راح صلاح يحدثنى عن الأهداف التى أحرزتها ويؤكد لى أننى كنت أفضل اللاعبين ، إلا أننى كنت واثقا من أننى لن ألعب هذه السنة للفريق الأول فأنا ألعب قلب هجوم ورئيس فريق المدرسة يلعب فى نفس المركز .

واخترت للعب للفريق الثانى ولم أشعر بأية عضاضة ، كان يكفيتى أن ألعب وأن أمارس هوايتى . ووزعت علينا ملابس الكرة وكان ذلك اليوم يوما مشهودا فى حياة لاعبى الكرة ؛ كان أشبه بيوم عيد ، هذا يلبس الحذاء ثم يغدو ويروح وهو يضرب الأرض بمقدم الحذاء ليتأكد أن الحذاء ملائم لقدمه ، وذاك يقيس الفانلة ، وثالث يزعم أنه ليس فى حاجة إلى الجورب فلا تزال جوارب السنة الماضية سليمة وأنه ذاهب إلى محل تاجر الملابس ليبدل ما لا يحتاج إليه من ملابس بأشياء أكثر نفعا ، وإذا بأصوات ترتفع مؤيدة الفكرة ، وإذا بمعظم أفراد فريقى المدرسة ينطلقون إلى حيث دكان التاجر ليستبدلوا بعض ما وزعته عليهم المدرسة بملابس داخلية أو بقمصان على أحدث طراز ، وقد سمعت أن بعضهم فضل أن يسترد جزءا من ثمن ما استغنى عنه من ملابس ، وكان كل ذلك شيئا جديدا بالنسبة لى فما كنا نعرف ونحن فى مدرستنا الابتدائية من أين تأتى المدرسة بما توزعه علينا من ملابس للألعاب الرياضية ، فقد كنت فى فريق كرة القدم وفى القسم المخصوص كذلك ، وقد وزعت علينا ملابس جديدة ذات يوم لنشترك فى استعراض الأقسام المخصوصة للمدارس

الابتدائية فى النادى الأهلى أمام جلالة الملك فؤاد فى مناسبة من المناسبات ، وقد رقصنا أمام جلالته رقصة اسكتلندية على العزف على القرب . وكانت الفرقة التى تعزف من فرق الجيش الإنجليزى ، وما كان ذلك شيئا مستغربا فى ذلك الوقت فالإنجليز فى كل مكان ؛ تكنات جنود الاحتلال فى قصر النيل تطل على أحسن مكان فى القاهرة وأرقاه وتمتد إلى الأسد الرابض على الكوبرى ، ويا طالما خيل إلىّ وأنا أنظر إلى جنود الاحتلال وهم فى شبابيك ثكناتهم يسخرون من المارة ويمعنون فى المعاكسة أنه أسد بريطانى .

وفى يوم الخميس كان علينا أن نذهب إلى شبرا لنتبارى مع فريق المدرسة التوفيقية الثانوية على ملعبها ، فاستدعانا الأستاذ المشرف على الرياضة وأعطى رئيس الفريق مبلغا من المال ليعطينا أجر الترام من العباسية إلى شبرا ذهابا وإيابا . وراح الرئيس يوزع على كل منا خمسة قروش تعريفة ، وكان زملائى يأخذون المبلغ فى يسر ، فلما جاء إلىّ ليضع المبلغ فى يدى تقاصرت نفسى وأحسست أن الأمر يجرح كبريائى وهممت بأن أرفض تناول النقود ، إلا أننى خشيت أن أهين رفاقى فأخذت المبلغ وأنا فى شدة الخجل وقد تفصد العرق منى وإن لم يكن الجو حارا .

وتواعدنا أن نلتقى قبل بدء ميعاد بدء المباراة بوقت طويل و لم أدر حكمة ذلك وفى الميعاد المضروب اجتمعنا وإذا بالزملاء ينطلقون سيرا على الأقدام من العباسية إلى شبرا ليوفروا ما حصلوا عليه مقابل انتقالهم وسرت معهم مرغما ، ولكن بعد المباراة رفضت أن أعود سيرا على الأقدام فركبت ترام شبرا الذاهب إلى محطة مصر وزملائى يرموننى بنظرات غاضبة . وأطلق بعضهم لسانه واتهمنى بالغرور والفنزحة

٤٢

عقد أبى النية على أن يحج فإذا بعمى حنفى يقرر أن يحج معه ، وأبدت جدتى أم عبد الغنى رغبتها فى أن تصاحبهما إلا أن الحج فى ذلك الوقت كان مشقة ويحتاج إلى تحمل . وأحست أنها ستكون عبئا على ولديها فعدلت عن رغبتها ، وفرحت كثيرا عندما قرر والد امرأة عمى حنفى أن يصحب أبى وعمى فى سفرهما . ولم يعد هناك حديث بين الرجال فى السلاملك وبين النساء فى شقة جدتى إلا حديث الحج وذكرياته . كان أبى يروى ما سمعه عن جده الحاج أحمد من أن الحجاج كانوا يتعرضون للسلب والنهب فى الطريق ، وقد يكون مصير بعضهم الذبح إذا ما قاوم قطاع الطريق . حكى أن جده كان نائما فى خيمته لما أحس ببعض الأعراب فى الخارج يزحفون ويشقون جانب الخيمة بسكين ، فهب صائحا فإذا المغيرين يفرون .

ويقول قائل إن تلك الأيام قد ولت وإن الأمن يسود الحجاز الآن بعد أن آلت إلى الوهابيين ، وأثار ذكر الوهابيين كوامن الذكريات فإذا بالحوار يدور حول المذهب الوهابى . إن المحمل والكسوة كانا يخرجان إلى الحجاز لكسوة الحرم والقبر النبوى الشريف منذ عصر شجرة الدر إلى سنوات قريبة ، وكانت هناك دار للكسوة فى الخرنفش تعمل طوال العام لإعداد الكسوة فكانت مصر هى التى تكسو أول بيت وضع للناس ، وكانت تحتفل بالمحمل احتفالا رسميا وشعبيا ففرق الطرق الصوفية تخرج فى مواكب أمام المحمل ، وبعض فرق الجيش تسير أمام الرجال الذين يحملون الكسوة على محفات خشبية تعزف موسيقاها ابتهاجا بهذه المناسبة الدينية السعيدة ، ويأتى بعد ذلك المحمل على جمل يتهادى فى كبريائه كأنما يستشعر خطر شأنه . إن الكسوة التى على المحمل هى كسوة قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه . وما إن يهل المحمل على الناس حتى ترتفع الأصوات بالتكبير والتهليل وتندفع الكتل البشرية إليه غير حافلة بالعساكر الذين على جانبيه ولا بالعصى التى تنهال عليهم من الشرطة ، فالسعيد السعيد من

أتيحت له فرصة مسح المحمل بيده .

وكان المحمل يحمل مع الكسوة فى السفن إلى جدة وكان يستقبل هناك استقبالا رسميا ، وكانت فرقة من الجيش المصرى بمعداتها الحربية تسير إلى أرض الحجاز تعظيما للمحمل وتكريما ، فلما صار الأمر للوهابيين كرهوا ذلك الاحتفال لأنهم رأوا فيه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

قبلت الحكومة الوهابية الأمر على كره منها ولكن الآمرين بالمعروف من الوهابيين لم يقبلوه ، فما إن سار المحمل فى حراسة الفرقة المصرية حتى هجم عليه الرجال من كل جانب ، وخاف قائد الحامية المصرية على من معه من الحجاج المصريين فأمر المدفعية أن تضرب المهاجمين ، وسرعان ما انحسر الهجوم ووصل المحمل ومن معه سالمين . وعاد المحمل بالكسوة القديمة واحتفل المصريون بعودته ، وكان ذلك الاحتفال آخر عهد مصر بالمحمل . وذكر الناس اسم الضابط الذى أمر بالضرب .. إنه على إسلام وما دار بخلدى أن سيأتى يوم أعمل فيه تحت رياسته .

وسأل أبى عما إذا كان يجوز أن يكلف أحدا أن يحج حجة يهبها لأبيه الذى مات قبل أن يؤدى الفريضة ، فأجمع الحاضرون على جواز ذلك إذا كان المكلف قد سبق له أن حج . وعاد يستفسر عما إذا كان يجوز أن يكلف من تحج عوضا عن أمه التى لا تحتمل مشقة السفر فاختلفوا فى ذلك وتعصب كل فريق لرأيه بلا مجاملة ، فما كانوا يجاملون فى أمر يتعلق بالدين .

وراح النسوة يتحدثن عن الحاجة جدة والدى وما كانت تفعله قبل الحج وفى أثناء الحج ونوادرها فى الحجاز وما كانت تحمله معها من زاد . وأخذت أمى تشرح لامرأة عمى حنفى كيف تحفظ اللحم سليما قالت :

ــ شفى اللحمة من العضم وقطعيها حتت ، وهاتى اللية وسيحيها وحطى اللحمة فى صفيحة وحطى اللية وهى سايحة فوقها لغاية ما تغطيها ؛ بالشكل ده اللحمة تفضل سليمة شهر وشهرين .

وشغلت أمى بإعداد حاجات أبى من ملابس وبشاكير إحرام وزاد ، وجاءت بالخرج ووضعت فيه فطائر وخبزا مجففا وعلب الجبن والزيتون وصفيحة اللحم

المحفوظ ، ووضعت الملابس فى حقيبة من الجلد كتب عليها ببوية بيضاء اسم أبى .

ومرت الأيام ووافى ميعاد السفر فجاء عمى محمد والأسرة لوداع أبى وعمى ، وجاء والد زوجة عمى ليسافر من بيتنا ليخرج الحجاج الثلاثة معا . وكان وداعا وكانت دموعا وكثر العناق ، ثم انطلق الرجال الثلاثة إلى محطة كوبرى الليمون ، فمن هناك يبدأ القطار فى التحرك إلى السويس .

كانت المحطة غاصة بالفلاحين ، وكانت الزغاريد تنطلق والموسيقات النحاسية تعزف ، وكان رفاق السلاملك فى انتظار أبى لتوديعه . كانت ساحة المحطة أشبه بمولد فهذا يجرى هنا وهناك وذاك ينادى ويصيح . وتدافع الرجال إلى القطار وراح المودعون يزاحمون المسافرين ويتكدسون فى العربات ، فلم يعد هناك موضع لقدم . وانقضى أكثر من ساعة فى العذاب ثم صفر القطار ، فإذا بالمودعين يتزاحمون مهرولين للنزول يدوس بعضهم بعضا ، ثم وقفوا على الرصيف يلوحون مودعين ، وسالت الدموع على الخدود وأحسست لأول مرة مرارة الوداع .



وعدنا إلى البيت ومرت الأيام ونحن نجتمع فى السلاملك لا حديث لنا إلا حديث الحج والحجاج . وجاءت أول رسالة من أبى فكدنا نطير بها فرحا ، ورحنا نقرأها لجدتى وأمى وعمتى زينب التى مات زوجها فجاءت لتعيش مع أمها ، فما انتهينا من قراءتها حتى قالت عمتى :

ــ الجواب ده اتكتب امتى ؟

ــ من عشرة أيام .

ــ إيش عرفنى إيه اللى جرى لهم فى العشرة ايام دول ؟.

وينقلب فرحنا إلى رهبة وخوف وقلق . وفى ليلة وقفة العيد قيل إن الحجاج قد نفروا من عرفات وأنهم فى طريقهم إلى منى ، وقيل إنهم قد أصبحوا حجاجا فالحج عرفة . وعجز خيالى عن أن يتصور شيئا عن الحقيقة أو قريبا من الحقيقة ، فكل ما شاهدته فى السينما عن الصحراء كان شيئا ممتعا بهيجا ، رودولف فالنتينو فى فيلم « الشيخ » وفى فيلم « ابن الشيخ » يركب حصانه الأبيض ويخطف ڤيلما بانكى الجميلة ويعدو بها إلى خيمته الفاخرة ، خيمة كنت أتمنى أن أعيش فيها ناعم البال عيشة فاتن النساء المحبوب .

وكان علينا أن نضحى فى عيد الأضحى فجدتى وأمى وعمتى قررن ألا تقطع لنا عادة طوال غياب أبى . وصعد أطفال الأسرة وشبابها إلى السطح ليشاهدوا الجزار وهو يذبح ما تجمع هناك من خراف ، ولم أشارك إخوتى فى هذه المناسبة فقد كرهت رؤية الخراف وهى تذبح مذ كنت طفلا ، فقد أشرفت فى ذلك الوقت على تربية خروف توطدت بينى وبينه صداقة متينة حتى إننى إذا ما سرت سار خلفى وإذا ما جريت فى ميدان الظاهر جرى خلفى حتى يلحق بى ويتمسح بى ، فأحببته حبا عظيما . فلما جاء عيد الأضحى أخذوه ليذبحوه فتشبثت به وبكيت وتوسلت إليهم ألا يفعلوا ، ولم يلتفت أحد إلى هذيانى وأخذوه منى وفجعونى فيه .

بكيت عليه بكاء وغص عليه حلقى ، ولم يمنعنى حزنى عليه أن آكل لحمه مع الآكلين .

وجاءت برقية من أبى أنه وصل إلى الطور مع رفاقه وأنهم جميعا سالمون ، فكدنا

نطير من الفرح ورحنا نتلاعب بكلمة الطور ، فمن قائل إنه عندما يحج سيبعث ببرقية إلى أهله يقول : « أبوكم الطور وصل » ومن قائل : « الطور وصل » وأخذنا نمزح مستبشرين فقد أصبح أبونا ومن معه على أرض مصرية . وإنه لشيء يدعو إلى الاطمئنان أن تضع قدميك على أرض الوطن .

وسافر أخي محمد وبعض رفاق أبي لاستقباله في السويس ، وانتظرنا في البيت نتلهف على يوم اللقاء . وتأهبنا لنعلن فرحنا بمقدم أبي السعيد ، وإذا ببرقية تأتي من السويس أن أبي وعمي قد وصلا وأنهما قد تركا والد زوجة عمي في الطور لأنه مريض .

وبدأ الشك يعبث بنا : أيترك المريض في الطور ؟ وانتابنا خوف شديد وذهبنا إلى محطة كوبري الليمون ننتظر القطار القادم من السويس . وبعد ساعات من القلق أقبل القطار واندفع رجال أقوياء من العاملين في دكان أبي وحملوه وراحوا يشقون به طريقا بين الكتل البشرية التي اندفعت كالجراد إلى عربات القطار . ورأيت أبي ، كان ناحلا قد غاض لونه . ولم أحفل بالهزال الذي بدا عليه وارتميت في أحضانه فضمني إليه في حنان وهو منهوك ، وعدنا إلى البيت فرحين وصعد عمي إلى شقته ودخل أبي إلى فراشه ليستريح .

كانت رعدة شديدة تنتاب أبي مرة كل يومين ، فكان أن استدعينا الطبيب فلما فحص عنه قال :

— ملاريا .

وذاع خبر في البيت أن حما عمي قد مات في الطور فنزل بنا هم ثقيل ، وحرصت أمي كعادتها على ألاّ نفعل شيئا يجرح شعور امرأة عمي التي تسكن معنا في بيت واحد . جاء أفراد أسرتنا ليهنئوا أبي وعمي على سلامة العودة فلم يشربوا غير القهوة وبقيت زجاجات الشربات لم يمسها أحد .

وأصبح بيتنا خلية نحل . إن أبناء الرجل الذي مات جاءوا إلينا يستشيروننا فيما يفعلون . كنت أرى أن يدفن الرجل حيث مات ، ولم أستطع أن أجهر برأيي وإلا عكرت الصفو الذي ساد العلاقة بيني وبين أمي ، فأمي كانت تكره أن تتدخل بأي

رأى فى مشاكل الآخرين .

وقر قرار الرجال والنساء على أن يسافر بعض أهل الرجل إلى الطور ليحضروا جثمانه مهما كانت المشقة ومهما كانت التكاليف ، وارتفعت أصوات :

— كله من خيره .

— لازم يدفن جنب أبوه وأمه .

وكنت أقلب بصرى بين الجميع فى دهش فقد راح الجميع يخوضون فى لجج من النفاق . وذهبت إلى جدتى التى ما كانت تعرف إلا الصراحة وما كانت تجيد إخفاء شيء أو سر :

— شفتى أمه وأبوه يا ستى ؟

— والله يا بنى ما شفتهم ولا عرفتهم .

وسافر رجال إلى الطور وعادوا بجثمان الرجل . وخرجت جنازته من ميدان الحسينية فسار المشيعون خلفه وما من أحد منهم يذكر الرجل أو يترحم عليه . كان كل اثنين يتحدثان حديثا يخص أمر دنياهما ، وما من أحد إلا يفكر فى شئونه . ورحت أفكر : ألهذه الجنازة تجشم أهله ما تجشموا من جهد وبذلوا ما بذلوا من مال ؟ ألا ما أتفه الناس .

وعرجت الجنازة إلى شارع نجم الدين فى طريقها إلى القرافة حيث المدفن القديم ، وكان التربى يسير إلى جوارى فإذا بتربى آخر جالس على جانب الطريق ينظر إلى غريمه ويقول له :

— ليلتك سلق ، لهفته ... دفنة فيها خمسة جنيه على الأقل .

وكانت الخمسة جنيهات مبلغا كبيرا فى ذلك الوقت فكدت أن أضحك ، إلا أننى كتمت ضحكتى وإن ضحكت فى أعماق ، فلسنا إلا بضاعة فى نظر كثير من الناس سواء أكنا أحياء أم أمواتا .

كانت الوزارات فى مصر تلعب لعبة الكراسى الموسيقية ، فما إن تشكلت الوزارة الائتلافية برياسة مصطفى النحاس باشا حتى تصدع الائتلاف ، وما مرت ثلاثة أشهر حتى أقالها الملك وتولى محمد باشا محمود الوزارة وسافر إلى إنجلترا ليعقد محالفة مع الدولة البريطانية التى تجثم جيوشها على أرض الوطن ، وبعد ثلاثة أشهر أخرى استقالت الوزارة وجاءت وزارة عدلى يكن باشا تمهد لانتخابات حرة .

وشغلت مصر بالدعايات الانتخابية وتشتت أحزابا ، وراح كل منافس يقدح فى منافسه وينعته بأبشع الصفات ، وأخذ كل حزب يكيل التهم للحزب الآخر ولم يتحر حزب وجه الحقيقة فراحت الصحف الحزبية تتهم الخصوم بالخيانة والتفريط فى حقوق البلاد ، واشتعلت المهاترات فإذا بالمصريين يتناحرون فيما بينهم وقد نسوا أعداءهم وتركوهم ناعمى البال فى قصر الدوبارة وتكنات قصر النيل وتكنات محطة مصر ، بل وفى كل شبر من أرض الوطن .

ونصبت السرادقات فى أحياء القاهرة وقام الخطباء يخطبون فى كل مكان ، ونشط سماسرة الأصوات وكان صوت الناخب يرتفع ثمنه كلما دنا موعد الانتخاب ، وكانت أغلب المبالغ التى يدفعها المرشحون تدخل فى جيوب السماسرة وما أقل ما كان يوضع فى أيدى أصحاب الأصوات الفقراء !

كانت مواسم الانتخابات مواسم تكثر فيها الولائم والإنفاق ، وكان المرشحون فى تلك الأيام يتحلون بكل الخصال الحميدة : الرقة والأدب والكياسة والتواضع . إن بيوتهم مفتوحة لكل طارئ فى الليل أو فى النهار ، الناس عندهم سواسية لا فضل لكبير على صغير ولا لغنى على فقير ولا لصاحب جاه على حقير فلكل صوت فى الانتخاب وهو شحاذ أصوات .

وكان خالى عبد الحميد ــ من سميت على اسمه ــ من أنصار البنان مرشح الجمالية ،

فكان يقيم السرادق للبنان من ماله ، وكان يو لم له ولأنصاره فى بيته ، وكان يكفيه أن يمسح البنان على ظهره أو يربت على كتفه ويقول له :

— بارك الله فيك وفى أمثالك .

وكان هناك فى كل حى من ينفقون على المرشحين فى سفه ومن يتعصبون لهم انبهارا بالوفد ومرشحى الوفد . وتعطلت القراءة الأدبية فى السلاملك وأصبح أبى وأصحابه يكتفون بقراءة المقالات فى البلاغ وفى كوكب الشرق وفى الأهرام فقد طغت السياسة على كل شىء ، ويا ليتها كانت سياسة قومية أو سياسة تستهدف مصلحة الوطن ، ولكنها سياسة مغانم وبناء أفراد على حساب الشعب المخدوع بما يحمل كل حزب من شعارات .

كان أغلب رواد السلاملك من الوفديين .. وحتى الذين كانوا من أنصار الحزب الوطنى كانت ميولهم مع الوفد . وقد تحمست فى بعض الأوقات للوفد وكنت أرى أننا ما دمنا قد ارتضينا الحياة الديمقراطية فلا مناص من أن نحترم رأى الأغلبية ، ولكنى لم أستطع أن أكون حزبيا فإنى لا أسمح أن يسلبنى الانبهار بشخص أو بشىء عقلى أو إرادتى .

وكانت الصحف تتحدث عن المستوزرين الذين يتخذون بار اللواء مكانا مختارا لهم ، وكانت الصحف تفيض فى الحديث عنهم فدفعنى حب الاستطلاع إلى أن انطلق إلى هناك لأرى رواد ذلك البار الطامعين فى مراكز السلطة والسلطان . وركبت الترام حتى إذا ما وصلت إلى ميدان العتبة نزلت هناك وسرت فى شارع عبد العزيز ، فلما وصلت إلى سينما أوليمبيا عرجت إليها لأتفرج على صور الممثلين فإننى لا أستطيع أن أمر على دار سينما دون أن أنجذب إلى الصور التى تزينها . وقام فى وجدانى صوت يعاتبنى : كيف أمر على سينما أوليمبيا دون أن أمر على إيديال ؟

ولم أحتمل تأنيب ضميرى فانطلقت إلى سينما إيديال أجوس خلال ردهتها أشاهد وأنا مسرور صور ما سوف تعرض حتى وصلت إلى بار اللواء فرحت أغدو وأروح أمامه أتفرس فى الجالسين . إنهم أناس يرتدون الطرابيش والملابس الأفرنجية ليس فى وجوههم ما ينطق بالنباهة أو ينم عن علو الشأن ؛ إنهم يلعبون الطاولة أو يثرثرون على

قارعة الطريق أو يجلسون إلى البار يشربون .

وقفز إلى رأسي سؤال : أليس القادة قدوة الشعب ؟ فإن كان هؤلاء هم القادة أو الذين يحلمون بأن يكونوا قادة ، أيتخذهم الناس أسوة ؟ لا . إنهم ليسوا أسوة حسنة . ودرت على أعقابى وأنا أستشعر خيبة أمل ، وإذا باعتراض يهب فى وجدانى صائحا بى : إن هؤلاء ليسوا وزراء الشعب . إن وزراء الشعب هناك فى نادى محمد على وفى أندية الأحزاب . وهل تختلف حياة الجالسين هناك عن حياة الجالسين هنا ؟ وخطر لى أن أنطلق إلى نادى محمد على نادى الباشاوات ، وأنى لمثلى أن يفتح باب ذلك النادى العتيد الذى يحس المارون أمامه من أمثالى وجلا ورهبة ؟

وفى أثناء عودتى اشتريت جريدة المقطم ورحت أقرأ فيها أنباء المعركة الانتخابية وبعض أنباء جاءت من إنجلترا . وكانت المقطم تهتم بأنباء الدولة المستعمرة وتدافع عن تصرفاتها ، وقد ذاع بين الناس أن المقطم تعتمد فى تمويلها على الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس .

كانت مقالات المقطم تهادن فى ذلك الوقت الوفد ، فكان ذلك إشارة إلى أن الانتخابات ستكون حرة ، وما دامت الانتخابات حرة فلا مراء فى أن الوفد سيكون صاحب الأغلبية .

وجاء يوم الانتخابات فإذا بسماسرة الأصوات ينشطون ، وإذا بسيارات المرشحين تجوب فى الأحياء تهتف وتجمع الأنصار ، وإذا بأنصار كل مرشح يقفون عند أبواب الدوائر الانتخابية يذكرون الداخلين بانتخاب ابن الدائرة المجاهد النزيه .

ومر يوم مليء بالنشاط والحركة والإنفاق وبات الناس ينتظرون نتائج الانتخابات ، ولو أننى لست حزبيا إلا أننى كنت فى قرارة نفسى أتمنى فوز الوفد ليكون ذلك لطمة للملك الذى ابتدع بدعة الإقالة يوم أطاح بالوزارة الائتلافية .

وأعلنت النتيجة فإذا بالوفد يفوز بالأغلبية ، وإذا بموجة من الفرح تجتاح البلاد . واجتمع النواب الوفديون وانطلقوا إلى مجلس الأمة وقد أغلقت أبوابه بالسلاسل ، فتقدم ويصا واصف وكان رئيس المجلس الذى انفرط عقده لما أقيلت الوزارة فصاح بالحراس أن افتحوا الأبواب ، ففتح الباب الحديدى وتدفق منه النواب حتى إذا ما بلغوا

الباب الداخلى ألفوه مغلقا فهزه بعض النواب هزا عنيفا وصورة الملك معلقة فوقه . فاهتزت الصورة فقال النقراشى :

— حاسبوا لصورة الملك تقع .

وفهمها النواب فقد كانوا فى طريقهم إلى القاعة ليتحدوا إرادة الملك ، ودخل النواب المجلس وفتحت لهم كل الأبواب ، بينما غلّقت الأبواب فى وجوه الناخبين فى نفس الوقت .

٤٤

كانى أخى محمد لا يترك عيدا أو أية مناسبة دون أن يجمعنا ويخرج بنا إلى حلوان أو القناطر لنمضى يوما معا فى مرح وانطلاق . فلما اقترب يوم شم النسيم راح يضع الترتيبات لنقضى ذلك اليوم فى القناطر . فما من صديق من أصدقائنا يدخل السلاملك إلا ويدعوه ليمضى اليوم معنا ، وكان الخروج مع محمد معناه أن يتكفل بنقلنا وأكلنا ، وما كان للأكل ثمن يذكر فى تلك الأيام فرطل اللحم الضأن بثلاثة قروش ، فكان يجهز طعاما بثلاثين قرشا يكفى عشرة أشخاص .

وكان كل عملى فى الاستعدادات للرحلة أن أنفخ الكرة وأعد وسائل اللعب والتسلية ، فما كانت أية رحلة ترضينى إذا لم تتح لى فيها فرصة المشاركة فى مباراة عفوية تقام بيننا وبين أية مجموعة من الناس فى حلوان أو فى القناطر أو فى أى مكان نذهب إليه لنقضى فيه يوما ما .

إننا ذهبنا إلى قليوب ولعبنا فى سوقها ، وكانت أسرة شديد تقطن نفس الحى الذى نسكن فيه وقد لعب معنا بعض أفرادها . وفى ذات يوم دعونا لنذهب إلى بلدتهم أجهور الورد فسافرنا إلى هناك لنتبارى مباراة حبية . فلما كان موعد الغداء إذا بالموائد تمد وكان عليها ديوك رومية ودجاج وحمام . وكان حارس مرمانا أرمنيا فقيرا وكان أبوه يعطيه مليمين كل يوم اثنين فكان ينزل إلينا يزف ذلك النبأ السعيد فى فرح وابتهاج . فلما بدأنا فى الأكل ظهر عليه الانبهار ، ثم راح يأكل فى حفاوة ويضع عظم الديك

الرومى في جيبه ، فلما لمحته قلت له :

ـــ بتعمل إيه يا خاتشو ؟

فقال فى بساطة دون خجل :

ـــ بحط العضم فى جيبى عشان أمى تعرف إنى أكلت ديك رومى .

وأعد أحد الأجران ليكون ملعبا ، وبعد الغداء بقليل بدأت المباراة لنتمكن من العودة قبل أن يهجم علينا الليل ، ووقف الفلاحون حول الجرن يشاهدون المباراة . ومنذ اللحظة الأولى اتضح أن الضيوف لا يجيدون اللعب ، فتسلمت الكرة وجريت بها حتى أودعتها المرمى وأطلقت صفارة الحكم ، وارتفعت بعض الأصوات :

ـــ جول .

وسأل الفلاحون :

ـــ مين اللى غلب ؟

ـــ اللى جايين من مصر .

وغضب الفلاحون وقالوا :

ـــ بقى نغديهم وجايين يغلبونا !

وذهب الفلاحون وسرعان ما عادوا وفى أيديهم سعف النخل والهراوات ، وسمعنا بعض أصدقائنا من الشدايدة يطيبون خاطرهم ويحاولون أن يهدئوا من ثورتهم . أحسسنا جميعا بالخطر المحدق بنا وبما يجرى خارج الملعب ، ووصلت إلىّ الكرة وما تسلمتها حتى جريت بها صوب المرمى ، فإذا بأخى أحمد يصيح بى :

ـــ سيبها .. سيبها .

كيف أترك الكرة وقد أصبح المرمى مفتوحا أمامى ؟ وصاح بى أخى مرة أخرى :

ـــ سيب الكورة .

وتركتها وأنا كاره فأخذها أحد الخصوم وركلها فإذا بفريقنا يقف فى مكانه لا يتحرك ، فتقدم آخر من الشدايدة وأخذ الكرة وجرى بها وأعضاء فريقنا يفسحون له الطريق حتى وصل إلى المرمى .

وخشى أخى أحمد أن لا يتمكن الخصم من إصابة مرمانا فأشار لخاتشو أن يترك

المرمى ، وتمكن الفريق المضيف من التعادل ، فلما أطلقت صفارة الحكم ارتفعت أصوات مهللة :

— جول .

وسأل الفلاحون :

— حصل إيه ؟

— هم جابوا جول واحنا جبنا جول .

— يعنى حبايب ؟

— حبايب .

ونزل الفلاحون إلى أرض الملعب وقالوا :

— خلاص ما فيش لعب ، نطلع حبايب أحسن .

فقال أخى أحمد :

— أحسن .

وانتهت المباراة وأنا فى قمة ضيقى . كنت أفضل أن تستمر المباراة وأن نلعب ونغلب حتى لو كان نصيبنا الضرب فى آخر المباراة .

وجاء الفلاحون يوزعون علينا أكواب شراب الورد ، وكان شرابا لذيذ الطعم ، ولا غرو فإننا فى أجهور الورد .

تذكرت تلك المباراة وأنا جالس أمام باب السلاملك أحلم بمباراة فى ملعب القناطر فى شم النسيم ، وفيما أنا غارق فى أحلامى إذ أقبل ألبير وشاركنى فى جلستى وقال لى :

— ح نروح القناطر فى شم النسيم .. ما تيجى معانا .

— ح اروح مع اخواتى . نتقابل هناك .

وظهرت فورتينيه فى الشرفة ، فلما رآها ألبير قال لها :

— مش ح ييجى معانا ، ح يروح مع اخواته وح يقابلنا هناك .

وفى الصباح الباكر من اليوم الموعود حملنا غداءنا والكرة وأدوات اللعب وركبنا الترام إلى العتبة ومن هناك ركبنا الترام إلى روض الفرج ، وهبطنا مسرعين فى فرح إلى الرفاص الذى كان ينتظر عند الساحل . ومرت أكثر من ساعة وإذا برجال ونساء

وأطفال يتوافدون إلى المركب ، وانساب أخيرا فى النيل فانطلقت الزغاريد من بعض النسوة ودقت الطبول وقام بعض الشباب يرقصون ، وردد بعض الرجال والنساء أغانى عاطفية . كانت البهجة تلف كل الناس ، وقبيل الظهر وصل المركب إلى شاطئ حديقة من حدائق القناطر ، ومد لوح خشبى بين المركب والشاطئ ، فسرنا عليه لكأنما كنا نقطع الصراط ، فأى اختلال فى توازننا معناه السقوط فى الماء .

وتحت شجرة وارفة الظلال فرشنا ما معنا من بسط ثم جلسنا أرضا ، ولم نستطع أن نصبر على ما معنا من الطعام فأخرجناه من لفائفه ، وامتدت الأيدى إلى اللحم والبطاطس والكبيبة وكل أنواع المخللات كأنما كنا فى حاجة إلى ما يفتح شهيتنا .

وعقب الغداء رحت أجوب حدائق القناطر أنقب عن جيراننا اليهود . كانت الحدائق تموج بالناس موجا فرحت أحاذر وأنا أنقل قدمى حتى لا أدوس جموع الناس الذين افترشوا الأرض يأكلون الفسيخ والبصل . وأخذت أتلفت فى حيرة فخيل إلىّ أننى أبحث عن إبرة فى كوم من القش ، وتعبت من البحث ولكن لم يتسرب إلىّ اليأس فجعلت ألف وأدور وأنا أكاد أنوء من التعب .

وقررت أن أعود إلى حيث يجلس أصدقائى وأن ننطلق إلى ملعب الكرة لنبحث عن فريق ينازلنا . وسرت مطرقا وفيما أنا فى طريق عودتى وجدت ألبير وأخويه وأباه وأمه وفورتينيه وأختها ، وكانوا يفرغون زجاجات البيرة فى أجوافهم ، فخطر لى أن أفر وما كنت أدرى لذلك سببا . أبعد كل ذلك التعب أهرب منهم بعد أن وجدتهم ؟!

ولمحتنى فورتينيه فنادت :

ــ عبده .. عبده .

وذهبت إليهم فدعونى للجلوس وسُرعان ما قدم لى الأب زجاجة بيرة فاعتذرت بأننى لا أشرب ، فأخذت فورتينيه من أبيها الزجاجة وراحت تغرينى على أن أشرب ولكننى أبيت ، فإذا بأختها تقول لى :

ــ خايف من إيه ؟ دى بيره ، احنا شربنا ستة وثلاثين إزازه .

وراحت فورتينيه وأختها يزينان لى شرب البيرة وأبيت ، فكيف أشرب بيرة وأبى لم يدخن طوال حياته سيجارة ؟ كان أبى مثلى الأعلى فقد اتخذته قدوة وعزمت على أن

أسلك فى الحياة مسلكه ، فلا أذكر أننى سمعته يوما يغتاب أحدا أو يسخر من أحد أو يأتى معصية تغضب الله .

ولعبت البيرة برءوس الأسرة كلها ، فإذا بالأب يهذى ، وإذا بألبير يأتى حركات لا تنم عن اتزان ، وإذا بفورتينيه تميل علىّ فى تهتك ، وإذا بأختها تحاكيها ، فصرت بين أناس لا يستطيعون أن يتحكموا فى تصرفاتهم ولا فى عواطفهم ، وانطلقت ألسنتهم بألوان من الهذيان فاستشعرت خجلا وإشفاقا على جيرانى الذين انحطت إنسانيتهم ، فوطدت النفس على ألا أهبط بإنسانيتى إلى ما هبطوا إليه ، وأن لا أكون عبدا لكأس تجرح كبريائى وتمرغ كرامتى فى التراب .

٤٥

انتهت الدراسة وكنت من الناجحين فقد انقشعت عنى تلك الفكرة التى استولت علىّ طوال أيام دراستى الابتدائية ، فكرة أن كل جهد أنفقه فى الحياة عبث ما دام الموت هو نهاية كل شىء . إن الموت حقيقة لا ريب فيها ، ولكن ليس معنى ذلك أن أسلم نفسى لليأس وأن لا أخوض معركة كتبت علىّ ، فما دام الموت يخاصم الذين يرتقبونه فعلىّ أن أتسلح بكل الأسلحة التى تمكننى من أن أعيش أيامى على الأرض عيشة كريمة وألا أكون عالة على أحد .

كان أبى يلبى كل حاجاتنا ، بل كان يجلب لنا أكثر من حاجاتنا فلم نذق طعم الحرمان ، إلا أننى فى قرارة نفسى كنت أستشعر أننى حمل على أهلى ، وكنت أحس لذة روحية إذا ما قسوت على نفسى و لم أستجب لرغباتها ، فإذا ما زينت لى أن أطلب من أبى نقودا لشراء بعض ما تشتهيه من ملبس فاخر كنت أزجرها وأفطمها عن شهواتها ، بل كنت أؤنبها وأشتد فى تأنيبها ، فزرعت فى نفسى بذور الزهد فى كثير من الطيبات .

وتبدل الحال فبعد أن كنت أدخل فراشى على أمل أن تكون رقدتى فى كل ليلة هى الرقدة الأخيرة فإذا ما فتحت عينى على نور المصباح انتابنى غم شديد لأن الموت لم

يرحمنى من وطأة الحياة ، أصبحت أدخل فراشى أتعجل انقضاء الليل حتى إذا ما لاحت تباشير النهار انطلقت متفرحا إلى مدرستى ففيها أصدقاء وزملاء ورفاق كرة جملوا الدنيا فى عينى .

إن الإجازة الصيفية طويلة وما كنا بعد قد عرفنا السفر إلى الإسكندرية . كنا نقرأ أنباء السادة المترفين الذين يقضون الصيف فى سان ستيفانو فى المجلات تحت عنوان « أنباء الطبقة الراقية » وما كنا يوما من تلك الطبقة . كنا نمضيها فى التنقل بين المسارح الصيفية فى روض الفرج والمسارح التى تعمل فى الحر فى القاهرة ودور السينما التى تعتمد فى تلطيف الجو الخانق على المراوح فى السقف أو على جانبى الصالة .

كانت مسارح روض الفرج تقيم حفلة نهارية فى التاسعة صباحا ، كانت تقدْم فيها للرواد الفول والخبز والمخللات ، فكنت أذهب فى يوم الجمعة صباحا أنا وأحمد وسعيد فنتناول الفطور ثم نسمع حياة محمد تلميذة سيد درويش ، أو نشاهد مسرحية فكاهية من فرقة عز الدين أو فرقة الجزايرلى ونسمع منولوجات ونشاهد رقصا شرقيا . وكان أكثر ما يمتعنا فى تلك الفرق إذا ما نشبت مشادة بين رتيبة أحمد وبين بعض المتظارفين من الجمهور ، وكنت أحس شيئا من التعاطف مع رتيبة أحمد فقد كنت معجبا بتهريج أبيها الشيخ أحمد الحمزاوى فقد كان يحيى معظم الأفراح التى تقام فى الأحياء الشعبية . ويا طالما حضرت أفراح الناس البسطاء هناك ، فأهلى من البسطاء المنتشرين فى باب الشعرية والجمالية .

كان أحد أفراد بطانته يسأله عن الساعة فيخرج من جيب قفطانه منبها ضخما ، وكانت تلك الحركة كافية لأن تبعث الضحكات من الأعماق . وكان خفيف الظل حاضر البديهة سريع النكتة ، وكانت معظم نكاته جنسية تدغدغ الحواس وما كانت تخدش حياء أحد ، فالجنس شىء مألوف بين البسطاء ليس له تلك الهالة الرهيبة التى عقدت المتفقهين والفلاسفة الذين وضعوا كل مواهبهم فى سبيل تعقيد المريدين وطمس كل ما فى الحياة من جمال .

إنه أبو فتحية أحمد مطربة القطرين صاحبة الصوت الأخاذ ، فكان ذلك يزيد فى رصيده عند جمهوره . وكثيرا ما كانت تعقد مقارنات بين فتحية أحمد ومنيرة المهدية كلما ذهب الشيخ أحمد الحمزاوى ليحيى فرحا من الأفراح أو يشارك فى إحياء الليلة

إذا ما كان أصحاب الفرح على جانب من اليسار واستطاعوا أن يتفقوا مع الشيخ زكريا أحمد على الغناء .

كنت أذهب فى صباح يوم الجمعة إلى روض الفرج لأعايش الفن ؛ إلا أن الليلة التى كنت أقضيها هناك مع أخى محمد كانت تعمل فى نفسى عمل السحر ، فالكهربا تضىء واجهات المسارح المتواضعة ، والرواد يتدافعون بالمناكب ، والعشاق ينسلون إلى المراكب ، وأصوات الموسيقى النحاسية تدوى فى كل مكان ، وبعض الرجال يقفون على أبواب المسارح يعلنون البرامج فمعظم الرواد ممن لا يحسنون القراءة أو يعجزون عن قراءة الإعلانات ، واستعراضات الرقص أدسم من استعراضات الصباح ، إذا كان رقص راقصة واحدة على نقرات الطبلة وهز البطن يعتبر استعراضا .

إن هرولتنا عقب انتهاء العرض فى سكون الليل لنلحق ترام روض الفرج العائد إلى العتبة شىء رائع ، وكنت أسرع الخارجين من المسارح إلى الترام ، فكنت أحتل مكانى وأحجز مكانا لأخى محمد ، فإذا ما انساب الترام فى شوارع شبرا الهادئة التى لفها الليل بغلالة من الغموض والسحر كانت نشوة عارمة تنداح فى أغوارى .

كنت أمتص رحيق الفن فى دور السينما ومسارح عماد الدين وروض الفرج ، وأتجرع السياسة فى كل ليلة فى السلاملك ، فقد كان نزلاء الليل يخوضون فى السياسة اليومية قبل أن يقرءوا كتابا من كتب التاريخ أو الأدب الحديث أو تفسير الأحلام وقراءة الطالع .

كان النحاس باشا رئيس الوزراء قد سافر إلى إنجلترا لإجراء مفاوضات مع هندرسون فكانت الصحف الوفدية وصحف الأحرار الدستوريين ، بل والصحف التى تعتمد على الدولة المحتلة فى تمويلها تنشر أنباء تلك المفاوضات . وكنت فى أثناء فترة استراحتى من المذاكرة أشارك القوم جلستهم وأصغى إلى نتف من الحوار المحتدم بينهم ، كان البعض يرى أن صحف الوفد تتفاءل أكثر من اللازم ، وأن صحف المعارضة تتشاءم أكثر من اللازم ، وأن أنباء الأهرام والمقطم قد تكون أكثر حيادا وأكثر واقعية .

وأخفقت مفاوضات النحاس ــ هندرسون ، فلما عاد النحاس باشا قدم استقالة

الوزارة نظرا لعدم تمكنها من تنفيذ البرنامج الذى قطعت على نفسها عهدا بتنفيذه وقبلت استقالة الوزارة ، وفى نفس اليوم كلف إسماعيل صدقى باشا بتأليف وزارته الأولى .

كان اللورد چورچ لويد قد نقل إلى إنجلترا وحل محله فى مصر سير برسى لورين ، فراحت أبواق القصر تذيع بين الشعب أن الملك قد عين صدقى باشا دون أن يرجع فى ذلك إلى المندوب السامى البريطانى للتدليل على جرأة الملك ووطنيته !

كان سير برسى لورين يفاوض زعماء الأغلبية لوضع مشروع اتفاق بين مصر وبريطانيا وكان يأمل أن يجد المخرج للوصول إلى اتفاق ، فلما كلف صدقى باشا بتأليف الوزارة كان أول ما فعله أن ذهب إلى المندوب السامى ليخبره أنه مكلف بتأليف الوزارة وأنه ساهم فى تصريح ٢٨ فبراير بل إنه أحد واضعيه ، وأنه كان المفارض الثانى مع عدلى باشا سنة ١٩٣١ .

وراحت الصحف المؤيدة لكل حاكم تؤكد أن سياسة الوزارة الجديدة محو الماضى بما له وما عليه وتنظيم الحياة النيابية تنظيما جديدا يتفق ورأى صدقى فى الدستور واستقرار الحكم . وأجل صدقى باشا البرلمان شهرا وإذا بمعارضة حامية تهب فى مجلس الشيوخ والنواب ، وإذا بالثورة تنتقل إلى الشعب فتقوم بمظاهرات فى القاهرة والإسكندرية وفى الريف . وسرعان ما يطلب الذين يتمتعون بالحماية الأجنبية وبعض أصحاب الهوى من إنجلترا التدخل بحجة حماية أرواح الأجانب وأموالهم .

وحدث أن مات ويصا واصف باشا رئيس مجلس الأمة فقالت الصحف إنه مات من أكل « ما ينيز » فاسد ، وراحت الشائعات تؤكد أنه مات مسموما ، وكانت جنازته مظاهرة ضخمة فقد ارتفعت الأصوات تهتف :

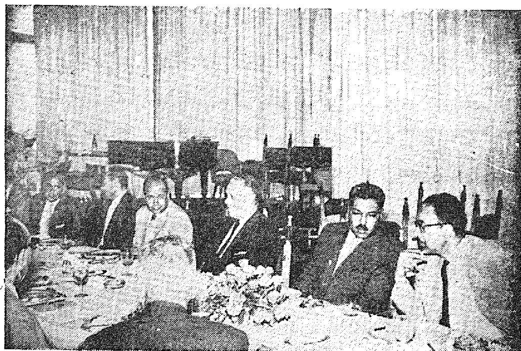
ــ اشكى الظلم لسعد يا ويصا .

وثارت الإسكندرية وزمجرت وزأرت فأرسلت الحكومة البريطانية تعليمات إلى المندوب السامى ليبلغ صدقى باشا أن الحكومة البريطانية تعده مسئولا عن حماية أرواح الأجانب وممتلكاتهم فى مصر ، وقد كلفت السير برسى لورين بأن يبلغ النحاس باشا أنه يجب أن تحل مشاكل مصر الداخلية دون أن تتعرض أرواح الأجانب للخطر ، وأن إنجلترا تعده مسئولا لذلك مع الحكومة .

و لم تعدل إنجلترا من أسلوبها فنشرت الصحف أنها أرسلت بوارج وأن البوارج فى طريقها إلى الإسكندرية . كنا فى يوليو من عام ١٩٣٠ وكان إرسال البوارج لاحتلال الإسكندرية بحجة حماية الأجانب وأموالهم فى يوليو من عام ١٨٨٢ . أيكرر التاريخ نفسه ؟!

واستولى القلق على جميع المصريين ولكن صدقى باشا رد على التبليغ بأنه تدخل فى الشئون الداخلية ، وأن الحكومة المصرية ترى أن التبليغ تجاوز حده لما أشرك غيرها فى المسئولية.وقد فعل الرد فعله فبعثت الحكومة البريطانية تأمر البوارج بالعودة من منتصف الطريق .

واستراحت مصر من شبح تهديد البوارج البريطانية وبقى التوتر بين أغلبية الشعب والحكومة ، كان القلق على دستور البلاد يستولى على المصريين جميعا .



٤٦

كان أبو شفاتير شابا مفتول العضلات ، غليظ الشفتين دق عصفورين على صدغيه بالوشم الأخضر . إنه يخدم فى بيوت الحى ، وقد جاء ليخدم عند الأسرة اليهودية الصديقة . وفى ذات يوم صعد إلى غرف الغسيل مع فورتينيه ، فما إن هبط إلى الشارع حتى أقبل على مسرورا وراح يفضى إلى فى فرح أنه نال الفتاة .

ولم يثر حديثه دهشتى فما أكثر الذين قالوا إنهم عرفوها . ومرت الأيام وأبو شفاتير يفضى إلىّ بسر العلاقة بينه وبينها ، إلا أننى لاحظت أن انبهاره قد خمد . وسرعان ما بدأ يشكو إلى نهمها ، ثم بدأ يتبرم وقد لاح عليه سيماء الإرهاق ، وبعد أقل من شهر هرب الشاب واختفى . وقابلته صدفة وسألته عن سر فراره فقال لى :

ــ الموت جوع ولا الشغل ده .

وابتسمت ، وما كدت أعود إلى مكانى المختار عند الباب الحديدى حتى نادانى ألبير لأسلى أباه بلعب الطاولة ، ومد يده إلى يدى يعاوننى على الدخول من الشرفة ، وما كدت أستقر على الكرسى حتى راح الأب يروى ذكرياته وهى يلقى الزهر ؛ قال إنه كان مطربا وقد سمعت ذلك منه مرات حتى حفظته ، ولم يكتف بالقول بل نهض وأحضر أسطوانة على شكل كوب وقال إنه سجل صوته على هذه الأسطوانة وتمنى لو كان عنده فوتوغراف قديم يمكنه من إدارة تلك الأسطوانة ، إذن لسمعنا أن صوته من نفس معدن صوت صالح عبد الحى .

وعاد إلى مقعده ليستأنف اللعب ، وإذا به يقول فجأة :

ــ عايزين ناكل كساتا على حسابكم .

لم يكن طلبه شيئا يرهقنى ، فكرة الكاساتا كانت تباع بسبعة قروش بالفجالة ، فأخرجت القروش السبعة وقلت :

ـــ مين اللى ح يجيب الكاساتا ؟

فقال الأب فى بساطة :

ـــ ألبير يروح بالعجلة .

وأخذ ألبير النقود وانطلق مسرعا واستأنفنا لعب الطاولة ، وما أسرع أن عاد ألبير بكرة الكاساتا فراحت الأم توزعها علينا ، وإذا بالأب يقدم إلى قطعة فى صحفة ويقول لى :

ـــ إدى دى لفورتينيه .

فورتينيه ؟! إنها فى الحمام . ووقفت لحظة حائرا وقد احمر وجهى خجلا . ونظرت فى وجوه الذين يلتهمون الكاساتا فلم ألحظ أية دهشة أو ظل لاعتراض ، فذهبت وأنا أكاد ألا أحس وجودى وطرقت باب الحمام ، فإذا بصوتها يأتى من الداخل هادئا :

ـــ أيوه .

فقلت فى صوت مضطرب :

ـــ خدى الكاساتا .

فسمعت صرير الباب وهو يفتح ، ولم أر إذا ما كانت عارية أو غطت جسدها فإننى مددت يدى بالكاساتا وأشحت بوجهى بعيدا ، فالناس قد وثقوا بى وليس من الأمانة أن أخون الثقة .

وفى الليل شاركت نزلاء السلاملك جلستهم . كانت مصر قد عرفت محطات الإذاعة الأهلية : محطة مصر الملكية ، محطة فاروق ، محطة سقال ، وكان التنافس بين تلك المحطات شديدا ، وقد استقبل الناس هذا الحدث بكثير من الرضا فليالى الطرب أصبحت تقام كل ليلة فى منازلهم . إنهم يلقون أسماعهم إلى المنولوجات وإلى أصوات المطربين الندية وهم مسترخون على أرائكهم أو فى مقاعدهم . كان الجميع ينصتون فى اهتمام فأخى أحمد كان يلقى زجلا فى محطة كانت مقامة فى ميدان الحسينية . وما انتهى أخى من زجله حتى راح الجميع يتحدثون عن ماركونى واختراعه العجيب .

وأعلن المذيع أن الشيخ محمود صبح سيغنى أغنية جديدة من تلحينه ، ثم راح يشدو

بياليل يا عين وما كاد ينتهي منها حتى قال :

ــ يسمع دى محمد عبد الوهاب .. يقدر محمد عبد الوهاب يوصل لكده ؟

كانت تعليقات المطربين على أصواتهم ومقارنتها بأصوات الآخرين أمرا لا يثير أية دهشة ، بل إن بعض المحطات كانت تلجأ للإثارة لتجذب أسماع الجماهير وانتباههم ففي ذلك زيادة للإعلانات التي تعيش المحطات عليها .

وكانت فورتينيه قد تركت محل القمصان والكرفتات بشارع محمد علي والتحقت ببوفيه جزيرة الشاي بحديقة الحيوان ، وكانت فرقة الصياد الموسيقية وهي فرقة من البوليس قد انتقلت من كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية إلى كشك الموسيقى بحديقة الحيوان . وكان أخي محمد يذهب إلى حيثما تذهب فرقة الصياد ، فهو من المعجبين بالفرقة ،وقد توطدت صداقة متينة بين أخي والصياد قائد الفرقة الموسيقية . فما إن دعاني محمد للذهاب إلى حديقة الحيوان في صباح يوم جمعة حتى لبيت دعوته مسرورا . وانطلقنا إلى الحديقة وجلس محمد ليسمع الفرقة التي عشقها وذهبت إلى جزيرة الشاي أنظر من بعيد نظرات متلصصة إلى حيث جلست فورتينيه خلف الكيس . كانت النقود في جيبي وكنت قادرا على أن أجلس إلى منضدة وأن أتظاهر بمراقبة البجع في بحيرته وأن أمد إلى فورتينيه عيني بفلوسي ، ولكني كنت أرتجف فرقا من أن تلمحني وأنا أمر على الممرات الزلطية التي كانت طابع ممرات الحديقة .

وعند محطة الترام بميدان الظاهر كنت أنتظرها كل ليلة لنعود معا ، فما كان بيننا أكثر من قطع الطريق بين المحطة والبيت وتبادل حديث لا نخسر شيئا إذا ما كتمناه ، ولكنه على الرغم من فراغه كان حوارا ممتعا يبعث الرضا في نفسي .

وفي ذات يوم بينما كنا في طريق عودتنا قالت لي في بساطة :

ــ حلمت إنك نايم معايا . ترضى ؟

فقلت دون تفكير :

ــ لا .

وساد صمت بيننا ، ترى هل جرحت كبرياءها برفضي ؟ وعدت إلى البيت و لم أدلف إلى السلاملك بل ذهبت إلى سريري واستلقيت عليه وأخذت أفكر في ذلك

العرض الذى إن دل على شىء فإنه يدل على أنها تريد أن تتخذنى لعبتها. إنى لم أنس أنها قالت لى يوم أن كانت صائمة ودعتنى لأقضى الوقت معها :

— تعال نسلى صيامى .

أكل ما تريده منى أن أكون لها تسلية ؟! أو أقبل أن أكون لها كما كان أبو شفاتير ؟ كنت أريدها شيئا آخر أطهر مما هى عليه وأعف . إنها أول من خفق لها قلبى . إنها أول فتاة فى بواكير رجولتى وكنت أتمنى أن تكون طيفا لا جسدا ، أن تغذى روحى قبل أن تشفى غليل رغباتى ؛ إلا أنها لم تكن تعرف أكثر من إسكات صرخات الشهوة وتلبية نداء الغابة .

و لم أستطع أن أقاوم ذلك الشىء القاهر الذى يدفعنى كل ليلة لأنتظرها عند محطة الترام فى الليل لنعود معا إلى البيت . وفى ذات مساء بينا كنا نسلك سبيلنا قالت لى فى فرح :

— اتخطبت وح يجى خطيبى بكره يعيش معانا .

كنت أعرف أن لا بد من أن يمضى الخطيب مع خطيبته أربعين يوما قبل أن يقررا الزواج ، إنها فترة التجربة . وكنت فى قرارة نفسى أتمنى لها أن توفق وأن تجد الزوج الذى يتخذها سكنا له ، أن يهدئ من ثورتها الجنسية الجامحة ، وتذكرت فرار « أبو شفاتير » فقلت لها صادقا :

— فورتينيه ، نامى مع أى واحد بس ما تناميش مع خطيبك .

فقالت وهى تضحك ضحكة ساخرة :

— انت غرت منه .

فجمعت كل شجاعتى وقلت لها وقد تدفق الدم حارا إلى وجهى :

— ح يهرب .

وأقيم فى بيتها حفل متواضع إلا أنه كان حفلا صاخبا ، رقص وشرب وأصوات كبار قدامى المطربين والمطربات تنبعث من الفونوجراف ، و لم أدع إلى ذلك الحفل ولكن ألبير جاء إلى يقدم بعض أصناف من الحلوى المتواضعة .

كان ألبير أقرب إلى من موريس أخيهما الأكبر . إنه يقص على دقائق حياتهم ؛ راح

يروى لى كيف أنفقت فورتينيه كل ما ادخرته فى ذلك الحفل ، وأنها ستدفع « دوتة » كبيرة ، وأنه يتمنى أن يجد فتاة تدفع له « دوتة » تمكنه من أن يفتح دكانا بدلا من أن يطوف كل شوارع القاهرة ليبيع ما يحمل على ذراعه من بضاعة .

إنه ليس أقل من حاييم . كان حاييم يدور فى الطرقات وهو يحمل صرة كبيرة بها أقمشة ، وهو الآن بعد أن تزوج وتسلم « الدوتة » صاحب دكان مانيفاتورة . كانت الفتاة هى التى تدفع المهر للذى يتزوجها ، وذلك ولا شك من تقاليد حكماء صهيون فلا أظن أن بين حكماء صهيون فى سالف الزمان امرأة .

وأخليت غرفة من الغرف التى تطل على الشارع ووضع بها سرير ودولاب ، وعاشت فورتينيه وخطيبها فى تلك الغرفة وحدهما . وانقضى يوم ثم يوم ثم يوم وهما يتعانقان والشباك مفتوح دون خجل . ومن بعيد أحسست فتورا فى علاقتهما ، فما زرت الأصدقاء مذ جاء الخطيب إلى بيتهم . ومرت ستة عشر يوما وإذا بالخطيب يحمل حقيبته وينصرف غاضبا . إنه شاب وسيم طويل الرقبة نحيل القوام ، لم يكن مثل « أبو شفاتير » عريض الكتفين مفتول العضلات بل كان فى تكوينه أقرب إلى تكوين الأنثى ، وكنت مشفقا عليه من أول يوم وقعت عليه عيناى . إنه سيفر ، سيفر قبل أن تنتهى أيام التجربة وقد كان .

وعادت فورتينيه لتقابلنى ، قالت لى وهى تبكى :

ـــ صرفت عليه دم قلبى .

ولذت بالصمت ، إنها سخرت من نصيحتى وقد كان ما توقعت .

وكان لا بد أن يتركوا الشارع بعد أن كان مصير الخطوبة الإخفاق ، فمن ذا الذى يتقدم لخطبة فتاة ثبت بالتجربة أن شابا وسيما لم يستطع أن يعاشرها نصف المدة ؟!

وحمل عفشهم المتواضع على عربات كارو وسار ألبير وموريس وأمهم وأبوهم إلى جوار العفش ولم أسألهم إلى أين ؟ كل ما عرفته أنهم انتقلوا إلى البكرية وما يفصل بيننا وبينها إلا شارع الخليج المصرى . ذلك الشارع الضيق الذى تجرى فيه الترام وتكاد تحتك بجدران المنازل التى تطل عليه .

٤٧

رحت أستعد لأول رحلة فى حياتى ، فأخى محمد أخبرنى أننى سأسافر معه إلى الإسكندرية نمضى هناك يومين و لم أكن قد رأيت الإسكندرية بعد . كنت أقرأ وأنا صغير ذلك الحوار الحار الذى يدور فى صفحات كتاب القراءة الرشيدة بين مصر والإسكندرية والذى يبدأ بـ « كيف حالك يا مصر » فتجيب مصر « أنا بخير ما دمت بخير » ثم ينقلب الحوار اللطيف إلى ما يعيد إلى ذهنى تلك المشاجرات التى كانت تنشب بين امرأتين فى شباكين متقابلين فى حارة من أحيائنا الوطنية .

كنت أنفعل بذلك الحوار الذى كان يشتد ويعنف أحيانا ثم ينتهى بمصالحة بين الثغر الجميل والعاصمة التى بناها جوهر الصقلى ، وكنت أحلم بزيارة مدينة الإسكندر لأرى إذا ما كانت بذلك الحسن الذى تدعيه فى تزكية نفسها .

وفى الصباح الباكر جاء إلينا صديق من أصدقاء أبى وأخى كان أول من فكر فى تعبئة الشاى فى عبوات صغيرة ، فنزلت إليه أنا ومحمد وسعيد ثم انطلقنا إلى ميدان الظاهر وركبنا الترام حتى المحطة ، ومن هناك ركبنا القطار فى الدرجة الثالثة وكانت مقاعدها أشبه بدكك الحدائق العامة ، وكان عدد الركاب قليلا وإن كنا فى شهر يونية فما كان عامة سكان القاهرة قد عرفوا بعد تمضية الصيف على الشواطئ ، فالذهاب إلى الشواطئ شيء عسير يحتاج إلى تكاليف كثيرة ، فما كان كورنيش الإسكندرية قد أقيم بعد .

وأمضيت الوقت فى التنقل بين عربات القطار فأنا لا أستطيع أن أستقر طويلا فى مكان . وانقضت ساعات قبل أن نصل إلى عروس البحر الأبيض التى كانت صورتها فى ذهنى ، بعد أن قرأت ذلك الحوار الساخن فى كتاب القراءة الرشيدة بينها وبين القاهرة ، امرأة من بنات بحرى اللاتى تتفنن المجلات فى رسمها بملاءتها اللف ولسانها الطويل .

ووصلنا إلى محطة مصر وكانت دهشتى بالغة . كيف تكون محطة مصر وهى فى الإسكندرية ؟! ولم أجد لذلك تعليلا ، وسرت بين الرفاق أتلفت وأفعل مثلما يفعلون . إن القطار قد وقف على الجانب الأيسر وكان لا بد أن نصعد إلى جسر علوى لنعبر إلى الجانب الأيمن ، ولكن أحدا من الركاب لم يفعل ذلك ، بل نزلوا إلى طريق القطارات وعبروه ثم قفزوا كالقردة إلى الرصيف الأيمن . ولم نكن لنشذ عن الناس ففعلنا مثلهم ، وسرعان ما خرجنا إلى الميدان الفسيح أمام المحطة والهواء المنعش يداعب أرواحنا قبل أن يعبث بشعورنا ويصافح وجوهنا .

وركبنا عربة حنطور وانطلقنا فى شوارع نظيفة وأنا أتلهف على رؤية الترام ذى الطبقتين ، فيا طالما سمعت عنه من كل من زاروا المدينة الجميلة التى كانت تختلف تماما عن كل ما تصورته : فلم أجد فى شوارعها الفتيات اللاتى يرتدين الملايات اللف بل وجدت كثيرا من الأجانب يغدون ويروحون فى خيلاء ، فأحسست أننى قد انتقلت إلى مدينة أوروبية .

وراح أخى محمد يسأل أين ننزل ؟ فهتفت فى حماس : المنشية ، وما كنت أدرى شيئا عن الإسكندرية . كل ما أعرفه عنها من كتاب القراءة الرشيدة ، أن فى ميدان المنشية تمثالا لمحمد على الكبير . وانطلق الحنطور بنا إلى هناك ونقلنا حقائبنا ، وكانت حقائب متواضعة لا تزيد على حقائب تحمل فى اليد ، فقد جئنا لنمضى يومين فقط فى المدينة الساحرة .

ووضعنا حقائبنا وهبطنا مسرعين فما كان هناك وقت لنضيعه ، ورحت أملأ عينى من كل شىء : كان فى الميدان مناضد للصرافين وضعت عليها كل العملات الأجنبية ، وكان الناس يستبدلون ما معهم من نقود فى حرية . لم تكن هذه أول مرة أرى فيها الصرافين فقد رأيتهم فى العتبة الخضراء وفى شارع فؤاد الأول ولكن لم أرهم بمثل هذه الكثرة . ودنوت من أحدهم أتطلع إلى الإسترلينى وإلى المارك الألمانى وإلى ما لا أدرى من العملات ، وكنت أنظر إلى الجنيه المصرى فى فخر فإنه أكبر من الجنيه الإنجليزى ولم تؤثر فيه الأزمة الاقتصادية التى كانت تجتاح العالم . إنك تقدمه إلى أى صراف فيناولك جنيه استرلينى ثم يعطيك خمسة قروش تعريفة ، إنه شىء يدعو إلى الزهو ؛

ولكن ماذا يفعل من كان مثلى أو مثلنا بجنيهات إسترلينية ؟!

وقال أخى محمد :

— نروح سيدى بشر .

وقلت مسرعا :

— ح نركب الترماى أبو دورين ؟

— أيوه .

— نروح .

وسرنا من المنشية إلى محطة الرمل ، وصرت أسأل عن كل ما أرى وكل ما قرأت عنه فى الصحف . وكم كانت سعادتى عندما رأيت البورصة وقهوة البلياردو التى كنت أقرأ أن نجوم كرة القدم بالإسكندرية يجلسون بها . وبعد أن جسنا خلال سرة الإسكندرية ورأينا محال الحلوى المنتشرة فى كل مكان التى يملكها اليونانيون ، ذهبنا إلى محطة الرمل ؛ إنها مكان كالأمكنة التى رأيت مثلها فى القاهرة ، لم يكن بها رمل ولولا وقوف الترام ذى الطبقتين عندها لغاضت نشوتى .

وعرجت إلى الطبقة العليا فى الترام وأنا أكاد أطير من السرور ، ولم أصغ إلى النداء الذى أطلقه أخى لأستقر فى الطبقة السفلى الخالية . واتخذ الترام طريقه فكنت أقرأ أسماء المحطات بنفس النشوة التى كنت أحسها كلما قرأت اسم بطل من أبطال أفلام سينما إيديال ، حتى إذا ما بلغ الترام محطة سان استيفانو شعرت بخشوع ، فقد اقترن اسم فندق سان استيفانو بأسماء الوزراء والأعيان والوجهاء ، وكان لتلك الأسماء سحر فى تلك الأزمان .

ووصلنا إلى سيدى بشر ، إلى مكان رملى قفر وقفت عنده بعض العربات التى تجرها الحمير وبعض الحمير والحمارة . وسرنا من محطة الترام إلى حيث العربات والحمير فراحت أقدامنا تغوص فى الرمل . ودون عناء أو تفكير فطنت إلى سبب تسمية المحطة التى ركبنا الترام من عندها بمحطة الرمل ، كان كل ما أراه وأسمعه جديدا فكنت أستشعر شعور الغبطة التى يحسها القادم على دنيا جديدة .

وانحشرنا فى عربة مع بعض أناس آخرين فانطلقت بنا إلى قرب شاطئ البحر

فنزلنا ، و كان علينا أن نقطع المسافة إلى البحر سيرا على الأقدام فرحنا ننقل أقدامنا التى كانت تغوص فى الرمال بصعوبة حتى بلغنا الشاطئ . لم تكن معنا مايوهات و كانت هناك أكشاك لتأجيرها وغرف لاستبدال الملابس ، وقمت لأكترى مايوها ولكن أخى محمد نهانى خوفا من الجرب والعدوى .

ووقفنا على الشاطئ نتعم بنسيم البحر . وما كاد النهار ينتصف حتى عدنا إلى المنشية لنتناول غداءنا ونستريح فى غرفنا . وما كدنا ندخل غرفنا حتى خرجنا مسرعين . فما جئنا إلى الإسكندرية لننام . فذهبنا إلى الميناء نشاهد البواخر والسفن ، ووجدنا باخرة راسية فصعدنا إلى ظهرها وطلبنا من أحد المصورين أن يلتقط لنا صورة ونحن نلوح مودعين ، كأنما كنا على أهبة السفر .

ورحنا نتفقد الباخرة نصعد ونهبط فى سلالمها و لم يفارق بصرى الشاطئ.فما وقفت أنظر إلى البحر و لم أمد بصرى إلى الأفق البعيد ؛ فما خطر على قلبى فى تلك اللحظة أن سيأتى يوم أغادر فيه مصر . وكيف أفكر فى مثل ذلك وما وافق أبى على ذهابى إلى الإسكندرية إلا بعد توسلات وبعد أن قطعنا على أنفسنا عهدا ألا نغيب عن البيت أكثر من يومين .

إن أبى لا يذهب إلى فراشه إلا بعد أن يتأكد أننا جميعا فى فراشنا وأن شبابيك غرف نومنا قد أغلقت ، ترى هل سينام أبى ونحن فى بلاد الغربة أم سيظل فى شرفته يرقب عودتنا حتى نعود ؟

وعدنا إلى الحى الذى ينبض بالحياة فى الإسكندرية . كانت الشمس تغوص فى البحر وكان مشهد الغروب يأخذ بالألباب ، وكان زبد البحر كأنه جياد شهب يجرى بعضها فى إثر بعض . وخطر لى أن أذهب لأمتع الطرف بذلك الجمال ، إلا أن دون ذلك رمال ، وقد تعبت من السير فى الرمال .

وجلسنا فى محل من تلك المحال الكثيرة التى تقدم الحلوى للرواد وكان كل العاملين من اليونانيين وكان أغلب الرواد من الأجانب وكان الحديث بكل اللغات ، وقلما سمعت اللغة المصرية فسرعان ما أحسسنا بالغربة وانسحبنا من المكان ورحنا ندور على دور السينما ، فوجدنا أن فيلم زينب يعرض هناك ، ولما كنا قد شهدناه فى سينما

متروبول فى القاهرة فقد بحثنا عن فيلم آخر . وأخيرا استقر رأينا على أن نمضى السهرة فى مسرح محمد على .

كنت من رواد سينما إيديال والكوزموجراف الأمريكانى وتريومف وما كانت فى القاهرة دار تضاهى مسرح محمد على فخامة ، فما كنت قد رأيت دار الأوبرا بعد . إن أفخم المسارح التى شاهدتها كانت مسرح الأزبكية ومسرح دار التمثيل العربى بقنطرة الدكة ومسرح رمسيس ومسرح برنتانيا الذى تعمل عليه فرقة فاطمة رشدى ، وما كانت تلك الدور فى فخامة مسرح محمد على ، فخطفت ديكورات الدار بصرى وجعلتنى أعيش ساعات مسحورة من عمرى .

وانقضى اليومان اللذان أمضيناهما فى الإسكندرية كما ينقضى الحلم الجميل ، وركبنا القطار فإذا بالساعات المترعة بالنشوة قد أصبحت ذكرى ، وإذا بحنين إلى أبى وأمى وإخوتى وأصدقائى يملأ أقطار نفسى ، وإذا بسعادة طاغية تغمرنى ؛ إننى عائد ، عائد إلى الوطن !

٤٨

راحت صحف الوفد تشن حملة مريرة على صدقى باشا فقد استبدل دستور سنة ١٩٢٣ بدستور جديد ، وقد لعب الكاريكاتور دورا خطيرا فما كانت مجلة أسبوعية تصدر إلا وبها أكثر من صورة كاريكاتورية تسخر من صدقى باشا ودستوره . كان هدف رئيس الوزراء القضاء على شعبية الوفد وتحطيم أوتوقراطيته البرلمانية ، ولكن الصحف الوفدية تمكنت من أن تغرس فى قلوب الناس كراهية صدقى والعداوة لدستوره .

كان الانتخاب مباشرا فجعله صدقى ذا درجتين ، وجرى انتخاب الدرجة الأولى فى الريف وراحت صحف الوفد بكل ما أوتيت من قوة وبيان تصمها بالزيف . ولما حانت انتخابات العواصم دعت الصحف إلى مقاطعتها ، فأغلقت المحال يوم الانتخاب واعتصم أبى وأصدقاؤه بالسلاملك وراحوا يتحدثون فى السياسة ، وكان

بينهم شهاب أفندى أحد أصدقاء العم سيد الدخاخنى فكان يقول مقاطعا حديث السياسة :

ــ امبارح بالليل لقيت عربية تين بشوكه ، نفسى هفتنى عليه قلت للراجل قشر ، قعد الراجل يقشر وأنا آكل ، وقف الراجل عن التقشير قلت له ما تقشر . قال الراجل يا ريت ! صحة وعافية يا بيه . بصيت لقيت العربية كلها قشر ، قلت للراجل بكره ابقى املا العربية كويس .

وضحك شهاب أفندى واهتزت كرشه ، فما كان يطيق أى حديث جاد ، إنه يدخل الدنيا من بابها الضاحك ويتمنى أن يخرج منها من نفس الباب ، وإنه يقول دائما أن ليس فى الدنيا أسعد من ثلاثة : البواب والكلب الرومى وشهاب ، فما كان يعرف من أصناف الكلاب المدللة غير ذلك الكلب .

وضحك الموجودون فقد كان خفيف الظل على الرغم من ضخامته ، بل لعل ضخامته التى تتناسب تناسبا عكسيا مع رقة ذاته الإنسانية هى سر خفته . وعاد أبى وأصدقاؤه فى الخوض فى حديث السياسة ، وخرج أخى محمد إلى حيث اللجنة الانتخابية القريبة من بيتنا يتنسم الأخبار فإذا به يعود ويقول :

ــ كلكم انتخبتم .

ــ ازاى واحنا قاعدين هنا ؟

ــ المخبرين انتخبوا بدالكم .

ــ مش معقول .

ــ كشوف الانتخابات بتقول إنكم رحتم وانتخبتم .

ــ دا تزوير .

وثار الرجال ؛ إنهم أغلقوا دكاكينهم لكيلا يشتركوا قسرا فى الانتخابات فإذا برجال آخرين ينتحلون شخصياتهم ويدلون بأصواتهم . وبينما كانوا يزمجرون راح أمين أفندى يقول :

ــ يوم الخميس اللى فات كنا معزومين على العشا ، وكان الطباخ عشى باشا وقدم أصناف ما شفناهاش قبل كده ، أصناف بقيت أبص لها وأنا مدهوش مع أنى خبير ف

الأكل .

وراح يسهب فى وصف ألوان الطعام الذى تناوله وقد تحلب ريقه ، فما كان يجيد إلا الحديث عن الموائد والطعام ، فراح الرجال ينظر بعضهم إلى بعض وهم يتغامزون . ولما كان الحديث يجر بعضه بعضا ، إذا ببعضهم يروى ما كانت أمه تقدم له من الطعام الشهى وهى واقفة أمام الفرن يوم الخبيز . وحرك حديثه الذكريات فإذا بالرجال الثائرين لدستور ٢٣ قد عادوا أطفالا فى القرى أو فى البيوت العتيقة يروون ذكريات ما يخرج من الأفران من طيبات . وساء أحدهم أن ينحرف حديث الجهاد إلى حديث البطون فراح يتحدث فى انفعال عن الانتخابات وتزوير إرادة الشعب ، وسرعان ما عاد الجميع إلى مناقشة القضايا الوطنية .

وأقبل المساء وحان ميعاد عودة فورتنيه من عملها . لقد مضت أيام كنت أقاوم فيها ذاتى ، ففى مثل هذا الوقت من كل يوم كانت كل مشاعرى وعواطفى تحرضنى على الذهاب إلى محطة الترام لانتظارها ، ولكنى كنت أجاهد رغباتى . وقد نجحت فى قهر ضعفى فقد انقضى أسبوع دون أن أراها ، وكنت أرى من العقل أن أقطع كل صلة بها ولكن متى أطاع القلب صوت العقل ؟ إن قلبى تمرد فى تلك الليلة وساقنى سوقا إلى محطة ترام الظاهر .

وقفت على المحطة مسلوب الإرادة و لم أعد أشعر إلا أننى قد أمسيت قلبا يخفق فى جنون ، و لم أعد أملك أن أحقد على نفسى . ومر الوقت وإذا بفورتنيه تهبط من غرفة الحريم ، وما إن ترانى حتى تقول :

ـــ انت فين ؟ جمعة فاتت ما حدش شافك . تعالى معايا .. أبويا واخواتى وأمى عايزين يشوفوك .. يسألوا عليك .

وسرت إلى جوارها وأنا سعيد ، فما كنت أطمع فى أكثر من أن أكون بالقرب منها . وانسبنا فى شارع الخليج الضيق ، ثم عرجنا يمينا فى زقاق تكاد البيوت على جانبيه أن تتصافح . إنه شريان مظلم ليس به إلا مصباح واحد عند بدايته . والتصقت بى ، و لم تكتف بذلك بل لفت ذراعها حول وسطى . و لم أقو على أن أفعل مثلها ، فلو أننى على يقين من أنها مورد كثير الزحام إلا أننى كنت أعاملها على أنها شىء مقدس لا يمس .

ودلفنا إلى منزلهم الجديد . كان الظلام يلف كل شيء ، بير السلم كأنه قبر رطب . إنني لا أرى أين أضع قدمى ، ولولا أنها قادتنى لما تقدمت خطوة . وفى أثناء صعودنا فى الدرج قبلتنى أكثر من مرة ، لم تكن قبلات خاطفة بل كانت قبلات محمومة . وعند الطبقة الثالثة وقفت أمام الباب تصلح ثيابها ثم طرقته . ثم طرقته . وما إن انفرج وتقدمت إلى النور حتى ارتفعت صيحات ترحيب بى فتعثرت قدماى خجلا ، وجلست بالقرب من الشرفة فإذا بفورتنيه تستمر فى سيرها حتى تدخل الشرفة وتحيى جارا لهم .

وتفرست فى ذلك الجار وكانت شرفته تكاد أن تعانق شرفتها . إنه شاب قصير ممتلئ الجسم لا يملأ العين ، إنه ولا شك صديقها الجديد . وأحسست شيئا من الضيق لما حيانى بانحناءة من رأسه . ترى أهى تحية أم تحد ؟ وشردت أفكر فيما أعجبها في ذلك الشاب . ترى ما هو المقياس أو الوزن الذى تقيس به المرأة الرجل أو تزنه به ؟ ولم أهتد إلى جواب ، فلكى تحكم على تصرفات امرأة لا بد أن يكون لك عقل امرأة ، وإنه ولا شك عقل من معدن آخر غير معدن عقل الرجل .

ولم أستطع أن أمكث طويلا فقد استأذنت فى الانصراف واعدا بزيارة أخرى ؛ وما كدت أنساب فى الزقاق الضيق حتى كان الجار الجديد يشغل كل تفكيرى . ترى أيستطيع الصمود أم أنه سينقذ جلده ويفر كما فر من قبل محمود أبو شفاتير ، وخطيب ساقها سوء حظه فى طريقه .

٤٩

كانت الإجازة الصيفية طويلة فكنت أقضى فترة الصباح فى قراءة الكتب التى كنت أصفها تحت وسادتى ، فإذا ما تعبت من القراءة انطلقت إلى شارع سوق الجراية حيث دكان أبى ومخازنه . وقد كان كل تجار الشارع الضيق يرحبون بى فكنت إذا مررت على دكان العم إبراهيم أنظر إلى ابنه حسين الواقف خلف قدرة الفول فى إعجاب . إنه مصارع يجيد المصارعة ، وإن الصعايدة الذين يشترون منه علب

الورنيش لتلميع الأحذية يهابونه ، فصدور كلمة لا تعجبه من أحدهم كانت كافية لأن يقفز من فوق الحاجز الذى يفصل بينه وبين الزبائن وأن يدحرج ذلك البذىء على أرض الشارع كما يدحرج طفل كرته . وطالما رأيت رجالا يتدحرجون تحت قدميه فإذا ما قدر لأحدهم أن يقف على رجليه أطلق ساقيه للريح .

وكان حسين على الرغم من شراسته الظاهرة طيب القلب ما أسرع أن تأسره كلمة حلوة ، جاءه أخى أحمد وقال له :

— يخلصك يا سحس يبقى فى البيت اللى قدامنا بيت سرى ؟

فقال حسين فى بساطة :

— سيب الموضوع ده علىّ .

وفى سكون الليل جاء حسين ومعه بعض الرجال يحملون العصى فى أيديهم وطرقوا باب الشقة التى كانت تدار للدعارة فى البيت المواجه لبيتنا . وما إن فتح الباب حتى انهال حسين ضربا على كل من كانوا فيه ، وفى الفجر كانت العربات الكارو تحمل أثاث الشقة المتواضع ، وما إن طلعت الشمس حتى كانت الشقة خالية من كل سوء .

وذهبنا وشكرنا حسين ، وتلقى الشكر فى خفر العذارى .

وكانت الشائعات قد وصلت إلى آذاننا أن فؤاد الشامى قد كون عصابة فى البكرية ، عصابة تبتز الأموال من الراقصات ، وأن فؤاد يستغل طيبة حسين وشهامته فى تحقيق بعض أغراضه . ولم أصدق تلك الشائعات فأنا أكثر الناس معرفة بفؤاد ؛ إنه يروى مغامرات قام بها لم يكن مسرحها إلا خياله الخصب ، ترى هل انتقلت المغامرات حقا من مسرح الخيال إلى مسرح الحياة ؟

وخطر لى أن أسأل حسين عما يقول الناس ، ولكن لم أجد فى نفسى الشجاعة أن أحدثه فى مثل ذلك الموضوع الذى لا ناقة لى فيه ولا جمل .

وذهبت إلى دكان محمود النشاشقى وكانت أمام دكان أبى ، وكان له شرف يرتفع عن الأرض بمقدار ارتفاع كرسى ، فكان كل من يريد أن يستريح يجلس على ذلك الشرف ويأخذ فى الحديث مع محمود الذى كان — مبالغة فى الإكرام — يقدم له تنشيقة .

وجلست أحادث محمود وعمه أحمد أفندى مدرس الإلزامى ، وكان حديثى مع العم يدور حول مباريات الكرة فقد كان الرجل يحب مشاهدة المباريات القوية . ولولا أنه فى كل مرة يشاهد فيها مباراة يطلب من زوجته ثمن تذكرة الدخول — فقد كان يعطيها فى أول كل شهر مرتبه — لكان من رواد الملاعب الدائمين .

كان الحديث ممتعا وما كان يعكره إلا الحكايات الجنسية المكشوفة التى كان يرويها محمود ثم يقهقه قهقهة عالية تخرق أذنى العم أحمد عثمان الجزار ، وكان دكانه ملاصقا لدكان النشوق ، فكان ينظر إلى وفى يده السكين ويقول :

— إيه اللى قعدك مع الواد النجس ده ؟!

فكان محمود يندفع إلى العم أحمد عثمان محاولا أن يداعبه فى مواضع حساسة من جسمه ، فلما يرى أن العم أحمد قد حرك سكينه يفر إلى وسط الطريق وهو يقهقه فى طلاقة كأن ليس فى الدنيا هموم .

وكنت أذهب إلى العم أحمد وأقول له :

— عندى لعب كورة الساعة تلاته ، عايز أتغدى بدرى النهار ده .

فكان العم أحمد يقطع رطل لحم من أجود قطعة من الخروف المعلق أمامه ، ويأمر صبيه بأن يشترى بصلا ورغيفا ، فكان يقطع اللحم والبصل ويضعه فى الرغيف ثم يلفه بورقة لحم ويبعث باللفافة مع صبيه إلى الفرن وكنت أنتظر الطعام متحلب الفم .

كان غداء طيبا دسما ، وكنت عقب كل مباراة أعود إلى العم أحمد عثمان لأطمئنه أن الفضل فى الأهداف التى أصبتها إنما يعود إلى ما يعده لى من طعام . وما خطر لى على بال أنى سأدفع فى مستقبل حياتى ثمن ذلك الطعام الدسم اللذيذ ، فما كنت قد تعلمت بعد أن لكل فعل رد فعل مساو له ومضاد له فى الاتجاه .

وكان أمتع اللحظات فى شارع سوق الجراية تلك الساعات التى تصف فيها العربات التى تحمل براميل الزيت أمام مخازننا . كان الرجال يضعون عرقين من الخشب فى نهايتهما خطافان بين العربة والأرض ، ثم يأخذون فى دحرجة البراميل فى حرص شديد لإنزالها من فوق العربة إلى أرض الشارع ، فما كانت الونشات الخفيفة قد عرفت بعد . وكان كل رجل من الرجال يصدر تعاليمه وإرشاداته ، فكانت الأصوات

تتداخل والأوامر تتعارض والبراميل تترنح وبعض ذوى النخوة من العابرين يخف للمساعدة ، لكأنما كان إنزال برميل من فوق العربة إلى الأرض أمرا خطيرا تتضافر له العقول والسواعد القوية المفتولة !

وكنت أمضى معظم أوقات الفراغ فى الصيف أمام مكتب صغير إلى جوار مكتب سى عبد المجيد كاتب حسابات المحل . وكان ذلك المكتب لأبى أو لأخى أو لمن يزورنا من التجار اليهود أو السماسرة من يهود ووطنيين ، وكانت الخزانة الحديدية خلف ذلك المكتب ، وقد أغرت تلك الخزانة اللصوص بنقب سقف المحل وسرقته أكثر من مرة .

كانت السرقات تتنوع فى حى باب الشعرية وقد بلغت إحداها درجة التدبير المحكم . أراد بعض اللصوص أن يكسروا خزانة محل مشهور ، وخشية من أن تتسرب أصوات الكسر إلى المارة أقاموا فرحا وهميا وسارت زفة العريس فى الشوارع حتى إذا



ما وصلت إلى المحل المنشود وقفت تعزف أمامه « سلام للجدعان » بينما كان اللصوص يحطمون الخزانة فى الداخل . ولم تستأنف الزفة سيرها إلا بعد أن استولى اللصوص على كل ما فى الخزانة .

لم يكن محلنا فى حاجة إلى تدبير لسرقته ، إنه إلى جوار مسجد قلما يؤمه الناس ، وإن من الميسور أن ينتقل من يريد من سطح المسجد إلى سطح دكاننا ، وكانت هناك فتحة فى سقف الدكان للإنارة والتهوية قد حصنت ببعض أسياخ الحديد وما كان أيسر إزاحتها والتدلى منها بحبل إلى الدكان ، وكانت عمليات السطو التى تعرض لها المحل أقرب إلى الخطف منها إلى السرقة .

كان سى عبد المجيد رجلا مخلصا راض نفسه على القناعة ، لا يمد عينيه إلى ما متع الله به غيره . وكان أجمل ما فيه أنه يفرح للخير الذى يناله غيره أكثر من فرحه لنفسه لو نال ذلك الخير . إنه طراز فريد بين الناس ، وإن طول عشرته لأبى جعلته يواظب على الصلوات فى مواعيدها ، فما أكثر ما كنت أراه وقد طوى أكمام قميصه وأطراف بنطلونه ودس رجليه فى القبقاب وذهب ليتوضأ والقلم الرصاص خلف أذنه .

وكان يختلس بعض الوقت بعد صلاة الظهر ليقرأ فى المصحف ، وكانت بشائر الرضا تلوح فى وجهه . إنه يحس جمال القرآن فى أعماقه ، ولكن بعض معانيه كانت تغيب عنه ، فدراسته كانت تجعله يفسر آيات القرآن تفسيرا خاطئا ، قال لى ذات يوم وهو فى نشوته :

ـــ تصور ، بعض اللى ح يدخلهم ربنا جهنم ح يتغزلوا فيها .

ثم راح يتلو وهو يهز رأسه إعجابا وتعجبا : « ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما » .

وكان سى عبد المجيد لا يحفل بالطعام كثيرا ، كان إذا حان وقت الغداء يغرينى على أن نفتح علبة سردين ، فإذا ما طاوعته قام وفتح علبة وجاء بصفحة بها زيتون وطماطم ووضع الزيتون ورش الزيت وعصر الليمون ، وجاء بخبز ساخن ثم جلسنا نأكل فى شهوة .

وكان يحب البصارة ، فإذا ما حدث أن كان عندنا بصارة بعثنا إليه بها فكان يقبل

عليها بشهية مفتوحة ، حتى إذا ما أتى عليها راح يتحدث عنها حديث مفتون ، وكان ذلك يثير دهشتى فقد كنت أفر من البيت يوم أحس أننا سنأكلها إلى محل الحاج صبحى بجوار سينما أوليمبيا وكان من أشهر محال الأطعمة ، وكنت أتلمس أسباب الغضب من طعام البيت لأفر إليه .

٥٠

كان ألذ ما يدخل أذنى جدتى أم عبد الغنى من كلام حديث الزواج ، وكان أكثر ما يدخل البهجة على قلبها أن توفق رأسين فى الحلال ، فما كان لها من حديث إذا ما جاء إليها نساء البيت فى الليل عندما يجتمع الرجال فى السلاملك إلا تزويج فلان من فلانة ، وقد يكون فلان هذا لم ير نور الحياة إلا منذ أسبوع . وما كانت تكتفى بأحاديث الليل لتزجية الوقت ، بل كانت إذا ما جاءتها أم إحدى الفتيات بالنهار قالت لها إنها قد زوجت بنتها من فلان .

وما كانت تكتفى بتزويج حفدتها ، فما إن ترى فتاة قد أشرفت على سن الزواج — وكان سن الزواج عندها أن ينبت صدر الفتاة — حتى تبحث لها عن زوج ، كأنما كان أمر زواج كل من وقعت عليها عيناها قد وكل إليها . وما كانت تتذوق طعم الراحة إلا إذا وجدت لكل فتاة ضالتها ، ومن عجب أنها كثيرا ما كانت توفق .

اجتمع النسوة عندها فى الليل ودار الحديث حول ابن عمى بدر ، إنه خطب ابنة خاله وما كانت ابنة خاله من أسرتنا ، لذلك لم تكن النسوة متعاطفات مع ذلك الرباط المقدس . قالت جدتى لتبرر خروجه عن الخط الذى رسمته فى ذهنها لحفدتها ، ذلك الخط الذى يقود إلى زواج أبناء العم من بنات العم أو أبناء الخال من بنات العمة ، الخط الذى يؤكد أن جحا أولى بلحم ثوره :

— بيحبها .

وكأنما قد فتحت باب المداولة فقالت إحداهن :

— ح يخرب الدكان عليها ، كل اللى بتطلبه بيجيبولها .

ــ خد من الصايغ غواشات عشان يفرجها عليهم اتسرقوا منه فى الأوتوبيس .
ــ أبوه دفع تمنهم .
ــ إشمعنى اليومين دول بقى يتسرق كتير ؟!
ــ عشان أبوه يدفع .
ــ وأبوه ح يفضل يدفع لامتى ؟
ــ ما هو ما دفعلوش البدلية ، خرج م الجهادية عشان عينه الشمال عليها نقطة .
وقالت جدتى لتنقذ لحم حفيدها الذى كان النسوة ينهشنه دون رحمة :
ــ كفاية بقى .. الكلام ده حرام . ما يعلم الغيب إلا صاحب الغيب .
وساد الصمت برهة، ولكن حديث الزواج كان قد شغل كل العقول فقالت إحداهن:
ــ هم أحمد وسعيد ح يجوزوا إمتى ؟

كانت جدتى قد وعدت كل زوجات أبنائها اللاتى عندهن فتيات فى سن الزواج بأحد أخوى ، وما من فتاة من حفدتها أو من أبناء أو بنات حفدتها إلا وقد عرضتها عليهن . وانتهى الأمر بأن خطب أحمد ابنة خاله عبد الحميد ، وخطب سعيد ابنة عمته أخت زوجة أخيه محمد ، وقد وضع ذلك جدتى فى مركز حرج ، وإن أى زواج لهما كان لا بد أن يضعها فى نفس المركز ، فما كان زواجهما من أى فتاتين من فتيات الأسرة ليفى بالوعود الكثيرة التى قطعتها لكل الأمهات !

وقالت أمى :
ــ ح نستنى لما يخلص سعيد الجامعة .
ولم يعجب ذلك جدتى فقالت :
ــ الشقق جاهزة والعفش كمل ، ح يستنوا إيه ؟ هم مش ح يلاقوا ياكلوا .

كانت جدتى تأخذ الحياة فى بساطة ، ولا غرو فالحياة سهلة ميسورة ، فبضعة جنيهات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة كافية لفتح بيت . وأبى الذى قام بتعلية بيتنا ووفر لهما المسكن قادر على أن يوفر لهما المأكل ، وما كانت الحياة عند جدتى لتزيد على مأكل ومسكن وزواج .

كانت جدتى لا تغادر البيت ، وإن قدر لها أن تخرج لزيارة ضريح من أضرحة

الأولياء فهذا منتهى الترف . إنها لم تذهب إلى سينما أو مسرح طوال حياتها ، فهى تؤمن أن ذلك رجس من عمل الشيطان ، وإن كانت فى بعض الأوقات تصغى فى نشوة إلى الأغانى المنبعثة من الراديو .

وذاع فى كل بيوت الأسرة نبأ خطبة أحمد وسعيد ، وسادت موجة استياء فى دور اللاتى وعدتهن جدتى بهما . وأرادت جدتى أن تطيب خاطرهن فلم تجد أمامها غيرى ، فكانت كلما قابلت زوجات أبنائها أو زوجات حفدتها ممن أنجبن فتيات — سواء أأشرفن على الزواج أم كن صغيرات — تعدهن بى ، كأنما كنت قطعة شطرنج فى يدها تحركها كما تشاء دون أن تراعى قواعد اللعبة .

وبين مساء وصباح أصبحت أضحوكة فى فم الأمهات ، وصرت أسمع عبارات التهكم دون ذنب جنيته ، صار من المعتاد أن أسمع من تقول :

— هو اللى فاضل ! ناخد جوز ام عباس الندابة .

— ما لقتلناش غير الصايع الضايع ده .

وفى ذات يوم رأيت طفلة ممن خطبتها لى جدتى تتعثر فى غائطها فاستولى على اشمئزاز ، وقد صرت أشعر بغثيان كلما رأيتها حتى بعد أن صارت شابة يشتهيها الرجال ، بل وبعد أن أمست عجوزا تتعثر خطاها ، إننى ما جنيت عليها ولكنها جناية الخطبة المبكرة التى لم يكن لها مكان .

وخرجت فى الظهيرة لأذهب إلى سينما الكلوب المصرى بالحسين وكانت الشمس حامية ، لذلك اخترت أن أسير فى الشوارع الضيقة فرارا من لسع الشمس ، فانسبت فى شارع البنهاوى ، وقبل أن أعرج إلى باب الفتوح وقفت أحادث بدرا ابن عمى وكان جالسا أمام دكانه . لم يعد ذلك التلميذ الذى ينفخ فى البورى فى مدرسة الإيرانية بل صار شابا أبيض البشرة متورد الخدين ممتلىء الجسم يتحدث فى مرح وطلاقة . إنه سيتزوج يوم الخميس القادم ، ليلة الجمعة ، وجعلت أتفرس فى وجهه كأنما كنت أريد أن أكتشف ما إذا كانت الأساور قد سرقت منه حقا أم أنه باعها ليستعين بثمنها على إتمام زواجه ، فإذا بكل خلجة من خوالجه تفصح عن حقيقة ما حدث ، لقد باعها . وانصرفت من عنده وقد قفزت صورة فورتنيه لتحتل تفكيرى ، وراح خاطر يتردد

بين جوانحى :

ـــ ليه كل شيء يهون فى سبيل الحب ؟!

٥١

نجحت الصحافة الوفدية فى أن تملأ قلوب الشعب كراهية لحكم صدقى باشا ، وزاد الأمر سوءا أن أصدقاءه الأحرار الدستوريين رفضوا أن يدخلوا وزارته ، و لم يكتفوا بذلك بل كانوا يهاجمون صدقى لاعتدائه على دستور ١٩٢٣ ، دستور الأمة . وعندما أعلن صدقى باشا عن مشروع كورنيش الإسكندرية هبت الصحافة الحزبية تهاجم المشروع دون رحمة ، و لم تكتف بذلك بل بذلت جهودا مضنية لتلويث طهارة الرجل ونظافة يده . ولا أدعى أننى فكرت فى ذلك اليوم المضنى الذى غاصت فيه أقدامى فى الرمال عندما توجهت أنا وأخواى محمد وسعيد وصديق أبى إلى سيدى بشر ، أو أن خيالى استطاع أن يتصور جمال الإسكندرية بعد الكورنيش ، ولكننى سرت مع القطيع أردد كالببغاء ما تزعمه الصحافة وما تفتريه على الخصوم .

وبدأت الدراسة فى المدارس فإذا بالمظاهرات تخرج إلى الشوارع بقيادة الطلبة الوفديين تهتف بسقوط صدقى وبحياة دستور ٢٣ . واندست شراذم من الغوغاء فى المظاهرات فحطمت فوانيس النور فى الشوارع وقلبت بعض عربات الترام وأشاعت الفوضى فى القاهرة ، فكان صدام بين الشرطة والمتظاهرين ، وكانت مقالات نارية فياضة تتهم صدقى بالدكتاتورية وكبت الحريات ، وفاضت الصحف بأنباء المظاهرات فى القاهرة وفى الإسكندرية وفى المدارس والمعاهد فى كل مكان .

وحاصر البوليس المدارس وتسلح رجاله بالخوذات والهراوات ، فوقفنا فى فناء مدرسة فؤاد الأول الثانوية نهتف بسقوط دستور صدقى وبسقوط الطاغية والطغيان ، و لم يهتف أحد بسقوط الاستعمار والمستعمرين ، فالإنجليز كانوا ناعمى البال بالخلاف الذى دب بين أحزاب الأمة ، ينظرون فى ابتهاج إلى أبناء الأمة الواحدة الذين يقتتلون تحت نوافذ ثكنات قصر النيل ، حصن الاستعمار .

وجاء طالب يسعى يتهمنا بالجبن والخور ، فطلبة الصنائع قد سلطوا خراطيم الماء على الجنود ، وراح يحرضنا على أن نقتحم الحصار وأن يكون ما يكون . وتقدم فى تهور وإذا بنا نندفع خلفه ونحن نزمجر فى غضب ونحاول أن نخترق فى تحد صفوف العسكر ، فإذا بالهراوات تنهال علينا ، وإذا بمعركة تنشب بيننا وبين الجنود تنتهى بأن نتقهقر لنتحصن فى فناء المدرسة ونحن نهتف بأصوات كالرعد بسقوط صدقى ودستور صدقى .

وصعد بعض طلبة فى ثورة الغضب إلى الفصول وأخذوا يلقون بالتخت من النوافذ ، وهجم آخرون على قاعة الطعام يحطمون الصينى وكل ما تصل إليه أيديهم ، وراح ناظر المدرسة والمدرسون يجرون هنا وهناك محاولين وقف أعمال التخريب ؛ ولكن الطلبة كانوا يتلفون كل شىء ، فقد كانوا يحسبون أن ما يفسدون هو من ممتلكات الدولة وأن الخسائر سترهقها ، وما خطر لهم على قلب أن أهلهم سيتحملون إصلاح ما أتلفوا فى صورة ضرائب جديدة توضع على كواهلهم .

وتحت ضغط الحكومة وتهديداتها انتظمت الدراسة فى المدارس وعاد الهدوء إلى عنابر السكة الحديد بعد أن حاصر العمال حكمدار بوليس السكة الحديد وصوبوا إلى الجند خراطيم المياه الساخنة ، فكان أن عدنا إلى فناء المدرسة لنلعب الكرة .

كنت واثقا أننى سألعب للفريق الأول للمدرسة ، فرئيس الفريق الذى كان يشغل نفس المركز الذى أشغله قد انتقل من مدرستنا إلى المدرسة الخديوية ، ولكن فى أثناء تدريباتنا كانت مفاجأة تنتظرنى ، فقد جاء رفاقى بطالب يجيد إصابة الهدف إذا ما ثبتت الكرة فى أى مكان من الملعب ، كانت الكرة تنطلق من قدمه إلى المرمى كأنها قذيفة تعرف أين تستقر .

لماذا يحاربنى زملائى ؟ لست أدرى . لعل فكرة محاربتهم لى وهم من أوهامى . إنهم يريدون مصلحة الفريق ومصلحة الفريق فوق كل مصلحة . وتقاصرت نفسى ، وخرج فريق المدرسة إلى أرض مولد النبى وكانت مكان كلية هندسة عين شمس الآن عند نهاية ترام عبده باشا ، وخرجت وقد ارتديت ملابس الكرة فقد كنت احتياطيا .

كانت مباراة حبية بين مدرستنا ومدرسة البوليس ، وأطلقت صفارة الحكم وخفق

قلبى فى شدة ، وتركزت عيناى على منافسى ، وفطنت إلى أنه لا يجيد إلا توجيه الكرة إلى المرمى إذا ما ثبتت على الأرض ، ولكن من ذا الذى سيثبتها له فى أثناء المباراة ؟! وانتهى الشوط الأول دون أن يلمس الشاب الكرة ، فقد كان يلعب قلب هجوم ولكنه لم يهاجم و لم يدافع . وطلب منى المدرس المشرف على الفريق أن ألعب الشوط الثانى ، فما إن أطلقت صفارة الحكم حتى كنت أعدو هنا وهناك متحكما فى الكرة ، وكما كنت أرى فى الأفلام السينمائية عندما ينزل اللاعب الاحتياطى ليحقق لفريقه النصر فقد سجلت لفريقى الهدف الأول ، وسرعان ما عززته بالهدف الثانى . وانتهت المباراة و لم يحملنى أحد على الأعناق كما يفعل الجمهور فى أفلام السينما ، بل إن بعض أعضاء الفريق قابل إحرازى الهدفين بفتور قاتل ، كأنما كنت سببا مباشرا لهزيمتهم .

ولقنت الدرس الأول فى حياتى ، فليست العبرة بكفاءتك أو قدرتك أو استحقاقك فالأهم من كل ذلك أن تكون من الشلة ، فحطمت غرورى وانضممت إلى فريقهم الخاص ، فإذا بهم جميعا يصبحون أصدقاء يستشيروننى فى أمورهم ويمضون إجازاتهم فى السلاملك .

وانتشرت فى البلاد دعوة مقاطعة البضائع الأجنبية ، ولما كان معظم ما نستورده من بضائع من إنجلترا فقد كان المقصود مقاطعة البضائع الإنجليزية ، فخلعنا ما كنا نرتدى من أصواف وجعلناه كوما فى وسط فناء المدرسة وأشعلنا فيه النار ، وخلعنا الكرافتات ولبسنا عوضا عنها المناديل المحلاوى .

وفى ذات يوم بعد الغداء دخلنا الفصل ، وجاء مدرس الطبيعة يسأل عن الواجب فأخبرته أننى أديته إلا أننى نسيت الكراس فى البيت ، فصدقنى الرجل فقد أصبحت من الطلبة المجتهدين بعد أن ضيعت ثلاث سنوات من عمرى فى الابتدائى انتظارا للموت الذى أعرض عنى ونأى .

ودخل وكيل المدرسة وشكا إليه المدرس أن الطلبة لم يؤدوا الواجب ، فالتفت إلينا الوكيل وقال :

ــ اللى ما عملش الواجب يقف .

فوقفت مع الواقفين فأشار إلى المدرس أن أجلس . ولكن كيف أجلس وكراسة

الواجب ليست معى ، إن مثلى مثل الذين أهملوا فى تأدية واجبهم وقد تعودت ألا أتهرب من أخطائى .

والتفت إلىّ وكيل المدرسة وقال :

ـــ انت يا اللى عامل وطنى ولابس لى منديل محلاوى ، تعال هنا .

ولم تعجبنى سخريته فخرجت إليه متذمرا وسرت إليه فى استخفاف ، فإذا به يقبض على المنديل المحلاوى فى عنف ثم يبسط يده فيرتطم كفه بخدى ، لم تكن لطمة قوية ، ولكن دمائى ثارت فى عروقى . لم يضربنى أحد قط غير أمى فلم يكن لأحد حق ضربى إلا هى ، فهممت بأن أمسك الرجل من وسطه لولا نظرات الزجر التى وجهها إلى مدرسى .

وأشار الوكيل إلى الطلبة الواقفين أن تعالوا فخرجوا من مقاعدهم ، وأمرنا أن نخرج من الفصل ، فلما فعلنا خرج فى أثرنا وبدأ يوجه إلينا السؤال :

ـــ أبوك مين يا افندى ؟

ـــ المرحوم اللواء فلان .

ووجه نفس السؤال إلى طالب آخر فكان والده لواء آخر .

فقد كان معظم طلبة فؤاد الأول من أولاد الضباط ، وسألنى :

ـــ أبوك بيشتغل إيه ؟

ـــ تاجر .

فقال الوكيل فى ثورة :

ـــ لما أهاليكم فقرا ومش لاقيين يأكلوكم ، ما بتعملوش واجباتكم ليه ؟

وفى اليوم التالى كانت عندنا مباراة فى أرض الجزيرة ، فقال لى المدرس المشرف على الكرة :

ـــ الوكيل عايز يتفرج على الماتش ده ، خده معاك .

وسرت إلى جوار الوكيل حتى باب المدرسة حيث كانت سيارة أبى تنتظرنى ، كانت سيارة صغيرة طراز رينو وما كان ثمنها يزيد على مائتين وخمسين جنيها ، وقد أبى والدى أن يشتريها بالتقسيط حتى لا يتحمل وزر التعامل بالربا ، وكانت تنتظرنى

عقب انتهاء الدراسة لتحملنى أنا وزميل الدراسة صلاح قنصوه إلى بيتنا لنعكف على الاستذكار .

فتح السائق باب السيارة فدخل الوكيل ثم دخلت خلفه ، وما كدنا نستقر فى مقاعدنا حتى التفت إلىّ الوكيل وقال :

ــ مش تقول إنك ابن ناس طيبين كده !

٥٢

كان امتحان الكفاءة على الأبواب فكنت أستذكر دروسى مع زميل الدراسة من بعد العشاء حتى منتصف الليل . كان الحر خانقا وكنت أعجب لعقول المربين الذين يصرون على أن تكون امتحانات الشهادات فى القيظ القاتل ، ترى هل تتبدل هذه العقول يوما ؟!

وحان الامتحان فدخلنا إلى سرادق عظيم تؤدى فيه اختبارات تؤهلنا لأن نحصل على الشهادة التالية للشهادة الابتدائية ، وكنت عقب كل يوم أخرج مسرورا على الرغم من العرق الذى كان يتصبب من كل جسمى ، فقد كنت راضيا عما أكتب فى كل مادة أديت امتحانها .

وسرى همس بين الطلبة أنهم كانوا على علم بالأسئلة قبل أن توزع عليهم ، ولم أصدق زعمهم فمن أين تتسرب الأسئلة ودون ذلك صعوبات تجعل معرفتها ضربا من المستحيل . وفى الليل جاء إلى صديق وأخبرنى بالنظرية الهندسية التى سأسأل فى الغد عن إثباتها ، ولم يكتف بذلك بل أعطانى قصاصة ورق بها تمرين هندسى سيطلب منى حله . وكم كانت دهشتى عندما قرأت ورقة امتحان الهندسة فكانت تحتوى على نفس النظرية ونفس التمرين . وعلى قدر فرحى كان استيائى فما أكثر الذين سينجحون بالغش والتدليس .

وخرجت من السرادق وأنا أتوقع أن أحصل على الثمرة النهائية فى الهندسة ، وإذا بشائعة تنطلق كالقذيفة بين الطلبة : لقد ألغى امتحانا الكفاءة والبكالوريا ، لأنه ثبت

أن الأسئلة قد تسربت قبل الامتحان ، وأن الصحافة المعارضة للحكومة شنت هجوما قاسيا على الوزارة واتهمتها بالتفريط فى كل شىء ، وأشاعت الفوضى والفساد .

وتأجل الامتحان وعدنا نستأنف الاستذكار فى فتور وعلى مضض ، حتى إذا وافى الموعد الجديد ذهبنا إلى مقر اللجنة ونحن نشفق على أنفسنا من الحر الشديد ومن أن تتسرب الأسئلة وأن يعاد الامتحان مرة ثالثة . وانتهت أيام الامتحان بخيرها وشرها وأقبلنا مستبشرين على الإجازة الصيفية ؛ إنها إجازة طويلة نقضيها فى سلاملك الدار صباحا نقرأ بعض الروايات ونخوض فى مناقشات فى السياسة والفن ، وبعد الظهر نذهب إلى ملاعب الكرة أو السينما ، وبعد العشاء نعود إلى السلاملك لنشاطر أبى وأصحابه سمرهم ونصغى إلى تعليقاتهم عن الحياة الجارية وإلى المقارنات التى يعقدونها بين اليوم والأمس .

كنت أعتقد أننى بلغت السن التى ينبغى لى فيها أن يكون لى لون سياسى وفلسفة فى الحياة ؛ كان جل رواد السلاملك من الوفديين المتحمسين وكانوا يعتنقون كل الآراء التى يبذل كتاب الوفد كل الجهود لتثبيتها فى ضمائر الجماهير ، فصار الوفد عقيدة يذودون عنها فى تعصب مقيت ، فما كان فى البلاد من وطنيين شرفاء غير الوفديين . إن إسماعيل صدقى باشا قد أنشأ كورنيش الإسكندرية ، وأسس بنك التسليف الزراعى ، وقام بأعمال يمكن أن تذكر له ؛ ولكن كتاب الوفد أمكنهم بما أوتوا من قوة الجدل والبيان أن يلطخوا وجه كل ما قام به أو يقوم به رجال غير وفديين .

كان قد انتشر بين الناس قول يزعم أن الاحتلال على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى ، و لم يستطع عقلى أن يهضم ذلك القول ، لذلك قررت ألا أنضم إلى الجماهير إلا فيما يقبله عقلى ، ألا أكون أحد خراف القطيع ؛ فعزمت على أن أعيش طليقا من قيود الحزبية ، وأن أؤيد كل عمل يستهدف مصلحة بلادى .

وتلفت حولى أبحث عن منفذ للطاقة المذخورة فى كيانى فوجدت أن الماسونية هى أشهر التنظيمات فى ذلك الوقت ، فرحت أحاول أن أعرف شيئا عنها ، ولكن جميع محاولاتى باءت بالإخفاق . قيل لى إن من يفشى أسرار الماسونية من أعضائها يقتل ، وأن لهم إشارات وإيماءات لا يفهمها غير الماسونى ، فإذا التقى أحدهم بآخر يسر له

أعماله حتى لو تعارضت مع مصلحة الجهة التى يعمل بها .

ورحت أستعرض عظماء الماسونيين فوجدت بينهم كبار الشخصيات المصرية واليهودية ، وسألت عما يجمع بينهم فقيل لى : الخير العام . ولم تكن الصهيونية قد لفتت أنظار المصريين بعد فلم يخطر لى على بال أنها فرع من ذلك التنظيم الخطير الذى يستهدف استيلاء اليهود على مقدرات العالم .

وأعرضت عن الماسونية فكيف لى أن أنخرط فى تنظيم سرى يقتل من يبوح بأسراره للناس ؟! وكان فى حينا المركز الرئيسى للبهائية وكانوا يجتمعون تحت بصرنا وسمعنا اجتماعات دورية كل أسبوع ، وفيهم من كان ناظرا لمدرستى الابتدائية وكثير من الإيرانيين الذين يقطنون المنازل المجاورة لنا ، بل إن أغلبهم من أصدقائنا توطدت الصداقة بينهم وبيننا بحكم الجيرة .

كان بعض رفاق الحى من أبناء البهائيين فسألتهم عن البهائية أهى فرقة من فرق الشيعة أم دين جديد ، فلم أحظ من أصدقاء طفولتى برد شاف ، تكلموا عن البهاء وعن نشأته وعن عباس ابنه وكيف سار فى دعوته بعد أبيه . ولكن ما هى الدعوة ؟ قالوا إنها دعوة إلى مكارم الأخلاق فما من دين إلا ويدعو إلى مكارم الأخلاق ، إذن هى دين ! قالوا نعم . وسألت أهناك دين جديد بعد الإسلام ؟ وتحدثوا حديثا طويلا عن تفسير معنى أن محمدا ﷺ خاتم الأنبياء حديثا سمعوه عن آبائهم ولا شك ، ولم يستطع حديثهم أن يقنعنى بشىء ، فذهبت إلى ذلك الشاب الذى كان يعمل نجارا ويهوى القراءة والجدل وقد تحول أخيرا إلى ميكانيكى وكان يحضر كل اجتماعاتهم ويشترك فى مناقشاتهم وسألته عن البهائية فإذا به يقول لى إذا دخلت فيها زوجوك فتاة جميلة من فتياتهم .

ولم أجد فائدة فى محاورته فلن أخرج منه بشىء مفيد ، إلا أن حديث الزواج داعب خيالى ، فلما جاء موعد اجتماعهم الأسبوعى أسرعت أجوس بينهم أتفرس فى وجوه فتياتهم . كن ذوات أعين نجلاء عسلية وشعر سبط أسود . كن جميلات حقا ، ولكن أيعتنق الإنسان دينا من أجل عينين واسعتين آسرتين وشعر أسود كالحرير ؟!

أكانت إحداهن القادمة من إيران وحى قصتى « وكان مساء » ؟ ربما . أيختزن

العقل صورة فتاة عابرة فى حياتى أكثر من ثلاثين عاما ، فإذا ما فكرت فى كتابة قصة أمدنى بصورة البطلة ونسج حولها من التفاصيل ما جعل كل النقاد يؤكدون أن ما يقرءون هو تجربة شخصية مارستها فى الباكستان ؟ إن هذا هو ما حدث ، وإن لم أفطن له يوم أن كتبت القصة فى جدة .

وكان حديث أصدقاء أبى فى السلاملك لا يخرج فى ذلك الوقت عن مقارنات تعقد بين الطرق الصوفية ، وقد وصلوا بعد حوار طويل إلى أن الطريقة الدمرداشية هى أفضل تلك الطرق ، وكان مقر تلك الطريقة فى جامع المحمدى خلف الأرض الفضاء التى تطل على شارع الملكة نازلى بالقرب من ميدان العباسية ، والتى كانت مسرحا للحواة وميدانا فسيحا لهواة الحمير الذين كانوا يتبخترون هناك على ظهور حميرهم المطهمة عصر يوم الخميس من كل أسبوع .

وقال قائل :

ــ ناخد عهد على السادة الدمرداشية .

وما مر على ذلك القول سوى بضعة أيام حتى جاء أخى محمد وسى عبد المجيد وبعض رواد السلاملك ليقولوا إنهم أخذوا العهد وأصبحوا من أتباع الدمرداشية ، وراحوا يصفون مراسيم أخذ العهد وأنا أصغى فى دهش لما اعتراهم من حماس وهم يتحدثون فى فرح فياض عن النعمة الكبرى التى حلت بهم .

وقيل فى السلاملك إن سى عبد المجيد دخل الخلوة ، فلما قال أبى إنه ذاهب إلى جامع المحمدى عزمت على أن أذهب معه لأرى ما فاض الحديث عنه . كنا ذاهبين لصلاة العشاء فتوضأت وركبت السيارة مع الراكبين وانطلقنا إلى حى عرب المحمدى . وما إن اقتربنا من الجامع حتى وصلت إلى مسامعنا أصوات العاكفين فى المسجد يذكرون الله بأصوات منغمة عالية ، فإذا بكل من فى السيارة يطأطئون رءوسهم فى خشوع ، ولكننى أحسست بعدم ارتياح ، فقد سمعت المقرئ يتلو : « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفية » فوقر فى ضميرى أن ما يفعلونه ليس من الدين . ودلفنا إلى الجامع فكان أول ما فعله أبى أن سأل عن خلوة سى عبد المجيد فقادنا رجل إلى خلوته ، وكانت غرفة صغيرة ليس بها أى نوع من الأثاث ، وإلى جوارها غرفات مثلها لها أبواب من

الخشب مرفوعة عن الأرض حتى يمكن إدخال الطعام والشراب من تحتها . يدخلها المتعبد ويغلق الباب خلفه فلا يفتح إلا بعد سبعة أيام ، فالمتعبد قد نذر للرحمن صوما طوال تلك المدة ، لا يكلم خلالها إنسيا بل يكتفى بالتسبيح وذكر الله .

ونادينا على سى عبد المجيد بعد أن تأكدنا أنه قد أفطر لما أذن المؤذن بصلاة المغرب ولكنه لم يرد على ندائنا ، فلو رد علينا لقطع تعبده وكان عليه أن يخرج من خلوته .

ورحت أفكر فيما يفعلون ، فالرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يتحنث فى غار حراء فى شهر رمضان ، ومريم عليها السلام نذرت للرحمن صوما ولم تكلم فى ذلك اليوم الذى نذرت أن تصوم فيه إنسيا ، فلعلهم أخذوا من ذلك فكرة الخلوة ؛ ولكن الله فى كتابه يأمر الناس إذا ما قضيت الصلاة أن ينتشروا فى الأرض وأن يبتغوا من فضل الله .

كان أبى يذهب كل يوم جمعة إلى الإمام الشافعى وكثيرا ما كنت أرافقه ، وكنا نجلس من بعد صلاة العصر إلى صلاة العشاء نصغى إلى القراء وهم يرتلون القرآن فكنت أنشرح إلى ما يقرءون ؛ أحكام بسيطة بلا تعقيدات ، وأوامر لو اتبعت لكان فيها خير الدنيا والآخرة ، فوطدت النفس على أن يكون القرآن إمامى وأن أتبع سنة الرسول بلا اعتناق مذاهب أو الانتماء إلى فرق ، فالحلال بين والحرام بين والدين يسر .

٥٣

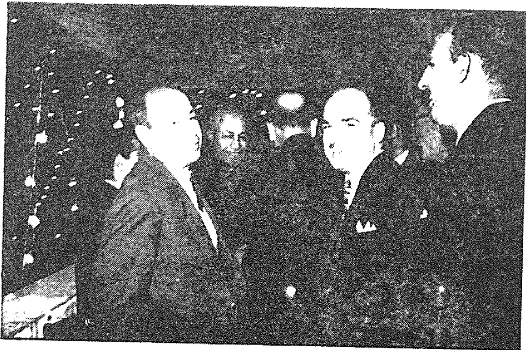
تزوج بدر ابن عمى ، وما إن مضت سنة على زواجه حتى أنجب ولدين توأم وكان ذلك حديث الأسرة ؛ كان الحوار يدور حول إذا ما كانت تلك الظاهرة وراثة أم أنها مجرد صدفة ، وراح من يتحمس للرأى القائل بأنها وراثة يعدد جدود الزوج والزوجة الذين أنجبوا توائم .

دار الحديث حول ذلك فى شقة جدتى التى كان نسوة البيت يجتمعون كل مساء فيها ، وفى السلاملك حيث مجمع الرجال . وتذكر المتحدثون الشيخ محمود جار أبى فى شارع سوق الجراية ، فقد أنجب سبع مرات جاء فى كل مرة منها بتوأم وأبدوا إشفاقا

عليه ، ففى مدة لا تزيد على عشر سنين أصبح عليه أن يطعم أربعة عشر فاها غيره وغير زوجه .

ولم تكن الحاجات غالية فى ذلك الوقت فرطل اللحم الضأن لم يكن ليزيد ثمنه على ثلاثة قروش ، وعشر بيضات بقرش صاغ ، أما الخضار فنصف القرش يكفى لشراء ما يسد حاجة الأسرة ، وإيجار الشقة فى الأحياء الوطنية ما كان ليزيد على جنيه أو جنيه ونصف ، ولكن الدخول كانت محدودة ، فكان الشيخ محمود يعمل فى دكانه من الصباح الباكر حتى منتصف الليل يملأ البطون التى تحتاج إلى طعام ثلاث مرات فى كل يوم ، ويكسو الأجسام التى تبلى ما يسترها من ثياب ، ويدفع مصاريف التعليم فى المدارس ، فما كان التعليم إلا للقادرين على سداد الأقساط المدرسية فى مواعيدها .

ولا أستطيع أن أنسى جارى فى السنة الثالثة الابتدائية الذى عجز عن سداد المصاريف لوفاة أبيه ، وجاء ناظر المدرسة إلى فصلنا وطلب منه أن يغادر المدرسة وألا يعود إلا إذا كانت معه المصاريف . كان عليه أن يسدد ثلاثة جنيهات ولكن كل موارد



أسرته عجزت عن تدبير المبلغ ، فخرج من مقعده وسار بين الصفوف مطاطئ الرأس يسح الدموع . غاص قلبى فى ذلك اليوم وكاد أن يتمزق أشلاء ؛ لم أكن لأملك غير الحزن وكنت أصغر من أن أمسح عنه تلك المذلة . وفكرت فى أن أفاتح أبى فى الموضوع وأن أسأله أن يسدد المبلغ وما كان أبى ليحجم عن ذلك ، ولكن لو كنت فاتحته أكان قادرا على أن يسدد مصاريف كل العاجزين عن دفعها فى مدارس الحكومة ؟!

كنت أرقب الشيخ محمود فى إشفاق ، وكنت لا أعجب من أنه لا يؤم السلاملك مع أصحاب أبى فهو يكافح ويصارع الحياة لينتزع من أنيابها قوته وقوت عياله ، فما عنده وقت للقراءة ولمتعات ذهنية أو محاورات سياسية لن تمده بلقمة العيش .

وكانت الاستعدادات فى بيتنا على قدم وساق لزواج أخوى أحمد وسعيد ، فسعيد قد نال ليسانس الآداب ولم يجد وظيفة بعد . إنه لو توظف لقبض فى الشهر ستة جنيهات وهى كافية لفتح بيت ، ولكن زواجه ما كان ليتأخر لذلك فالخير فى البيت كثير ، والأيام كفيلة بأن تجعل منه رجلا يحمل أعباء أسرته ، وما كان الرزق أو المستقبل ليشغل تفكير أبى ، فهو يؤمن إيمانا راسخا أن الرزق فى السماء وأن القدر مكتوب .

إن إيمانه بالقدر لا يقعده عن السعى فى الحياة ، فهو يرى أن الدين يحض على العمل ، وأن لكل درجات مما عملوا ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر فى محياهم ومماتهم ، وأن طلب الرزق من حلال من الأعمال الصالحة التى يجزى الله عليها ، وأنه من الإيمان .

تعلمنا منذ تفتحت أعيننا على الحياة أن مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا الله له غيب السموات والأرض ، ولم نتعلم ذلك من الكتب ولكن من تصرفات أبى ومن بعض ما كان يجرى فى السلاملك من أحاديث ومحاورات ، لذلك لم نكن لننتظر المستقبل فى قلق وتوجس ، بل كنا نقبل ما يأتى به الغيب فى رضى ، فإن جاء ما نكرهه فلا نجزع بل نصبر وننتظر فى أمل ، فمن يدرى فقد يكون فيه خير كثير .

لم يكن رضانا بقضاء الله وقدره عن يأس بل عن إيمان واقتناع . وراحت المبادئ الإسلامية تغرس فينا على مرور الأيام فكنا نعيش فى كل لحظه من لحظات حياتنا

مع الله ، حتى صار الله يسرى فينا مسرى الدم . وكان لتلك المبادئ فضل ما نشعر به من سلام فى حياتنا ، وكان لها فضل ما تم من مصالحة بيننا وبين أنفسنا ، تلك المصالحة التى حررتنا من الخوف ومكنتنا من امتلاك الذات التى يحسب كثير من الفلاسفة والمفكرين أن تحقيق ذلك ضرب من المحال .

لقد بذرت فى أعماقنا بذور النمو الروحى وسقيت بتعاليم تمجد حب الخير العام وتنهى عن الأنانية وحب النفس وسوء الظن بالناس ، فتحررنا على قدر طاقتنا من الذاتية ، وبذلنا كل ما نستطيع لنندمج فى كل ما أمرنا به الدين لنحمل قلوبا بيضاء ناصعة .

كان أبى لا يدخن فشببنا جميعا لا نعرف السيجارة أو السيجار ، و لم تدخل الخمر بيتنا أبدا فلم نذقها ، ولولا الإعلانات وأشرطة السينما ما كنا لنستطيع أن نفرق بين البيرة والويسكى . وكان أبى ينام مبكرا فلم نسهر خارج البيت . ولو كان أبى يدخن أو يسكر أو يسهر لدخنا وسكرنا وسهرنا ، فكان أن تعلمنا فيما تعلمناه من البيئة التى عشنا فيها أن القدوة من أهم ما يشكل الحياة ، وأن سلوك الحاكم له أثر كبير فى فساد الأمة أو صلاحها .

وجاء إلينا الخبر أن بدر ابن عمى مريض فذهبت لعيادته ؛ إنه يسكن فى نفس بيت عمى فى شقة بنيت له خصيصا فوق شقة عمى ، فما كانت هناك أزمة مساكن ولكن العرف كان فى أسرتنا أن الابن إذا ما تزوج لا يغادر بيت الأسرة ، فإن كان الأب قادرا أخلى له شقة فى بيته أو بنى له شقة فوق بيته .

وزرت بدرا وداعبت ولديه التوأم ؛ كان يشكو من حمى إلا أنه كان يبش لمداعباتى ، وكان فى كامل وعيه فقد أجابنى عندما سألته متى سينزل إلى دكانه بأنه سيكون به بعد يومين .

وواعدته على أن أزوره هناك وعدت إلى منزلنا لأشارك فى ترتيب شقتى أخوى أحمد وسعيد ، فلم يبق على زواجهما غير أسبوع . ومر يوم وإذا بالناعى يحمل إلينا نبأ موت بدر فجثم الحزن على كل من فى دارنا ، وكنت أكثر الناس ذهولا لذلك النبأ فلم أر فى وجهه أى ذبول . كان معافى على الرغم من الحمى التى نزلت به ، ووصل الهمس

إلى دارنا أن سبب موته حنان أمه ، فقد بعثت إليه بكشك به كبيبة مصرى ، وقد تعب تعبا شديدا بعد تناوله وظل يقاسى منه حتى فاضت روحه .

وسواء أكان ذلك الهمس صادقا أم كاذبا فالحقيقة التى ما بعدها حقيقة أن بدرا قد مات ، قد ذهب وترك الأحزان لعمى محمد . وما كان بدر أول من مات من أبنائه فقد دفن فى السنوات القليلة الماضية بنتين : إحداهما ماتت حرقا وتركت خلفها بنين وبنات وإن لم تتجاوز الثانية والعشرين ، والثانية ماتت من حمى النفاس وتركت خلفها ولدا واحدا وأربع بنات ، وقد سقط الولد فى بئر السلم بعد ذلك ومات .

ورحت أفكر كيف احتمل عمى كل هذه الصدمات ؟! وإذا بى أتذكر ما تقوله جدتى فى جلساتها كلما مات أحد . كانت تقول إن عروق محبة الوالد للولد فى القلب مائة ، فإذا ما مات الولد فإن الله من كرمه ولطفه يقطع تسعة وتسعين عرقا ولا يبقى سوى عرق واحد ، ولولا ذلك لمات الثاكل كمدا .

إنه قول وإن لم يكن قد أصاب كبد الحقيقة فإنه عبر عنها وصورها تصويرا يفسر حقيقة المشاعر التى نحسها نحو الأعزاء الذين كتب علينا أن نفارقهم . ورحت أفكر فى الموت أهو الصخرة العاتية التى تتحطم فوقها آمال البشرية ؟ هل وجودنا إن هو إلا آثار أقدام فوق الرمال ، وميض خاطف سرعان ما ينطفئ فى الظلام ؟

ولو كان الموت كذلك لكانت حياتنا عبثا ، لكانت الدنيا مهزلة . لا بد أن ما لقناه هو الصحيح ؛ إنها دار ممر إلى دار مقر ، إنها نهاية حياة وبداية حياة أخرى ، فالله يحيينا ثم يميتنا ثم يحيينا ، والإيمان بذلك يجعلنا أكثر طهرا نستجيب لنداء القيم ونرنو إلى الخير الأقصى .

وقامت فى بيتنا مشكلة بعد موت بدر ، أيؤجل زواج أخوى أحمد وسعيد وقد تم تجهيز كل شيء وحدد يوم الزفاف ؟ وإن كان لا بد أن يؤجل فإلى متى يؤجل ؟! إلى الأربعين أو ينتظران مرور سنة !

وبعد مشاورات اشترك فيها كل من فى بيتنا استقر الرأى على أن يتم الزواج دون إعلان أو إقامة زينات . وفى سكون الليل انسل أحمد وعروسه إلى شقته وانفتل سعيد

وعروسه إلى شقته . أطفأنا الأنوار وأغلقنا الأبواب كأنما كنا مقبلين على عمل سرى من المشين أن يراه الناس أو يسمعوا به !

٥٤

أرسل سعيد أكثر من طلب إلى مصالح الحكومة ودواوينها يبحث عن عمل ، ومرت شهور دون أن يتلقى ردا . وفى ذات يوم جاءت رسالة صفراء عليها اسم الحكومة الملكية المصرية فتلقاها مستبشرا ، إنها تحدد له يوم إجراء الكشف الطبى فكان عليه أن يستعد لذلك الحدث الخطير .

إنه لو اجتاز الكشف الطبى فسيعين فى وظيفة راتبها ستة جنيهات فى الشهر فى محافظة من المحافظة ، وهى وظيفة صغيرة ستبعده عن بيتنا وما غاب أحد منا عن والديه أبدا ؛ ولكن لا بأس فهى بداية ستفتح أمامه باب الوظائف وما كان أحد فى أسرتنا قد طرق بعد هذا الباب .

واجتمعت الأسرة تناقش ذلك الأمل ، وذهب سعيد ووقع الكشف الطبى على عينيه ، فكانت النتيجة ٦ على ١٢ للعين اليمنى ، و ٦ على ١٨ للعين اليسرى ، وكان لا بد لينجح فى الكشف الطبى أن يحصل فى مجموع العينين على واحد صحيح . ففكر فى أن يلبس نظارة لتعويض ذلك النقص . فذهب هو وأخى محمد إلى الدكتور عزمى القطان فى شارع فؤاد الأول ، فلما كشف عن عينى سعيد قال إن قاع العين سليم ولا يحتاج لعمل نظارة ، وكل ما يحتاج إليه هو عملية كحت بسيطة فيقوى إبصاره ويمر فى الكشف الطبى بسهولة . وقام بالعملية ، وقال إن الطب الحديث يقضى بألا يوضع على العينين أى ضماد ، وأن تعرض العينان للهواء والنور .

وفى اليوم التالى كانت هناك مباراة بين منتخب مصر وفرقة أجنبية ، فراح محمد يقنع سعيد بالذهاب معه إلى النادى الأهلى لمشاهدة المباراة ، فلما اعتذر سعيد عن الذهاب راح محمد يستخف بالعملية ويهون من شأنها ويقول إن الدكتور نفسه نصح

بتعريض العينين للهواء والنور ، وحتى وافق سعيد ـــ مضطرا ـــ على الذهاب معه .

وعادا بعد انتهاء المباراة إلى البيت وسعيد يستشعر آلاما مبرحة فى عينيه ، إنه يحاول أن يتحمل ما يعانيه حتى لا ينهال عليه اللوم والتقريع لذهابه فى الحر لمشاهدة ما لا يغنى ولا يفيد ، ولكنه لم يستطع أن يزدرد أوجاعه فى صمت فباح بما يحسه ، فطلب منه أبى أن يعرض نفسه فى الصباح على الطبيب الذى أجرى له العملية .

وفى عصر اليوم التالى ذهب أخى محمد وسعيد إلى الطبيب ، وفحص عن عينى سعيد ، ثم قلب كفيه فى أسف وقال :

ـــ النني انجرح .

وعاد محمد وسعيد فى الترام حزينين ونزلا عند محطة مدرسة خليل أغا فى شارع فاروق ، وبدلا من أن يذهبا إلى البيت قال محمد : هلم نعود إلى شارع فؤاد الأول . واستقلا الترام العائد ونزلا عند شارع عماد الدين ، ودخلا عيادة طبيب ألمانى مشهور خلف أجزخانة دلمار اسمه ماكس مايرهوف . كان ذلك الطبيب يهوديا ، فقد كان كل الأطباء الذين نعرفهم فى ذلك الوقت من اليهود . كان كوهين ذو اللحية الرمادية هو الطبيب الذى نفزع إليه إذا ما شكا أحدنا من مرض باطنى ، وكان ساكس هو طبيب عيوننا ومن بعده إيلى مسعودة . ولم يكن الأطباء وحدهم من اليهود بل كان كل من نتعامل معهم منهم ، فإذا أردنا أن نشترى مصاغا نذهب إلى ليتو مسعودة ، وإذا ما خطر لنا أن نشترى أقمشة كان بنزيون محلنا المختار . وكان كل الذين يوردون البضائع إلى دكان أبى من اليهود : مناحم كلانته ، إيلى شمطوب ، عزرا كوهين ، بل إن البقالين فى حينا كانوا منهم ، فكان كل ما يصل إلى أيدينا من نقود يتسرب إلى جيوبهم أو إلى خزائنهم .

فلما كشف الطبيب على عينى سعيد ، قال إنهما تحتاجان إلى علاج طويل ، وأن على سعيد أن يزوره كل يوم ليغير على عينيه ، وأن يدفع له عن كل زيارة جنيها . فأخبره أخى محمد أن سعيد طالب بالجامعة وأنه يتكلم الألمانية ، فكلم الطبيب سعيد بالألمانية ورد عليه سعيد . فقال الطبيب : لأنك طالب ولأنك تتقن الألمانية سأتقاضى منك نصف جنيه فقط عن كل زيارة ، وعاد محمد وسعيد إلى البيت ، وأخبرانا بالنبأ .

وتلقينا النبأ فى جزع ، ولكن أبى ظل كعهدنا به لم يضطرب وإن كان قلبه يكاد ينفطر . كان يبدو فى أعيننا دائما أكبر من الأحداث . إنه الشيء الهائل الأشم الذى نفزع إليه فى ملماتنا ، فكيف للجبل الراسخ أن يهتز ؟ كان أبى يبدو لناظرى أنه قادر على احتمال صروف الدهر وإن كنت قد رأيته ذات يوم يذرف الدموع لأن خلافا قد وقع بين عمتى وزوجها ، إنه رق رقة هزت كيانى فجعلتنى أفر من المكان لأبكى بعيدا ، إلا أننى جاهدت حتى مسحت تلك الصورة من خيالى ، لأحل مكانها صورة رجل قوى يبتسم للأحداث فى رضا وتسليم لإرادة الله ، فالأيام أكسبته عمقا وخصبا وثراء .

وراح سعيد يعالج عينيه ، وبعد ثلاثة أشهر قال الطبيب :

ـــ أستطيع اليوم أن أقرر أن الخطر قد زال . فقال له سعيد : أتقول الخطر ؟ قال : نعم ، لقد كنت أعمى يا حبيبى .

وعمل له نظارة ، وذهب سعيد ووقع الكشف الطبى على عينيه للمرة الثانية ، فكانت النتيجة ٦ على ٣٦ للعين اليمنى و ٦ على ٩٦ للعين اليسرى .

وكانت أمامه فرصة ثالثة ، ولكنه يئس من نتيجتها مقدما ، وكانت أمى أكثر أهل البيت ضيقا بضياع أمل أن يكون لها ابن من مستخدمى الحكومة ، وإن كانت تظهر لهفتها على أن يصبح سعيد عائلا لأسرته .

كانت أمى تحاول أن تبدو صارمة حازمة وإن كانت فى أعماقها ترتجف فرقا من أن تثكل فى واحد منا ، كانت إذا ما ضاقت بتصرفات بعضنا الخطرة تكشف عن ضعفها بقولها فى ضيق :

ـــ استنوا لما اموت وابقوا اتجننوا وموتوا نفسكو .

وكانت والحق يقال قادرة على أن تكبت عواطفها ؛ إنها كانت تحبنا حبا جارفا ، ولما كانت ترى حنان أبينا المتدفق كانت تبخل بإظهار حقيقة مشاعرها خشية أن تفسدنا بتدليلها . إنها لم تحجم ذات ليلة عن أن تضرب محمدا وأحمد بعد أن تزوجا وقامت بينهما مشادة كلامية كادت أن تتطور إلى التشابك بالأيدى ، وإنها فى ذات الوقت كانت تسهر إلى جوار سرير أى من بنيها المتزوجين طوال الليل إذا ما أصيب

بوعكة بسيطة لا تستأهل عناية أو سهرا .

وبقى سعيد ملازما البيت يمضى نهاره معنا فى السلاملك ، وإذا ما جن الليل شارك فى الندوة الليلية . وكنا نذهب معا إلى السينما كما اعتدنا أن نفعل قبل أن يتزوج وقبل أن يحمل ليسانس الآداب .

كنا ننتظر فى لهفة فيلم « أولاد الذوات » فهو أول فيلم ناطق يصور الجزء الناطق منه فى فرنسا وتشترك فى تمثيله ممثلة فرنسية ، ورحنا نخوض فى القصص التى كانت تروى عن علاقة يوسف وهبى وسراج منير بتلك الممثلة ونروى ما نسمع من تفاصيل لكأنما كنا شهود عيان !

وعرض الفيلم وشاهدناه مع من شاهده من جمهور القاهرة ، وإذا بحوار الفيلم يصبح على كل لسان لكأنما كان أغنية هزت ضمائر الناس .

أصبح من المألوف أن تسمع سباكا يقول وهو يحاول أن يسلك بالوعة :

ــ يا مرات الكل يا مزبلة .

وأن تسمع الناس يقولون فى الطرقات :

ــ شرف البنت يا باشا زى عود الكبريت ما يولعش إلا مرة واحدة .

حفظ الناس عن ظهر قلب حوار الفيلم ، ومما لا شك فيه أن أحدا منهم لا يحفظ خطبة لمصطفى باشا كامل أو سعد باشا زغلول .

٥٥

كان فرحى شديدا لانتهاء الإجازة الصيفية فقد توطدت بينى وبين المدرسة علاقة حب بعد أن صرت لاعبا فى فريقها الأول للكرة ، وبعد أن أصبح لى أصدقاء بها يسعدنى أن أكون معهم نروى آخر ما نسمع من نكات سياسية وجنسية .

كنت أمضى تلك المدة التى بين انتهاء الدراسة وغبش الليل فى فناء المدرسة ألعب الكرة ، فإذا ما أويت إلى فراشى رحت أتذكر الألعاب الحلوة التى لعبتها والأهداف التى أحرزتها ، أو أتخيل أهدافا لم يكن لها مكان إلا فى أوهامى أو أحرزها لاعبون من

لاعبى منتخب مصر أو أندية الدرجة الأولى ، فقد كان أخى محمد يأخذنى كل يوم جمعة لمشاهدة مباراة فى الدورى العام أو فى مباريات كأس مصر .

لم يلعب أخى محمد الكرة أبدا ولكنه عشق مشاهدتها ، وتوطدت بينه وبين كثير من اللاعبين والإداريين صداقة كما توطدت بينه وبين الصياد قائد فرقة البولـيس الموسيقية التى تعزف كل يوم جمعة فى كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية ، صداقة لا أدرى كيف فترت .

كان أخى محمد كتلة من النشاط والحركة الدائبة لا يطيق أن يمكث فى مكان واحد طويلا . إنه فى يوم الجمعة يذهب إلى ملاعب الكرة بعد الظهر وينطلق إلى مسارح عماد الدين فى المساء ، فإذا ما حدث وعرض فيلم عربى ـــ وما أقل الأفلام العربية فى ذلك الوقت ـــ كان من أوائل مشاهديه . وكثيرا ما كان ينظم لنا رحلات إلى القناطر أو حلوان فى فترة صباح يوم الجمعة حتى يستغل كل ساعات ذلك اليوم المبارك .

كان مشاهدو مباريات الكرة قلة وكانوا ينتقلون من ناد إلى ناد ، وقد كدنا نعرف بعضنا بعضا من كثرة ما التقينا حتى إننى أذكر أننى ذهبت أنا وأحمد وسعيد لمشاهدة مباراة فى نادى الزمالك ، فلما بدأت المباراة تلفتنا نبحث بأعيننا عن شخص معين كان يجلس فى مكان معين ، ثم قلنا جميعا :

ـــ محمد عبد الوهاب ما جاش لسه .

وإن هى إلا لحظات حتى جاء عبد الوهاب يهرول وأخذ مكانه .

* * *

وكنت قد اخترت القسم العلمى مع أننى كنت أحب التاريخ والأدب ، وما كان ذلك الاختيار عن اقتناع فقد قيل لى إن الدراسة العلمية تفتح الطريق للطب والهندسة ، وكان مستقبل الدراسة الأدبية مجسما أمامى فى أخى سعيد ، فهو يحمل ليسانس الآداب وجالس فى الدار ينتظر ليس له وظيفة غير أنه زوج .

ووزعت علينا الكتب التى ستحدد مستقبلنا وحملناها فرحين ورحنا نقـلب صفحاتها فى نشوة ، وما دار فى خلدى فى ذلك الوقت أن تلك الكتب ما هى إلا بذرة فى أرض قدرنا ستنبت رؤساء وزارات ووزراء وأطباء ومهندسين وزراعيين وتجاريين

وقادة للجيش والطيران والبوليس وكتبة فى الأرشيف .

وانتظمت الدراسة ودخل الفصل مدرس اللغة العربية ، وكان قصيرا ممتلئا يبدو من كل حركاته اعتزازه بقوته الجسمانية ، فإذا ببسمة ترتسم على شفاه الطلبة الذين يعرفونه وما كنت قد رأيته من قبل . وأخرج كراسة يعتز بها وراح يكتب على السبورة بخط جميل « قواعد » ، ثم ينقل من الكراسة ما فيها وينسقه على السبورة ويطلب منا أن ننقل ما كتبه فى كراساتنا .

وانتهى من مهمته دون أن يشرح شيئا فقد كان يعتقد أن ما يكتب لا يحتاج إلى شرح ، ودون مقدمات قال :

ـــ كنت باعوم فى اسكندرية ونمت وأنا باعوم ، ما صحيتش إلا على صوت بيقول : « باسبور . مارسيليا » .

وانفجرت وحدى بالضحك ، وإذا بالأستاذ يقول فى غضب :

ـــ بتضحك على إيه يا افندى انت ؟ اطلع بره .

وخرجت مطرودا من الفصل ، وفهمت سر تلك الابتسامة التى ارتسمت على الشفاه . وبعد الحصة عرفت الكثير عن أستاذنا المبجل ، إنه حديث عهد بارتداء البذلة ، كان يرتدى الجبة والقفطان فلما غير زيه فصل القفاطين كرفتات ، ولم ينس عادة تشبيك يديه خلف ظهره من تحت الجبة فكان يشبكهما خلف ظهره من تحت الجاكتة . وهو يروى نوادره التى لا يصدقها عقل ويعاقب من يضحك سخرية مما يقول ، فلما عرفت ذلك روضت نفسى على الإصغاء وزم الشفتين حتى لا يفضحا حقيقة مشاعرى .

وراح الأستاذ يدرس لنا النصوص ، وكنت فى قرارة نفسى أعجب من تلك المناهج التى تقررها وزارة المعارف العمومية على تلاميذها وطلبتها . إننى فى السنوات الماضية درست تاريخ الفراعنة وتاريخ الثورة الفرنسية ولم أدرس شيئا عن الإسلام ونشأته ، ولولا قراءات السلاملك ما عرفت شيئا عن تاريخه وروعته وأثره فى إخراج أناس كانوا خير أمة أخرجت للناس . إننى لا أنكر أننى درست أسباب سقوط الدولة الأموية ، والآن أدرس فى النصوص التغزل فى الذكر والخمريات ، لكأنما كان هناك

هدف لتشويه وجه التاريخ الإسلامى ، كان الطلبة يرددون فى فرح :

هــزنى الشوق إلى أبى طـــوق فتدحرجت من تحت إلى فـــوق

وما كانوا يكتفون بذلك ، بل كانوا يذهبون إلى طلبة الفصول الأخرى يسألونهم عن أبيات الشعر التى تكشف عن العلاقات الجنسية الشاذة ، وبدا أن وزارة المعارف العمومية تتآمر على تاريخنا وتحمل معاول هدم القيم والأخلاق .

وكان للمدرسة وكيل حاصل على الدكتوراه فى الآداب فكان من المنتظر أن يولى اهتمامه للمكتبة وغرس حب الاطلاع فى الطلبة ، ولكنه لم يفعل ذلك بل كان اهتمامه نقيض ذلك ، فقد ذاع بين الطلبة شعاره القائل : « التلميذ الكويس يلعب كويس وياكل كويس » . وكنت أحسب أن ذلك القول إن هو إلا افتراء من افتراءات الزملاء ، إلى أن أصدر أول ما أصدر أمرا بتخصيص مائدة خاصة لفريق كرة القدم فى غرفة الطعام .

وجلسنا إلى مائدتنا نتطلع إلى أصدقائنا المبعثرين فى أنحاء القاعة هنا وهناك فى زهو وكان ذلك أول امتياز أشارك فيه . وجاء الطعام ووضع أمام كل منا ما يوضع عادة أمام ستة تلاميذ فانتابنى خوف ، فأنا أتناول عادة قبل المباريات طعاما خفيفا ، ولم أستطع أن أشارك الزملاء فرحهم وقد عبروا عنه بأصوات مرحة جلجلت فى المكان وبدءوا يتخاطفون التفاح !

وجاء الوكيل وكان أشبه بكرة كبيرة ركب لها رأس فيه عينان مضعضعتان تكادان أن تختفيا تحت نظارة طبية سميكة ، ولصق بها ساقان قصيران . أقبل نحونا وهو يوسع من خطاه فساد قاعة الطعام صمت ، ووقف فوق رأسى وقال فى صوت آمر :

— كل .

وما كنت بقادر على أن ألتهم كمية اللحم التى وضعت أمامى فرحت أغافله وأسربها إلى الزملاء من تحت النضد ، فلما رأى الأوعية والصحف بيضاء من غير سوء قال مظهرا إعجابه :

— النهارده ح تلعب كويس .

وربت على كتفى ثم انصرف . كان اهتمامه بى أننى كنت هداف الفريق فما من

مباراة اشتركت فيها إلا أحرزت هدفا على الأقل . وبعد الغداء ذهبنا إلى شبرا لنتبارى مع مدرسة التوفيقية ، فلما نزلنا إلى أرض الملعب لمحت الوكيل قد جلس فوق كرسيه على الخط الجانبى عند منتصف الملعب .

وأطلقت صفارة البدء وراحت الكرة تنتقل بين أقدام اللاعبين ، حتى إذا ما وصلت إلىّ إذا بالوكيل يصيح :

— خده ع اليمين .. خده ع الشمال .. شوت فى الجول .

وفعلت ما أصدر إلى من أوامر ، وصوبت الكرة إلى المرمى من منتصف الملعب فوصلت إلى حارس المرمى تتهادى مع أننى كنت أستطيع أن أجرى بها حتى أودعها الشبكة .

واستأنفنا اللعب وجاءتنى الكرة عند منتصف الملعب ، فإذا بالوكيل يصيح :

— خده ع اليمين .. خده ع الشمال .. شوت .

و لم ألتفت إلى صيحاته وأخذت الكرة وجريت بها ، وإذا بصوت الوكيل ينفجر فى الملعب :

— ح يضيعها ابن الكلب .. ح يضيعها ابن الكلب .

واندفعت أعدو حتى إذا ما أصبحت أنا وحارس المرمى وجها لوجه أودعت الكرة عن يساره فإذا بصفارة طويلة تعلن إصابة الهدف ، وبدلا من أن أعود إلى منتصف الملعب خرجت غاضبا ، فإذا بالوكيل يأتى إلى معتذرا ويقول :

— ما انا كنت خايف لتضيعها . انزل وح اديك تذكرة تشوف بيها انت وأهلك فرقة أتكنز فى الأوبرا .

وعدت إلى الملعب وسخرية مريرة تولدت فى أعماق ، تصورت أمى التى لم تذهب إلى السينما أبدا فى لوج فى الأوبرا تشاهد مسرحية باللغة الإنجليزية !

وبعد ذلك اليوم أصبح وكيل المدرسة يقف على رأسى عند تناول الغداء كلما كنا نتأهب للذهاب للتنافس على دورى المدارس الثانوية ، فكنت أسرب الأكل الكثير الذى كان يوضع أمامى إلى الزملاء من تحت النضد فى غفلة من عينيه المضعضعتين .

وأصبحت المدرسة أحب مكان إلى قلبى ، وكانت حصص العربى والنصوص

والقواعد من الحصص التى أترقبها فى شوق ، فأستاذنا يروى النوادر للتدليل على قوته الخارقة ونحن نرويها فرحين للزملاء بعد ذلك ، وقد يقوم بعضنا برسمها رسما كاريكاتوريا ، فقد ازدهى الكاريكاتور السياسى فى ذلك الوقت ولعب دوره الخطير فى تكوين رأى عام فى خدمة الوفد وهدم أعدائه .

قال أستاذنا الشيخ :

ـــ كنت نايم صحيت على حركة تحت السرير ، بصيت لقيت حرامى ، سحبته من تحت السرير ووقفته جنب الحيط ، وجيت اديله بوكس خلى منه جه البوكس فى الحيط ، جبت المهندس بعد كده يشوف البيت ، بعد ما كشف عليه هز رأسه وقال : ما فيش فايدة .. البيت حصله خلل .

وانفجرت ضاحكا وإذا بالأستاذ ينهرنى قائلا :

ـــ إذا ضحكت تانى ح اديك بوكس أوقع لك صف اسنانك ، تلمها تديها لوالدك .

ولم أضحك ، وتعلمت كيف أحبس ضحكاتى فى أعماقى فإذا بصداقة متينة تتوطد بينى وبين أستاذى .

٥٦

لم تغادر سيارة أبى القاهرة منذ أن اشتريناها ، فقد كنا فى أيام الصيف نحمل عشاءنا ونذهب إلى صحراء ألماظة لنسعد بالهواء الجاف والأحاديث التى كانت تدور بين أبى وخاصة أصدقائه : العم السيد الشامى وإبراهيم الشرى . وكنا نزور الحسين والسيدة زينب ، وفى يوم الجمعة أصاحب أبى من العصر إلى العشاء إلى المقرأة بمسجد الإمام الشافعى أصغى إلى تلاوة كبار المقرئين . وأذكر أن شيخا قرأ ذات مساء : « ووسوس لهما الشيطان » فإذا بجميع المقرئين الآخرين يقولون فى صوت واحد : « فوسوس لهما الشيطان » وطلب من المقرىء أن يتوقف عن القراءة وأن يعود إلى المصحف ليعاود التلاوة أمام اللجنة فى الأسبوع التالى .

وخطر لى خاطر فى تلك اللحظة : ما أيسر أن يجمع القرآن الآن من صدور هؤلاء المقرئين كما أنزل ، وإن جمع القرآن من الصدور أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه لا بد أنه كان أكثر يسرا ، فالحفاظ قد حفظوه عن النبى صلوات الله وسلامه عليه كما أنزل عليه .

وقد وقفت سيارة أبى ذات صباح أمام دار السينما وهبط منها أبى وأنا فى إثره بعد أن أقنعته أن يذهب معى ليشاهد أنشودة الفؤاد فى حفلة الساعة العاشرة . كان يصغى إلى أغانى نادرة بأذن مرهفة ويظهر إعجابه بتمثيل جورج أبيض وعبد الرحمن رشدى . وبعد أن خرجنا قال لى : إن جورج أبيض كان يمثل بالفرنسية المسرحيات العالمية ، وأن سعد باشا زغلول هو الذى طلب منه أن يمثل بالعربية حتى يتذوق الجمهور المصرى الفن الرفيع . ولأول مرة اكتشفت اهتمامات أبى الفنية على الرغم من صمته فى أثناء المناقشات التى كانت تدور حول فن الشيخ سلامة حجازى ورخامة صوت الشيخ يوسف المنيلاوى والمقارنات التى كانت تعقد بين فتحية أحمد ومنيرة المهدية.

و لم يقد أحد منا السيارة ، فقد أصدر أبى للسائق تعليمات مشددة بإغلاق السيارة وتركها فى الشارع ثم تسليمه مفاتيحها إذا ما جلس أحدنا خلف عجلة القيادة . كانت أوامر قاطعة وقد حاولت أكثر من مرة أن أغرى السائق الأسمر بأن يترك لى القيادة ولكن جميع محاولاتى باءت بالإخفاق .

وذات ليلة بينما كنا نتسامر فى السلاملك برزت فكرة الذهاب إلى طنطا وزيارة السيد البدوى ، فوضعت ترتيبات الزيارة . وفى الصباح كنت أنا وأخى أحمد نجلس إلى جوار السائق ، وكان أبى والعم السيدالشامى والشيخ إبراهيم الشرى يجلسون فى المقعد الخلفى . وانسابت السيارة فى طريقها وأخى أحمد يقودها شفهيا . إنه يشرح كل خطوات القيادة شرحا وافيا ولكنه لم يحاول أبدا ممارستها ، فهو لا يحب أن يخاطر بحياته أو بحياة المارة أو يلعب بحياة الراكبين معه .

ووصلنا إلى دفرة و لم يبق بيننا وبين طنطا إلا دقائق معدودة ، وفيما نحن فى قمة النشوة إذا بصوت تحطيم حديدى ينبعث من المحرك . ووقفت السيارة ونزل السائق مسرعا يفحص عنها وبعد قليل رفع وجهه وقال :

ـــ مسمار اتفك وقع فى الموتور .

ـــ وإيه العمل ؟

ـــ نشوف عربية تقطر عربيتنا لغاية مصر .

إننا على مشارف طنطا ، أنعود دون زيارة السيد البدوى ؟! لم يكن معقولا . فطلب أبى من السائق أن يبحث عن سيارة لتحملنا إلى طنطا وأن يتصرف فى سيارتنا المعطلة ، فذهبت أنا والسائق إلى طريق جانبى نبحث عن سيارة ، إنه الطريق المؤدى إلى دفرة فإذا بنساء عاريات يستحممن فى الترعة ، أجسام بضة ناصعة البياض كن أشبه بلوحة فنية لفنان رومانى قديم تفنن فى إبراز محاسن فاتنات سابحات .

ووقفت أنظر وقد سرح خيالى ، وإذا بصوت زاجر يرن فى أذنى :

ـــ اخرج من هنا قبل الرجالة ما يشوفوك يقتلوك .

وانسحبت مسرعا خائفا أترقب وإن كنت فى دهش مما سمعت ، لماذا يقتلوننى والنساء عاريات فى طريق عام ؟ إننى لم أقتحم عليهن دورهن و لم أقرأ لافتة أو أر أية علامة تنهانى عن السير فى ذلك الطريق .

لم تكن هذه أول مرة أرى فيها نسوة عاريات يستحممن فى الترعة ، فكثيرا ما ذهبت مع أخي سعيد لزيارة صديق لنا يسكن فى مهمشة وكنت أرى نساء وفتيات عاريات فى الماء يلعبن ويقفزن ويتضاحكن والنهود تظهر وتختفى تبعا لقفـزاتهن وغطساتهن وضحكاتهن . شاهدت فى ترعة غمرة ما لم أشاهده طوال حياتى على شواطئ البحار أو الملاهى الليلية ؛ إن ما شاهدته هناك ترك فى نفسى أثرا أعمق من كل الآثار التى تركتها فى نفسى مشاهد التعرى فى ملاهى باريس وكوبنهاجن وبرلين وهامبورج .

وعدنا إلى الطريق فإذا بأبى وصحبه ينتظرون ، وأشار علينا السائق أن نذهب إلى طنطا وأن ندعه يتصرف .

وركبنا سيارة أجرة وانطلقنا إلى مسجد السيد البدوى ، وما إن هبطنا منها حتى راح تجار حب العزيز يجذبوننا من ملابسنا لنشترى من البركة . وفاحت رائحة الفسيخ وغص المكان بشحاذين وبأناس يرتدون ثيابا مرقعة ويتعممون بعمائم خضراء



أو سوداء أو بقلنسوات أشبه بالطراطير . إنهم مجاذيب السيد البدوى ، وعبق المكان بروائح البخور فانسللت خلف أبى إلى داخل الجامع وأنا أستشعر أسى فى أعماقى ، يزيد فى ضيقى تلك الأصوات الرتيبة المنبعثة من مجموعة اجتمعت قرب الباب أخذت تطول وتقصر وهى تردد : حى .. حى .

أيتحول الدين القيم ، دين الفطرة إلى هذه المشاهد المؤذية ؟! وعند الباب وقعت عيناى على صندوق النذور . إن البسطاء من الرجال والنساء يلقون بالنقود فى ذلك الصندوق . ترى من يا ترى هؤلاء السعداء الذين سيقتسمون ذلك الكنز الغالى ؟ ومن أين أتت هذه العادة ؟ أهى عادة فرعونية متأصلة فى المصريين منذ عهد الفراعين ، عهد تقديم القرابين لكهنة المعابد ؟! ربما .

ورأيت أناسا يسجدون ليقبلوا العتبات الرخام ، وأناسا يتمسحون بالحديد الذى حول المقام ، ولا يكتفون بالتمسح بل يقبلونه فى إيمان عميق ، ويطوفون بالمقام طوافهم

بالكعبة ويقفون عند حفرية من الحفريات فى خشوع شديد . إنهم أمام قدم النبى ، وقد تنوقل ذلك الزعم من أيام الفاطميين ، كانت وثنيات تمارس على مرأى ومسمع من وزارة الأوقاف ورجال الدين . ولو طاوعت نفسى لأخذت أضرب ذات الشمال وذات اليمين ، فقد بلغ بى الضيق غايته ، فما كنت أراه كان بعيدا عن الدين النقى البسيط الذى جاء به ابن عبد الله عليه صلوات الله وسلامه .

وارتفعت أصوات تسأل السيد البدوى الشفاء وقضاء الحاجات ، فإذا بالدين الذى جاء ليقضى على الوسائط بين الله والناس جاء معتنقوه بشفعاء بينهم وبين ربهم ، وكأنما قد نسوا قول الله : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » . « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » .

وغادرنا الجامع بعد الزيارة ولم أكن فى قرارة نفسى راضيا عن شىء مما رأيت ، رأيت وثنيات ترتكب باسم الإسلام ، وضلالات ليست من الدين فى شىء ، وأناسا قد أتوا من كل مكان لبركة مزعومة ، فما جاءوا ليسجدوا لله بل جاءوا لقطب من الأقطاب ، وكأنما قد غاب عنهم « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » .

وذهبنا إلى مقهى فى الشارع الرئيسى وجلسنا على حافة ترعة الجعفرية ؛ كانت الترعة تشق طنطا وتنساب إلى الحقول وقد قامت الدكاكين والدور على جانبيها . وتناولنا هناك غداءنا ، وبعد العصر جاء إلينا السائق وطلب منا أن نركب سيارة فورد قديمة ، إنها السيارة التى ستقطر سيارتنا إلى القاهرة .

٥٧

فترت العلاقة بينى وبين فورتينيه فلم أعد أذهب كل مساء إلى محطة ترام الظاهر أنتظر أوبتها من الجيزة ، ولم أعد أذهب إلى حديقة الحيوان يوم الجمعة صباحا مع أخى محمد ، فما كنت أذهب لأستمتع بموسيقى البوليس ومشاركة أخى فى الحديث مع صديقه الصياد قائد الفرقة الموسيقية ، بل كنت أذهب إلى هناك لأنظر من بعيد إلى فورتينيه الجالسة خلف « الكيس » ببوفيه جزيرة الشاى .

كانت فورتينيه غارقة فى علاقتها بجارها الجديد وكنت على يقين من أنه لن يزيد على عابر سبيل فى حياتها . إنه مثل محمود أبو شفاتير لا أكثر ولا أقل يرضى رغبات جسدية فوارة . وقد حاولت منذ أول يوم عرفتنى فيه أن تضمنى إليها أن تلتصق أجسامنا ، ولكننى كنت أقاوم ذلك لأننى أحسست أنها بعد ذلك ستلفظنى كما لفظت شابا قبلى ، ستعزلنى عنها وما كنت أحب أن أبعد عنها فقد تعلق بها قلبى .

أحببت فتاة فى الظاهر وإن كانت داعرة من الرأس إلى القدم ، كان سيرى إلى جوارها متعة وحديثى إليها يرفعنى عن الأرض وكلماتها تنسكب شهية فى روحى . إنها ملاذى ، إنها الأتون الذى أصهر فيه وحدتى ، فإننى على الرغم من أننى أعيش فى عالم زاخر بالأصدقاء لم أكن أستشعر بأننى تخلصت من فرديتى إلا عندما أكون حيث تكون .

كنت أحس سعادة غامرة معها ، ولو طاوعت قلبى لما انقطعت يوما عن رؤيتها ، ولكن كرامتى ثارت على ثورة عارمة وراحت تؤنبنى على ربط الأسباب بينى وبين بغى لا تعرف إلا الاستجابة الرخيصة لنزواتها .

وكانت معركة بين عبودية الروح وحريتها ، بين الاستسلام للقلب أو الانقياد للعقل . إنه صراع مرير بذرت فيه بذور نموى الروحى ، وبدأت حياتى الباطنية تتعمق ، وجعلت أهيب بإرادتى أن تعبر هذا الجسر ، أن تفر مما أنا فيه من خزى . وهل هناك هوان أكثر من أن أحب فتاة فتحت أبوابها للجميع ؟!.

ومرت أيام وشهور أتأرجح بين قلبى وكرامتى ، وعشت فى قلق وصرت مشكلة فى عين ذاتى . إن أناسا كثيرين يفرحون بأن يدوروا فى فلك من كانت مثل فتاتى ، أن ينهلوا من نفس النبع الذى ينهل منه الآخرون ، ولكننى عشت فى مجتمع ينظر إلى الحب نظرته إلى محرم ، وإلى أن أية علاقة بين فتى وفتاة إنما هى علاقة آثمة ينظر إليها فى هلع وإنكار ، فما بالك بهيام فتى لا يزال فى المدارس الثانوية عالة على أهله ، بفتاة لعوب تهوى جمع الرجال بنفس حماس هواة جمع طوابع البريد ؟

إننى وإن كنت أحمل قناعا على وجهى كلما شاركت أبى جلسة المساء فى السلاملك أو شاركت أمى فى أحاديثها ، إلا أننى هتكت ذلك القناع بين وبين ذاتى .

إننى باتصالى بها أحقر نفسى ، أمرغ إنسانيتى فى التراب . فلا بد أن أتحرر منها وأن أسترد حريتى ، فحريتى هى عين وجودى . وعزمت على أن أفر منها و لم أجد لى ملجأ إلا الله ، فرحت أصلى وكان يحنقنى أنها كانت تتخايل لى فى صلاتى .

وجاء إلىّ ألبير ذات ليلة وسألنى عما دعانى إلى مقاطعتهم ، فاعتذرت بأنهم لا يكونون فى البيت إلا فى المساء وأن ذلك الوقت ليس وقت زيارة ، فهم يجتمعون فيه للعشاء . وإذا بصوت داخلى حاقد يفح فى أغوارى : أكان ذلك الوقت مناسبا أيام أن كانت العلاقة بينك وبين أخته طيبة ؟ وعرض على ألبير أن أنهض معه وأن أذهب إلى بيتهم فأبوه فى شوق لرؤيتى . وكدت أضعف فقد تآمر على قلبى ، وهممت بأن أقوم معه ولكن إرادتى تغلبت على كل ما ثار فى أعماق من مغريات ، وفرحت بانتصارى وإن أحسست بانعدام الانسجام بينى وبين كل ما حولى .

وبينما كنت أذرع الطريق بين البيت وميدان الظاهر كما اعتدت كل ليلة لمحتها قادمة ، فإذا بقلبى يخفق بين جنبى ، وإذا بى أكاد أن أتسمر فى مكانى . إن كل خلجة من خلجاتى تهفو إليها ، وكدت أن أطير إليها متفرحا بهذا اللقاء ولكنى درت على عقبى ووسعت من خطوى حتى غبت فى البيت وهرعت إلى شباك أرصد الطريق .

فجاءت حتى وقفت على الباب الحديدى للسلاملك وأنا أرتجف فرقا فى مكانى ، وجعلت تتلفت وتتردد بين الإقدام والإحجام . وأخيرا نكصت على عقبيها وانصرفت وأنا أقاسى مرارة الصراع الذى نشب فى أعماق . قلبى يقفز بين جوانحى فى جنون ، إنه يحرضنى على النزول واللحاق بها والسكون إليها ؛ إنها وإن كانت نهبا للرجال فإنى أريد منها غير ما يريد الآخرون ، أريد أن أنعم بالحديث إليها والإصغاء إلى ما تقول ، ولو أن ما تقوله تافه لا جديد فيه ، ولكن مجرد وجودى إلى جوارها يفيض على سعادة عميقة ، إنها لذة المشاركة فى أنقى صورها .

ووجدت نفسى أهبط إلى الشارع كالمسحور وأهرول لألحق بها ، وما إن لفح هواء الليل وجهى حتى استيقظت إرادتى . أأهدم فى لحظة كل ما كافحت من أجله ؟ أأستجيب لرغبة طائشة تقودنى إلى هوان نفسى وجرح كبريائى ؟ ووقعت عيناى على راشيل وقد وقفت وحيدة أمام الزقاق الذى تسكن فيه . كانت إستر من فتيات الحى

وكنت قد تبادلت معها بعض الأحاديث ، فما كانت العلاقة بيننا لتزيد على حديث عابر ، فوجدت أن أفضل ما أفعله أن أفر إليها من قلبى الذى يدفعنى دفعا للحاق بفورتينيه ، فذهبت إليها ووقفنا نتسامر . وانتهى الحوار على أن نتقابل فى الخامسة بعد ظهر اليوم التالى .

كانت إستر تزعم أنها إسبانيولية على الرغم من أنها ولدت فى حينا ، فما من يهودى أو يهودية كان يفخر بأنه مصرى . إن غرورهم يصور لهم أنهم من جنس أفضل من كل البشر ، وبالرغم من قلة عددهم فقد أسسوا فى وسط منازلنا نادى المكابى وأباحوه لليهود وحرموا على غير اليهود الدخول إلى حرمه المقدس ، وما كان ذلك الحرم ليزيد على ملعب باسكت بول .

كنت أستذكر دروسى وأذهب إلى السينما وألعب الكرة وأشارك أبى وصحبه سهرتهم فى السلاملك . وكانت حياتى مزدحمة بالأصدقاء ، ولكنى كنت أحس وحدة وأستشعر حنينا إلى الجنس الآخر . فكنت أخرج أنا وإستر كل يوم نجوس خلال حينا أو نركب الترام الذاهب من العباسية عبر شارع فاروق إلى إمبابة ، كنا نهبط من الترام عند بداية كوبرى الزمالك ونسير على النيل نتسامر .

وذات مساء بينا كنا نسير حول جامع الظاهر نمزح ونضحك إذا بصوت غاضب يهتف قائلا :

ـــ إستر !

وتسمرنا فى مكاننا والتفتنا نحو الصوت ، فإذا بشاب يهودى قد وقف متحفزا ، فذهبت إليه إستر ثابتة الخطو فقال لها :

ـــ مين اللى ماشية معاه ده ؟

ـــ واحد صاحبى .

ـــ قدامى ع البيت .

ـــ انت مالك ومالى .

ـــ ح اقول لامك .

ـــ قول لها .. أنا حرة .

وعادت إلىّ كأن شيئا لم يحدث ، فقلت لها :

ــ مين ده ؟

ــ ابن عمى .. ولا يهمك .



كانت إستر تحاول أن ترضينى وكانت على استعداد لأن تفعل أى شىء من أجلى . وكانت رائعة الحسن ففى يوم كنت أسير أنا وفريدون فى الشارع وكانت إستر جالسة على صندوق وقد تهدل شعرها الأصفر السبط على كتفيها ، فوقف فريدون أمامها يحدق النظر فيها ثم التفت إلىّ وقال :

ـــ نفسى أرسمها .

وقد لوت عنق فريدون أكثر من مرة .

كانت إستر تهرول سعيدة إذا ما حددت لها ميعادا للقاء ، وكانت تذهب إلى المكوجى لتكوى الفستان الوحيد الذى كانت تملكه لتخرج به . وكنت أرقبها من الشرفة مشفقا ، كانت سلوتى وإن لم يتفتح لها قلبى ، ففؤادى المجنون قد تعلق بالأخرى وإن كانت أقل جمالا ، لا تعرف عن الإخلاص شيئا إلا الإخلاص لجسدها .

٥٨

كانت الصحف المصرية تصف فى حماس رحلة النسور المصرية ، فقد تخرجت أول دفعة من الطيارين المصريين فى إنجلترا ، وقد تقرر أن يطير طيارونا بطائراتهم الحربية من لندن إلى القاهرة . إنهم قاموا بطائرات « موث » من مطار ليمب ووصلوا إلى ليبورجيه فى فرنسا ، ثلاث ساعات مثيرة قضوها فى الجو وما كانت الطائرة تستطيع أن تحلق أكثر من ذلك ، فهى طائرة صغيرة أسموها بحق « موث » أى الناموسة . إنها مغامرة شدت انتباهنا جميعا وجعلتنا نستشعر زهوا وفخرا ، فإخواننا قد ركبوا متن الجو وأمسكو بأيديهم زمام الفضاء .

وقامت الطائرات المصرية الست من ليبورجيه بفرنسا إلى باريس ، وتناقلت وكالات الأنباء النبأ العظيم ، وأفاضت الصحف المصرية فى وصف الرحلة . واستراح الطيارون وملئت خزانات الطائرات بالوقود ثم استأنفت رحلتها التاريخية من باريس إلى ليون ، وتتبعنا فى انفعال أخبار النسور . ومر يومان ونسورنا الشجعان لم يطووا أرض فرنسا ، إنهم يطيرون من ليون إلى بيجو ومن بيجو إلى مرسيليا . وأخيرا يغادرون

سماء فرنسا ليحلقوا فى أجواء إيطاليا . إنهم يهبطون إلى أرض المطار فى فلورنسا لينعموا بالراحة ويتناولوا المكرونة ويصغوا إلى أبناء الوطن الحبيب من الموظفين المصريين الذين كانوا يهرعون لاستقبالهم فى نشوة واستبشار .

وارتفعت الطائرات لتصارع الجو وتشق طريقها إلى سماء روما تحمل فلذات أكباد مصر وأعز بنيها ، فتية اغتربوا وعرضوا حياتهم للخطر لرفعة بلادهم . وهبطت الطائرات المصرية فى مطار صقلية فامتلأت الأفئدة بالآمال . إنها مرحلة واحدة ثم تلمس الأقدام الأرض الطاهرة ، أرض مصر الغالية .

وطارت الطائرات تحدوها الآمال وتحيط بها القلوب إلى أن هبطت فى مرسى مطروح ، وإذا بالتعليمات تصدر إلى النسور أن ينتظروا بمرسى مطروح حتى تصل إليهم أوامر أخرى .

ستة أيام انقضت وطائرات الموت تحلق فى الجو ثم تهبط لتملأ خزاناتها بالوقود حتى وصلت إلى أحب بقاع الأرض إلى قلوب الاثنى عشر مغامرا الذين قادوا طائرات يعبث بها الهواء ، فما كانت أكثر من ست ريشات فى مهب الريح .

وراح على جمال الدين باشا وزير الحربية والبحرية يتأهب للفتح المبين ، فقد ولد فى وزارته سلاح جديد ، وما أحسب أن أحدا فى مصر قد فطن إلى خطورة ذلك المارد الجديد ، فما فكروا فيه إلا أن يكون مظهر الجيش المصرى مشابها لمظهر الجيوش الأوروبية الراقية !

وقامت الاستعدادات على قدم وساق فى ألماظة لاستقبال الملك فؤاد الأول ، فقد تقرر أن يكون جلالته فى استقبال أول سرب مصرى . ولما كان جلالته سيشرف الحفل فقد راح جميع المسئولين يتنافسون فى الاهتمام بإبراز نواحى الجمال فيه إرضاء للعاهل الذى بيده الأزرار السحرية التى ترفع أو تخفض ، تعز أو تذل أولئك الذين تعلقوا بحطام الدنيا .

ورسموا الطريق الذى سيشقه جلالته إلى ألماظة وشغلت وزارة الخارجية باختيار وفد المستقبلين وما سيقدم لجلالته من مرطبات . وصار جلالته محور كل تفكير كأنما كان النسور المصريون المنتظرون فى مرسى مطروح نمرة فى حفل تكريم صاحب

الجلالة .

وبعد يومين من الاستعدادات صدرت الأوامر للطيارين المصريين بالتحليق إلى القاهرة ، ومنذ الصباح الباكر اصطف جنود الجيش والبوليس من قصر عابدين حتى مطار ألماظة ، وتعطل المرور وتعطلت مصالح الناس وركبوا شططا ليوفروا كل سبل الراحة والاستعلاء لرجل لعبت الصدفة العمياء دورها المجنون ليكون على رأس أمته ، تحلب كل طيباتها لمتعته .

وراح الموكب الملكى يشق القاهرة إلى ألماظة ، فهرع الناس إلى الشرفات وإلى جانبى الطريق ليتسلوا بمشاهدة الركب الفاخر . وإنهم ليسرعون إلى النوافذ إذا ما مست آذانهم أصوات تعلن عن عرس أو أراجوز ، فما كان اصطفاف الناس يوما على ضفتى طريق أو تكدسهم فى النوافذ والشرفات دليلا على حب أو تعاطف مع الذين



يشقون جموع البشر فى كبرياء واستعلاء ، فما أكثر الطغاة والمستبدين الذين خف الناس للتفرج عليهم .

وأزت الطائرات فى سماء القاهرة وحلقت على ارتفاع منخفض ، وكان أزيزها أروع من لحن شجى فى آذان المصريين . إنه صوت عبث بأوتار القلوب وملأ الصدور نشوة وشحن الأرواح بالانفعال والبهجة ، فإذا بدموع تترقرق فى العيون .

وارتفعت صيحات صادقة تعبر عن الفرحة ، وخفقت الأفئدة حبا ، فالقلوب تتعلق بكل ما من شأنه أن يرفع الرءوس ويجعل الأبصار ترنو إلى السماء . ورفعت عينى أرصد النسور فى طياراتهم وأنا فى قمة الانفعال ، وما خطر لى على قلب أن القدر سيربط بينى وبينهم الأسباب ، وأن زهرة عمرى سأقضيها فى هذا السلاح الذى سيعلن مولده عندما تلمس عجلات أول سرب مصرى أرض المطار .

واشترت مصر من إنجلترا ست طائرات أخرى ، وما خطرت خاطرة على فكر مسئول أن يشترى طائرات من دولة أخرى ، فما كان فى مصر من يجرؤ أن يحلم بشراء شيء من غير الدولة المحتلة حتى لا يغضب السادة المتربعين فى قصر الدوبارة ، فخزانة مصر كانت تصب فى خزانة الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس .

وسافر النسور إلى لندن وقادوا طائراتهم وغادروا أرض بريطانيا العظمى وراحوا يحلقون فى فرنسا وتأهبوا للهبوط فى مطار باريس ، كان الضباب كثيفا وكانت الرؤية متعذرة ، وما كان أمامهم إلا محاولة النزول ، فالوقود فى الخزانات على وشك النفاد . وهبطت الطائرات واحدة إثر أخرى، وإذا بطائرة ترتطم بالأرض وتتحطم، إنها طائرة حجاج وشهدى ، ووصل النبأ الفاجع إلى مصر فنزل بالقلوب حزن ، وخرجت مصر تودع جثمان أول شهيدين للسلاح الناشئ .

خاضت المجلات الفنية فى نشر أنباء فؤاد الشامى فقد صار يهدد فنانات الصالات ، وأضفت عليه ألقابا لا بد أنها كانت ترضى غروره الجاهل . كانت تنعته مرة بإمبراطور الليل ومرة بفتوة عماد الدين ، وكنت أقرأ تلك الأبناء وأنا أفكر فى دهش فى أمر عصابة فؤاد . أحقا صار لفؤاد عصابة وأصبح ميدان نشاطها الملاهى الليلية ، أم أن المجلات تبالغ وتكتب تلك المقالات لإثارة قرائها ؟!.

كان فؤاد منذ أن كان صبيا يحاول أن يشد الأنظار إليه ، فكان بمناسبة وبغير مناسبة يستعرض عضلاته ويروى النوادر التى يدلل بها على قوته الجسمانية ، وكان يتميز بجرأة تبلغ مرحلة التهور . حاول أن يكون ملاكما ، وحاول أن يكون رباعا ، وتحدى بطل مصر فى المصارعة دون أن تكون له أدنى خبرة بها وهزم فى الثانية الأولى من المباراة ، ولم يقر بهزيمته بل عزا ذلك إلى المفاجأة . ونجح فى أن يلقى الرعب فى قلوب لاعبى الكرة الذين يوقعهم سوء حظهم فى مباراة فريقنا ، وكنت أركبه بسخرياتى وأنا طفل فلم يتورع عن أن يحملنى بين يديه ويطلب من أخى أحمد أن يتلقفنى ، وبدلا من أن يدفع بى إلى يدى أخى الممدودتين قذفنى فى غيظ إلى الأرض فارتطمت بها وبقيت مدة فى شبه غيبوبة ، تصل إلى مسامعى صرخات أحمد خافتة مفزوعة :

ــ قتلته .. قتلته .

ولما أفقت أحسست ضلوعى تؤلمنى ، ولكن ألم خيانته كان أقسى فى نفسى ، حقيقة جرحت كبرياءه فى ذلك اليوم فإنى تركت معه قرشين منذ أيام وطلبت منه أن يعيدهما إلىّ فأبى ، فما كان منى إلا أن أخذت الكرة وصعدت إلى الشرفة وأخذت أنادى وأنا أطوح الكرة فى الهواء وقد دليتها من رباطها :

ــ من ده بكره .. بقرشين .. من ده بكره .. بقرشين .

وكان جميع رفاق يعلمون قصة القرشين فأخذوا يضحكون وفؤاد يكتم غيظه ،

حتى إذا تعبت من النداء وهبطت لألعب مع الرفاق لم أكن أحسب أن ذلك سيكلفنى غاليا .

وكان فؤاد يملك خيالا خصبا ، كان يروى مغامراته المتخيلة فى أسلوب أخاذ . إنه كان يحلم ولا شك بالبطولة ، كان ينفس عن رغبات تمور فى وجدانه ، وقد كنت أهمس لزملائى فى أثناء استرساله فى رواية أحلامه :

ـــ نتشه .. نتشه .

فإذا ما ضبطنى متلبسا بالهمس كان يتوعدنى فكنت أطلق ساقى للريح . ولكنى أقرر حقيقة لم أكن أكره فؤاد وكنت أحب أن أصغى إلى « نتشاته » ، ولما كثر تهديده لنا وطالت يده علينا تمنيت أن يبتعد عنا وقد كان ، وذهب إلى البكرية والتقى بشباب ضائع فكان أن كون عصابته .

ودفعنى الفضول بعد أن أصبح فؤاد الشامى مادة لا تخلو منها مجلة فنية أن أتقصى أخباره . إننى على كثرة ما سمعت منه لم أسمع قصة تدور حول امرأة أو تعاطى الحشيش أو المخدرات . إن كل ما كان يحلم به أن تنشر صورته فى الصحف بمناسبة ضربه لرقم قياسى فى رفع الأثقال أو الملاكمة أو المصارعة ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق ، ولعل ذلك دفعه إلى أن يتلمس طريقا آخر يحقق فيه ذاته ويؤكد أهميته .

وفى شارع عماد الدين سمعت عن فؤاد حكايات غلفت ولا شك بمبالغات ، فقد فرض إتاوات على كل راقصات الملاهى الليلية ، بعد أن حطم البارات وضرب الفتوات وألقى الرعب فى قلوب الجميع .

ولما سألت :

ـــ وأين البوليس ؟

قيل لى إنه أبرم اتفاقا مع ماركو .

ـــ ومن هو ماركو هذا ؟

فقيل لى إنه كونستابل إنجليزى كان يطلق سراح فؤاد كلما قبض عليه فى مشاجرة ، وكان يحفظ كل ما يقدم ضده من شكايات تقدمها راقصات ضقن به وبرجال عصابته .

كان فؤاد يقبض من أصحاب البارات والملاهى الليلية والراقصات وكان ماركو يقبض من فؤاد . كانت وزارة الداخلية فى أيدى المحتلين وكان الإنجليز هم عصب الوزارة والمشرفين على الأمن ، فكانت تجارة المخدرات فى أيديهم ولم يتورعوا عن حماية المجرمين والخارجين على القانون لقاء أجر معلوم .

كان فؤاد منذ أن كان غلاما قد شق عصا طاعة أسرته ، وكان يتلذذ كلما ارتكب حماقة لا يقرها مجتمعه . ولم يكن فؤاد وحده قد حطم جسور الود بينه وبين ما تعارف الناس عليه بل شاركه فى ذلك أخوه مختار ، ولكن مختارا قد عرف الطريق السوى . فقد وجد أنه يحطم نفسه بعداوته لكل ما تقع عليه عيناه فاستقام ورضى بأن يكون واحدا فى ركب رضى بواقعه ، يتحرك فى دائرة إمكانياته وآماله ومشروعاته المقبلة ؛ أما فؤاد فقد غرق فى الأحلام وظل يرنو إلى ما يريد أن يكونه ، ثم انطلق فى سبيله وقد داس كل المبادىء والقيم .

وفى ذات صباح قرأت فى الصحف أن عصابة فؤاد الشامى قد قتلت فى ملهى البوسفور الراقصة امتثال فوزى ، وأنه قد قبض على حسين إبراهيم حسين بتهمة القتل . وهرعت إلى شارع سوق الجراية فرأيت العم إبراهيم فى دكانه والها حزينا فأحسست أسى ، وكنت فى أعماق أومن أن حسينا قد جر إلى الاشتراك فى تلك الجريمة جرا .

كنت أعرف أن كلمة طيبة تدفع الفتى إلى القيام بأية مغامرة ، كنا نقول له :

ـــ بقى يصح يا أبو الحسْن ان البيت اللى قدامنا يدار للدعارة وانت موجود ؟

فإذا به يأتى فى جنح الليل مع بعض أصدقائه ويضربون كل من فى البيت المشبوه ، ولا يغادر المكان قبل أن يترك من فيه الحى كله .

إن فؤاد قد استغل فيه هذه الناحية ولا شك ، فرحت أتقصى الحقائق أسأل كل من يعرفون حسين زكنة عن قرب ، فإذا بالصورة تكتمل أمام خيالى ، جاءه فؤاد وقال له :

ـــ أبو الحسن ! عايزين نشوف ضربة رقبة القزازة .

ولم يكذب أبو الحسن خبرا ، فجاء بزجاجة وكسرها وأخذ رقبتها وراح يسنها

ثلاثة أيام ، ثم أخفاها فى ملابسه وذهب إلى كازينو البوسفور وجلس يتربص ، حتى إذا قامت امتثال فوزى تغنى وترقص انقض عليها وضربها ضربات قاتلة ، وماتت امتثال وألقى فى غيابة السجن فؤاد الشامى وعصابته ثمرة التمرد والضياع .

٦٠

كان البرلمان يتكون من مجلسين : مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، وكان معظم الشيوخ من أصحاب الإقطاعيات ، فإذا ما جاء يوم الانتخابات عاش الباشا المرشح بين فلاحيه يغمرهم بعطفه ورعايته ، حتى إذا ما كان يوم الانتخاب كدسهم فى اللوريات ونقلهم إلى مكاتب الانتخاب كما تنقل المواشى إلى السلخانات!

كان الفلاحون هم أصحاب الأصوات وكانوا يؤيدون صاحب الأرض أو من يؤيده صاحب الأرض فما كانت لهم إرادة ؛ أما فى المدن فقد نجحت الصحافة الوفدية فى أن تكون رأيا عاما وفى أن تهدم أى زعيم لا يرضى عنه الوفد وإن كان من أنفع الزعماء وأخلصهم لبلاده .

كان الفلاحون فى قبضة الوفديين وكان زعماء الطلبة منهم ، فكان أن صارت إرادة الأمة ، إلا أن طبقة جديدة قد بدأت تتكون بعد أن أسس بنك مصر شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة ، فقد صار هناك لأول مرة فى مصر تجمع عمالى له شأنه .

كان العمال قبل ذلك مبعثرين فى القاهرة والإسكندرية وبعض عواصم المحافظات ، وكانوا يعملون فى الصناعات اليدوية الصغيرة أو فى محال التجارة أو فى بعض شركات السجاير و الدخان التى كانت تعتمد فى لف السجاير باليد على صغار الفتيان والفتيات . وكان لهؤلاء العمال ممثلون فى الأحزاب ، وكان الدكتور محجوب ثابت مستشارهم ، وكان الدكتور محجوب ينصحهم بأن يجانبوا الأحزاب لمصلحتهم ومصلحة وطنهم ويقول لهم :

ـــ لا تكونوا مطايا للأشخاص ، احذروا الزعماء والمتزعمين وسماسرتهم المستغلين . لا تتحزبوا بل قفوا ما يعمل لمصلحتكم سلبيا ، وليكن تأييدكم لكل حزب

بقدر ما يعمل لمصلحتكم ومصلحة وطنكم . أيدوا من يعمل لكم خيرا واخذلوا من يحاول تسخيركم . ولا أريد أن يكون لسان حالى يوما ما : « ذل من دافع عن الذليل » . وكونوا أعزاء النفوس ولا تقصروا عنقى ، ولا تسمعوا القول الذين يقولون لكم أيدوا الأحزاب « على بياض » ، وأكرر لكم القول والنصيحة أن يكون تأييدكم لكل حزب بقدر ما يعمل لرفع مستواكم من حيث المعيشة والصحة والنهوض بكم إلى مستوى كريم ، ولكن لا تنسوا استقلال مصر وسودانها والسودان ومصره .

هاجمت الصحف الوفدية الدكتور ، ولكن لم يجد الوفد فى العمال ما يشغل تفكيره فعمال السكك الحديدية وهم أكبر تجمع عمالى يدينون بالولاء له . ولكن بعد أن أخذت الصناعة تنمو فى البلاد وأخذت العمالة فى التضخم وأصبح لأصوات العمال فى الانتخابات أهمية ، فكر الوفد فى أن ينصب لهم زعيما وفديا .

كان النبيل عباس حليم قد انتقد الأسرة المالكة فغضب عليه الملك وحرمه من لقبه ، وكان إذا ما غضب الملك على أحد أسرع الوفد فى احتضانه ، فراحت الصحف الوفدية تفيض بأنباء عباس حليم بعد أن خلعت عليه لقب « الشريف » عباس حليم .

وراح عباس حليم بإيعاز من الوفد يتصل بالعمال ، وكانت الصحافة الوفدية على علم بأهداف ذلك فكانت تتبع خطواته وتصف اجتماعاته ومشروعاته ، وصارت كلما ذكرت اسمه أردفته بلقبه الجديد « زعيم العمال » .

وعلى مر الأيام صار عباس حليم زعيما للعمال بفضل الصحافة الوفدية والمستغلين والمتملقين لكل ذى نفوذ وسلطان ، وصار الشريف لا يسير إلا فى زفة من الأنصار .

وفى ذات يوم أراد أن يحض العمال على التماسك والترابط فجمعهم ووقف فيهم خطيبا وقال :

ـــ فيه واحد حبل نازل من السما ، كله يمسك فيه .

أراد أن يستشهد بقول الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . فلم تسعفه اللغة ، فراح يعبر عن الآية الكريمة بأسلوب عامى ركيك على قدر فهمه وتصوره . ولم يكن عباس حليم من العمال وما كان بقادر على أن يعبر عن آلامهم وامالهم ، وكان كل ما يمتاز به أنه من الأسرة المالكة ، من الأسرة التى يجرى فى عروقها

الدم الأزرق النبيل وكان لذلك سحره وتأثيره ، وزاد فى قدره أنه وقف فى صف أعداء الملك وكان ذلك وحده كافيا فى نظر الوفد لاعتبار الرجل من كبار الوطنيين !

لم يكن يهم فى شيء معرفة أسباب الخلاف بين الملك وبين النبيل السابق أهى خلافات شخصية أم خلافات من أجل مصلحة الوطن ، المهم أن الخلاف قد وقع وأن النبيل السابق قد صار فى المعسكر المناوئ للملك فصار من الواجب على الوفد مكافأته .

ألم يكن فى الوفد من يصلح لزعامة العمال غير عباس حليم ؟! أليس فى تنصيب الرجل الذى لم تكن بينه وبين العمال أدنى صلة على رأس الطبقة الجديدة التى بدأت تتكون ليكون لها أثر كبير فى سياسة البلاد استخفاف بالعقول وتحقير لشأن العمال ؟

كان الوفد فى ذلك الوقت واثقا من نفسه حتى لقد ذاع بين الناس القول المشهور : لو رشح الوفد حمارا فى أية دائرة فسيفوز فى الانتخابات على أى مرشح غير وفدى ، فلم يشغل نفسه فى التفكير فى مدى صلاحية عباس حليم للزعامة الجديدة ونادى به زعيما ، وعلى أنصاره المنتشرين فى طول البلاد وعرضها أن يقبلوا هذا الوضع وأن يؤيدوه .

كان همس خافت يدور بين الذين بقى لهم ظل من رأى من الوفديين بأنه إذا كان ولا بد من زعامة للعمال فلماذا لا يكون زهير صبرى قائدهم وحبيبهم ؟ كان زهير صبرى قد طلع على الناس بتقليعة جديدة فى زمن التقاليع ، كان يزعم أنه شيوعى ملكى ، أى أنه يؤمن بالشيوعية وفى نفس الوقت يدين بالولاء للملك فؤاد الأول . وكانت الشيوعية بغيضة إلى قلوب شعب عرف التدين منذ فجر التاريخ ، فهى الكفر والإلحاد ولا شيء غيرهما ، لذلك أعرض عنه الناس بما فيهم العمال . وما كان أحد بقادر على أن يسخر من زعمه فما كانت مبادئ الشيوعية قد عرفت بين الجماهير ، وما كان أحد ليجرؤ على أن يهزأ بمن لاذ بعاهل البلاد .

وكان التمسح بالأعتاب الملكية الصفة المميزة لذلك العهد ، فرؤساء الاتحادات والأندية الرياضية والأندية السياسية من البيت الملكى الكريم ، وكانت القلوب تخفق بالبهجة والسرور إذا ما قام أحد السادة الأمجاد وخطب بلغة عربية مرغ فيها أنف سيبويه

فى التراب ، فيا لفرحة المصريين عندما يسمعون أحدا من المتعالين يحدثهم بلغتهم وإن تحطمت على شفتيه .

قبل الناس زعامة عباس حليم للعمال دون مناقشة ، حتى الذين كانوا يجتمعون فى السلاملك لم يجدوا فى ذلك شيئا غريبا ، إن الشيء الذى أغضبهم أن لقبوا عباس حليم « بالشريف » فهو ليس من نسل النبى ، فالأشراف لا بد وأن يكونوا من نسل محمد ﷺ ، وهؤلاء لهم سجل فى وزارة الأوقاف تجرى على الفقراء منهم الأرزاق ، وعباس حليم ليس له ذكر فى ذلك السجل الشريف !

٦١

كنت أخرج عقب مباراة الكرة إلى ميدان الظاهر ، وكنت ألعب كل يوم مباراة فى أماكن متفرقة : فى حيِّنا .. فى الشرابية .. فى أرض قره ميدان فى القلعة .. فى سوق قليوب .. فى أرض العيون بالعباسية الشرقية .. فى نادى السكة الحديد . وما إن أسير فى شارعنا حتى تجرى إستر لتلحق بى ، فكنا نجوس خلال شوارع السكاكينى أو نركب الترام إلى الجزيرة وما كنا نذهب إلى السينما أبدا فما كانت إستر تحب مشاهدتها .

وما كان يمر يوم إلا وألتقى أنا وهى ، وقد أحسست أنها تعلقت بى ولكنها لم تستطع أن تغسل عن قلبى بصمات فورتينيه ، فإننى كنت أجاهد نفسى لكيلا أذهب كل ليلة إلى محطة ترام الظاهر لأنتظرها كما اعتدت أن أفعل من قبل . كانت معارك رهيبة تنشب فى وجدانى بين فؤادى وعقلى وكرامتى ، وكانت كرامتى تنتصر بعد مجاهدة ومعاناة ومقاومة تيار عواطفى . ولكى أكون صادقا أقول إن تيار مشاعرى قد انتصر مرات فخرجت أرقب هبوطها من الترام متلصصا حتى إذا ما أقبلت نحوى هربت من طريقها خافق القلب مذعورا .

كانت علاقتى بفورتينيه رياضة لروحى وإرادتى . إننى كنت أصلى لربى وما كانت صلاتى لضغط من أبى أو أمى بل كانت عن اقتناع . لقد كنت أرى الله فى كل ما أمد

إليه عيني ، ولكن كان لى قلب يهفو إلى الجنس الآخر فلم يكن طريق الفضيلة مفروشا بالورود ، إنه طريق شاق ليس فيه إلا مجاهدة وعنت وإرهاق .

إن الاستجابة لرغبات فورتينيه أيسر من الصمود ، فما أسهل الهبوط وأيسر الاستسلام للإغراء ، وقد كدت أستسلم لها أكثر من مرة لولا ذلك الخجل العنيف الذى استشعرت به فى ضميرى ، فقد كنت فى الجهر والخفاء أستشعر أن الله يسرى فىّ مسرى الدم .

كنت فى كل أطوار حياتى أهفو إلى السماء ، فإذا ما ارتكبت هفوة كان ضميرى يعنفنى فى صرامة ، فكانت أية لذة عابرة لا تتساوق مع ألم النفس والندم والعذاب . لذلك كنت أرتجف فرقا من أن يقودنى ضعفى إلى الاستغراق فى لذة محرمة تنخر فى قلب وجودى وتسوقنى إلى مسالك البوار .

أذكر أن أم فورتينيه نادتنى أيام أن كانوا ساكنين أمامنا وطلبت منى أن أمكث مع فورتينيه المريضة لأنها وحدها إلى أن تنطلق الأم إلى الصيدلية لتحضر لها الدواء ، فدخلت وجلست بجوار سريرها . فما إن خرجت الأم وأغلقت خلفها الباب حتى نهضت فورتينيه ومالت على وأخذت تقبلنى فى سعار .

تدفقت الدماء حارة فى عروقى وكدت أغيب فى غيبوبة النشوة ، وإذا بصرخة تنبعث من أعماق وجودى تحذرنى من عواقب ضعفى واستسلامى . إنها لحظة لذة فى أعقابها شقاء طويل وألم عميق وحساب عسير .

واضطربت بين يديها ولفنى قلق حائر سرعان ما انقشع ، فقد اطمأن قلبى لما تذكرت الله وأحسست حريتى تعود إلى بعد أن كدت أتردى فى مهاوى عبودية جسدينا ، فأبعدتها عنى فى رفق ووضعت رأسها على الوسادة ثم سحبت عليها الغطاء .

كدت أسمع قهقهات الرذيلة تدوى فى أرجاء المكان ساخرة من تصرفى الصبيانى ، وقرأت فى عينيها الضيق والاستخفاف بل والازدراء ، ولكننى كنت سعيدا سعادة حقة بانتصارى على ضعفى وعلى شيطانى الذى كان يزين لى الخطيئة ويوسوس فى أغوارى أن الله فتح لعباده أبواب التوبة وأنه غفور ستار .

كانت فورتينيه تبذل كل ما لديها من إغراء لتعصف بى ، وكنت أقاوم وأتألم وكان

الألم يردنى إلى ذاتى ، فما كنت أريد منها ذلك الجسد المبذول لكل من يتصل بها بل كنت أريد منها أن أغذى ذلك السر الإلهى الذى يجعل روحا تهفو إلى روح .

لو كان الجمال هو الذى يأسرنا لوجدت فى إستر عزاء عنها ، فهى أجمل منها ؛ ولكننى لم أكن أحس معها تلك الإحساسات العميقة المرهفة القادرة على تذوق الألم واللذة معا ، تلك المشاعر التى كانت تزيد فى خصب ذاتى وتترك أثرا عميقا فى وجدانى .

تركت فورتينيه حينا وسكنت مع أهلها فى البكرية لا يفصل بينى وبينها إلا شارع الخليج المصرى ، فكنت أذهب إلى محطة ترام الظاهر أنتظرها وأسير إلى جوارها مغتبطا حتى باب بيتها . وفى ذات ليلة أرادت أن تأخذنى إلى سطح الدار وكدت أستجيب لها ، وبينا كنا نصعد فى الدرج المظلم إذا بصوت ساكنة تحت شقتها تقول فى صوت مفزوع :

ــ مين ؟.. مين اللى طالع ؟

وفى خضة قفزت الدرجات هاربا وأنا أسمع المشاجرة التى نشبت بين فورتينيه وبين جارتها . كانت فورتينيه تلوم جارتها لأنها تسأل عمن هناك كلما سمعت وقع أقدام ، وراحت غيرتى تؤكد لى أن فورتينيه قد اعتادت أن تأخذ عشاقها إلى السطح وأن الجارة تفسد تدبيرها فى بعض الأحيان .

وبعد تلك الليلة أخذت أقاوم ضعفى فلم أعد أذهب لانتظارها فى المساء وإن كانت كل خلجة من خلجاتى تهتف بى أن أنطلق لأسعد باللحظات التى أسير فيها إلى جوارها من ميدان الظاهر إلى بيتها ، وما كانت المسافة لتزيد عن مئات الأمتار !

كنت أقابل صديقها الجديد جارها الذى كان يستطيع أن يصافحها من شرفته إذا ما كانت فى شرفتها المقابلة ، فقد كان الشارع الذى تسكن فيه ضيقا لا يسمح بمرور أكثر من سيارة فى اتجاه واحد ، وكنا نكتفى بالتحية من بعيد . وكم كانت دهشتى عندما جاء إلى فى السلاملك يشكو مما شكا منه محمود أبو شفاتير من قبل ، إنه يشكو نهمها الذى لا يعرف الشبع .

لم أحس ارتياحا لحديثه وإن عجبت فى قرارة نفسى من أنه يأتى إلى ليشكو من

جوعها الجنسى . لماذا أنا بالذات ؟! وانتابنى ضيق وقلق واشمئزاز وقررت أن أقطع كل صلة بينى وبينها وأن أكبح جماح عواطفى ، وأن أدوس قلبى المجنون الذى كاد أن يمرغ كرامتى فى الأوحال .

وقد كان فلم أذهب لمقابلتها و لم أعد أزور أهلها ، حتى إننى لم أعرف أنهم قد تركوا الحى إلا مصادفة من بقال يهودى كنت أنا وهى نقف عنده نتحدث طويلا فى بعض الأمسيات .

٦٢

كان عيد الأضحى على الأبواب فكان حديث زوار السلاملك الحج ومراسمه ، وشوق العم سيد الشامى إلى أداء الفريضة ، وقرار إبراهيم الشرى أن يحج فى العام القابل ، وتعليق الجميع على ذلك القرار وذكر بعض النتف عن « شقاوة » الشيخ إبراهيم والتعقيب على مغامراته بأن الله غفور رحيم . وقد سكت أبى عما كابد من متاعب فى حجته ، ولا أدرى أكان ذلك لأن ذكر المشاق التى يتحملها الحاج صده عن بيت الله أم لأن أبى بطبعه لا يحب أن يشكو أو يتململ ؟!

وكانت أصوات الخراف التى وضعت فى البدروم ترتفع بين آن وآن ، فإذا بأحدهم يلتقط من تلك الأصوات خيط الحديث فيتكلم فى الأضحية وحكمتها ، وما كنت قد عرفت بعد أن الشعوب البدائية كانت تتقرب إلى آلهتها بذبح الأبناء الأبكار وأن الله سبحانه وتعالى قد شرع ذبح الأضاحى نسخا لتلك العادة .

وانقضت ساعات السمر وانقضى السمار ودخلت إلى فراشى فإذا بى أحس أن حرارتى قد ارتفعت ، فرأيت بعد تفكير أن أكتم ما ألم بى حتى لا أحرم من مشاركة أهل الدار فى التهام اللحم المشوى صبيحة يوم العيد و لم يبق عليه إلا يومان .

ونمت و لم أستيقظ إلا بعد أن تسللت الشمس من نافذة حجرتى وغمرت وجهى تلسعنى حرارتها ، فقمت وأنا أترنح أرد دوارى إلى حرارة الشمس وأنكر على نفسى مرضى ، فما أقدرنا على أن نكذب على أنفسنا وأن نصدق كذبنا !

ومر اليوم وجاءت لحظة استعدادنا للذهاب إلى ملعب الكرة القريب من دارنا ، فقد كانت هناك مباراة بيننا وبين فريق من فرق الأحياء المجاورة وما كان أكثرها فى ذلك الوقت ، فتحاملت على نفسى ولبست ملابس اللعب وذهبت مع الرفاق وأنا أستشعر أن جسمى يحن إلى الأرض يريد أن ينقض .

وسمعت صفارة الحكم كطنين فى أذنى ، ومددت عينى أنظر فإذا بكل شىء يتراقص فخطر لى أن أنسحب من الميدان ، ولكننى نحيت ذلك الخاطر جانبا فما كنت لأترك فريقى يلعب ناقصا ، واستمررت فى اللعب أجرى وأقفز وأهجم واتقهقر وإن كنت أستشعر أن قدمى أضعف من أن تحملانى .

وطال وقت اللعب وكان يمر قبل ذلك اليوم كلمح البصر ، فلما سمعت صفارة الانتهاء سرت بين الرفاق إلى البيت أسمع أصواتهم متداخلة لا أدرى ما إذا كنا قد انتصرنا أو هزمنا . وانسللت أتحامل على نفسى حتى وصلت إلى سريرى فتمددت فيه ألتقط أنفاسى ، أقاسى من النار التى اشتعلت فى جسمى .

كان مرض الدنجى منتشرا فى تلك الأيام ؛ إنه حمى قاسية تصيب الرأس بالدوار وتفكك الأوصال وترفع درجة الحرارة ، وقد قيل إنه يحدث انفجارا بالأذنين قبل أن يسوق فريسته إلى الموت ، وقد بت موقنا تلك الليلة أننى سقطت فريسة للدنجى .

أأقول لأمى إننى مريض لتحرمنى من مشاركة إخوتى فى أكل لحم الأضحية المشوى فى الصباح الباكر ؟ وما فكرت طويلا فقد قررت أن أكتم أمر مرضى وأن آكل مع الآكلين وليكن بعد ذلك ما يكون . لم تغمض لى عين فالحرارة التى غمرتنى أطارت النوم من عينى . وانتصف الليل وإذا بانفجار يدوى فى أذنى فأرهفت كل حواسى ، بل أصبحت كتلة من الحواس وانتابنى ذعر شديد ، إننى أموت وحدى ، أأصرخ ؟ وما فائدة الصراخ ؟ إننى أمسيت بين يدى الله . وفيم الهلع وقد انتهى كل شىء ؟ إن من الحكمة أن أؤدى حق الله ، أن أصلى له ، أن أسأله بدموعى أن يغفر لى ، أن أكون أهلا للحياة الجديدة التى سأقدم عليها .

وفى لحظة بات الكون كله أنا والله جل جلاله ، أنا شىء صغير قد استسلم لمصيره وتعلق كل رجائه بالحقيقة الكبرى ، بذى الفضل العظيم ، بالرءوف الرحيم ، بالغفور

الحليم ، بالحى القيوم ، بالسميع العليم ، بالرحمن الرحيم .

وأضاءت فى وجدانى عين صارت ترى أشياء جديدة ، أشياء لا تجسد ، بل أنوارا تنتشر فى أرجائى تمنحني أمنا وسلاما . ورأيت أن أتوضأ ولكن كيف أنهض إلى حيث الماء وأنا على أعتاب الآخرة أطوى تجربة الدنيا لأدخل تجربة جديدة مثيرة ؟ ولمست الجدار القريب مني وتيممت وأنا أعجب فى أعماق من ذلك الهدوء الذى لفنى ، وما انتهيت من مسح قدمى حتى توجهت فى نومى إلى القبلة وصليت وأنا نائم ركعتين ، كانت صلاتى مناجاة حارة لربى . وقد كنت خاشعا خشوعا مهيبا وكانت ابتهالاتى مبللة بدموعى . وانتهيت من صلاتى وأنا أستشعر راحة لم أحسها لما صليت بعد ذلك فى جوف الكعبة .

وانتظرت فى هدوء خروج روحى من جسدى لأخرج من سجن المادة وأبدأ الرحلة الأبدية رحلة الخلود ، وإذا بأصوات فى الشارع تصل إلى مسامعى . إننى أسمع ، كيف أسمع بعد أن انفجرت طبلتا أذنى ؟ لعلى أسمع من العالم الآخر ! وتحسست جسمى بيدى وعجبت لأنى أحس مرور يدى على وجهى .. على عنقى .. على صدرى . إن روحى لا تزال تسرى فى بدنى . ورفعت رأسى وتحاملت فإذا بى جالس فى فراشى . وزحفت حتى حافة السرير ثم هبطت قائما على رجلى وسرت إلى البلكون وفتحتها ودخلت ، وما نظرت إلى مصدر الأصوات حتى وجدت أناسا يتعاونون على استبدال عجلة سيارة بالعجلة الاحتياطية .

إن ما سمعته لم يكن انفجار أذنى بل انفجار كاوتش سيارة . وسرت فى بدنى رعدة ودثرنى خوف وامتلأت رعبا وعجبت للمشاعر التى مارت فى كيانى وثارت ثورة بركان . كنت أحسب أن الفرحة ستعربد بين جنبى وأن الطمأنينة ستغمرنى لما تأكدت أننى لا أزال على قيد الحياة فإذا بى أرتجف من الرأس إلى القدم ، وإذا بقلبى يخفق فى وله قلق وما دريت كنه تلك المشاعر الغريبة . أكانت للتعبير عن الخوف من أن حياتى كادت أن تطوى أم كانت للتعبير عن الخوف من أن الحياة لا تزال لها بقية ؟

وعدت إلى فراشى ونمت ، وفى الصباح الباكر استيقظت على رائحة شواء . إن إخوتى قد بدأوا فى وضع أسياخ اللحم على مواقد الفحم ، فهببت من نومى وأسرعت

إلى السطح فإذا بمن فيه من أهلى يتخاطفون ما يتم نضجه ويلقون به فى الأفواه ، فرحت أشق طريقى إلى حيث وضع الإناء الذى يوضع فيه اللحم المشوى ، وأخذت أخطف كالصقر كل ما يسلت من الأسياخ . وبعد أن أكلت حتى امتلأت أحسست الحمى تنقشع ، ومنذ ذلك اليوم وأنا أعالج الحمى بالكباب .

٦٣

فى الإجازة الصيفية عرف سعيد الرواية الإنجليزية المقررة على البكالوريا فى العام التالى ، كانت مسرحية « كريتون العجيب » ففاتح أحد زملائه فى أن يقوما بترجمتها . واختمرت الفكرة فى رأسيهما فأى عمل يقومان به خير من الانتظار فى البيت بلا عمل . وقام أحدهما بترجمة الفصل الأول والفصل الثالث وقام الآخر بترجمة الفصل الثانى والفصل الرابع .

وانتهيا من الترجمة وقامت فى وجهيهما العقبة التى تقوم فى وجه كل من يبتدئ الترجمة أو التأليف . أين الناشر الذى يقبل أن ينشر مسرحية مترجمة لمترجمين ناشئين وإن كان مقررة على طلبة البكالوريا ؟ وراحا يبحثان عن ناشر فى شارع الفجالة فى حى مكتبات الكتب المدرسية ، فوجدا ناشرا قبل تلك المغامرة واتفق معهما على أن يعطيهما مقابل الترجمة مائتين من النسخ ، يقومان بتوزيعها وتحصيل ثمنها .

وابتدأت السنة الدراسية وعرفت الترجمة طريقها إلى الطلبة ، فإذا بذلك الرواج يفتح شهية سعيد والناشر معا ، فاتفقا على أن يقوم سعيد بجمع المحفوظات الإنجليزية فى كتاب ، وأن يقوم بشرحها وترجمتها إلى العربية وأن يشترك فى نصف التكاليف وأن يكون له نصف الأرباح .

وراح سعيد يغدو ويروح بين الناشر وبين المطبعة ، وفى أثناء تردد أخى على الناشر دار بينهما حوار ، لماذا لا يشتركان معا فى المكتبة كما اشتركا فى الكتاب ؟ ووافق الطرفان على الفكرة ولم يبق إلا التنفيذ .

وظهر كتاب المحفوظات الإنجليزية ، وأرسل سعيد السائق ليحضر له مائة نسخة

من الكتاب لأوزعها على رفاق فى المدرسة ، فعاد السائق بالنسخ . ثم أرسله مرة ثانية ليحضر مائة نسخة أخرى فسرعان ما عاد بها . ولما أرسله المرة الثالثة قال له الناشر إن نصيب سعيد قد سدد .

وغضب سعيد وثار ، ولكنه حمد الله أن كشف الله ذلك الناشر قبل أن يشاركه فى المكتبة . وانطلق سعيد إلى الفجالة ليعاتب الرجل ويحاسبه ، فإذا به يجد عنده فتاتين ، فما إن رأى سعيد حتى قال له :

ــ تعال نخطف رجلنا للمطبعة بالحسين .

وذهب الجميع إلى المطبعة ، وما إن انتهى العمل بها حتى قال صاحب المكتبة :

ــ تعالوا نتعشى عند الدهان .

وذهبوا إلى الصاغة وصعدوا إلى إحدى الغرف المعدة للأسر المصونة ، وجلس الناشر وفتاة فى ناحية وجلس سعيد فى الناحية الأخرى ، وإذا بالفتاة الثانية تأتى لتجلس إلى جواره وابتسم الناشر فى رضا ونظر إلى أخى نظرة تطمئنه أنه رجل لا يأكل حقوق الشركاء .

وطلب الناشر زجاجة خمر ووجد سعيد نفسه فى مأزق ، وقبل أن يعتذر بأنه لا يشرب قيل للرجل إن المحل لا يقدم خمورا ما دام معهم نساء . ودار حوار ودارت أفكار كثيرة فى رأس سعيد ، أينسحب ؟! أيفاتح الرجل فى وقت مجونه فى أمر كتاب المحفوظات ؟! أيستحق مثل هذا الماجن عتابا ؟! إنه ضيق الأفق طمع فى مبلغ زهيد وأبى جشعه إلا أن ينفرد وحده بالكتاب وأرباحه وكان فى مقدوره أن يتريث وأن يجعل من ذلك الكتاب طعما ليصطاد به كل ما سيدفعه سعيد لقاء أن يصبح شريكا فى نصف المكتبة !

إن غباء الرجل ونهمه لأكل أموال الناس بالباطل قد كشفه من أول معاملة ، وقرر سعيد أن يكون ذلك اللقاء فراقا بينهما فما حدث إن هو إلا رحمة من ربه . إنه لا يزال حرا ولم يتورط فى شركة ولم يدفع للرجل ما يندم عليه أو يقتل آماله ويحطم مستقبله .

وجيء بالكباب وأكل الجميع ثم وضع العنب أمامهم ، فإذا بالفتاة تضع العنب فى فم سعيد والرجل الآخر يبتسم فى سعادة فقد حسب أنه قد طوى الشاب لما أراد أن

يضعه فى أول الطريق الذى غالبا ما يفقد فيه كل شاب إرادته ويصبح عبدا لمن ييسر له إطفاء شهواته ، فعقول أغلب الناس فى فروجهم .

ونهض سعيد واستأذن فى الانصراف قائلا إن فى البيت من ينتظرونه وقد قال صدقا ، فإننا لم نكن لنستطيع أن نغيب عن موعد الغداء أو العشاء حتى بعد أن نتزوج إلا إذا اعتذرنا مسبقا ، وإلا فإن من فى البيت ينتظروننا فى ترقب وقلق .

وبعد أيام جاء إلى السلاملك مدرس ممن له كتب مدرسية كثيرة وممن لدغوا مرارا من الناشر الذى ملأ بطنه من الحرام ، وراح الرجل يقدح فى الرجل ويقول لسعيد فى دهش واستغراب :

ــ بقى انت تشارك الرجل ده ؟!

وتحدث كثيرا ثم قال :

ــ إذا كنت عايز مكتبة ما عندك مكتبة مصر ، أصحابها عايزين يبيعوها ؟



— مكتبة مصر .. فين دى ؟

— فى شارع الفجالة .

وراح يصف مكان المكتبة وسعيد يظهر عجبه من أنه سار كثيرا فى شارع الفجالة ولم تقع عيناه عليها .

وفى الصباح ذهب سعيد إلى الفجالة ووقف يعاين المكتبة من بعيد . إنها مظلمة تحتاج إلى تغيير شامل . وراح يفكر فى ذلك التغيير ولم يدخل ليسأل أصحابها عما إذا كانوا يرغبون حقا فى بيعها ، فإننا جميعا نحجم عن أن نبدأ الناس بأسئلة قد يكون الرفض جوابها .

وأرسل سائق السيارة يسأل أصحاب المكتبة عن مدى استعدادهم لبيعها ، فإذا بالسائق يعود ليخبرنا أن الناس فى انتظار أبى وسعيد غدا عصر الجمعة ليناقشوا الموضوع .

وفى مساء يوم الجمعة عاد سعيد إلى البيت متفرحا ، إنه أصبح صاحب مكتبة وصار له عمل غير أن يكون زوجا ، وتفتحت أمامه آمال عريضة .

٦٤

كان أبى قد أصدر أوامره إلى السائق أن يغلق السيارة وأن يعود إليه بمفاتيحها إذا حاول أحدنا أن يسوقها . كانت أوامر صريحة لا لبس فيها ولا غموض ، وقد راودتنى مرارا فكرة أن أخالف تعليماته وأن أقود السيارة ولكننى فى أعماق ما كانت أحب أن أغضب أبى فى سبيل نزوة طائشة .

وحدث ذات يوم أن كان عندى مباراة فى نادى السكة الحديد فى جزيرة بدران ، وكانت مباراة هامة بالنسبة لى فقد كنت مرشحا للعب فى فريق النادى . وأمضيت النهار فى المدرسة مفكرا قلقا ، وقد زاد ضيقى أنى تأخرت فى الانصراف ولم يبق أمامى إلا نصف ساعة لأذهب من العباسية إلى شبرا وأرتدى ملابس اللعب وأتأهب للمباراة .

و لم يكن أمامى إلا أن آخذ السيارة وأنطلق بها إلى هناك ، فذهبت إلى الجراج وما كانت السيارة تحتاج إلى مفتاح خاص لإدارتها فجهاز الإدارة كان مثبتا بها ، يكفى أن تضغط عليه ليدور المحرك . وفى لحظات كنت خلف عجلة القيادة وانقشع ترددى وتركز كل انتباهى فى القيادة فقد كانت هذه أول مرة أقود فيها سيارة، وسرت فى شارع الفجالة وقد أرهفت كل حواسى ، إن الترام يغدو ويروح فى الشارع الضيق ولا يترك إلا طريقا بينه وبين الرصيف كأنه الصراط المستقيم .

وخرجت إلى ميدان محطة مصر بسلام ، ثم انحرفت بين الزحام لأرقى كوبرى شبرا . كان الترام يسير فوق الكوبرى ، ومن عجب أن محطته كانت فى منتصف الكوبرى وأنه فى سيره ينحرف نحو الرصيف كأنما يحن إلى الارتماء فى أحضانه .

وصعدت الكوبرى وقد اضطررت إلى أن أسير إلى أقصى اليمين ، حتى إن الإطار الأيمن الأمامى كان يحتك بالرصيف من وقت لآخر ، ووصلت إلى قمة الكوبرى وعنده محطة عتيدة وراح الركاب يهبطون ويصعدون وأنا أتقدم بالسيارة فى حذر ، وفجأة رأيت رجلا يهبط من الترام ليركب غطاء محرك السيارة !

وخرج السباب من فم الرجل فى سرعة طلقات رصاص تخرج من مدفع ماكينة ، وتجمهر الناس وجاء شرطى أخيرا وقادنا إلى قسم الأزبكية وكان يفصل بينه وبين شارع الفجالة بضعة أمتار . ولا أدرى كيف طار الخبر إلى أخى سعيد فى مكتبته ، ولا أدرى ما إذا كان سعيد قد اتصل بأبى فى المحل أو بأخى محمد ، كل ما أحسست به أنى وجدت محمدا والسائق إلى جوارى فى القسم ، فشد ذلك فى أزرى وأحسست نوعا من الاطمئنان .

وظل الرجل يهددنى ويتوعدنى وكان يردد بين كل تهديد ووعيد :

ــ أنا ح اعرف ازاى أربيك .

كان الرجل موظفا فى الخاصة الملكية وكان مزهوا بوظيفته ، فالاعتداء عليه اعتداء على صاحب الجلالة الذى يتشرف بالعمل فى خاصته . وبينما كان الرجل يرغى ويزبد إذا بساحة القسم تمتلئ بنسوة يقودهن رجال الشرطة .

وأطلق سراح النسوة فى الساحة ، فكنا نحن وهن كحيوانات طليقة فى قفص

سياجه رجال الشرطة ، وجاءت إلىّ امرأة منهن تشكو قالت :

ــ جابونا من سرايرنا ، كنا نايمين فى أمان الله لا بينا ولا علينا .

وإذا بمخبر يرتدى جلبابا طويلا لا يخفى الحذاء الضخم الذى يصرخ بأن لابسه مخبر يأتى إلىّ ويقبض على ياقةجاكتتى بيد من حديد ويقول فى صوت مستفسر غاضب :

ــ انت معاها ؟

و لم ترتعد فرائصى بل أحسست بقهقه ساخرة فى أعماق وقلت فى هدوء :

ــ أنا هنا عشان دست واحد .

ودخل كل الذين ضبطوا فى بيت الدعارة إلى غرفة الضابط وبقيت أنا وموظف الخاصة الملكية وأخى والسائق فى ساحة القسم نتبادل النظرات . وإذا بأخى محمد يتقدم إلى الرجل ويحاوره ، كان يلتمس منه أن يتنازل عن شكواه ما دام سليما ، إلا أن الرجل أصر على تأديبى .

وراحت الأصوات تأتى إلينا من غرفة التحقيق ، النسوة يحاولن التملص من التهمة الموجهة إليهن والضابط يصرخ فيهن يأمرهن أن يلتزمن الصمت وأنه لا يريد جوابا إلا ممن يوجه إليها السؤال .

كانت الساعة السابعة مساء وقد لف الظلام الكون بعباءته السوداء مبكرا فقد كنا فى الشتاء . وبدأت أستشعر بسريان الرطوبة فى ساق فوقفت أتململ ، فحسب أخى محمد أننى خائف فجاء إلى يطمئننى ، وأتى السائق يخبرنى أن المحكمة لن تحكم علىّ إلا بغرامة بسيطة .

وأخيرا مثلنا أمام الضابط فراح يسأل الرجل ثم أخذ يستجوبنى . فلما انتهى من كتابة المحضر طلب أن نذهب لمعاينة مكان الحادث ، فلما خرجنا من القسم أسرع السائق ليقود السيارة فأمره الضابط أن يتنحى لى وطلب منى أن أذهب بهم إلى كوبرى شبرا .

وجلست خلف عجلة القيادة هادئا ، بل إن ما يحيرنى الآن أننى شعرت فى تلك اللحظة بسعادة فقد أتيحت لى فرصة رسمية لأتدرب على القيادة ! وانسابت بنا السيارة فإذا بصوت الضابط يمس أذنى كلحن جميل قال :

ــ ما انت بتسوق كويس أهوه .

وزادنى ذلك ثقة فى نفسى فوصلنا إلى مكان الحادث بأمان ، فراح الضابط يصغى إلى رجل الخاصة الملكية وهو يهول فى الوصف وقد التزمت جانب الصمت ، ثم عدنا إلى القسم والضابط يمزح معى طوال الطريق .

واستأنف الضابط كتابة المحضر ، ثم التفت إلى رجل الخاصة الملكية وقال له وهو يضع أمامه على المكتب ورقة لم أدر ماذا كتب فيها :

ــ تروح بكره تكشف عشان يحددوا مدة علاجك .

وخرجنا من القسم وأخى محمد يحادث الرجل فى ود ، حتى إذا وصلنا إلى السيارة أصر محمد أن نوصل الرجل حتى داره ، وركب الرجل بعد إلحاح . وجلست مرة ثالثة خلف عجلة القيادة ، وكانت فرصة أخرى للتدريب . وانطلقت إلى عابدين وفى أحد الشوارع الجانبية هبط الرجل وما إن غاب فى بيته حتى قفز السائق إلى مكانه ليعود بنا سالمين إلى الدار .

وفى الطريق قال السائق : إن علاج الرجل لن يحتاج لأكثر من أيام ، وإن الغرامة لن تتجاوز جنيها ، وارتسمت على شفتى أخى ابتسامة انتصار حيرتنى ولكن الحيرة انقشعت لما تركنا السيارة . ورحنا نصعد فى درج منزلنا ، أخرج محمد من جيبه الورقة التى قدمت لرجل الخاصة الملكية ليذهب بها ليوقعوا عليه الكشف الطبى ، وجدها محمد أمامه فمد يده وأخذها ودسها فى هدوء فى جيبه .

لن يذهب الرجل ليوقع الكشف الطبى عليه ولن تكون هناك قضية !.

٦٥

انتشرت ترجمة « كريتون العجيب » فى المدارس الثانوية بين طلبة البكالوريا وقد قاسيت من ذلك ، فما إن أكتب موضوعا إنشائيا وأحصل على أعلى درجة فى الفصل حتى يصيح زملائى فى صوت يهزنى ويضايقنى قائلين :

ــ أخوه .. أخوه .

وما كان سعيد يكتب لى موضوعات الإنشاء فإننى منذ قرأت المنفلوطى والمازنى وطه حسين وأنا فى السنة الرابعة الابتدائية وأنا أحصل على درجات عالية فى الإنشاء وكان زملائى فى الفصل يعرفون هذه الحقيقة ، ولكنهم ما كانوا يرضون أن يتركوا تفوق عليهم فى مادة واحدة دون غمز وتجريح .

وجاء مدرس اللغة العربية وكان نفس المدرس الذى كان يدرس لنا فى السنة الماضية — وكانت صداقة قد توطدت بينى وبينه فكان لا يفتأ يمتدح أسلوبى فى الكتابة ، وكان يستعين بى إذا ما دخل الفصل مفتش من مفتشى اللغة العربية — وقال :

— النهارده امتحان . ح يكتب كل واحد فيكو موضوع الإنشا هنا فى الفصل .

والتفت الزملاء نحوى وصاحوا مهللين ، وفهمها المدرس فقال :

— وح نشوف إذا كان أخوه اللى بيكتب له واللا هو اللى بيكتب ؟

ووقف عند السبورة وفى يده الطباشير وكتب : وردة على ساقها تتحدث ، وإذا بأصوات استنكار تنطلق من جنبات الفصل ، فالتفت الرجل إلينا وقال :

— الموضوع ده جه فى امتحان الكفاءة السنة اللى فاتت .

وأعرب الطلبة عن صعوبة الموضوع ، فراح المدرس يكتب لهم بعض العناصر على السبورة ولم تكن هناك صلة وثيقة بين العناصر والموضوع ، فلم ألتفت إلى ما كتبه وانكببت على كراستى أكتب موضوعا من وجهة نظر الوردة .

وصفت الندى الذى نزل على خدودى فى الفجر ، وتفننت فى وصف الشروق ، ثم تحدثت عن عاشقين دخلا يتناجيان فى الحديقة ، وأظهرت سرورى لما هب النسيم فملت نحو العاشقين أسترق السمع إلى أحاديث الحب ، ثم وصفت الفزع الذى انتابنى لما جاء الجناينى يقطف الزهور ، وعبرت عن خوفى ولوعتى لما قطفنى ووضعنى فى سلة مع رفاقى ، وأخيرا تحدثت عن وضعى فى وعاء تحته ماء يغلى ، ووصفت عملية التقطير وأنا أستغيث بأهل المروءة أن ينقذونى مما أنا فيه .

وجمع مدرس اللغة العربية الكراسات ، وانتابنى قلق ؛ ترى أيرضى الشيخ عن وصف الغزل الذى دار بين العاشقين اللذين دخلا إلى الحديقة ؟! أيرضى الشيخ الوقور عن تلك الجرأة التى عالجت بها الموضوع ؟ واستولى على خجلى ولكن صوت الدفاع

هب يسخر من مخاوفى : ولماذا لا يرضى الشيخ وما كانت الموضوعات التى يشرحها لنا عندما يشرح النصوص تتعلق بمكارم الأخلاق ؟ إنها تغزل فى المذكر وفى الخمريات . وإن ما كتبته من حوار بين العاشقين لا يمكن أن يخدش الحياء .

ومرت الأيام ودخل مدرس اللغة العربية ومن خلفه الفراش الذى يحمل الكراسات ، ولأول مرة أشعر بخوف حقيقى فقد أحسست أن شرفى أصبح فى الميزان . وراح المدرس يوزع الكراسات على زملائى وانتهى من التوزيع و لم آخذ كراستى ، فإذا بطلبة الفصل يصوبون أنظارهم إلىّ ويقولون فى هزء آلمنى وجرح كرامتى ، قالوا :

ـــ انكشف .. انكشف .

وتناول الأستاذ كراستى وطلب منى أن أقف ، ثم فتح الكراسة وقرأ فى زهو :

ـــ عشرة من عشرة . انت يا بنى أديب .

و لم أشعر بزهو ، بل كل ما فعلته أن بلعت ريقى وحمدت الله أنه لم يتخل عنى . وراح الطلبة يعلقون تعليقات لا تخلو من وخز ، وقدم إلى الأستاذ الكراسة وطلب منى أن أقرأ الموضوع على زملائى .

كان مدرسو اللغة العربية فى مدرستى الابتدائية يطلبون منى أن أقرأ إذا ما جاء مفتش أو زائر كريم ، وقد حدث أن اختارونى لألقى كلمة الطلبة فى حفل أقامته المدرسة ، وكنت أقرأ الآيات القرآنية دون أن أتلجلج أو أتتعتع ؛فلما وقفت فى ذلك اليوم لأقرأ أول قصة قصيرة كتبتها فى حياتى ـــ فقد كان علاجى للموضوع الإنشائى علاجا قصصيا ـــ إذا بمصمصات من الشفاه تنبعث من هنا وهناك ، وإذا بتعليقات ساخرة تنطلق من الأفواه أقسى من طلقات الرصاص ، فاهتزت ثقتى فى نفسى وأرهفت حواسى تلتقط الهمسات والزفرات ، وزاغ بصرى عن السطور التى كنت أقرؤها ، وجعلت أتلفت حولى فى توسل كأنما ألتمس من الزملاء أن يترفقوا بى . وفطن المدرس إلى ما أنا فيه من حرج فأمرنى أن أكف وأن أجلس وقد فعلت ، وما كان ذلك الحادث من الحوادث العابرة فى حياتى فقد حفر فى وجدانى بل سرى فىّ مسرى الروح ، فأصبحت إذا ما قمت بين الناس لألقى كلمة أو لأقرأ فى كتاب مسطور

أرتجف فرقا وأسمع أصوات السخرية من الحاضرين وإن لم تتحرك الشفاه .

٦٦

كانت الحياة تمضى فى طريقها ، فى السلاملك يجتمع أبى وصحبه يقرءون الصحف الوفدية والمجلات التى كانت تهاجم حكومة صدقى باشا هجوما قاسيا مريرا لا رحمة فيه ولا هوادة ؛ وفى أيام الجمع نذهب مع أخى محمد إلى النوادى الرياضية لمشاهدة مباريات الكرة ثم ننطلق إلى سينما حديقة الأزبكية فى الصيف أو إلى مسرح من المسارح المنتشرة فى شارع عماد الدين .

كانت حياة أخى أحمد رتيبة لا إرهاصات فيها ؛ إنه يذهب فى الصباح إلى الدكان وبعد أذان العشاء يعود إلى البيت ، وفى أوقات فراغه كان ينظم الأزجال ، وكان يلقيها من محطة إذاعة أهلية كانت عند بداية شارع فاروق من ناحية العباسية .

أما أخى سعيد فقد هبت على حياته عاصفة عاتية ، فقد أراد فى أول عهده بالمكتبات أن يصبح ناشرا كبيرا يشق طريقه مع قدامى الناشرين العتاة ، فراح يطبع كتاب « الامتحانات العمومية » كتاب يضم الأسئلة التى وضعت لامتحانات الكفاءة والبكالوريا فى كل المواد . إنه كتاب ضخم يتكلف كثيرا ولكن الطلاب والتلاميذ يقبلون على شرائه . فهو مرشدهم إلى نوع الأسئلة التى تأتى فى الامتحانات العامة .

وانتهى طبع الكتاب ، وقبل أن يعرض للبيع تغيرت المناهج فإذا بالكتاب يفقد أهميته ، وإذا بكل الأموال التى أنفقت فيه تضيع على أخى ويصبح على شفا الإفلاس . ولولا أن أبى كان تاجرا يعرف تماما أن التجارة ربح وخسارة لأثرت تلك الصدمة فى الفتى الذى لم يألف بعد قسوة ظروف التجار ، فما كان قد ذاق حلاوة الربح ومرارة الخسارة !

وكنت أتدرب كل يوم فى فناء المدرسة على لعب الكرة بعد انتهاء الدراسة ثم أسير أنا وصديقى صلاح حتى بيتنا وبعد أن نتناول طعاما خفيفا نأخذ فى الاستذكار . وما كنا نسهر طويلا ، وكيف أستطيع أن أسهر بعد تدريب شاق أو مباراة رسمية فى النادى

أو فى المدرسة ؟!

وكنت أسير مع صلاح فى الليل حتى ميدان الظاهر فيذهب إلى بيته القريب وأعود وحدى فى الطريق الذى تعجز مصابيح النور الخافتة أن تبدد ظلامه ، وبينما كنت عائدا ذات ليلة حوالى الساعة الحادية عشرة مساء إذا بورقة مطوية تلقى من شرفة أمامى ، فانحنيت والتقطتها وبسطتها وحاولت أن أقرأها فلم أستطع من الظلام ، فذهبت حتى وقفت تحت مصباح من مصابيح الشارع فإذا مكتوب بخط جميل : « اصعد . الطريق خال » ونظرت إلى أعلى فى عجب ودهش ، إنها دعوة جريئة ما كنت أنتظرها ، فإذا بشبح لم أتبين ملامحه فى الشرفة ينتظر ، ولفنى اضطراب ووقفت لحظات وأنا حائر متردد ، وتغلبت حكمتى فانسبت فى طريقى .

وفى النهار رحت أذهب وأجىء أمام تلك الشرفة أرصد من فيها ، فإذا بفتاة سمراء عرفت أنها مدرسة ، وإذا بأختها التى تصغرها فتاة مقبولة الشكل طالبة فى الثانوى ترتدى على الدوام ملابس الكشافة ، ولم أكتشف أيتهما التى ألقت بالدعوة الجريئة .

وفى ليلة كنت عائدا إلى البيت بعد أن سرت مع صلاح حتى ميدان الظاهر وإذا بورقة مطوية تلقى أمامى ، فالتقطتها وانطلقت إلى حيث النور لأقرأها ، فقرأت فى اضطراب : « سأنتظرك الساعة الخامسة مساء عند محطة على سلام يوم الخميس » .

وفكرت فى رفض تلك الدعوة ، ولكن ما وافت الساعة الخامسة من يوم الخميس حتى دفعنى فضولى إلى أن أذهب ، فإذا بالمدرسة تنتظرنى مبتسمة . لم تكن جميلة ولكنها ممتلئة الجسم مفتولة العضلات ولا شك ، وإن كانت ملابسها الداكنة لا تكشف عن قوتها الجسدية . وجاء الترام المنطلق من السيدة زينب إلى العباسية فقفزت إلى الدرجة الأولى وصعدت خلفها متورطا ، وعند نهاية العباسية هبطنا وسرنا إلى الترام الأبيض الذاهب إلى مصر الجديدة .

وفى الشوارع الهادئة سرنا ، كانت تتحدث عن نفسها وأنا أكاد أنفجر من الغيظ ، وفى مكان حسبته خاليا مالت على وقبلتنى ، وإذا بصفافير تدوى من بيت قريب لم يكن قد تم بياضه ، وإذا بصيحات استهجان وسخرية تنبعث من كل النوافذ والشرفات لكأنما كل سكان البيت كانوا يترقبون تلك القبلة .

وأحسست نوعا من الرثاء لنفسى ، وسرت أوسع من خطوى لأصل إلى آخر محطة ترام مصر الجديدة وكانت فى ميدان الإسماعيلية ، وركبنا الترام وأخذت ترمينى بنظرات مدرسة إلى تلميذ خائب ، وما إن عدنا إلى الظاهر حتى أسرعت إلى إستر وانطلقنا فى شوارع السكاكينى نتحدث لأغسل الصدأ الذى خلفته المدرسة فى وجدانى .

وجاء رمضان ، وما إن انتهينا من تناول الإفطار حتى جاء البواب وطرق الباب فأسرعت لأفتحه ، ولكن أبى كان أسرع منى ، فإذا بى أسمع البواب يقول :

— فى واحدة ست بتقول إن اخوها مستنى سى عبده فى الشارع اللى جنبنا .

وانبثق منى عرق الخجل ومارت فى جوفى مشاعر استياء وانتظرت أن يقول أبى شيئا ، ولكنه لزم الصمت وسار إلى غرفة الجلوس . وخرجت مضطربا إلى الشارع الذى يقع فيه بيتنا القديم فإذا بالمدرسة قد وقفت مع دكتورة سمراء قد عادت من إنجلترا حديثا ، وقد وقفتا فى مدخل بيت الدكتورة وراحت المدرسة تحدثنى وتقنعنى أن أصعد معهما إلى شقة الدكتورة فقلت فى خوف وإنكار :

— فى رمضان ؟!

فقالت فى هدوء :

— لا تخف . ستعود إلى البيت قبل السحور .

وأبيت أن أستجيب لهما ودرت على عقبى وعدت إلى السلاملك لأمضى السهرة مع أبى وصحبه .

٦٧

كنت أذهب إلى المدرسة مبكرا فقد تعلق قلبى برفقة من الصحاب وبلعب الكرة ، وبينا كنت أسير فى فناء المدرسة بين التلاميذ إذا بفتى يقترب منى بخطى ثابتة ويقول دون لعثمة :

— خالتى بتسلم عليك .

ونظرت إليه مليا وفى استغراب ، ففطنت فى لحظة أن خالته هى المدرسة العتيدة . وفى مثل لمح البصر طاف بى خاطر حذر ، إنه سمع أننا التقينا وأنه جاء ليستدرجنى فالتزمت الصمت ، فإذا به يقول فى هدوء :

— هى قالت لى كل حاجة .

وارتفع حاجباى دهشة ، ماذا يعنى بقوله ؟ ولكنه لم يدعنى فى دهشتى بل قال :

— أنا سبور ، أنا مستعد أعمل على إسعادكم .

و لم أطق أن أسمع منه أكثر من ذلك فنهرته وطلبت منه أن ينصرف وأنا أرميه بنظرات احتقار . كان فى السنة الرابعة الثانوية ويفهم جيدا ما يدعونى إليه ، وما كان يخطر لى على قلب أن فتى مثله يفعل ما فعل ولو انطبقت السماء على الأرض . ترى أيفعل ذلك ثمنا لقيامها ببعض الواجبات المدرسية عوضا عنه ؟

وشغلنى الحادث حتى إننى كنت أحضر حصص اليوم بجسمى أما عقلى فقد كان شاردا يقلب الأمر فلا يسعه إلا إنكار ما حدث . وأردت أن أنفس عن صدرى بعض الأثقال التى ألقاها عليه حديث الصباح ، فبينا كنت عائدا أنا وصلاح عند الغروب إلى منزلنا لنبدأ الاستذكار هممت بأن أروى لصلاح ما كان ولكنى كبحت جماح نفسى ، فما وقع فى الصباح عورة ينبغى على أن أسترها ، فهل هناك تشهير بشاب ، بل تشهير بعصر أكثر من أن يكون فيه فتى يعمل قوادا لخالته ؟!

وسارت الحياة على سجيتها ؛ لعب كرة ، واستذكار فى المساء وخروج مع إستر ، فما كانت بالنسبة لى أكثر من صديق يبثنى هموم يومه ، وما كانت الفتاة الوحيدة التى أخرج معها فقد كنت أجوب شوارع الظاهر والسكاكينى مع أكثر من فتاة .

وفى يوم ذهبت أنا وصلاح إلى المعرض فى الجزيرة ، وإذا بفتيات كثيرات يرتدين ملابس الكشافة يمرحن هنا وهناك ، وبينا كنت أشق طريقى فى الزحام وجدت أخت المدرسة أمامى فى ملابس الكشافة ، فلما رأتنى ابتسمت لى ابتسامة ود وأحنت رأسها محيية ، فرددت على تحيتها بإيماءة من رأسى وإن أحسست ضيقا . كانت كل خلجاتها تصيح بى : أنا أعرف كل شىء . ترى هل جمعت الأسرة وروت لها ما كان بيننا ؟ وماذا كان بيننا ؟ شاب تورط فى الركوب مع فتاة حتى مصر الجديدة ثم دعته للصعود إلى

شقة صديقة فرفض . هذا كل ما كان . أيستحق هذا أن يروى ؟!

وعدت من المدرسة عصرا وسرت فى الشارع الذى يقع فيه بيتنا وبيتها ، وفيما أنا أقترب من منزلها وجدت الفتى والأخت الصغيرة ينتظرانى ويشيران لى أن أعرج إلى شارع جانبى بالقرب من دارهم ، فانحرفت إليه وسرعان ما لحقا بى ووقفنا نتحدث .

قالت لى الفتاة التى كانت ترتدى ملابس الكشافة :

ـــ هى بتشكرك إنه لما كلمك (والتفتت إلى ابن اختها) ما قلتش حاجة وأنكرت إنك تعرفها . بس هى كانت كلمته وهى اللى بعتته .

وفى ملق ظاهر قالت وهى ترنو إليه بنظرت نفاق :

ـــ هو شاب عصرى .. عقله كبير .

وهممت بأن أقول :

ـــ دا يستحق قطم رقبته .

ولكن وجدت أن أتحلم حتى أعرف الدافع إلى هذه المقابلة ، ولم تتركنى الفتاة طويلا أخمن وأجهد ذهنى فقد قالت فى بساطة :

ـــ هى عيانة ونفسها تشوفك .

وفزعت ، أينصبان لى شركا ؟ إنهما يدعوانى للصعود لعيادة مريضة . من أنا حتى أصعد أخترق رجالا ونساء لا صلة لى بهم حتى أصل إلى غرفتها ؟ واعترضت بأن لا صفة لى تؤهلنى لتلك الزيارة ، فإذا بهما يستخدمان كل لباقتهما لإقناعى . فلما لم أقتنع راحت الفتاة تتوسل إلىّ أن زيارتى لأختها ستكون عاملا مخففا لمرضها ، وأن ما أقوم به إن هو إلا عمل إنسانى .

وزاد إلحاحهما فى ريبتى فانسحبت وأنا أعدهما أننى سألقاها بعد ما تبرأ ، وكانت الطامة أنها أبلت من مرضها سريعا وكان على أن أفى بوعدى ، ولكنى تلكأت فإذا برسائلها تلاحقنى حتى بت أخاف من شبح ساعى البريد .

والتقيت بها مصادفة وأنا أسير فى ميدان الظاهر وإن كنت لا أدرى أكان ذلك اللقاء مصادفة حقا أم كان بتدبيرها ، وراحت تحادثنى وتلومنى على عدم السؤال عنها فى أثناء مرضها ، وقادتنى إلى محطة الترام وأنا أتعثر فى مشيتى وفى كلامى ، إنه قضاء نزل بى .

وأخذتنى إلى طريق مصر الجديدة الهادئة ، كنا على مشارف ألماظة وهى تتحدث كمدرسة وأنا أصغى كتلميذ خائب . راحت تقص على كيف أن صديقاتها يلمنها لتعلقها بى ، فماذا يستطيع طالب أن يقدم لها ؟ إنها لو تعرفت برجل له عمل فإنه سيقدم إليها الهدايا من حلى وفاخر الثياب. ودوى فى جوفى صوت ساخر : أتنتظر منى ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ؟! فى الجنة ونعيمها إن شاء الله .

وكرهت فى تلك اللحظة خجلى الذى يرغمنى على أن أتحمل فى صبر مضايقات الناس ، وضعفى المقيت الذى يجعلنى أضطرب خوفا من أن أجرح شعور أحد ، ووددت لو أستطيع أن أقول لها فى صراحة رأيى فيها وفى تصرفاتها التى لا تتفق مع كرامة أى أنثى ، ولو أن انتسابها للإناث فيه شك كبير .

وغابت الشمس وعوضا عن أن تتغلغل فى الصحراء كما كانت تخطط وتشتهى سرت صوب ميدان الإسماعيلية وأنا أوسع من خطوى وهى تهرول خلفى ، وقد قررت أن يكون لقاء اليوم فراقا بيننا ، وقد كان .

٦٨

أصبحت مباريات مدرستى فى الكرة أهم ما يشغل حياتى ، فإنى قد صرت هداف الفريق وأمل الطلاب الذين كانوا يأتون لتشجيعنا أينما ذهبنا . وأمسيت إذا ما أويت إلى فراشى لا أفكر فى فورتينيه أو إستر أو أى من فتيات اليهود اللاتى كان يغص بهن حينا وكن على استعداد دائما لتلبية رغباتنا ، بل كنت أجتر الأهداف التى أحرزتها فى نشوة وانفعال . وكثيرا ما كنت أقيم فى ذهنى مباريات تجرى حسب هواى فكان حماسى للمباريات الوهمية يرهف حواسى ويطرد النوم من عينى .

كنت ألعب وأتدرب لا هم لى إلا أننى أتقن لعبى ، وما جرى خيالى وراء شىء أبعد من حدود مدرستى . وكم كانت دهشتى وكم كان فرحى عندما أعلن فى الصحف أسماء منتخب المدارس الثانوية فإذا باسمى بين أسماء كبار اللاعبين . كانت كل أسماء المنتخب من لاعبى أندية الدرجة الأولى ، بل كانوا أعضاء فى فريق منتخب القاهرة ولعب

أكثرهم مباريات دولية ، وكنت وحدى اللاعب الذى لم يكن من لاعبى الأندية بل اللاعب الذى لم تكن له صداقات باللاعبين المعروفين .

ولعب منتخب المدارس الثانوية مباراة شائقة مع منتخب المدارس المتوسطة : تجارية وصناعية ، وكان الفريقان يضمان خيرة لاعبى مصر . وبعد انتهاء المباراة أعلن أن منتخب المدارس الثانوية سيسافر إلى فلسطين ليلعب بعض مباريات فى يافا وفى تل أبيب ، وكان تاريخ لعب تلك المباراة هو نفس تاريخ امتحان البكالوريا .

ولم أفكر طويلا ؛ سأسافر مع الفريق وسأدخل امتحان الدور الثانى . كان هذا قرارى ولكن القرار لم يكن لى وحدى فرحت أفاتح أبى فى الأمر ، فإذا به يرفض فى إصرار لأول مرة ذلك العبث ، وراح يقول لى فى إنكار : كيف أضيع مستقبلى من أجل لعب . فكنت أؤكد له أننى سأنجح فى الدور الثانى فيقول لى : إذا رسبت فى الدور الأول فى مادة فأمامك فرصة أن تنجح فيها فى الدور الثانى ، أما إذا رسبت فى مادة فى الدور الثانى ضاعت عليك سنة من عمرك .

ودار نقاش حاد وعنيف بينى وبين كل من فى بيتنا سواء أكانوا رجالا فى السلاملك أم نساء فى داخل دارنا ، وإذا بالصحف تطلع علينا بأسماء الفريق المسافر إلى فلسطين ولم أكن فيه . رفعونى من الفريق ووضعوا لاعبا ممتازا من لاعبى النادى المختلط ومن فريق مصر الدولى كان قد ترك المدارس الثانوية !

كان ذلك فى مصلحة الفريق من غير شك ، فأين أنا من ذلك اللاعب المحنك ؟ . ولكن ذلك لم يدخل السرور على قلبى ، إنه تدليس .. إنه غش .. إنه ... وقد أراح ذلك القرار أبى فسأدخل امتحان البكالوريا ولن أضيع مستقبلى .

وفى غمرة الامتحان نسيت موضوع الكرة ، وما إن انتهيت منه حتى عدت إلى ملاعب الأحياء . وحان موسم الاستقالات وهو موسم دلال اللاعبين ونشاط سماسرة الكرة ، وكنت قد انضممت إلى نادى السكة الحديد ، ولكنى لم أواظب على التمرينات ولم أحاول أن ألعب فى النادى . فلما قدمت استقالتى جاءوا إلّى وطلبوا منى أن أسحب استقالتى ، فقد عرفونى جيدا فى السنة الأخيرة ووعدونى أن ألعب فى الفريق الأول ، ولكنى كنت أتطلع إلى ناد آخر أكثر شعبية من نادى السكة الحديد .

وجاء إلى زميل كان من أفراد فريق منتخب ثانوى وعرض على أن أنضم إلى النادى الأهلى ، فرحبت وتواعدنا على اللقاء فى المساء لنذهب إلى هناك لأوقع لناديه . وقبل أن ينقضى النهار جاء إلى سماسرة نادى الزمالك وجعلوا يغروننى على التوقيع لناديهم ، ولكنى اعتذرت بلباقة وأخبرتهم أننى وقعت للنادى الأهلى .

كانت الأموال تلعب دورها فى موسم الاستقالات ، بل إن بعض سماسرة الأندية كانوا يخطفون كبار اللاعبين ويذهبون بهم إلى أماكن مجهولة بعيدة عن أعين سماسرة الأندية الأخرى . وعند الغروب كنت مع زميلى فى النادى الأهلى وقدم إلىّ كشف كتبت فيه اسمى ووقعت ، وجلسنا فى حديقة أمام مبنى الإدارة وقد تواضع وجلس معنا باشوات النادى وبكواته وسألونى عما أريد أن أشرب ، وقبل أن أفتح فمى كان الجرسون يقدم إلىّ كأس الجيلاتى .

وفى بساطة دار الحديث وتبودلت النكات ، كانت الجلسة أشبه بجلسة أسرة متحابة وقد تأثرت بذلك الجو الجميل ، ولكن ما انقضى موسم الاستقالات حتى عاد الباشوات والبكوات إلى مكاتبهم الفاخرة فى إدارة النادى ، وحتى قامت الحواجز بينهم وبين الأعضاء .

ورحت أتدرب مع الزملاء وعقب التدريب أنصرف إلى البيت . وما كان ذلك حال اللاعبين فهم يذهبون عند المساء إلى البار ثم يتفرقون جماعات ، بعضهم يلعب الورق والبعض الآخر ينطلق إلى ملهى ليلى .

ولم أحاول أن أندمج فى ذلك الوسط الجديد الذى وضعت نفسى فيه ، فكنت إذا جلست فى حديقة النادى أجلس وحدى بينما كانت الشلل تلتف حول نضد مبعثرة هنا وهناك ، والقهقهات تدوى عقب أن يلقى أحدهم نكتة قديمة .

كانت عندى المواهب التى تمكننى من السيطرة على الجلسات البريئة ، فقد كنت قادرا على إلقاء نكات أكثر طرافة وأكثر جدة من تلك التى كانت تصل إلى مسامعى ، ولكنى كنت حبيس خجلى فقد كنت أتعثر فى مشيتى إذا أحسست أن أحدا يتبعنى بنظراته .

وعلى مر الأيام أحسست أنى غريب فى النادى ، فما كانت بينى وبين كبار

الإداريين أية صلة بينما زملائى يتبادلون معهم حوارا فيه جرأة قد تصل إلى رواية نكات مكشوفة . وخطر على بالى أكثر من مرة أن أحمل ملابس الكرة وأن أنسل هاربا من النادى ، ولكننى كنت أطرد تلك الخواطر ، إلى أن ذهبت أصلى ذات يوم العصر فى ركن بعيد من أركان النادى ورآنى أحد الإداريين فقال لى ساخرا :

ـــ إنت بتصلى ؟! إيه اللى جابك هنا ؟

وأحسست أنه جرح كبريائى فذهبت إلى غرفة الملابس وأخذت ملابس الكرة وانصرفت غير نادم ، وقد تيقنت أنه لن يكون لى مكان فى أية لعبة أو عمل يعتمد على الشللية . وهل هناك أمل فى أن يتكون ناد أو فريق أو جهاز لا تكون دعائمه من الصحاب والأنصار والأصهار والمنافقين وحارقى البخور لكل صاحب نفوذ أو سلطان ؟!



لم تكن نتيجة البكالوريا قد أعلنت بعد ، وفيما كنت أفكر أنا وصلاح فى الكلية أو المدرسة العليا التى ندخلها بعد حصولنا على الشهادة التى نختم بها مرحلة الثانوى ، إذا بضابط من مدرسة البوليس يطلب منى أن أذهب إلى المدرسة لمقابلة اليوزباشى المسئول عن فريق الكرة . وانطلقت إلى هناك وكم كانت دهشتى عندما أخبرنى اليوزباشى أن المدرسة ترحب بى بين المتقدمين ، ولم يكتف بذلك بل طلب منى أن أشترك مع فريق المدرسة فى المباريات الحبية التى تقام بين المدرسة والأندية فى الصيف .

مدرسة البوليس ؟! وتخيلت نفسى وقد ارتديت الملابس الداكنة ذات الشريط الأحمر على جانبى البنطلون ، وفى أثناء خروجى من المدرسة وانطلاقى إلى شارع العباسية قفز إلى ذهنى كل ما سمعت من خيالات وأوهام عن طلبة البوليس . إن نساء من كرائم الأسر يقفن يوم الخميس بسياراتهن عند مدخل المدرسة ليلتقطن المحظوظين ، وإن الفنيات يشغفن حبا بأصحاب الأشرطة الحمراء . ودار رأسى فاستغرقت فى أحلام لذيذة ملأت صدرى بهجة ونشوة وانفعالا .

وذهبت إلى البيت أزف الخبر فلم يقابله أبى بارتياح وسرعان ما أظهر معارضته بطريقته اللينة الحكيمة ، قال لى فى هدوء :

ـــ ح تعيش طول عمرك مع مين ؟ مع لصوص ومهربين وحشاشين وسكرية وناس بطالين ، تفتكر دى عيشة ؟!

وانصرف أبى ليقرأ فى المصحف وتركت المكان وقد أغلقت نفسى دون كل الأقوال ، وأخذت أطوف مع فريق مدرسة البوليس نتبارى مع الأندية ألعب ساعدا أيمن وإن كنت أفضل أن أكون قلب الهجوم ، وسارت الأمور حسب هواى ولم يكن هناك ما يحول بينى وبين أن أكون طالبا فى المدرسة إلا أن أحصل على البكالوريا .

وفى فترة انتظار ظهور النتيجة ماتت أم صلاح فذهبت إليه لأواسيه . كانت أمه هى

كل شيء فى حياته فأبوه قد تزوج سبع مرات وأنجب من كل زوجة سبعة أولاد ، وقد كان صلاح الابن التاسع والأربعين للأب الفحل ، فهو أصغر إخوته الأشقاء ، بل أصغر إخوته جميعا فهو آخر من ولد فى القبيلة ، كان الحزن يعتصره بل كاد يموت كمدا ، فما كان يتصور كيف يعيش بلا أم ، كيف يفقد كل ما ينعم به من حنان ؟ إنه لا شيء بلا أمه . وحاولت أن أخفف عنه وإن كنت فى قرارة نفسى أرتجف من هول المصاب .

وبعد الانتهاء من الجنازة عدت إلى البيت ورحت أرنو إلى أمى والدموع تترقرق فى عينى وهممت بأن أجهش بالبكاء . واستولى علىّ خاطر بشع أخذت أحاول أن أطرده من رأسى ولكنه كان يفح فحيحا بغيضا فى أرجاء وجدانى . ستموت أمى يوما وأصبح يتيما بلا أم ، ولو أن ما توسوس به نفسى حقيقة لا ريب فيها ولكننى فزعت فزعا زلزلنى زلزالا شديدا وانبثقت من كل حواسى مشاعر حانية وتملكنى ضعف شديد . ولولا خجلى من نفسى لارتميت فى أحضان أمى وانتحبت كما لم أنتحب من قبل .

ونكصت على عقبى وخرجت مطرقا حزينا وأمى ترقبنى فى إشفاق ، وتفسر ما أنا فيه من حزن ووجوم على أنه مشاركة فى حزن صديق لم يفارقنى منذ أن بدأنا نستذكر معا منذ أكثر من خمس سنوات .

وظهرت نتيجة البكالوريا فكان صلاح فى الناجحين وكنت من الراسبين . فذهبت إليه لأهنئه فإذا به يقول لى :

ـــ كنت أتمنى إنك انت اللى تنجح . ما كانش ح يزعلنى السقوط عشان ما كانش فيه حاجة ح تزعلنى أكتر م اللى حصل .

كان يشير إلى أن حزن سقوطه سيكون أهون من الحزن الذى كابده لما ماتت أمه ، فأخذت أواسيه وأهنئه وقد امتزجت عواطفى وتداخلت حتى إننى لم أكن أعرف حقيقة مشاعرى . وانطلقنا معا إلى المدرسة ليرى مجموعه ولأعرف فيم رسبت ، وما كان للمجموع أية أهمية فى تلك الأيام فكانت الكلمة للوساطة ، فكلما كانت الوساطة ذات نفوذ وسلطان فتحت أمام المحظوظ أبواب الجامعة والمدارس العليا .

كان مجموع صلاح لا بأس به وكان مجموعى قريبا من مجموعه ولكنى رسبت فى الميكانيكا ، فراح صلاح يهون من أمر رسوبى ويعزينى بأن امتحان الدور الثانى قريب وأننى أستطيع أن أعتبر نفسى منذ الآن من الناجحين .

وعدت إلى البيت وأعلنت رسوبى فى الميكانيكا فلم يعاتبنى أحد و لم ينبس أبى بكلمة وإن كانت كل النظرات تصيح بى : ماذا كنت ستفعل لو أنك سافرت مع فريق كرة القدم إلى فلسطين وأجلت امتحان البكالوريا إلى الدور الثانى ورسبت فى الميكانيكا كما قد حدث فعلا ؟ كانت السنة ستضيع هباء .

وعرف اليوزباشى الذى كان متحمسا لدخولى مدرسة البوليس أنى رسبت فى الميكانيكا فلم يثنه ذلك عن عزمه بل أصر على أن أستمر فى التمرين مع طلبة المدرسة طوال الصيف ، فنجاحى فى الدور الثانى مضمون .

وتصرمت الأيام ودخلت امتحان الميكانيكا فإذا بى أجيب إجابة صحيحة عن كل الأسئلة ، فلما خرجت من اللجنة استقبلنى صلاح يسألنى عما فعلت فأخبرته أنى سأحصل على الدرجة النهائية .

وظهرت النتيجة فكنت من الناجحين فهرعت أستكمل أوراق بمدرسة البوليس وما تقدمت لكلية أخرى أو مدرسة عليا ، ولماذا التعب والتحاق بمدرسة البوليس لا شك فيه ؟ ووافى يوم كشف الهيئة ومرض اليوزباشى الذى كان مشرفا على فريق كرة القدم فى ذلك اليوم بالذات ووقف المتقدمون صفا واحدا ، فما كانت المدارس العسكرية فى ذلك الوقت تفتح أبوابها إلا لطلبة يعدون بالعشرات ، ووقفنا نحن اللاعبين متجاورين فقد صدرت إلينا التعليمات بذلك .

وجاءت لجنة الاختيار وراحت تشير للمقبولين أن يتقدموا خطوة ، كانت اللجنة أصبع القدر الذى يحدد مستقبلنا . ودنت اللجنة من صف لاعبى الكرة فإذا بها تشير لكل لاعب أن يتقدم خطوة حتى إذا ما وصلت إلىّ تركتنى واختارت اللاعب الذى يلينى ، وكنت الوحيد من بين اللاعبين الذى لم يقع عليه الاختيار !.

لماذا أهملتنى اللجنة والأوراق الموجودة بالمدرسة تؤكد أننى سابع البكالوريا وأننى أطول من حقيقتى بخمسة سنتيمترات ؟ إن كل شىء كان قد رتب بمهارة لأكون من

المقبولين فما الذى أعمى اللجنة عنى ؟! إنه حظى . وعدت إلى البيت مطرقا حزينا ، وما إن سمع أبى أنى لم أقبل حتى انبسطت أساريره وإن لم يفصح لسانه عن حقيقة مشاعره .

وأرسلت شكاوى إلى إدارة مدرسة البوليس أن أحد لاعبى الكرة المقبولين سنة أكبر من السن التى يجب ألا يزيد عليها طالب المدرسة . إن السن القانونية هى ٢٢ سنة وقد احتال الطالب على ذلك ، إن المهتمين بالكرة فى المدرسة هم الذين احتالوا على ذلك فكتبوا إن سنه ٢١ سنة و ٣٦ شهرا . وأخرج الطالب من المدرسة بعد أن كان قد دفع المصروفات ، كان قدره يطارده وكان قدرى يرسم لى خط حياتى على الرغم منى .

٧٠

كانت فورتنيه تأتى إلىّ حينا بين الحين والحين فكان قلبى يحضنى على أن ألحق بها وأحبها ، ولكن عقلى كان يقاوم كل رغباتى ويثير السؤال الذى كان يقف على الدوام حائلا بينى وبينها : ما جدوى أى لقاء بينك وبينها ما دامت هى تريده لقاء جسديا وأنت تفزع من مجرد شبح ذلك اللقاء ؟ من أين جاءنى ذلك الهلع الذى يصيبنى إذا ما سرت فى طريق قد يقودنى إلى الزنا ؟ إننى مذ كنت طفلا صغيرا أجوب بيوت الأسرة وبيوت أنسبائنا كنت أجد مقرئا يجلس على أريكة فى أفنية الدور يقرأ على الدوام سورة النور وكان يرفع صوته وهو يرتل : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .

اقترن فى وجدانى الزنا بالجلد ، بالتشهير ، بغضب من الله ، فكنت أمتلئ رعبا إذا هممت بمعصية . وكانت عواطف محمومة ورغبات مسعورة وشهوات طاغية تستبد بى فكنت أبدد طاقات جسدى فى لعب الكرة ، فما كان يمر يوم دون أن أنطلق هنا وهناك لأشترك فى مباراة عنيفة .

وكنت فى أحيان متباعدة أضعف وأستجيب لنداء الجسد فأنا ابن آدم الذى لم يجد له ربه عزما ، فكنت عقب إحساسى بقمة النشوة أتردى فى وادى الندم ، أتألم وأستشعر خجلا قاتلا أمام ضميرى وأكاد ألمس حقارة ما أقدمت عليه ، وأن الأسباب الطاهرة التى تربط بينى وبين الله قد تدنست ، فكنت أسير فى الأرض ملتصقا بها مطرقا حزينا أحس ثقل البدن الذى عرف كيف يسرى فى ملكوت الله وأن يتلقى الفيض من السماء .

كان قربى من فورتنيه يدخل على نفسى البهجة والسرور ، وكانت محاولاتها أن تحتوينى تفزعنى وتذكرنى بالآلام النفسية المبرحة التى تترقبنى إذا ما استجبت لرغباتها ورغباتى ، فكان صراعا عنيفا يمزقنى . فكنت وأنا إلى جوارها أتضرع إلى الله أن يحمينى من نفسى .. من ضعفى .. فكانت وسوسات تنبعث من أغوارى تفح فى وجدانى أن قربى منها إن هو إلا صلاة . وخفت أن أركن إلى مثل تلك الهمزات فعزمت أن أفر منها وأن أتجلد حتى تنطفئ نيران الشوق المندلعة بين جوانحى .

تركت فورتينيه حينا فلم أحاول أن أعرف إلى أين انتقلوا ، وجاءت إلى شارعنا مرات فكنت أحاول أن أحطم قيودى التى كبلتنى بها خشيتى من الله وأن ألحق بها ، ولكن تلك القيود كانت أقوى من رغباتى ، وكان يعاوننى على عصيان شهواتى ذلك الفرح الفياض الذى يملؤنى كلما انتصرت على ضعف ذاتى . إن لذة ذلك الانتصار كانت تدوم طويلا بينما لذة الجسد سرعان ما تموت مخلفة الندم وقسوة الآلام وعذاب يوم الحساب .

وبينما كنت ذاهبا إلى المكتبة الإنجليزية بشارع عماد الدين لمحتها فى محل باتا وقد انحنت تلبس إحدى الفتيات حذاء ، لم تعترنى أية دهشة فما أكثر الأعمال التى مارستها . ولكن قلبى المجنون راح يخفق فى شدة ووقفت أرقبها من بعيد ، فلما رفعت رأسها فررت خشية أن ترانى فقد كنت موقنا فى أعماق أنى أمارس بمراقبتها عملا لا يقره ضميرى .

ماذا أريد منها ما دمت أفر مما تريد ؟ لن يذلنى ذلك الفؤاد الأعمى الذى لا يستطيع أن يرى حقيقة من هفا إليها ، المزكوم الذى عجز عن أن يشم نتن غرائزها . وانطلقت

إلى المكتبة ووقفت أقلب فى الكتب وأنا شارد ، فما تزال صورتها مطبوعة فى خيالى .

وأصبحت كلما كنت قريبا من شارع فؤاد أمر متلصصا أمام محل باتا وأمد نظرى إلى الداخل فى خوف وتردد ، فما أسرع ما كان ينشب فى أغوارى صراع بين شيطانى وضميرى ، شيطانى يهفو إلى أن أملأ عينى منها وضميرى يصرخ فى أن أغض الطرف وأن أدور على عقبى وأن أنكص وأن أنصرف . فكنت أقف لحظات متلكئا أنعم بالنشوة التى تمور فى وجدانى . آه من خائنة الأعين !.

وكنت إذا لمحتها واقفة أمام المحل أفر مفزوعا خشية أن ترانى ، فما كنت أحب أن تكشف عن موطن من مواطن ضعفى . وهل هناك أسوأ من أن تتيقن من أنى أسير هواها ؟ إنها حاولت بكل ما تملك من إغراء أن تنتزع منى كلمة حب ، ولكنى أطبقت شفتى و لم أنبس بالكلمة التى تريدها ، فأنا منذ أن فهمت الحياة أو خيل إلىّ أنى فهمتها كنت أومن أن اللسان أضعف وسائل البيان للتعبير عن الحب .

واستيقظت ذات صباح وخرجت إلى الشرفة ودرت بعينى فى المكان ، فإذا بقلبى يقفز بين ضلوعى فى جنون وإذا بخوف يغمرنى وإذا بمشاعر متباينة معقدة تندفع إلى صدرى : إحساسات بالرهبة والفرح والدهشة والاضطراب والانفعال واللذة والألم تعربد فى أعماق وضباب كثيف يغلف تفكيرى ، كانت فورتينيه وأخوها ألبير وأمها وأبوها فى الشرفة العليا للبيت الذى يلى بيتنا ، إنهم قد عادوا إلى الحى بعد أن غادروه ، بعد أن نسى الناس أن خطبة فورتينيه قد فسخت ، فإن كان الناس قد نسوا فإنى لم أنس .

وتبددت كل المشاعر و لم يبق إلا خوفى ، فمعركة عنيفة ستنشب بين رغباتى وشهواتى وبين ذلك الوازع الدينى الذى غرس فى أعماق أعماق فأرهف ضميرى . وبعد تفكير وإمعان الفكر استقر رأيى على أن أفر منها ، أن ألازم أبى ، أن أدور معه حيث يدور بسيارته على المساجد وأن أبتهل إلى الله أن ينصرنى على ضعفى وأعوذ به من شر نفسى .

وبدأت رحلتى إلى الله بالصلاة فى المساجد ، و لم تكن فى الحقيقة بداية بل استئنافا لرحلة كانت قد انقطعت بعد أن غادرت فورتينيه حينا . وعاد شيطانى يوسوس لى أن

وجودها بالقرب منى إن هو إلا صلاة ، إنه يشعل إيمانى ويزيد فى أنوارى الباطنية . ولم يكتف بذلك بل راح يزين لى الخطيئة بحجة أن التوبة النصوح بعد الخطيئة تجعل المرء أكثر شفافية وأكثر قربا من الله . إن مجرد الخوف من الوقوع فى الخطيئة يمد المرء بحرارة فى الدعاء فما بالك لو أخطأ وأناب ؟!

وجاهدت نفسى وإنه لجهاد قاس مرير ، وبينا كنت منطلقا فى الظهر إلى شارع فاروق لأركب الترام إذا بها قادمة فى نفس الطريق الذى أسير فيه . وخفق قلبى فى شدة ودثرنى خوف . أأبدؤها بالسلام فيتصل بذلك ما انقطع أم أتجاهلها كأن لم يكن بينى وبينها صلة ؟ وأخذت المسافة التى تفصل بينى وبينها تضيق والانفعالات تنفجر بين جنبى . والتقت عيناى بعينيها وهمت شفتاى أن تنفرجا عن ابتسامة وأن يومئ رأسى بتحية ، بيد أن كبريائى انتصر فظلت ملامحى جامدة ، ومررت من جوارها دون أن تنبسط أساريرى أو تخدعنى عيناى . وتهللت بالفرح وسرعان ما تذوقت لذة الانتصار .

٧١

سيطر حديث السياسة على السمار فى السلاملك ، فصدقى باشا قد قدم استقالة وزارته لأن الوئام بين الوزراء قد أصابه شيء من الوهن ، وقد كلف الملك فؤاد فى نفس اليوم الذى قبل فيه استقالة الوزارة رئيس وزرائه إسماعيل صدقى باشا بتشكيل وزارته الثانية ، فاشتد الهجوم من جانب الصحف الوفدية والمجلات التى تدين للوفد وللأحزاب الأخرى التى أبت أن تشترك فى الحكم مع صدقى باشا . ولو أن صدقى قد احتفظ لنفسه بوزارة الداخلية ولكنه لم يصادر حرية الرأى . كان الهجوم عليه قاسيا بل كان فى بعض الأحيان ظالما ، وكانت الرسوم الكاريكاتورية تسخر منه ومن وزرائه ومن مشروعاته ، وكانت السخرية فى كثير من الأحيان تصل إلى تجريحه واتهامه فى نزاهته ، فكان يلجأ إلى القضاء ليفصل بينه وبين خصومه ، لم ينصب نفسه خصما وحكما فى نفس الوقت .

وسرعان ما استقال وزير الزراعة ووزير الأوقاف ولما يمض على تشكيل الوزارة الجديدة شهران ، والتمس صدقى من الملك إعفاءه من وزارة الداخلية فكان ذلك مثار تعليق الصحف الحزبية والإفاضة فى نقد الوزارة وزعزعة دعائمها .

وسافر صدقى باشا إلى مصيفه فى الخارج و لم يكن فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة أو الانتقاد ، فقد كان من عادة علية القوم لا فرق بين وفديين أو أحرار دستوريين أو اتحاديين وطنيين أو شعبيين أن يقضوا الصيف فى مصايف أوروبا ، فأبناء الفلاحين الذين ارتفعوا إلى أن أصبحوا حكاما ، بالحق أو بالباطل ، صاروا لا يحتملون قيظ صيف بلادهم !

لم ينتقد أحد سفر صدقى باشا إلى مصيفه فى أوروبا ، بل كثرت التكهنات بأنه سيقدم استقالته بعد أن يعود . وقد تحقق ذلك الظن فإنه قبل أن تفتح المدارس أبوابها وقبل أن ينظم الوفد مظاهرات الطلبة قدم استقالته و لم ينس أن يذكر فيها حزب الغالبية البرلمانية الذى يتشرف برئاسته : حزب الشعب .

وكان كتاب الاستقالة مثار سخرية وتعليقات سياسية ، وكان رواد السلاملك يلتهمون ما تكتبه الصحف التهاما . كانوا مشغولين باستقالة صدقى واحتمال عودة الوفد كأنما قد صار الحكم هو القضية ، أما وجود الإنجليز فى ثكناتهم المطلة على النيل ، أما قصر الدوبارة مقر المندوب السامى البريطانى الذى يحكم البلاد من وراء ستار ، أما الخيرات التى ينهبها جيش الاحتلال ، فما كان شىء من ذلك يثار إلا فى المظاهرات !

كنت قد تعلمت مما أقرؤه وأسمعه أن الصحافة أقوى من الحق ، فلم أكن أصدق كل ما تلصقه برجال السياسة من اتهامات ؛ فالحزبية قد لطخت وجه جميع الساسة المصريين ، فرحت أتلمس بين ركام الاتهامات ما أداه صدقى باشا لبلاده . إن الرجل قد نجح فى أن يقى مصر شر أزمة مالية طحنت كل بلاد العالم وأنشأ بنك التسليف الزراعى والبنك الزراعى العقارى ، وإن لم يكن له من حسنة سوى إنشاء كورنيش الإسكندرية لكفاه ذلك . إن الخصوم قد خاضوا فى مناقشة مناقصة الكورنيش واتهموا المهندس الفرنسى فى ذمته وقالوا كثيرا وأعادوا أكثر و لم يرتفع شىء مما قالوه إلى مرتبة الحقيقة ، ولكن الحقيقة التى لا يمكن إنكارها أن كورنيش الإسكندرية قد

خلق الإسكندرية خلقا جديدا . ليت صدقى باشا قد جعل اتساعه ضعف اتساعه الحالى وإن أنفق عليه ضعف ما أنفق ، وإن وصلت السرقة فيه ضعف ما زعمه الزاعمون .

وبينا كان الناس مشغولين بالسياسة كنت أبحث عن مدرسة عليا ألتحق بها ، فما كنت قد حاولت أن ألتحق بأية مدرسة فقد كنت واثقا من دخولى مدرسة البوليس . أما وقد خاننى حظى — وإن اتضح بعد ذلك أنه خدمنى — ولم أوفق فى كشف الهيئة ، فكان على أن أسعى فى المدة الضيقة الباقية على افتتاح الكليات والمدارس العليا .

زينوا لى أن ألتحق بمدرسة الزراعة العليا فقابلت ذلك الاقتراح بالسخرية ، فما كنا نملك أوراد الأطيان التى تؤهل الطالب للالتحاق بتلك المدرسة ، وما كنت أستطيع أن أفرق بين الأرز والقطن فى الحقول ، فنحن تجار من سكان القاهرة ، وما رأيت المزروعات إلا فى أثناء عبورى الطريق الزراعى إلى طنطا أو الإسكندرية .

وعلى الرغم من رسوبى فى الميكانيكا فى الدور الأول أشاروا على أن ألتحق بالهندسة وقالوا لى إن الواسطة قادرة على كل شيء ، ولو كانت الواسطة قادرة حقا على كل شيء فأين هى تلك الواسطة ؟ إن جميع رواد السلاملك من البسطاء المشغولين بقراءة السيرة النبوية أو بعض القصص أو الخوض فى السياسة ، وما أحسب أن أحدا منهم قابل باشا فى حياته اللهم إلا فى مواسم الانتخابات !

إن سى عبد المجيد كاتب الحسابات فى محلنا قد شغل نفسه كثيرا فى البحث لى عن واسطة . إنه كان من الرجال الأفاضل المخلصين الذين يهتمون بمشاكل الغير أكثر من الاهتمام بمشاكلهم . وقد عصر فكره وأجهد نفسه وأخيرا عثر على الضالة المنشودة ، فى فنان تشكيلى يسكن فى منزل أبى فى شارع محمد على ويعمل بالتدريس فى مدرسة الفنون ، وإن للرجل اتصالات . واتصل أبى بالرجل ولكن ماذا يستطيع أن يفعل فنان لطالب راسب فى الدور الأول فى الميكانيكا وعلى الرغم من ذلك زين له أن يلتحق بمدرسة المهندسخانة ؟!

أغلقت فى وجهى كل المدارس العليا ولم يبق أمامى إلا أن ألتحق بمدرسة التجارة العليا فى فترة بعد الظهر . وذهبت لأقدم أوراقى وإن كان فى ذلك حرمانى من لعب

الكرة لفريق مدرستى كان ذلك الخاطر يحزننى . أما من حل يمكننى من الانتظام فى دراستى وممارسة هوايتى ؟!

وذهبت إلى رئيس فريق الكرة بالمدرسة وكان طالبا مخضرما أمضى أكثر من سبع سنوات فى المدرسة وما استطاع أن يحصل على شهادتها ، فلما أخبرته أننى سأدخل فترة بعد الظهر ولن ألعب معهم نظر إلى وابتسم ساخرا منى وقال لى :

ـــ هات المصاريف .

وأخذهامنى وذهب إلى سكرتير المدرسة وسددها على اعتبار أننى من الطلبة المقبولين فى الفترة الصباحية . وبعد أن دفع السكرتير إلى بالإيصال وتناول كشوف الطلبة المقبولين فى الفترة الصباحية ليضع أمام اسمى علامة أننى سددت المصروفات قال رئيس فريق الكرة فى هدوء :

ـــ اسمه مش فى الكشوف دى ، اسمه فى كشوف المقبولين بعد الظهر .

وأرغى سكرتير المدرسة وأزبد ولعن رئيس الفريق وصب على رأسه السباب والشاب يضحك ضحكات انتصار ، وتصحيحا لما تورط فيه السكرتير نقل اسمى من كشوف المقبولين بعد الظهر إلى كشوف المقبولين فى الصباح وصاح فى الفراشين :

ـــ حطوا له تخته فى أى فصل .

وعدت إلى البيت منشرحا فقد أصبحت بفضل الكرة طالبا فى مدرسة التجارة العليا فى فترة الصباح ، وكان سبب انشراحى الحقيقى أننى التحقت بمدرسة عليا دون وساطة أحد من الباشوات أو من أعضاء الشيوخ أو النواب أو من الحزبيين الذين كانوا يملكون مصائر الناس .

٧٢

جاءت إلّي إستر وفى عينيها دموع ، فرحت أرمقها فى دهش وقلت لها :

ــ مالك ؟

فقالت فى انفعال :

ــ أمى عايزه تجوزنى .

ــ ما هو لازم ح تتجوزى يا إستر .

ــ ما باحبوش .

وراحت تجهش بالبكاء فلزمت الصمت ، فما كنت أدرى ماذا أفعل وماذا أقول وإن أحسست قرب هبوب عاصفة ، وقالت إستر بصوت مخنوق :

ــ أمى عرفت إنى ماشية معاك صممت إنى أجوز على طول .

وعاد الصمت بيننا وانتهت لحظات انفعالها الشديد ، فقالت فى شىء من الهدوء :

ــ انت لو اشتغلت النهارده تاخد كام ؟

ــ ستة جنيه .

ــ وانا باشتغل بتلاتة جنيه . نقدر بتسعة جنيه نعيش .

وأحسست كأننى فأر يقاد إلى مصيدة ، فقلت فى هدوء وإن كان الخوف بدأ يتحرك فى أعماق :

ــ اعقلى يا إستر .

فقالت فى حماس :

ــ فيها إيه لو نجوز ؟!

ــ انتى ناسية أنا إيه وانتى إيه ؟

ــ إيه يعنى .

ــ وأهلك ؟

ـــ ما يهمنيش أهلى .
ـــ انتى بتكرهيه قد كده .
ـــ ما بطقهوش .
ـــ عشان بتكرهيه عايزه تتجوزينى ؟!
ـــ انت عارف معزتك عندى قد إيه .
ـــ إستر ، بلاش نتهور . اسمعى كلام امك .
فظهر الغضب فى وجهها وقالت فى انفعال :
ـــ قول انك ما بتحبنيش .

وانصرفت وهى حانقة وأنا أرقبها فى إشفاق وإن كنت فى قرارة نفسى أستشعر راحة ، فما كنت أقدّر أن سيأتى يوم تفكر فيه إستر أن ما بيننا يمكن أن يصبح زواجا . إنها كانت تتهلل بالفرح كلما التقينا أما أنا فكنت أداعبها وأنا مسيطر على كل حواسى ، فما أذكر أن قلبى قد خفق وأنا معها بمثل ذلك الخفقان الذى يضطرب به إذا ما لمحت فورتينيه فى شرفتها أو التقيت بها مصادفة فى الطريق .

و لم أعد ألقى إستر ؛ سمعت أنها تزوجت فصرت أخرج كل يوم كما كنت أفعل من قبل وأدور حول جامع الظاهر وفى شوارع السكاكينى وحدى ، أحسست أن هناك فراغا فى حياتى ولكننى لم أشعر بحنين إلى إستر ، بل وجدت نفسى أسبح لله وأناجيه وأمد بصرى إلى الأشجار على جانبى الطريق وإلى القمر فى السماء وإلى كل ما حولى ، إن ما أراه ليس هو الوجود ، فالوجود شىء أسمى مما تدركه حواسنا . إننى أكاد أن أرى فى الظلام بعين بصيرتى أنوارا تشيع الطمأنينة فى وجدانى ، وإذا بطاقات الشهوة والنزوات تتحول إلى حب صوفى يهدينى إلى الجمال فى كل ما فى الوجود من صنع الله الذى أتقن كل شىء ، بديع السموات والأرض .

لم يعد هناك انقسام فى ضميرى ، وأصبح شعور أخلاقى يسيطر على ذاتى ، وصرت أتوكل على القدرة الإلهية المطلقة فإذا بضباب حياتى ينقشع ، وإذا بى أرتفع فوق حواجز الدنيا وعقباتها ، وإذا بنفسى تتغذى بالمحبة وتشرئب بعنقها إلى الفناء فى روح الكون ، إلى الخلود .

كنت أصلى وأناجى ربى وأقابل الفتيات . أما وقد قطعت شوطا فى طريق تطورى الروحى فقد صارت رفقتى لله تغنينى عن رفقة من سواه . لم أعد أنقاد لحنينى إلى الجنس الآخر وإن كان حينا زاخرا بالفتيات اللاتى يرحبن بالصداقة وبما هو أدنى من الصداقة .

وأمسيت أقضى بعض أوقاتى فى حوار مع حاييم ، وهو بقال يهودى متدين ، كان يمسك مرآة فى يد ويحلق ذقنه بماكينة حلاقة ، وما كان يستعمل الموسى أبدا وكان يقول لى : إن حلق الذقن بالموسى حرام . وكان حاييم البقال يقص علىّ أقاصيص التوراة ويشرح لى الشريعة اليهودية ، وكان ذلك أول عهدى بالتوراة .

لم يكن حاييم قد قطع أية مرحلة من مراحل التعليم ، فهو يهودى بسيط ولكن تمسكه بدينه كان يجعله يحس أن له قيمة ، وأنه وريث علم ، وأن إيمانه يشعره بالتكامل والتوازن والانسجام والتوافق .

كان حاييم يريد الخير لا ليقوده إلى حياة أبدية خالدة بل ليجزيه الله خيرا فى الدنيا ، فما كان اليهود يؤمنون ببعث ولا نشور ولا حساب فى الآخرة ، فجزاء الصالحات عندهم جزاء أرضى . وعلى الرغم من إيمانه العميق ، كانت تفلت من بين شفتيه عبارات شك كانت تنزل السكينة على قلبى .

كان يتساءل أحيانا : لماذا يغدق الله فى الدنيا على العصاة والخطائين ويرزقهم من الطيبات ؟ ولم يجد جوابا فى تعاليم دينه فكان يقول فى انكسار : حكمته . إنه تساؤل ليس له جواب عنده إلا الكفر بتعاليم دينه ، وما كان لديه الشجاعة ليكفر بها وإن وجد بعده علماء من اليهود كفروا بها ونشروا فى الدنيا الكفر والإلحاد .

وكنت أقول له : إن الإسلام فيه جواب لحيرته فالله يقول : « أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون . إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون » .

كان يصم أذنيه عن قولى فما كان يحب أن يسمع شيئا عن الإسلام أو عن أى دين

آخر غير اليهودية . فقد لقن منذ نعومة أظفاره أن اليهود وحدهم البشر وأن من سواهم كلاب البشرية ، ما خلقوا إلا ليخدموا شعب الله المختار ، فكان ذلك الزعم يجعله يستشعر امتيازه وإن كان لا يكاد يذكر بين البشر .

وذات مساء بينا كنت أصغى إلى حاييم جاءت فورتينيه وقالت تخاطب الرجل وإن كانت تريد أن تسمعنى كلامها :

ــ احنا ح نعزل ، ما حدش عايزنا هنا ؟

وتظاهرت بأننى لا ألتفت لكلامها وإن كان صراعا قد نشب فى أغوارى . إنها تلفتت إلىّ كأنما تقول لى : انطق . وإن لسانى ليكاد أن يستجيب لندائها ولكنى كنت أستشعر خجلا أمام ضميرى ، فإننى منذ لحظات كنت بين يدى الله أصلى العشاء .

إننى كنت سعيدا لأننى بعدت عن مصاحبة الجنس الآخر وصرت أسير متهللا بفرح فياض لأننى أصبحت على الدوام فى صحبة الله . أأحادثها وأعود إلى النفاق ؟ ولكى أحسم المعركة التى بدأت تنشب بين جنبى انسللت من دكان حاييم وعرجت إلى السلاملك أشارك السمار سمرهم وقد غابت فورتينيه عن عينى وعن ضميرى .

٧٣

كنت أخرج أول الليل إلى ميدان الظاهر فى رفقة إستر ، وكنت ألمح الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى بمحل حلوانى النجمة بالقرب من محطة الترام يدير عينيه فى اليهوديات العائدات من المحال التجارية ، فكنت أرقبه وهو شارد بعد أن يملأ بصره من الرائحات الغاديات ، الهابطات الصاعدات فى الترام ، فكنت أحزر أنه يبحث بينهن عن بطلات لقصصه .

كان أثر تلك الجلسة يظهر فيما يكتب فى الصحف والمجلات ، كان يعيش بين اليهود ويتأثر بتحررهم فكان كثيرا ما يصور الفتاة المصرية أكثر تحررا مما كانت عليه فى ذلك العصر . كان المازنى يخرج إلى الطريق كل مساء ليجمع مادة قصصه ، وكان من عادته أن يبدأ من تقع عليه عيناه بالتحية ، وقد حيانى أكثر من مرة .

وفى ذات ليلة انطلقت خلف إستر لألحق بها ، والتفت حولى فى انطلاقى فلمحت المازنى يسير بالقرب منى ، فخجلت من نفسى وخففت من خطوى . وفطن إلى ما اعترانى فابتسم وأشار إلىّ يدعونى أن ألحق بها فرفت على شفتى ابتسامة ووسعت من خطوى ولحقت بها .

كنت أخرج فى رفقة إستر ولكن إستر قد تزوجت فصرت أخرج وحدى أدور حول جامع الظاهر أناجى ربى بلسانى مرة وبجوارحى ووجدانى مرات ، فيزداد إحساسى بالوجود ويقوى شعورى بنفسى وأستشعر غزارة حياتى الباطنية . وكان المازنى يجلس بمحل حلوانى النجمة ولكن المحل قد أغلق فانتقل إلى محل أسترا الذى يطل على شارع الخليج عند غمرة وشارع السكاكينى عند محطة الترام ، ليتفرس فى الهابطين منها والصاعدين ، ويطلق لخياله العنان ليجمع من ضباب ما يتولد فى ذهنه مادة للكتابة .



وكنت فى كل صباح أنطلق إلى شارع فاروق لأستقل الترام إلى العتبة ومنها إلى مدرسة التجارة العليا بالقصر العينى ، وكان المازنى يشق نفس الطريق بسيارته فى طريقه إلى جريدة البلاغ وكان يعمل محررا بها . فلمحنى مرة وأنا أغدو وأروح على رصيف المحطة فى انتظار الترام فدعانى للركوب معه ، فركبت إلى جواره وتجاذبنا الحديث فإذا بسعادة تغمرنى . إنها أول مرة فى حياتى أتحدث فيها إلى كاتب كبير ، وكان إلى جوار ذلك بسيطا مرحا لا يشبع المرء من حديثه .

وطلبت من الأستاذ أن أهبط عند جريدة البلاغ وكانت على بعد خطوات من مدرستى ، ولكن كرمه أبى إلا أن ينطلق بى حتى الباب ، فنزلت وذهبت لأتسلم كتبى ، فإذا من بينها كتاب إنجليزى ضخم ، فقرأت عنوانه « قصتى المفضلة » فأحسست شيئا من الراحة ، فقد كنت أحب قراءة القصص ، وها هى ذى بين يدى مجموعة أقاصيص لأشهر الكتاب الإنجليز . إننى سأتعب فى استخراج معانى الكلمات الإنجليزية التى لا أعرفها — وما أكثرها — ولكنه تعب لا شك لذيذ .

إننى قرأت فى المدرسة الثانوية مسرحية : « إبراهيم لنكولن » ومسرحية « كريتون العجيب » وقصة « جزيرة الكنز » ولكن تلك القراءة لم تكن محببة إلى قلبى فقد اكتنفها كثير من التعقيدات المدرسية ، لذلك عزمت على أن أقرأ مجموعة « قصتى المفضلة » وحدى دون أن أنتظر شرح الأستاذ الإنجليزى ، فكانت هذه أول خطوة أخطوها نحو الاعتماد على نفسى فى الدراسة والبحث والتنقيب .

وذهبت إلى المدرج الكبير مع الزملاء لنتلقى محاضرة فى « إدارة الأعمال » فراح الأستاذ يلقى ما عنده ، وفى أثناء انهماكه فى الشرح لمحنى أحادث جارى فأشار إلى وقال :

— انت ياللى بتتكلم مع جارك قوم اقف .

فوقفت فقال لى :

— كنت باقول إيه ؟

فأخذت أعيد ما قاله كلمة كلمة ، فشرد قليلا ثم قال :

— أهو أنتو زى البغبغانات .

و لم أسكت ، إنه قد وجد أنى كنت حاضرا معه بكل ذهنى فأراد أن يهزأ بى لأنى تحدثت مع جارى ، ولما كان أكبر عيوبى أنى لا أسكت على تحد ولا أزدرد ما يخيل إلى أنه إهانة فقد قلت :

ــ أنا مستعد انى أحضَّر المحاضرة الجاية .

فقال الأستاذ فى ضيق :

ــ اقعد بلاش غلبة .

وانتهت المحاضرة فانطلقت منفعلا إلى مكتبة المدرسة وأخذت أبحث عن كتب إدارة الأعمال ، كانت كلها باللغة الإنجليزية فرحت أقلب فيها حتى عثرت على كتاب منها فيه نفس المحاضرة التى ألقيت علينا اليوم .

إن الأستاذ لا يعتمد فقط على هذا الكتاب فيما يعتمد عليه عند إعداد محاضراته ، بل إنه يترجمه سطرا سطرا .

واستعرت الكتاب وعكفت على ترجمة المحاضرة التالية فإذا بى أستشعر لذة جديدة لم أكن أعرفها ، لذة التنقيب فى الكتب واستيعاب ما فيها . كانت هذه أول مرة أقرأ فيها كتابا علميا ليس من الكتب المقررة على . إن قراءة هذا الكتاب قد فتح أمامى آفاقا كانت مغلقة ، إنه أقنعنى أننى أستطيع أن أقرأ فى الإنجليزية وأن أفهم بل إننى أستطيع أن أنقل ما أقرؤه بالإنجليزية إلى لغة عربية سليمة .

وانتهيت من ترجمة المحاضرة وانتظرت فى لهفة موعد تلقى المحاضرة الثانية فى إدارة الأعمال ، وما إن حان موعد دخول الأستاذ حتى أخذت أرقب دخوله إلى القاعة فى قلق ، فلما رأيته يسير إلى المنصة إذا بقوة خفية تدفعنى لأنطلق إليه ، وتقدمت منه كالمسحور وقلت فى هدوء وأنا أقدم إليه ما ترجمته :

ــ محاضرة النهارده أهه .

ومد الأستاذ يده بحركة غير إرادية وتناول منى الأوراق ، وكأنما قد أفاق من ذهوله فجأة فراح يرقبنى فى غضب ثم قال فى انفعال :

ــ أنا مش عايزك تحضر لى ولا محاضرة .

فقلت فى برود :

ــ ونسبة الحضور ؟

ــ ح اديها لك .

وخرجت من قاعة المحاضرات مطرودا ولكنى عرفت طريقى إلى المكتبة .

٧٤

راحت الأيام تمر وأنا لا هم لى إلا لعب الكرة مع فريق ضعيف ومصاحبة أناس لأستعيض بهم عن أصدقاء مدرستى الثانوية الذين تبعثروا فى كليات الجامعة والمدارس الثانوية ، فأنا لا أسيغ الحياة إذا خلت من الأصدقاء . وكان صديق طفولتى صلاح قد التحق بمدرسة التجارة العليا فاستمرت العلاقة بيننا كما كانت . كان يذهب معى إلى ملاعب الكرة ثم يعود معى إلى بيتنا لنستذكر ما كنا نكتبه فى أثناء المحاضرات .

لم تختلف الحياة كثيرا فى مدرستى العليا عن مدرستى الثانوية ، فالمشرف على فريق الكرة هناك كان مدرس الحساب والمشرف على الفريق هنا هو مدرس المحاسبة ، ولم أستشعر بفرق بين الدراسة فى الثانوى والدراسة فى مدرستى العليا، فالأساتذة هنا وهناك يحولون وقت الدرس إلى حصص فى الإملاء . إنهم يتعمدون إلقاء الدروس أو المحاضرات فى بطء لنتمكن من كتابة كل كلمة تخرج من أفواههم .

وأجريت بعض الامتحانات قبل نهاية السنة فكانت لا تخرج عن أسئلة تقليدية القصد منها اختبار مقدار ما حفظناه عن ظهر قلب من دروسنا ، فما كانت الأسئلة تحاول أن تكشف عن ملكاتنا أو طرق تفكيرنا .

كان الاقتصاد السياسى والمذاهب الاقتصادية تستهوينى ، وقد كتبت مقالا مستعينا بالكتاب الذى ألفه الأستاذ فى هذه المادة وبعثت به إلى الأهرام فإذا بالمقال ينشر وكان هذا أول صلة بينى وبين النشر . وقد شجعنى ذلك على أن أعاود التجربة فترجمت بعض مقالات لكتاب إنجليز أو بالحرى استعنت بها لكتابة مقالات مشوهة عن أصول رائعة وبعثت بها إلى الأهرام فإذا بها تنشر جميعا ، فقد كانت الصحف كلها فى ذلك الوقت تفسح صدرها للمقالات الأدبية .

لماذا الأهرام بالذات الذى أرسلت إليه أول ما كتبت فى حياتى مع أننى كنت معجبا بجريدة السياسة الأسبوعية ؟ لست أدرى . إنها الصدفة فما دام أول مقال قد نشر فيها فقد داومت على إرسال مقالاتى إليها .

وكنت أصغى إلى المحاضر الذى يلقننا محاسن الاستعمار وأنا فى دهش من أمره . إنه يزعم فى ثقة أنه لولا الاستعمار لظلت الدول المستعمرة متخلفة ، لما سار الترام فى شوارعها ، ولما امتدت أسلاك البرق والتليفون والكهرباء ، وما كان يحدثنا أبدا عن نهب الخامات الأولية وإفساد الأخلاق ، ورحت أسأل عنه فعرفت أنه متزوج من إنجليزية وأنه سعيد بذلك الاحتلال .

وكان أن التحق بفترة الصباح وفترة المساء فى مدرستنا ما يقرب من ألف طالب ، وكان ذلك العدد يفزع الطلبة إذا ما فكروا فى مستقبلهم ، أتحتاج مصر إلى مثل ذلك العدد من خريجى التجارة ؟ وما كان أمر المستقبل يعنينى فى كثير أو قليل ، فقد تيقنت طوال حياتى التى عشتها أن المستقبل بيد الله يصرفه حيث يشاء ، وأن علينا أن نعمل وأن نترك ما لله لله .

وحدث أن تقرر إقامة مباراة فى كرم القدم بين منتخب مدارس القاهرة ومدارس الجيزة ، فإذا بى أنتخب للعب لمدارس القاهرة . وقد أغضب ذلك لاعبى مدرسة فؤاد الأول ، مدرستى السابقة ، لأنهم كانوا يفضلون أن يلعب مكانى لاعب منهم يلعب لنادى الزمالك ومرشح لمنتخب القاهرة .

وجاء يوم المباراة فإذا بلاعبى فؤاد الأول الذين كانوا فى المنتخب يتغيبون احتجاجا ولعب الاحتياطى معنا . وما إن بدأت المباراة حتى تمكنت من تسجيل الهدف الأول لمنتخب مدارس القاهرة ، وبعدها مباشرة مررت الكرة من منتصف الملعب إلى الجناح الأيمن فسرعان ما سجل الهدف الثانى ، وتوالت الأهداف فإذا بنا نهزم مدارس الجيزة والجامعة ستة أهداف نظيفة .

وأقبل علىّ الضابط الذى كان مشرفا على فريق مدرسة البوليس والذى اختارنى فى الإجازة الماضية للعب معهم تمهيدا لالتحاق بالمدرسة ، وراح يعتذر لى عما حدث يوم الاختيار ويغرينى أن أقدم أوراق فى السنة المقبلة إلى البوليس وهو يعدنى أننى سأكون

من المقبولين فى هذه المرة ، ولكننى اعتذرت وقلت له إننى رضيت بما اختاره الله لى وإننى لا أحب أن أجرب حظى فى شىء واحد مرتين .

ووزعت علينا الميداليات ، فأخذت ميداليتى و لم أكترث بها ، فالزمن كفيل بأن يسحب ستائر النسيان على كل شىء . إنها بعد أيام لن تزيد على قطعة من المعدن حفر فيها ما يحفر على شواهد القبور ، فأنا على الرغم من مرحى لا أفرح بما يأتينى ولا أحزن على ما يفوتنى ، فما الدنيا إلا ممر إلى مقر ، فالسعيد حقا من أخذ من ممره لمقره ، وما من أحد أخذ معه جوائزه أو ما فى الأرض من حطام .

وتعودت أن أشترى بعض الصحف التى تصدر بالإنجليزية فى مصر وكانت تلك الصحف تجد رواجا بين الأجانب الذين يقبضون بيد من حديد على المراكز الهامة فى البنوك وفى التجارة وبين قوات الاحتلال ، وكنت أقرؤها لأتقوى فى اللغة الإنجليزية ، فعثرت بين موادها التى كانت تهتم بالسياسة والاقتصاد على مقال يصف « نقمة الضوضاء » ، فعكفت على ترجمة المقال ، ولما انتهيت منه بعثت به إلى جريدة المقطم وكنت قد بعثت إليها ببعض المقالات كأنما لم يعد الأهرام يكفينى ، فإذا بالمقال ينشر فى الصفحة الأولى مع مقالات المقطم الرئيسية التى كان يكتبها كريم ثابت وفارس نمر وغيرهما من كبار محررى الصحيفة .

اشتريت الصحيفة فى أثناء عودتى من الكلية وهبوطى فى ميدان العتبة لآخذ ترام العباسية السارى فى شارع فاروق ، وما إن رأيت مقالى فى الصحفة الأولى حتى خفق قلبى فى شدة وغمرنى سرور فياض ، ورحت أقطع ميدان العتبة وأنا منهمك فى القراءة لا أحفل بالسيارات أو الحناطير التى تغدو وتروح ، فما كانت بالكثرة التى تفزع من يقرأ صحيفة أو يقلب صفحات مجلة فى عرض الطريق .

وعدت إلى البيت وصعدت فى الدرج قفزا ، وما إن دلفت إلى شقتنا حتى وجدت أبى قد جلس وإلى جواره إبراهيم الشرى وقد راح يقرأ المقال والحاج إبراهيم يصغى مطرقا ويردد بين فقرة وفقرة :

— جميل .. جميل .

وتسمرت فى مكانى لحظة وقد لفنى خجل شديد ، وسرعان ما انسحبت لأغيب فى غرفة بعيدة فأنا لا أحتمل أن أرقب أناسا يقرءون ما كتبت ، فإن تهريج زملائى

الطلبة فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية يوم أن قمت لأقرأ موضوع الإنشاء الذى حصلت فيه على الدرجة النهائية ترك فى أغوار نفسى جرحا ما أيسر أن ينتكئ إذا قمت لأقرأ أو وقعت عيناي على أى إنسان يقرأ أى شيء كتبته ، حتى لو كان ما كتبته عنوان دار .

٧٥

أوشكت السنة الدراسية على الانتهاء فكنت أواظب على حضور المحاضرات لأنى كنت أعتقد أن الأساتذة يحومون حول أسئلة الامتحان . وذات يوم عندما هممت بركوب ترام رقم ١٥ الذى يربط بين العتبة والجيزة ويمر بالقصر العينى ، إذا بصوت ينبعث من حطام امرأة تسربلت بالسواد قائلا فى صوت خافت :

— ركبونى .

فحملتها حملا حتى صعدت بها إلى الترام ووقفت إلى جوارها فى الفسحة التى تقود إلى المقاعد ، وخجلت أن أتركها وحدها وأذهب إلى الدرجة الأولى فقد كان اشتراكى يعطينى هذا الحق ، فإذا بها تقول فى صوت مرتجف :

— قعدونى .

وتلفت فلم أجد مقعدا خاليا ، ووصل صوتها إلى مسامع شاب قريب فنهض وترك لها مكانه فأجلستها فيه فى رفق كأنما كانت قارورة يخشى تحطيمها ، وما إن استقرت فى مكانها حتى راحت تشمشم بأنفها وتقول :

— ريحة سجاير .. أنا خرمانه .. ادونى سيجاره .

انى لا أدخن ولم يكن معى سيجارة فارتبكت ، وإذا برجل يقدم إليها سيجارة فأخذت تشد منها أنفاسا وتنفث الدخان فى الهواء وقد نزلت بها سكينة وهدوء ، وإذا بالكمسارى يأتى يضرب بقلمه قطعة الخشب التى ثبتت فيها التذاكر ويقول :

— تذاكر .. الأبونيهات .

فأخرجت له الاشتراك فأشار إلى غرفة الدرجة الأولى وقال لى :

— اتفضل .

— معلش .

واقترب الكمسارى منها وقال لها :

— تذاكر .

فإذا بها تقول فى هدوء وثبات :

— ادفعو لى .

ودفعت إلى الكمسارى بست مليمات ثمن التذكرة وأنا أقول :

— اسمح لى أنزل قبل ما تقول جوزونى .

وقفزت من الترام وهو منطلق لأستقل تراما آخر .

وفى العصر خرجت أتمشى فى شارعنا لأقابل صلاح وهو قادم من بيته لنستذكر معا ، وفيما أنا سائر إذ بى أرى إستر وهى واقفة تحدث إحدى صاحباتها ، إنها حامل قد غاض جمالها ونفرت العروق الزرقاء فى ساقيها وترك البؤس بصماته على وجهها . أين هذه الذابلة من تلك الناضرة التى كان صديقى فريدون يتمنى أن يرسمها ؟!

وأحسست رثاء وإشفاقا ورحت أفكر فى إستر وما اعتراها ، وإذا بى أجد أن هذا هو حال كل بنات اليهود اللاتى تزوجن . نضارة قبل الزواج وذبول رهيب بعده . وطاف بذهنى أن أسأل العم سيد الشامى فى هذه الظاهرة فعنده تعليل طريف لكل ما يحيرنا من ظواهر .

وفى جلسة من جلسات المساء فى السلاملك سألت العم سيد :

— ليه بنات اليهود بيبقوا حلوين قبل ما يجوزوا وتو ما يجوزوا بيدبلوا ؟

فقال العم سيد فى ثقة دون أن يتعب نفسه بالتفكير :

— لأنهم جايين من ميته .

وفطن إلى أننا لم نفهم قصده فراح يشرح ، قال :

— اختار موسى عليه السلام سبعين رجلا من قومه وصعد بهم فى جبل سيناء ، وأرادوا أن يسمعوا الله وهو يوحى إلى موسى فأخذتهم الرجفة فماتوا جميعا . فراح موسى عليه السلام يتضرع إلى الله أن يعيد إليهم الحياة فإذا بالموتى تدب فيهم الروح ، ومن الموتى دول جم اليهود .

وراح كل من فى السلاملك يتحدث فى الموضوع على قدر علمه واجتهاده ، وتشعب الحديث وكأنما أراد العم سيد الشامى أن يفصل فى الموضوع فقال متسائلا :

— ليه الراجل كل ما يكبر بيحلو وتزيد هيبته ، وليه المرأة كل ما تكبر بتدبل وتوحش ؟

وراح كل منا يدلى برأيه ولم تكن أى من إجاباتنا شافية ، فقال العم سيد فى هدوء :

— عشان الرجل اتخلق من طين .. والطين كل ما يعيش يحسن .. يزهو ؛ أما المرأة اتخلقت من لحم واللحم كل ما يمر عليه الزمن يفسد .

وصاح الحاج إبراهيم الشرى :

— ينتن .

وتحرك شيطانى يغرينى أن أنقل ذلك الحوار إلى النساء حيث يجتمعن عند جدتى ، فتركت السلاملك وذهبت إلى حيث كانت أمى وعمتى وامرأة عمى ونساء إخوتى ، وكن يخضن فى أحاديث شتى . وهممت أكثر من مرة أن أنفس عما فى صدرى وأن ألبى نداء شيطانى ولكنى وجدت أن ما سأقوله سيجرح شعور الجميع وقد يثير زوبعة تصل أنباؤها إلى أبى فيغضب منى ، وكنت أرتجف فرقا من مجرد فكرة أن أرى أبى يوما يشيح بوجهه عنى .

كان أبى بالنسبة لى هو كل شىء فى حياتى ، كنت لا أتناول غدائى أو عشائى إلا معه ، وكنت ألازمه فى غدوه ورواحه وأنا سعيد . فإذا خرج لنزهة خرجت معه ، وإذا ذهب للصلاة فى مسجد من المساجد ذهبت معه ، إنه كان يتبسط معى ويستشيرنى فى بعض شئونه فكان يشعرنى بأهميتى .

استيقظت ذات ليلة على حركة غير عادية فى البيت ؛ كان الجميع يتجهون إلى شقة أبى فهرولت مفزوعا لأرى ماذا هناك ، الجميع يتجهون إلى شقة أبى فهرولت مفزوعا لأرى ماذا هناك ، فإذا بأبى فى سريره قد جلس ذابل اللون يلتقط أنفاسه فى جهد وصدره فى علو وانخفاض ، فرحت أنظر إليه وأنا أستشعر أن قلبى يتمزق وأن نارا تشوى جوفى . ماذا أستطيع أن أفعل لأحمل عنه ما يتحمل من كرب ؟ كنت أعجز من أن أفعل شيئا غير التطلع إليه وذرف الدموع فى صمت .

وزاد انفعالى فإذا بى أجهش بالبكاء ، ووصل صوت بكائى إليه فراح ينظر إلىّ وهو يحاول أن يخفى آلامه لأكف عن البكاء . ومرت الأزمة وتمدد لينام وطلب منا أن نذهب إلى فرشنا فذهبت وأنا حزين أكاد أن أموت كمدا .

وفى الصباح علمت من الحديث الذى دار بين أمى وجدتى أن هذه النوبة تأتيه بين وقت وآخر ، وأنه طلب أن لا يخبرنى أحد إذا ما عاودته فى الليل فبكائى يؤذيه .

٧٦

أوشكت السنة على الانتهاء وكنت أنا وصلاح نتوقف عن استذكار دروسنا قبل منتصف الليل ، فكنت أخرج معه إلى ميدان الظاهر ثم أعود لأنام . وكنا نسمع من زملائنا أنهم يسهرون فى الاستذكار حتى الصباح فاتفقت معه على أن نجرب ذلك مرة .

كان مكتبى فى غرفة تدلف إليها من السلم مباشرة بين شقة أبى وشقة أخى أحمد ، وكان لها بابان داخليان يلفظان إلى الشقتين ولكنهما مغلقان تماما . فكانت غرفة منفصلة ليس لها إلا باب السلم ، فكنا نصعد إليها أو نهبط منها فى أى وقت .

وذكرت لأبى وأمى أننى أنا وصلاح قررنا أن نسهر حتى الصباح فراحا يعدان لنا الطعام والشراب فى الغرفة كأنما كنا مقبلين على سفر . وجاء صلاح وعكفنا على كتبنا وإن كنا بين وقت وآخر ننظر إلى الصينية التى كانت تحمل ألوانا من الجبن والزيتون وعسل النحل والخيار .

وقبل أن يدخل أبى إلى شقته بعد أن غادر السمار فى السلاملك طرق باب مكتبى فى رفق ، فلما فتحته سألنا إن كنا فى حاجة إلى شىء قبل أن ننقطع عن كل من فى البيت فشكرنا له ذلك ، ولما اطمأن إلى أن عندنا كل ما قد نحتاج إليه ذهب إلى شقته وأغلق بابها خلفه .

وراح الوقت يمر بطيئا حتى إذا ما انتصف الليل قمنا نتناول عشاءنا ونطل من الشباك الكبير ، فلمح صلاح جندى المرور يغدو ويروح وحده فى الظلام فصوب إليه

قطعة من الخيارة التى يقضمها فإذا بالجندى يفزع ، ودهش صلاح لفزعه ولصوته الخائف الذى كان يتعوذ بالله من الشيطان ورحت أعلل لصلاح سبب فزعه . قلت له إن امرأة قد احترقت منذ أيام فى البيت الذى يقف الرجل عنده وقد ماتت ، فالرجل يحسب أن عفريتها هو الذى يشاغبه .

وأعجبنا باللعبة فأطفأنا نور الغرفة وأخذنا نتابع الجندى بأعقاب الخيار وهو يترقب فى خوف وفزع ونحن نكتم ضحكات تود أن تنطلق حتى لا يكتشف أمرنا ، وغادر الرجل المكان فعدنا لنستأنف ما كنا فيه .

راح النوم يغالبنا وأخذنا نقاومه ونحن نجاهد لنقرأ وما كنت أستوعب شيئا مما نقرأ ، وطار النوم من أعيننا وتصفحت رأسانا وبدأ الملل يتسرب إلينا . إنها تجربة لم تؤت ثمارها ، فما استفدنا شيئا بعد الوقت الذى اعتدنا أن نتوقف عنده . وفى سكون الليل قال صلاح :

ـــ هو الفجر لسه ما ادنش .

فقلت له وقد اتسعت عيناى بعد أن ذهب موعد نومى وأحسست أن مخى أصبح يترجرج فى جمجمتى :

ـــ لسه .

فقال صلاح لنفر مما نحن فيه من ملل وضيق :

ـــ تعال نطلع السطح نتوضأ ونستنى لما الفجر يدن .

وصعدنا إلى السطح وأسبغنا وضوءنا وأخذنا نعدو ونروح نترقب الفجر ونستمتع بالهواء المنعش الذى يصافح وجهينا . وفيما نحن ننظر إلى الطريق وجدنا أن الجندى قد عاد ليقف عند البيت الذى احترقت المرأة فيه ، فرحنا نتسلى بتصويب بعض الحجارة إليه ونحن نفرح لفزعه ولم ينهنا وضوؤنا عن مشاكسته .

وأذن المؤذن بالفجر ، فقمنا نصلى ، ولما قضيت الصلاة هبطنا إلى الشارع وسرت مع صلاح حتى ميدان الظاهر ثم عدت مسرعا لأنام ، ولكن النوم خاصمنى وراحت كل عروق تنبض فى شذه وأحسست صداعا شديدا فى رأسى .

وفى الصباح ذهبت إلى المدرسة وأنا أترنح ، وقابلت صلاح فأخبرنى أن أخاه الأكبر

ثائر لأنه بات خارج البيت ، فلما سألته عما إذا كان قد استأذن من أهله فأخبرنى أنه لم يفعل ، فقلت له إن ثورة أخيه على حق ، فقال لى إنه لم يعد طفلا .

وعدت من المدرسة وحاولت أن أنام دون جدوى ، وعند الغروب جاء أخو صلاح الأكبر وقابلنى فى السلاملك وراح يقرعنى لأن أخاه قد بات عندى و كان يقول بين كل عتاب وعتاب :

ـــ هو عشان أمه ما ماتت يبقى مالوش أهل يسألوا عليه ؟!

و لم يكتف بعتابى وتقريعى بل جاء إلى أبى يشكو إليه مما فعلنا ، فلما قال له أبى إن الواجب على صلاح كان أن يخبرهم بمبيته خارج البيت قال الرجل فى انفعال : لو كان أخبرنا ما كنا نوافق على ذلك .

ومر أسبوع و لم يأت صلاح لنستذكر معا ، ولو كان قد جاء فما كنا بقادرين على أن نقرأ شيئا فإن سهر تلك الليلة قد أثر على تأثيرا سيئا ، فقد ظللت مصدعا مشتت الفكر أكثر من سبعة أيام ، ورب سهرة تحرم سهرات .

وبدأت الامتحانات الشفهية وكنا نمتحن شفاهة فى كل المواد حتى الحساب التجارى ، وصرت أنتقل من لجنة إلى لجنة ، فلما هممت بالدخول لتأدية امتحان إدارة الأعمال إذا بأحد الزملاء يهرع إلى ويقول :

ـــ استنى . ح ادخل معاك .

كأنما ساقه قدره فى تلك اللحظة .

ودخلت وحييت الأستاذ ، فلما نظر إلىّ فطنت إلى أنه عرفنى فقد حرمنى من حضور كل محاضراته منذ أول العام الدراسى ، إنه لم ينس وقال فى نبرة ساخرة :

ـــ اتفضل .

وجلست وسألنى سؤالا أجبت عنه كما هو مكتوب فى كتابه ، فقال فى سخرية :

ـــ بس كده .

ـــ ده اللى مكتوب فى الكتاب .

ـــ مفروض انك تقرا كتب تانية غير الكتاب المقرر عليك .

وعرفت أنه يتربص بى فقلت :

ـــ يعنى هو ضاق المقرر مالقيتش إلا السؤال ده .

وإذا بالزميل المسكين الذى دخل معى يضحك ، فالتفت الأستاذ إليه غاضبا وقال :

ـــ أظن ما قال لك تعال معايا شوف انا ح اعمل إيه؟ اتفضلوا... صفر انت وهو .

كانت درجة الشفهى خمس درجات ، فبذلت كل جهدى لأعوضها فى التحريرى ، وانتهى الامتحان وظهرت النتيجة فإذا بزميلى المسكين يرسب فى إدارة الأعمال ويعيد السنة لأن حظه السىء قد قاده فى طريقى .

ولم يغفرها لى الزميل فكان يقرعنى لأننى تسببت فى ضياع سنة من عمره ، وكان لا يفتأ يذكر ذلك حتى ضاع كل عمره .

واجتمع فى السلاملك كل أصدقاء أبى وتعلقت كل أعينهم بجهاز الراديو ، كانت الليلة ليلة افتتاح محطة ماركونى المحطة الحكومية ، وكان قد أعلن أن أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب سيحييان حفلة الافتتاح .

امتلأ المكان بدخان السجاير فأمر أبى بفتح كل الشبابيك فهو لا يطيق رائحة الدخان ، ودارت الأحاديث حول عبده الحامولى وألمظ ومحمد عثمان والشيخ المنيلاوى ، وإذا بأحدهم يحلل صوت منيرة المهدية ويتحدث عن خامته وقوته وإذا بآخر يقاطعه قائلا :

ـــ فين صوت منيرة من فن أم كلثوم ؟

ومر الوقت الذى ينصرف فيه أبى وهو يتكئ على وسادة من وسائد الكنبة الاسطمبولى التى يجلس عليها ، فبدا أنه لن ينصرف قبل أن ينتهى الحفل ويسمع أم كلثوم وعبد الوهاب .

وبدأت الأصوات الجميلة تشدو ، فإذا بالذين كانوا يتحاورون فى صوت عال أقرب إلى الصراخ يصمتون ، وإذا بالرءوس تتمايل فى نشوة . ورحت أرقب أبى فرأيته هائما مع الألحان وقد أدهشنى ذلك فقد كنت أحسب أن الرجل التقى لا صلة بينه وبين الطرب .

الحاج إبراهيم الشرى ينقر على بطن قدمه فقد كان مضطجعا فى جلسته وكان قد

أركب ساقا على ساق ، والعم سيد الشامى يهز رأسه فيهتز طربوشه فى تناسق مع الألحان ، وآهات إعجاب تفلت من بين الشفاه هنا وهناك فإذا بايد ترتفع لتشير بالصمت ، كانوا جميعا فى هيام .

وانتهى الحفل وظلوا جميعا جالسين لا يتحركون كأنما كانوا يخشون أن يستيقظوا من حلم جميل ، وما إن راح الحاج إبراهيم يتحدث عن « الطاوور » الذى كان يغنيه عبد الوهاب حتى قام أبى وانصرف ، فإذا بالآخرين ينصرفون وهم مسحورون .

كانت ليلة من ليالى السلاملك لا تنسى .

٧٧

بدأت السنة الدراسية فأسرعت لألتقى بأصدقائى الذين ظلوا فى المدرسة من فريق كرة القدم ، فبعض أعضاء الفريق قد خرجوا إلى الحياة العملية بعد أن نالوا شهادة التخرج . وأخذنا نتدارس فى اهتمام شئون الفريق وطلبنا أن تكون لنا حجرة خاصة نجتمع فيها فاستجابت إدارة المدرسة إلى ذلك الطلب ، فإذا بتلك الغرفة تصبح ناديا نجتمع فيه لنستمع من أحد أفراد الفريق إلى أحدث أغانى عبد الوهاب ، ومن لاعب آخر إلى أحدث أغانى أم كلثوم ، فكانت منافسة بين الزميلين استمتعنا بها ، بل كانت المحرض الأول على عدم انتظامنا فى دراستنا .

كنا نتحدث فى الرياضة وفى الفن بينما كان الطلبة يخوضون فى أحاديث السياسة ، كانوا حزبيين وكنت أمقت الحزبية فما كنت أشارك فى الحوار المشبوب بين الوفديين والسعديين وأنصار كل حزب يصل إلى الحكم ، فما كنت على استعداد لأبيع نفسى لأناس يتطاحنون على كراسى الوزارة ، وكنت أعتقد أن من السفه أن نختلف وعدونا الأكبر قابع على أنفاسنا فى كل مكان فى ثكنات قصر النيل وفى قصر الدوبارة ، بل وفى المواخير والملاهى الليلية .

وما انقضى على انتظام الدراسة أسابيع حتى استقالت وزارة عبد الفتاح يحيى باشا وشكلت وزارة توفيق نسيم الثالثة ، وإذا ببعض الصحف ترحب بها لأن سياستها

كانت تقوم على إلغاء دستور ٣٠ دستور صدقى باشا ، وكانت تلك الصحف تأمل فى أن يعود دستور ٢٣ ، ولكن البلاد عاشت بلا دستور تحتكم إلى القضاء المختلط فى مسألة الدين العام الذى كان ينقض ظهرها .

وما كان من فى السلاملك يختلفون كثيرا عن كل المصريين الذين يتغذون بالسياسة ، فكانت أحاديث سمار الليل تدور حول الوزارة التى ذهبت والوزارة التى جاءت وتمنى عودة الوفد إلى الحكم فكنت أضيق ذرعا بتلك الأحاديث . ولم أجد لى ملاذا منها بعد أن تركت فورتينيه حينا وبعد أن تزوجت إستر وبعد أن أعرضت عن تلك الصداقات العابرة التى كنت أعقدها بينى وبين فتيات اليهود اللاتى يقطن حينا . إلا أن أمضى الليل بين سيدات بيتنا أصغى إلى أحاديثهن ، وكانت أحاديثهن ممتعة وكان أمتعها ذكريات جدتى عن حياتها مذ دخلت أسرتنا إلى ذلك اليوم الذى كنت ألقى إليها فيه سمعى .

كنت أحس نشوة وأنا أصغى إليها ، وكنت أكثر من أسئلتى وكانت إجاباتها طريفة تحرك خيالى وتختزن فى وجدانى . وما دار بخلدى فى تلك الأيام أن ذكريات جدتى ستكون مادة رئيسية لأول قصة طويلة أكتبها فى حياتى بعد ثلاث عشرة سنة من اللحظة التى نفرت فيها من سمار السلاملك ومن حديث السياسة .

كانت جدتى بسيطة غاية البساطة تمتاز بقلب من ذهب ، وكانت تحب أن تسمعنى وأنا أغنى منولوجات الزعنى ، فإذا ما قلت بصوت قبيح منغم :

ـــ وقع المقدر يا سيدى ولبسنا البرنيطة .

كانت تطلب منى أن أعيد المنولوج كله ، وقد لاحظت أنها تحب أن تنصت إلى الراديو وكانت تقلب وجهها فيه فى دهش فما كانت بقادرة على أن تتصور كيف أن جهازا صغيرا يستطيع أن يغنى وأن يقرأ القرآن وأن يلقى الأحاديث .

كانت جدتى أم عبد الغنى ترى أن الراديو « شغل شياطين » ، وفى ذات ليلة قال المذيع :

ـــ تسمعون الآن عبد الغنى السيد .

وإذا بجدتى تقول فى دهشة واستغراب :

ــ مين اللى قاله على اسمى ؟!

ونظرنا إليها جميعا وإذا بها تقول فى عتاب :

ــ بيقول لى : يا ست ام عبد الغنى ازيك .

وضحكنا من أعماقنا وما أكثر ما ضحكنا من صراحتها وبساطتها وسلامة طويتها .

كنت آخذ الحياة من الناحية المرحة ، وإن كانت نفسى إذا ما انفردت بى تحاول أن تقودنى إلى مسالك الأحزان . كانت تهمس فى أعماق أن كل يوم يمر فهو يقربنى يوما إلى نهايتى ، فانقضاء الأيام إن هو إلا دنو أجلى بمقدار ما تسرب من عمرى . كانت تلك الخواطر تثير مخاوفى فى أول الأمر ، ولكننى نجحت فى رياضة نفسى على الحقيقة التى لا شك فيها بلا خوف ولا فزع ، بل فى رضا واستسلام وإيمان .

كانت ضحكاتى تجلجل فى كل مكان ، وكان مدرس المحاسبة يحب النكتة وكان يثيب عليها ، كان يعطى قرشا لمن يقفش قفشة فى أثناء المحاضرة يضحك لها . وقد فزت فى إحدى محاضراته بعشرة قروش ، وقد استدعانى بعد المحاضرة وسرنا حتى غرفته جنبا إلى جنب يحاول أن يخرجنى من لعبته ويقول وهو يضحك :

ــ انت عايز تاخد ماهيتى على آخر الشهر ؟!

كان مرحا على نقيض مدرس الحسابات المالية ، فقد كان جادا من أصل شامى ، لا تتخلل محاضراته أية أحاديث خارج الدرس . طلب منا ذات يوم أن نحول كسرا اعتياديا إلى كسر عشرى فلما وصلت إلى الرقم الخامس جبرته ، أى أضفت إليه واحدا من مائة ألف ، فلما جاء إلى ورأى ذلك ثار وقال :

ــ لو كان الكسر ده فايدة الجنيه فى السنة ، تبقى حضرتك فلست البنك اللى بتشتغل فيه .

وذهب منفعلا إلى السبورة وتناول إصبع الطباشير وراح يكتب فى غضب الكسر الذى قربته ويضربه فى ملايين ويقول لى :

ــ شفت حضرتك فلست البنك ازاى ؟

وسرحت مفكرا فيما يقول وأنا أعجب من ثورته ، فمن أين لنا نحن المصريين أن نعمل فى بنك ؟ ومن قال له إننى سأعمل فى بنك ؟ إننى لا أحتمل عمليات الجمع

والطرح والقسمة والضرب ، ولو كتب الله على أن أعمل فى بنك فقد كتب علىّ الشقاء .

وانتهت ثورة الأستاذ بانتهاء المحاضرة وذهبنا إلى المدرج الكبير ونحن نتسامر بما حدث ، وما إن دخل المحاضر وبدأ يحاضرنا فى القانون التجارى حتى غفوت و لم أنتبه إلا على جارى وهو يلكزنى ويدفع إلى فى الخفاء كتابا وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ، فلما قرأته وجدته كتابا جنسيا رخيصا من تلك الكتب التى كانت تطبع لجنود الاحتلال ، فلما انتهيت من قراءته قلت لجارى :

ــ القصص دى أسهل القصص اللى تنكتب . أنا مستعد أكتب لك قصة أفضح منها دلوقت .

وتناولت نوتة المحاضرات ورحت أكتب أول قصة فى حياتى ، قصة مكشوفة يسيل منى عرق الخجل كلما تذكرتها . وانتهت المحاضرة وانصرف الطلاب وبقيت وحدى أكتب من وحى شيطانى ، حتى إذا ما انتهيت من الكتابة ذهبت إلى جارى ودفعت إليه بما كتبت وقد حسبت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد . و كم كانت دهشتى عندما دفع إلى جارى فى المحاضرة بعد أشهر قصة جنسية لأقرأها فإذا بها قصتى قد كتبت على الآلة الكاتبة وأضيفت إليها أوصاف لتزيدها فحشا وزينت برسومات لتزيدها تشويقا .

٧٨

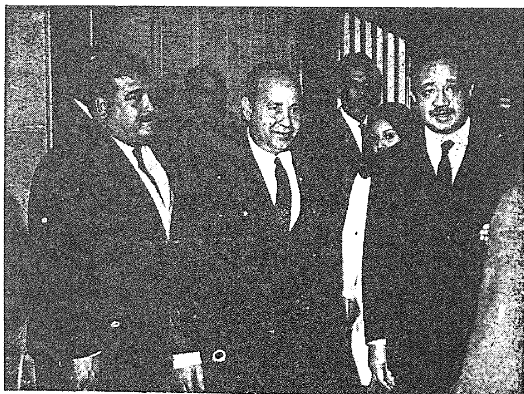
جلست بالقرب من شباك مكتبى أستذكر دروس اليوم ، فلما غاب النهار فى كهف الليل قمت وأدرت الزر الكهربى فإذا بالنور يغمر الغرفة ، وقبل أن أعود إلى مكانى إذا بالنور يضاء فى أعلى شرفة فى البيت المقابل لنا فى الشارع الموازى لشارعنا ، وكنت أراها فى وضوح من خلال الأرض الفضاء التى تركت بين البيتين المواجهين لبيتنا ، وإذا بفتاة تعود إلى كرسيها وتتناول كتابها وتنهمك فى القراءة .

كان ذلك شيئا طبيعيا لم يخطف انتباهى ، واندمجت بكل حواسى فيما كنت أقرأ حتى إذا ما أحسست بالجوع قمت لأذهب إلى شقتنا لأسكت صراخ بطنى ، فذهبت

إلى الزر الكهربى وأدرته فغرقت غرفة مكتبى فى الظلام ، وسرعان ما أطفىء النور فى الشرفة التى كانت الفتاة تقرأ فيها . وقد لفت ذلك انتباهى ولكن لم أطلق العنان لخيالى فلعل ما حدث لا يزيد على أن يكون مصادفة .

وتناولت عشائى وسرعان ما عدت إلى غرفة مكتبى أتأهب لاستقبال صديقى صلاح لنستذكر دروسنا معا ، فما إن أدرت الزر الكهربى وبدد النور ظلام الليل حتى أضىء النور فى شرفتها واتجهت إلى كرسيها وتناولت كتابها .

ووقفت أرنو إلى الشرفة طويلا . إن ما يحدث الليلة لا يمكن أن يكون مصادفة . إنها تتعمد أن تجذب بصرى إليها وقد نجحت ، فماذا تريد منى ؟ إننى بكل كيانى أتوق إلى مصادقة الجنس الآخر ، ولكنى قد أغلقت نفسى دون كل أنواع العبث . كانت صداقات فتيات اليهود فى حينا مبذولة وقد أعرضت عنها ، زهدت فى اللذات العابرة ووجدت لذتى الدائمة فى مصاحبة أبى والذهاب معه إلى أماكن العبادة ، فكنت أحس أن روحى قد صارت مهفهفة مجنحة وأنها تشف على مر الأيام ، فصرت أخشى



أن تغلظ وأن تتردى فى الظلمات إذا ما استجبت لنداءات رغبات الجسد .

وفى الصباح ذهبت إلى شارع فاروق لأستقل الترام إلى العتبة الخضراء فإذا بها واقفة هناك تتلفت فلما رأتنى تظاهرت بأنها ترصد مقدم الترام . كانت فتاة بيضاء البشرة شعرها يميل إلى الصفرة ، لها عينان زرقاوان ، قصيرة القامة يميل جسدها إلى الامتلاء ، وترتدى مريلة فى لون سن الفيل وقد أسندت حقيبة كتبها على أعلى عجزها فى رشاقة . إنها أخت أحد زملاء الحى ، ليس له سواها وليس لها سواه . ماتت أمها بعد أن مات أبوها فراح يرعاها ويغذيها بعطفه وحنانه .

وسولت لى نفسى أن أبدأها بالتحية إلا اننى أحجمت ، فقد رأيت فى التودد إليها ومسايرتها فى أهوائها خيانة لرفيق من رفاق الصبا وإن لم يكن صديقا .

وجاء الترام فصعدت رشيقة إلى غرفة الحريم ، وتوجهت إلى غرفة الدرجة الأولى . وفى ميدان العتبة الخضراء وقفنا جنبا إلى جنب ننتظر ترام الجيزة المنطلق إلى القصر العينى ، فلما أقبل رحت أرقبها بطرف عينى فإذا بها تنظر نحوى بعينين ثابتتين ، فقفزت إلى الترام وجعلت أرصد الطريق لأعرف أين ستهبط .

وفى المحطة الواقعة بين ميدان الأزهار وميدان قصر النيل (ميدان التحرير الآن) هبطت فى رشاقة واتجهت إلى شارع جانبى تقع فيه مدرسة الليسيه ، إنها طالبة فى تلك المدرسة . وانتقلت إلى الجانب الآخر من الترام وجعلت أتبعها بنظرى حتى غابت عن عينى .

وانساب الترام فى شارع القصر العينى وقد شغل كيانى سؤال حيرنى : ماذا أريد منها ؟ صداقة بريئة ؟! وهل هناك صداقة بريئة حقا بين فتى قد تخطى العشرين من عمره وفتاة متفتحة كالورود ؟ صداقة غير بريئة ؟! وفيم كان نفورى من فورتينيه ؟! إننى أرتجف فرقا إذا ما ضعفت وصرت عبدا لشهواتى وتسيل دموع الندم على خدى . أأشتهى ذلك العذاب ؟ ولكن حياتى بدون الجنس الآخر قد صارت خواء .

ووصل الترام إلى محطة مدرسة التجارة العليا فهبطت منه وهرعت إلى أصدقائى لأفزع إليهم من وحدتى التى كانت تثير أشجانى ، وتوقظ ضميرى الذى لا يتعب أبدا من محاسبتى حسابا عسيرا على كل ما أفعل ، بل على مجرد ما يطوف بذهنى من

خطرات .

وفى صبيحة اليوم التالى وقفت فى شباك مكتبى فإذا بها هناك فى شرفتها تمد عينيها إلى ، فلما حملت كتبى وتحركت لأهبط إذا بها تتحرك للهبوط . وتلكأت متعمدا ثم سرت صوب شارع فاروق ومن مكان منعزل رحت أرقبها وهى واقفة تتململ . وجاء الترام وكان خاليا ــ فما أندر أن يكون الترام مزدحما فى تلك الأيام ــ وتركته يمر دون أن تستقله ، ثم جاء ترام آخر ومر كما مر أخ له من قبل وقد لوت عنقها ترصد الطريق الجانبى الذى سأقدم منه .

أرضى ذلك غرورى فخرجت من مكمنى وتقدمت إلى محطة الترام فى ثقة . إنها تنتظرنى ولا ريب ، فلو بدأتها بالتحية فقد تتظاهر بالخجل وتطرق برأسها أو ترد تحيتى بصوت خافت . ولكنى لم أفعل ووقفنا جنبا إلى جنب . آه من خائنة الأعين ! لم أستطع أن أكتم أنفاس رغباتى فكنت أفرها بنظرات مختلسة من الرأس إلى القدم وكانت ترسل ما فى عينيها من نداء .

وركبت الترام وأطلقت لخيالى العنان . إننى أعرف البداية جيدا ويا طالما مارستها مع فتيات الحى أن أبدأ بالتحية ثم نسير جنبا إلى جنب نتسامر فى أشياء عادية ثم تكون ألفة ، ثم لقاء كل يوم . ولكن ما مدى الشوط الذى سأقطعه معها أنا الذى صارت قرة عينى فى الصلاة ؟!

٧٩

كانت الأمة تزمجر بالغضب وتشتعل بالثورة ، فوزارة نسيم باشا قد ألغت دستور صدقى ، دستور ١٩٣٠ ولم تعد دستور ٢٣ . وزاد الأمر سوءا أنها استكانت لسلطات الاحتلال بل راحت تيسر لها كل ما تطلبه تمكين بقائها والحفاظ على سلامة جندها ، وقد خرج مستر هور على المصريين بتصريح ردا على الجبهة الوطنية التى كانت تطالب بمفاوضات لإبرام معاهدة تحقق بعض مظاهر الاستقلال ، أحنق كل المصريين ، فخرجت المظاهرات تهتف بسقوط وزير خارجية الإمبراطورية التى لا

تغرب عنها الشمس ، وارتفعت الهتافات فى شوارع القاهرة : يسقط هور ابن الطور .

كانت مدرسة التجارة العليا فى شارع القصر العينى و لم يكن هناك سواها وسوى كلية الطب ، وقد حاصرهما البوليس وما كان فى أيدى الطلبة إلا الطوب الذى نفد فراحوا يخلعون بلاط الممرات ويكسرونه ويلقون به على الرجال المساكين الذين تسلحوا بالخوذات والتروس والعصى وصدرت إليهم الأوامر ليقفوا فى وجه الشعب الثائر .

كان المصريون يصطدمون بالجنود المصريين وكان الإنجليز فى قصرالنيل يتتبعون أنباء المتظاهرين فى مكامنهم وهم آمنون ، وكانت بعض التعليمات تصدر مباشرة من دار المندوب السامى إلى الضباط البريطانيين الذين يعملون فى وزارة الداخلية فكانوا ينفذونها دون أن يلتفتوا إلى رؤسائهم من المصريين أو يبلغوهم بها ، فكانت إجراءات قمع المظاهرات من أقسى ما شاهدت البلاد .

وقفت أنظر إلى الطوب الذى يلقى من وراء الأسوار على الجنود المصريين ، وإلى مياه خراطيم الحريق التى كانت تنطلق لتغرق رجال البوليس ، فألفيت أننا محاصرون لن نستطيع أن نخرج من مدرستنا فى مظاهرة تعلن عن الغضبة الحبيسة فى الصدور ، فقررت أن أذهب إلى الجيزة لأنضم إلى المسيرة الكبرى ، مسيرة الجامعة المصرية إلى مجلس الوزراء وإلى قصر الدوبارة وإلى قصر عابدين .

وفى طريقى إلى الجيزة مررت على القصر العينى فإذا بالزجاجات التى عبثت فى معامل كلية الطب تلقى على البوليس السياسى الذى كان يوجه الجنود المسلحين بالبنادق والخوذات والعصى والدروع ، وإذا بهتافات بحياة الدستور وبسقوط الخونة والمستعمرين تزمجر كأنها هزيم الرعد ، فأحسست راحة وملئت حماسا فرحت أعدو خلف الترام الذى سيحملنى إلى الجامعة .

وبلغت ساحة الجامعة فإذا بكتل بشرية استحالت إلى حناجر تطلق هتافات صادقة من قلوب زكية لم يتلفها المرض ، وإذا بتلك الكتل تنساب كالطوفان فى شوارع الجيزة ، وإذا بالناس على جانبى الطريق يحيون الطلبة أحسن تحية ، وإذا بمن أخذه الحماس منهم يندفع كل شعوره مع التيار يهتف لمصر ولدستور مصر وللحرية .

ووصلنا إلى كوبرى عباس فإذا به مفتوحا . حسبوا أنهم قد وضعوا عقبة فى سبيل تقدم الشباب الثائر ولكن متى وقف شباب صادق النية مكتوف اليدين أمام ما يوضع فى سبيله من عراقيل ؟ هرع بعض شبابنا إلى أسفل الكوبرى وراحوا يديرون عجلات إدارته ، فلما رأينا الكوبرى يتحرك زادنا ذلك تصميما فأخذنا نهتف هتافات انتصار ونسرع إلى الجزء المتحرك ، وقبل أن يلتئم الجسر نقفز إلى جانبه الآخر وإذا بكوكبة من الفرسان قد اصطفت عند نهاية الكوبرى ، كانوا فى انتظارنا .

ولم يمش الخوف بيننا بل انتظرنا حتى اكتمل عقدنا ، ثم استأنفنا السير ونحن نهتف لمصر ولدستورها . وتحت ضغط اندفاعنا فتحت فرجة فى صفوف الفرسان وإذا بالجنود المصطفين خلفهم ينقضون علينا بالهراوات . ولما كنا عزلا من أى سلاح حتى سلاح الطوب فقد هرعنا إلى جانبى الطريق نبحث عما نرد به الاعتداء وندافع به عن حياتنا .

وبينما كنت أسرع إلى جانب الطريق إذا بهراوة ترتفع وتهوى على شاب كان يجرى بجوارى وإذا به يترنح ، وقبل أن يسقط على الأرض كنت قد حملته على ظهرى .

كيف حدث كل ذلك فى لمحة بصر ؟ لست أدرى . كل ما أعرفه أننى سرت به إلى أقرب بيت ورحت أصعد به فى الدرج وأنا لا أدرى إلى أين أسير .

كدت أنوء بحملى ، وإذا بباب شقة يفتح وإذا بيد تمتد وتجذبنى . فلما صرت فى الداخل ، أغلق الباب فى سرعة وإذا بأيد تمتد وترفع فى رفق الشاب الذى أحمله وتمدده فى حنان على الأرض .

ولأول مرة استطعت أن أرى فى وضوح ما أمامى ، إن منقذتى سيدة فى مثل سن أمى ترتدى مثلها السواد وتغطى رأسها مثلها بطرحة سوداء ، وقبل أن أفتح فمى بكلمة شكر كانت قد ذهبت وعادت بكوب ماء وقدمته إلىّ وقالت :

ـــ اشرب .. خضوكو .

ـــ متشكر .. أنا صايم .

كنا فى رمضان وكنت صائما و لم أكن على استعداد لأن أفطر ، وبدأ الزميل الممدد على الأرض يتحرك ويتأوه :

ــ يا بوى .. يا بوى .

فملت نحوه وأخذت أخلع عنه جاكتته فإذا تحت الجاكتة جيرس من الصوف ، فخلعته عنه ثم القميص فظهر صديرى من صوف بذلته وتحت الصديرى قميص آخر ، كان أشبه بالكرنبة ، وكنت كلما خلعت عنه قطعة يتأوه فى صوت خافت مشحون بالألم :

ــ آه .. آه يا بوى .

ودنت منى السيدة الفاضلة وقالت لى :

ــ كفايه ليبرد .

فاعتدلت وقد تركته ممدودا على الأرض يتأوه ، والتفت إلى السيدة وقلت لها :

ــ آسف .. أزعجناك .

فقالت السيدة فى حنان :

ــ أبدا يا بنى . أنا اولادى زيكم . مين عارف هم فين دلوقت .. فوق سطح فى البرد ده واللا اتقبض عليهم .

وساد الصمت بيننا حتى قطعته السيدة لما قالت :

ــ زمان أهلك قلقانين عليك . ح تروح ازاى ؟ البيت محاصر والعساكر بيقفشوا اللى فوق الاسطح .

وأطرقت السيدة مفكرة ثم انبسطت أساريرها فجأة ، فمدت يدها وتناولت صحيفة ثم قدمتها إلى وهى تقول :

ــ امسك دى فى إيدك ، أنا أخرج معاك . امشى جنبى ثابت . كلمنى وانا اكلمك لغاية ما افوتك م الحصار .

والتفت إلى الفتى الذى كان يتأوه وفطنت إلى نظراتى ، فقالت لى فى بساطة :

ــ ما تعتلش همه .. سيبهولى .

وطلب الفتى منى أن أخطر أخاه وأعطانى رقم تليفونه ، وغادرت أنا والسيدة البارة الشقة وهبطت الدرج ثابت الجنان ، كنت أستمد الشجاعة منها ، كانت تسير ثابتة لا يهتز لها رمش . وخرجنا إل الطريق فإذا بالجنود وعلى رءوسهم الخوذات وفى

أيديهم المتارس والهراوات يحاصرون المكان ، وإذا بضباط إنجليز يشرفون على تحريك العساكر المصريين للقبض على الطلبة المصريين .

وسرت والصحيفة مطوية فى يدى وحديث يدور بينى وبين السيدة ؛ كانت تعلق فى سخرية على القوة الغاشمة التى تريد أن تكتم أنفاس حرية الشعوب ، سارت إلى جوارى لحظات ولكنها لحظات خالدة حفرت فى أعماق أعماق .

وخرجنا من الحصار وبعدنا عنه قليلا ، فإذا بالسيدة المجهولة تقول لى فى رقة جعلت الدموع تطفر إلى مقلتى :

ــ مع السلامة يا بنى .

ووسعت من خطوى حتى بلغت كوبرى دير النحاس ، ومن هناك أخذت الترام إلى العتبة الخضراء ، ومنها الترام المنطلق إلى شارع فاروق ، وقبيل مدفع الإفطار وصلت إلى البيت فإذا بأبى وإخوتى محمد وأحمد وسعيد فى انتظارى فى قلق كانت أنباء المظاهرات قد بلغتهم وكانوا على اتصال بالأقسام والمستشفيات . وترقبت أن يعاتبنى أبى ، وكم كانت دهشتى لما لزم الصمت كأنما كان يبارك بصمته ما قمنا به .

وبعد ذلك الحادث بأسبوع خرجت من الجامعة المصرية مظاهرة أخرى ودارت عند كوبرى عباس معركة بين البوليس والطلبة قتل فيها عبد الحكم الجراحى ، وقد أثار مقتله كل النفوس فكانت جنازته مظاهرة وطنية اشترك فيها كل الشعب ، مظاهرة استطاعت أن تنتزع دستور الأمة من كل السلطات التى يعشى أعينها نور الحرية .

٨٠

أمست جلسة الليل بين نساء البيت تجذبنى ، فما كان النسوة يجدن حديث السياسة فحديث السياسة فى أى مجتمع كان يخنقنى ، فما كنت أسيغ التطاحن بين الأحزاب وما كنت أفهم له معنى ما دام الإنجليز يطئون بأحذيتهم القذرة أرض بلادى الطاهرة .

كنت من فرط سذاجتى أضيق بزعماء كل الدول التى يحتلها جنود الإمبراطورية

التى لا تغرب عنها الشمس ، فقد كنت أتصور أن حل المشكلة لا يقتضى أكثر من أن يجتمع هؤلاء الزعماء فى مكان ما وأن يقرروا العصيان المدنى أو الثورة فى يوم واحد فيتصدع بناء الإمبراطورية التى تعيش على امتصاص دماء الشعوب التى استسلمت للذل والهوان .

كنت ساذجا لا أفهم لا كثيرا ولا قليلا فى السياسة ، ومن أسف أن تلك السذاجة لازمتنى طوال أيام حياتى ، ومما لا شك فيه أنها ستقبر معى يوم يحين الحين لأتخلص من سذاجات كثيرة كانت تتردد فى جنباتى تردد أنفاسى .

كانت جدتى لا تفتأ تتحدث عن زواج أحفادها الذكور من حفدتها الإناث ، وما كانت تهتم كثيرا بفارق السن أو الثقافة ، أما مسألة التكافؤ فما كانت تخطر لها على بال ، فما كانت تتصور أن فتاة ما تعز على أى رجل . وكانت تبذل كل جهدها لتربط أبناءها بروابط المصاهرة ، إنها ولا ريب باركت زواج أخى محمد من ابنة عمته ، وباركت زواج سعيد فقد تزوج ابنة عمته أيضا ، ولم يغضبها زواج أحمد من ابنة خاله فجدة العروس لأبيها كانت أختها ، واقترحت أن تزوجنى من كل بنات أعمامى اللاتى كن لم يتزوجن . ومن حسن حظى أنهن كن فى مثل سنى وتزوجن قبل أن أتم دراستى .

وفى أثناء حديثها الذى ما كان يدور إلا حول توفيق رأسين فى الحلال رأت أن تزوجنى من صغرى بنات عمى محمد ، كانت غاية أمانيها أن تربط الأسباب بين أبى وعمى وقد أخفقت ذات مرة فى أن تزوج واحدا من إخوتى من ابنة عمى محمد التى كانت فى مثل سنى أو على التحديد كانت تصغرنى بعام . واقترحت فيما اقترحت أن تزوجنى بها ولكنها تزوجت بعد أن قطعت أولى خطواتى فى مدرستى العليا .

إنها فى هذه المرة لا تلمح تلميحا بل أمست تردد ذلك كلما جمعنى بها مجلس ، ولم تنفرد جدتى بالحديث بل راحت أمى تحبذ الفكرة . ولم تكتفيا بذلك بل كانتا تطلبان منى كلما جاءت ابنة عمى لزيارتنا أن أرافقها فى العودة لكيلا تعود وحدها فى الظلام إلى شارع النزهة ، وكانت عادة تنصرف قرب غروب الشمس ، وما كانت المسافة بين دارنا ودار عمى تحتاج لمن يقوم بدور الحارس . وللحقيقة ما كان يسمح لفتاة من

أسرتنا أن تخرج وحدها لأى سبب من الأسباب .

كانت ابنة عمى فى الخامسة عشرة وكانت لا تجرؤ فى تلك الأيام على أن تخرج سافرة الوجه ، فكانت تغطى وجهها بغلالة رقيقة جدا لا تكاد تحجب شيئا من ملامحها ، وكانت ترتجف فرقا من أن يلمحها أبوها حاسرة الوجه حتى فى الطريق الضيق الذى يقود إلى بيتهم وما كان فيه سوى أربعة بيوت .

كان عمى محمد شريك أبى فى تجارته فى مطلع شبابهما ، وكان يميل إلى مغازلة كل سيدة أو فتاة تأتى إلى الدكان ، وكان ذلك يجرح حياء أبى فكان يترك الدكان ويعكف فى المسجد القريب وهو ضيق الصدر بأفعال أخيه .

وكان عمى يعشق الجمال فلم يتزوج كما تزوج أبى من ابنة خالته ، بل ظل يبحث وينقب حتى تزوج شركسية من الجوارى البيض ، وما أظن أنها أشبعت نهمه للجنس فقد ظل يعنى بمظهره ويخرج كما يخرج أعيان الأحياء الوطنية كل يوم خميس على ظهر حماره المطهم إلى المحمدى . يتبختر ويغدو ويروح مستعرضا شبابه ، ولا أعدو الحقيقة إذا قلت إنه كان جميلا يأخذ منظره العين .

وكان عمى من هواة الحمام ، فإذا ما عاد إلى بيته انطلق إلى غية الحمام قبل أن يذهب إلى شقته . كانت غية الحمام مكانه المفضل فى الدار ، وبعد أن مات جدى ذهب عمى إلى دكان أبيه ليديره وكان فى مواجهة الدكان حمام للسيدات ، فكان يأخذ كرسيا ويجلس بالقرب من مدخل الحمام ويصوب نظره إلى كعوب النساء ، وكان يزعم أنه يستطيع أن يعرف محاسن المرأة من مجرد النظرة إلى كعبها .

والظاهر أن رأيه السيئ فى النساء كان له أثر فى معاملته لأهل بيته ، فقد كانت نسوة البيت لا يجرؤن على التطلع من الشبابيك أو الخروج إلى الشرفات ، وتاويل من يلمحها فى الشرفة فى أثناء عودته من عمله للراحة أو لرعاية الحمام .

كانت ابنة عمى التى ترشحها جدتى زوجة لى تلميذة فى المدرسة الإسرائيلية، فقد كانت أقرب مدرسة إلى البيت. وفى ذات يوم قابل عمى جار يهودى وقال له فى زهوه:

ـــ يا سلام يا محمد لو شفت بنتك وهى لابسة أبيض فى أبيض وماسكه بساط الرحمة كانت زى ولاد اليهود تمام .

وعاد عمى إلى البيت غاضبا مزمجرا ونادى فى عنف على ابنته ، فجاءت إليه ترتجف فسألها عما فعلته فقالت فى صدق إنها خرجت مع فتيات المدرسة لتشييع ميت يهودى ، فقال وهو ينهرها :

ــ ميت يهودى يا بنت الكلب ! والله ما انتى خارجه م البيت ولا رايحه المدرسة بعد كده .

وقد كان .. هذا هو عمى الذى تريد جدتى أن أصبح صهره ، وهذه هى ابنة عمى التى يراد لى أن أتزوجها . وسخرت فى قرارة نفسى من كل المحاولات الساذجة التى كانت تبذل للربط بينى وبينها العمر كله .

وخرجت كالعادة فى الصباح لأركب الترام فى طريقى إلى مدرستى ، فألفيت فتاة الليسية هناك تتلفت . إنها ترصد مقدمى ولا ريب وإذا بخاطر الزواج يطوف بى ، إذا كان علىّ أن أتزوج ولا بد أن سيأتى يوم أتزوج فيه فلن تكون زوجتى إلا هذه الفتاة الواقفة إلى جوارى على رصيف الترام . إنها تستطيع أن تقطع علىّ مشوار الحياة الطويل الشاق ، سأفهمها وتفهمنى وسيكون هناك بينى وبينها شىء مشترك يخفف من وطء قسوة الأيام .

وما إن استولى علىّ ذلك الخاطر حتى قررت أن يكون سلوكى مع فتاة الليسيه يليق بفتاة ستصبح زوجتى ذات يوم . طارت من رأسى فكرة أن أستجيب لها لنصبح صديقين وتبخرت كل خاطرة تحرضنى على أن نغتنم أيام شبابنا ، فكنت كلما أصبحت أمامها وجها لوجه أحاول أن أتحكم فى أساريرى حتى لا أفضح خبيئة نفسى .

وفى ذات ليلة بينما كنت عائدا فى شارع غمرة إذا بى أنا وهى وحدنا فى الطريق ، كانت تخفف من خطوها لألحق بها ، ولكنى تحكمت فى مشاعرى وكتمت أنفاس كل عوامل الإغراء التى عربدت فى جنباتى ، فقد عزمت على أن لا اقترف أية هفوة قد تعكر فى المستقبل صفو حياتنا الزوجية .

كانت جبهة وطنية من الزعماء والساسة قد طالبت من الحكومة البريطانية إجراء مفاوضات بين المصريين والإمبراطورية العاتية التى تحتل البلاد ، فجاء رد الحكومة البريطانية بالموافقة على الدخول فى المفاوضات حالا للوصول إلى معاهدة بين مصر وإنجلترا ، فإذا بموجة من الفرح تجتاح البلاد ، فوزارة نسيم باشا ستقدم استقالتها وستتولى وزارة أخرى إجراء انتخابات حرة ، يعود بعدها الوفد إلى الحكم ويعود للأمة دستورها ، دستور ١٩٢٣ .

واجتمع رفاق السلاملك وقد ران عليهم الحزن ، لم يخوضوا فيما كانت البلاد كلها تخوض فيه من آراء ، فقد شغلوا بمرض العم سيد الشامى .

راح أبى يتحدث فى أسى عن زيارته إياه ، قال إن العم سيد كان يقاسى من ورم فى رجليه ، وأن الرجل الغامض قد كتب على رجليه بعض ما كان يعلم من أسرار الأدعية فإذا بالورم يزول . وتحدث الشيخ إبراهيم الشرى عن ضعف عينيه وعن أنه أصيب بماء أزرق فيهما ، وقال إن هناك إعلانا فى جريدة الأهرام عن دواء فى الهند يشفى مثل هذه الحالات وقدم إلينا قصاصة فيها العنوان والتمس منا أن نكتب مستفسرين عن كيفية حصوله على ذلك الدواء ؟

الهند ؟! أين نحن من الهند ؟ كنت أحسب أن الاتصال بالهند ضرب من المحال ، فإذا كان الزعماء الهنود الذين يحتلهم بضعة نفر من الإنجليز لم يستطيعوا أن يتصلوا بالزعماء المصريين والسودانيين وزعماء الدول الأخرى التى رضخت فى ذل للاستعمار البريطانى ، لينظموا ثورة تهب فى يوم واحد يتفقون عليه فى وجه الأسد البريطانى ، أيكون من الميسور على أناس بسطاء من أمثالنا أن يتصل بعضهم ببعض وأن يطلب أحدهم من الآخر أن يرسل إليه دواء أو شرحا عن ذلك الدواء ؟!

كنت على الرغم من أننى طالب فى السنة الثالثة بمدرسة عليا أجد أن الكتابة

للاستفسار وانتظار الرد ضرب من الأوهام ، فساسة الدول الكبيرة الذين استكانوا للمندوبين الساميين الذين كانوا يمثلون الأسد البريطانى قد زرعوا فى قلوبنا اليأس .
والظاهر أن أخوى أحمد وسعيد لم يتحمسا مثلى لفكرة الكتابة إلى الهند للسؤال عن الدواء الذى يزيل المياه الزرقاء من الأعين ، فظل الشيخ إبراهيم يتوكأ على كتف ابن من أبنائه ، وكان الابن راضيا عن ذلك فقد أتيحت له فرصتان ، فرصة الجلوس مع الكبار وفرصة الزوغان من المدرسة .

ومرت ثلاثة أيام والجلسة فى السلاملك لا تطول كثيرا لكأنما كان أبى يفتقد العم سيد الشامى فيترك الضيوف مبكرا ، فسرعان ما ينفض السمار ويعود كل منهم إلى داره ، وفى اليوم الرابع خيم على السلاملك وجوم شديد ، إن العم سيد الشامى قد مات ونزل بأبى حزن عميق حتى إنه لم يذهب إلى المأتم للتعزية ، بل بقى فى السلاملك ينتظر من يفدون إليه ليعزوه فى جاره فى الدكان وصديقه الذى كان ألزم له من ظله ، فإذا كان الظل يلازم المرء فى النهار فى اليوم الذى تسطع فيه شمسه ، فإن العم سيد كان يلازم أبى فى النهار المظلم والنهار الرائع والليل البارد والليل الحار .

وتأهبت للسفر إلى المنيا وأسيوط للعب مع منتخب الجامعة والمدارس العليا هناك ، وقابلت لأول مرة الدكتور محجوب ثابت فقد كان طبيب الجامعة وكان مرافقا للمنتخب ، فالرجل يحب الرياضة ويشرف على التدريب العسكرى فيها ، فقد كان متشبعا بروح النهوض .

كان رجلا شاب شعر رأسه وشعر لحيته التى اتصلت بشاربه ، إلا أنه ظل فتى القلب خفيف الظل يحب الضحك والإضحاك . ولم يكن الهزل بضاعته فهو لا يفتأ أن يفيض بكنوز قلبه ، فهو عالم ووطنى وخطيب ومحاضر ولكن خفة روحه طغت على كل مواهبه ، فما كانت المجلات فى ذلك الوقت تقص عنه غير نوادره الفكهة ، فانطبعت فى أذهان الناس صورته وقد امتزجت بصورة مهرج السيرك !

كنا منذ أن بدأنا نتناول طعام الإفطار نعابثه ، فكانوا جميعا يشاكسونه وبقيت وحدى صامتا أنظر ، فراح يمتدح أدبى وسرعان ما ركبته بدعابة لاذعة فإذا به ينهض وهو يلوح نحوى بعصاه ، فعدوت وراح يعدو خلفى وهو يقول :

ـــ حتى أنت يا ملعون ؟!

وضحكنا من أعماق قلوبنا حتى حان موعد المباراة ، فنزلنا إلى أرض الملعب فإذا بالمنيا كلها قد جاءت تستمتع بحدث قلما كان يحدث فى المحافظات . وبعد دقائق قليلة من انطلاق صفارة الحكم أحرزت الهدف الأول ، وسرعان ما أحرز زميل آخر الهدف الثانى ، وأضفت إلى رصيد أهدافنا الهدف الثالث ، وأحرز الزميل الهدف الرابع ، وانتهى الشوط الأول فإذا بالدكتور يأتى إلينا متهللا يزهو بأولاده أبناء الجامعة . وفى بداية الشوط الثانى أحرزت الهدف الخامس ، وما استأنفنا اللعب حتى أحسست بحذاء يرتطم بفمى فسقطت على الأرض ، وإذا بى أحمل إلى الخارج . واقترب منى اثنان من طلبة الطب كانا ضمن احتياطى الفريق ، فسمعت أحدهما يقول :

ـــ عايزين برمنجنات درجة حرارته ٥٠ .

وإذا بصوت الدكتور يرتفع ساخرا :

ـــ درجة ٥٠ ؟ افرض مامعناش ترمومتر ؟! إذا وضعت إصبعك فى الماء وطقت حرارته فهو فى درجة ما بين الـ ٥٠ والـ ٦٠ ، وإذا لم تطقه فهو فى درجة ...

وقامت مناظرة علمية بين الدكتور والطلبة وأنا ملقى على الأرض والدم ينزف من شفتى ، فقد انغرزت فيها إحدى أسنانى وثقبت فيها ثقبا ، ووجدت أن المناظرة قد طالت فصرخت فيهم :

ـــ أنا هنا !

وأمر الدكتور أن أحمل فورا إلى المستشفى وأصر أن يذهب معى ، وفى المستشفى أمر أن أحقن حقنة ضد التسمم وأن يضمد جرحى .

وعدنا إلى الملعب نشاهد باقى المباراة التى انتهت بفوز المنتخب بستة أهداف نظيفة ، وذهبنا إلى الفندق لنستريح ونتغامز على الدكتور الذى كانت المنيا كلها تنتظر محاضرته فى المساء . وجاء الليل وحاول بعضنا أن يروغ من المحاضرة ولكنا وجدنا أن ذلك يتنافى مع أبسط واجبات الذوق ، فالرجل كان سعيدا بنا حقا ، لا يمل الحديث عنا وعن الآمال المعقودة علينا .

وانطلقنا إلى القاعة التى أعدت للمحاضرة فإذا بها غاصة بالناس . وبدأ الدكتور

يتحدث ، إنه يتدفق ، إن الأفكار تتزاحم فى رأسه فيعبر عنها فى لباقة ويسر ، فإذا بى أصمت فى إعجاب وألقى إليه سمعى فى ذهول ، فما كنت أعرف الدكتور جيدا ، وقد انتابنى شعور من عثر على كنز فجأة ، فالرجل المرح الذى يحب الهزل وطنى صادق الوطنية ، يتحدث عن وحدة وادى النيل فى حماس وما كنت قد عرفت بعد أنه نذر نفسه لمصر وسودانها .

والتقينا بعد المحاضرة فتقدمت إل الرجل أهنئه فى حرارة وصدق ، فإذا به يتهلل سرورا ، وجاء سبنكس باشا قائد الجيش المصرى وقدمنى إليه الرجل قائلا : إننى بطل الجامعة ، وراح يصف له الأهداف الثلاثة التى أحرزتها .

وسافرنا إلى أسيوط وذهبنا إلى فندق هناك لنستريح ، فلما كان الصباح وجدت أن الجرح الذى فى شفتى السفلى قد تورم ، وكان أن رؤى عدم اشتراكى فى المباراة .

وعند الظهر طلبت أن أذهب إلى المسجد لأؤدى صلاة الجمعة فإذا باثنين من الزملاء يتطوعان للذهاب معى ، ناديا على حنطور وطلبا منه أن ينطلق بنا إلى مكان لا أعرف عنه شيئا ، فقد كانت هذه أول مرة أذهب فيها إلى أسيوط .

ووقف الحنطور وطلبا منى أن أنزل ، فنزلت وأنا أتلفت فلم أجد أى أثر لمسجد ، فقلت للصديقين :

ـــ الجامع فين ؟

ـــ ادخل بس .

فصعدت بضع درجات فإذا بى بين نسوة ساقطات ، لقد قادانى إلى منطقة البغايا فقد كان البغاء العلنى معترفا به فى مصر بلد الأزهر . وأشار الزميلان إلى إحداهن إشارة خفية لتسخر منى فإذا بها تحاول أن تعترض طريقى وتسمعنى ألفاظا فاحشة ، فانسحبت فى هدوء والزميلان غارقان فى الضحك ، وسرعان ما وسعت من خطوى أبحث عن جامع فى لهفة لكيلا تفوتنى الصلاة .

وبعد الظهر قامت مباراة بين المنتخب وأسيوط انتهت بتعادل الفريقين ، فإذا بالدكتور محجوب يعلل سبب عدم انتصارنا بغيابى عن الفريق ، وإذا بالزملاء يتخذون ذلك مادة للتهريج .

وفى المساء دعينا إلى منزل أحد باشوات أسيوط لتناول العشاء ، وكانت الموائد عامرة بالخراف المشوية والديوك الرومية والحمام وما لذ وطاب من الأطعمة وألوان الحلوى والفواكه . وجلسنا نأكل مع أعيان أسيوط ، وفى ركن من المائدة جلس الباشا يتناول بعض لقيمات من قديد الخبز والجبنة القريش ، ونظرت نحوه فى إشفاق وإذا بخاطر يطوف بى : ما قيمة ما يملكه من حطام الدنيا ما دام قد حرم من الطيبات ؟!

وفى الليل ركبنا قطار الصعيد واندفعت إلى ديوان لعلى أستطيع أن أنام بعد يوم كله تعب واستقبالات واحتفالات ، وإذا بكبار لاعبى المنتخب وكانوا من كبار لاعبى الأندية يدخلون ثم يتأهبون للعب الورق ، فالتفت إليهم فى استعطاف وقلت لهم :

ــ عايز استريح .. عايز انام .

فأشاروا إلى رف الحقائب العلوى وقالوا :

ــ اطلع نام .



وصعدت ونمت فوق الرف و لم يستقر لى جنب طوال الليل ، كنت كأنما أتقلب على جمر، فالشبك الحديد الذى صنع منه الرف كان يؤلمنى، ولولا شدة التعب ما غفوت لحظة .

وعند الفجر رأيت أن أهبط إلى حيث كان الزملاء ، وكانوا لا يزالون غارقين فى لعب القمار . فجلست أتفرس فى وجوههم الذابلة وأنا أعجب كيف استطاعوا أن يصلوا النهار بالليل بعد ما لعبوا وأكلوا وشربوا ما شربوه فى حانات أسيوط المتواضعة ؟!

وفى الصباح انطلقت إلى دارنا وقد تورم وجهى ولفائف الشاش قد اتسخت ، فلما اقتربت من البيت خفق قلبى رهبة . كنت أخشى ما سوف ينزل على من تقريع من أبى . وتقدمت فى وجل أطرق باب شقتنا فى رفق ، فإذا بأبى يفتح لى الباب ويتفرس فىّ قليلا ثم يفسح لى الطريق دون أن ينبس بكلمة، وجاءت أمى فلما رأت لفائف الشاش وقد تغير لونها قالت فى هدوء :

— خش اغسل وشك وغير الشاش الوسخ ده .

ودخلت الحمام وأنا أتنفس الصعداء حمدا .

٨٢

كانت اللافتات تملأ شوارع القاهرة فوزارة على ماهر باشا قد فتحت باب الترشيح للانتخابات ، وكانت حوائط الدور قد شوهت بالملصقات وبالخطوط التى تدعو إلى انتخاب فلان أو علان ، وطافت فى الشوارع سيارات قد غصت بأنصار المرشحين تهتف بحياة المرشح وتدعو الناس إلى انتخاب « ابن الدايرة » . ونصبت فى الدوائر سرادقات تلقى فيها الخطب تأييدا لمرشح الوفد أو مرشح الأحرار الدستوريين أو مرشح الحزب الوطنى ، أما حزب الشعب فقد انفرط عقده بعد أن استقال صد قى باشا وأقيل عبد الفتاح يحيى باشا الذى خلف صدقى باشا فى رياسة الوزارة ورياسة حزب الشعب ؛ فقد أوفدت إنجلترا موظفا إسرائيليا بوزارة الخارجية البريطانية اسمه

مستر بترسون كنائب لمندوبها السامى فى مصر « السير برسى لورين » ، الذى اختلف مع حكومته فى تنفيذ تعليمات صدرت إليه .

كلف برسى لورين بالقيام بالإجازة ، وجاء مستر بترسون وذهب إلى السراى وبلغ المسئولين تبليغا شفويا يفضى بوجوب إقالة عبد الفتاح يحيى باشا . فاستقال عبد الفتاح يحيى وقد أثبت فى وثيقة استقالته : « أبلغت رغبات الحكومة البريطانية ولا يسعنى قبولها دون التفريط فى حقوق البلاد » .

كان التطاحن على كراسى الحكم رهيبا ، وكان الناس جميعا يتوقعون فوز حزب الوفد بالأغلبية إذا ما صدق فعل على ماهر وزير الداخلية قوله وكانت الانتخابات حرة .

ووجد أخى أحمد فى السرادقات المنبثة فى كل مكان منفسا لهوايته . كان يكتب زجلا رقيقا فيه خفة روح ، فكان يلقى ما ينظمه فى السرادقات فصار سمة من سمات الانتخابات ، وما كان سرادق من سرادقات باب الشعرية إلا ويسعد بوجوده بين فطاحل رجال السياسة والخطباء والشعراء .

كان الناس مشغولين بالانتخابات وكنت مشغولا بالاستذكار فالامتحان على الأبواب . وبينا كنت واقفا على رصيف الترام أنتظر إذا بفتاة الليسيه تحدث إحدى صواحباتها بصوت عال وتقول إنها ذاهبة إلى سيدى بشر عقب الانتهاء من امتحانها ، ففطنت أن ذلك تبليغ لى وأنها دعوة لألحق بها .

وقد كان . فما انتهيت من الامتحان حتى كنت أنا وأخى محمد فى طريقنا إلى الإسكندرية . كانت جميع المجلات قد أفاضت فى الكتابة عن شواطئ استانلى ، وقد ألفت المنولوجات والأغانى الخفيفة عن الشاطئ الجديد . فلما وصلنا إلى محطة سيد بشر كان أول ما فعلناه أن ذهبنا لنشاهد الحدث الجديد الذى أجرى الأقلام بالتغنى بعروس البحر الأبيض .

وقفنا على الكورنيش ننظر إلى طبقات « الكبائن » فى دهش وإعجاب ، وإلى المظلات التى كادت أن تتعانق على الشاطئ فى ذهول ، فما كان للإسكندرية من قبل مثل هذه الروعة وهذا الجمال . وما كان لنا إلا أن ننظر من بعيد فالشاطئ قد خصص

لأصحاب الكبائن ، وما حصل على كابينة إلا صاحب نفوذ وصاحب مال .

وانسحبنا إلى شاطئ سيدى بشر ، وسرعان ما خلعت ملابسي ولبست المايوه ونزلت إلى الماء . وما كدت أشق طريقي حتى رأيتها بجسمها الممتلئ البض ؛ كانت تعوم مسافة قليلة ثم تقف منتصبة على قدميها وهى تهلل وتضحك فى فرح أشبه بفرح الأطفال .

واقتربت منها والتقت عيناى بعينيها ، وقبل أن ألقى عليها التحية وقعت عيناى على صدرها العارى . إن ثدييها يكادان أن يفرا من عقالهما ، فإذا بالابتسامة التى كادت أن تولد تموت على شفتى ، وإذا بإحساس غريب يتملكنى . أهى الغيرة ؟ ربما فالغيرة دليل الحب .

وخرجت من الماء وتناولت منشفة راحت تجفف بها جسمها . كان ساقاها متسقتين وكانت أردافها ممتلئة ، وإذا بسؤال يثور فى نفسى : ماذا بقى لأراه مما لم يره الناس ؟ وإذا بعقلى يحاول أن يخفف عنى مرارة السؤال ؛ إن الإنسان بين جوانحى الذى حاول أن يتحضر وأن يجارى العصر الذى يعيش فيه أراد أن يقبل ذلك الواقع . ولكن نشأتى وبيئتى بكل تقاليدها تمردت على وإذا بى أصبح فريسة لصراع مرير .

وفى الليل حاولت أن أنام ولكن صدرها العارى الممتلئ أطار النوم من عينى . لم أكن لأفكر فيه متشهيا بل كنت كالغاضب المحموم ، فرحت أتقلب فى الفراش وصور جسدها تطرق رأسى طرقا يخز روحى وخزا لا أستطيع أن أتوقاه .

وتذكرت صورة لفورتينيه كانت ضمن مجموعة صور لمصور فوتوغرافى بشارع محمد على . إن تلك الصورة قد عكرت صفو حياتىَ مدة لأن الأخدود الذى بين نهديها قد ظهر عاريا فى الصورة ، وراح عقلى يعقد المقارنات بين فتاة الليسيه وبين فورتينيه ، فزاد ذلك فى إيلامى النفسى حتى كدت أحس وجدانى يدمى .

وفى الصباح رأيتها تتحدث بالفرنسية مع بعض صديقاتها ، إنها حلوة رقيقة و لم تكن وحدها التى ترتدى المايوه على الشاطئ . وقبل أن تصفو نفسى إذا بذلك الخشن النافر القابع فى أغوارى يقول فى سخرية :

— أتريد زوجة لك وحدك أم تريد مضيفة لبقة فى طائرة الحياة ؟!

وبدأت أفكار الرفض تترادف على رأسى . ماذا يفعل من كان مثلى بزوجة تجيد لقاء أصدقائى وتكون زهرة فى أى حفل من الحفلات ؟ إننى لن أكون أكثر من تاجر ليس فى حاجة إلى زوجة تأخذ بيده فى مجتمع بدأت المرأة تلعب فيه دوراها ما قد يدفع بزوجها إلى أعلى الدرجات ، فما كان فى أسرتنا كلها من طرق أبواب وظائف الدولة ، وما خطر لى على قلب أننى سأكون من كبار الموظفين أو من صغارهم .

وعلى رمال الشاطئ أخذت قرارى . إننى سأستجيب إلى رغبات جدتى وسأتزوج ابنة عمى من نشأت فى مثل بيئتى وإن لم تتح لها الظروف أن تواصل تعليمها . فلست فى حاجة إلى زوجة لبقة تحسن استقبال أصدقائى ؛ فما كان أحد من أصدقائى فى تلك الأيام ليجرؤ أن يطأ عتبة باب بيتنا ، فالبيت لنا والسلاملك للجميع .

٨٣

كانت جدتى أكثر أهل البيت فرحا بقرارى ، فقد نجحت أخيرا فى أن تربط بين ولديها برباط المصاهرة . وما أسرع أن أوفدت رسولا إلى بيت عمى يزف إليهم نبأ مقدمى أنا وأبى لنقدم الشبكة لابنة عمى التى كانت لم تبلغ السادسة عشرة .

كانت نتيجة الامتحان لم تظهر بعد ولكننى كنت واثقا من نجاحى . إنها سنة واحدة ثم أتخرج وبعدها أتزوج . كان هذا هو تقديرى ولكن الظروف كانت تعمل على تعجيل ذلك الزواج ، فابن عمى البكر كان يسخر من أبيه لأنه كان يسمح لى أن أخرج مع ابنة عمى التى خطبتها قبل أن يتم العقد ، وكثرت تهكمات عجائز الأسرة . وحدث أن مات الملك فؤاد وتقرر أن يسير موكب جنازته فى شارع محمد على فى طريقه إلى جامع الرفاعى حيث يقبر هناك . ولما كان أبى يملك بيتا فى نفس الشارع ، ولما كانت أمى وزوجات إخوتى قد عزمن على الذهاب إلى هناك لمشاهدة الجنازة الملكية ، فقد ذهبت إلى بيت عمى وأخذت خطيبتى وانطلقنا لنلحق بهن .

ووقفت خطيبتى مع أمى وزوجات إخوتى فى شرفة ، ووقفت مع أبى وإخوتى فوق سطح البيت نرقب الموكب . فلما انتهى العرض وتفرق الناس ركبت أنا وابنة عمى مع

أبى فى سيارته التى انطلقت بنا إلى بيت عمى .

وثار ابن عمى وقال إنه يجب وضع حد لذلك الاستهتار . ووصلت إلينا أنباء ثورته مبالغا فيها كما هى العادة فرؤى التعجيل بالعقد . فما إن أتمت ابنة عمى السادسة عشرة حتى كان المأذون يضع يدى فى يد عمى ليعقد بينى وبين ابنته ، وما كاد المأذون ينصرف حتى راح ابن عمى يقول :

ـــ تعالوا يا ناس شوفوا اللى انكتب كتابها وفاضل عشر تيام على ما يبقى عندها ستاشر سنة !

كان ابن عمى على الرغم من أنه رجل كبير يحب المشاكسة ، فلا أذكر أننى رأيته أبدا موافقا على رأى يبديه آخر . إنه كياد بطبعه لكأنما يسره أن يرى الآخرين يتمزقون غيظا ، أو يستشعر سعادة على قدر ما يسبب للآخرين من نكد . ولولا أننى كنت خبيرا به لحسبت أنه يريد لأخته زوجا أفضل منى .

ولم تسلم مسألة زواجى من الاستفهام والتعجب فما أكثر القائلين : كيف قبل عمى أن يزوج ابنته من تلميذ ؟ وما أكثر المتعجبين من تلميذ ليست فى يده شهادة أو صنعة يقبل فى جرأة على الزواج ؟ وكانت الإجابة التى تخرس كل الألسنة :

ـــ البركة فى الحاج جوده .

وفى يوم كنت فيه فى زيارة بيت عمى ، أو بالأحرى زوجتى التى فى بيت عمى ، قال لى عمى :

ـــ أنا ماليش فى الجهاز يا بنى ، اختار اللى انت عايزه وانا احاسب والدك .

كانت الشقة التى تزوج فيها أخى سعيد خالية ؛ إنها فى الدور الخامس أمامها السطح . وما كنت فى ذلك الوقت أحسب حسابا لعدد السلالم فرحت أزينها ؛ أشترى ورق الحائط من دكاكين شارع الأزهر وأورق كل الغرف ، وكانت الغرفة تتكلف ورقا ولصقا ما بين ستين وثمانين قرشا ، وإنه لمبلغ لو تعلمون عظيم !

ورأيت أن أؤسس الشقة وأجهزها حتى إذا ما حصلت على شهادتى العليا كونت عشا هادئا ، وما كنت أطمع فى دنياى بأكثر من حياة بسيطة لا ترف فيها ولا آمال عريضة . وكان أول ما تعاقدت على صنعه مع صانع الموبيليا غرفة المكتب ، لماذا غرفة

المكتب بالذات ؟ لست أدرى . كل ما أستطيع أن أقوله بعد أكثر من ستة وثلاثين سنة من تاريخ تعاقدى على غرفة المكتب التى أكتب فيها الآن ، أننا لا نخطط طريق مستقبلنا بل هناك قوة عليا تدفعنا دفعا إلى السبيل .

وانتهيت من تأسيس أربع غرف وصالة ، وكانت أمى تقول لى وهى تبتسم :

ـــ ما شفتش طول عمرى عريس بجح زيك .

وخرجت مع أبى لصلاة العصر فى السيدة زينب ، وبعد أن قضيت الصلاة خرجنا نتجول على الأقدام فى حى السيدة انتظار لأذان العشاء ، وفيما نحن نتحاور قال لى أبى :

ـــ الشقة جهزت . مستنى إيه ؟

ـــ لما أخلص المدرسة ، كلها سنة .

ـــ ستك كبرت والأعمار بيد الله، إن لا قدر الله حصل لها حاجة، انت عارف العيلة وتقاليدها ح تستنى سنه . من عارف فى السنه دى ح يحصل إيه ؟

ـــ لما اخلص السنة اللى فاضلة .

ـــ يعنى لما ح تاخد الشهادة ح تتوظف ؟! وان اتوظفت ح تاخد كام ؟

وأقنعنى أبى بأن خير البر عاجله . وما كان أبى ليشغل باله برزقنا ؛ إنه يؤمن إيمانا لا يتزعزع بأن فى السماء رزقكم وما توعدون .

وفى حفل بسيط تم زواجى ، وحاول نساء الأسرة أن تحيى الليلة « عالمة » ولكنى أبيت ، فلما وافت الساعة العاشرة مساء قاد بعض النسوة العروس إلى شقتنا ليزينَّها ، فما كان منى إلا أن دخلت وطلبت من الجميع أن ينصرفن إلا زوجتى طبعا ، وما غادرن باب الشقة حتى أغلقته بالمزلاج .

وكانت أول ليلة فى حياتى الزوجية .

٨٤

تزوجت فى الإجازة الصيفية فى شهر يوليو من عام ١٩٣٦ على التحديد ، فكنت لا أغادر شقتى إلا لصلاة الجمعة أو لأشارك جدتى ونساء البيت جلستهن الليلية ساعة أو بعض ساعة مجاملة لأهل البيت . وسرعان ما أصعد إلى شقتى لا أغادرها حتى ليلة اليوم التالى . وما كنت أذهب إلى السلاملك ، وما كنت أقرأ الصحف ، فانقطعت كل صلة بينى وبين العالم الخارج عن عشى الجديد .

وفى اليوم السابع من زواجى نهضنا لنتأهب لاستقبال المهنئين ، فإذا بى أفاجأ بالدموع تجرى على خدى زوجتى فغاص قلبى فى قدمى . أسئمت ابنة عمى الحياة الزوجية هكذا سريعا ؟! أقدر لزواجنا الإخفاق ولما يبدأ بعد ؟! فاقتربت منها وقلت لها وأنا أستشعر خوفا ورهبة :

ــ مالك ؟.

فقالت وهى تجهش بالبكاء :

ــ وحشنى بيتنا ؟

لم يكن بيتهم يبعد عن بيتنا أكثر من الشارع القصير الضيق الذى يلفظ إلى شارع الأمير فاروق . الأمير فاروق ؟! إنه لم يعد أميرا إنه صار مليك البلاد بعد أن مات أبوه . إنه عاد من إنجلترا وخرج الشعب كله لتحيته . كان فتى وسيما لم يبلغ سن الرشد بعد فعين مجلس وصاية يدير شئون البلاد حتى يبلغ الفتى السن التى تؤهله ليرث السلطات الملكية .

أنه بهر الناس بمظهره ، وزاد فى تأثيره على القلوب أنه عائد من بلاد الغربة بعد أن مات أبوه دون أن يراه . كان الرجال متفائلين به يرجون أن يكون أفضل من أبيه ، أما النساء فقد أشفقن عليه إشفاق الأمهات ، بينما أدار رءوس الفتيات حسنه حتى إن بنات اليهود كن يتغزلن فى جماله من الشرفات دون حياء ، وقد وصل بإحداهن الخيال

أن قالت بصوت عال لأخرى فى بلكونة بعيدة وهى تصف لها موكبه :

ــ يا ريت يتجوزنى !

كان ذلك قبل أن أتزوج بشهرين ، وقد شغلت الصحف والمجلات بالحديث عن الشاب الذى عاد إلى شعبه . وكنت أقرأ كل ما يكتب عنه فى شغف واهتمام وأضع أصابعى فى أذنى إذا ما تحدث أحدهم عما كان بين مرافقيه من منازعات على تنشئته : عزيز المصرى يريد أن يقوم لمصلحة البلاد ، وأحمد حسنين يطلق له الحبل على الغارب ويطلق لشهوات الفتى العنان ليحوز على رضاه لمصلحة ذاتية وإن تعارضت تلك المصلحة مع مصلحة البلاد . كنت أشيح بعواطفى عن مثل ذلك الكلام حقا ، فقد كنت لا أصدق فى شبابى أن هناك من يفسد ملكا ليقوده بعد ذلك كيفما يشاء ؟!

وتزوجت و لم أعد أهتم بالصحف والمجلات إلى حين ، وشغلت فى اليوم السابع من زواجى بتلك التى أوحشها بيتها فرحت أبذل كل ما فى طاقتى لأحول حنينها إلى بيت أهلها إلى حب لبيتها الجديد ، وأظن أننى نجحت فى ذلك فما ذرفت دمعة بعد ذلك على دارها التى غادرتها .

وانقضت الأيام ومضى الشهر الأول ، وما استطعت أن أنفق خلاله أنا وزوجتى ثلاثة جنيهات . كنا نعيش فى بحبوحة من العيش لا نأكل إلا حماما مشويا أو لحم الضأن ، وما كنا نعتمد فى شيء على الخيرات التى كانت فى شقة أبى فقد كان كل منا أنا وإخوتى يحيا حياة مستقلة ، ينفق كيفما يشاء ويشترى ما يشاء .

كان زوج الحمام بأربعة قروش ، وكان رطل اللحم الضأن بثلاثة قروش ونصف القرش ، وكنا نشترى عشر بيضات بقرش صاغ ، وقد ذكرت لى زوجتى ذات ليلة أن جارا لهم قد عاد من إنجلترا بعد أن تزوج إنجليزية وأنجب منها طفلة ، وأنه كلما قُدِّم إلى الطفلة بيضتان أو ثلاث تفزع الزوجة الإنجليزية لأن سعر البيضة عندهم قرشان ، فهى تحسب أن ابنتها تأكل كل يوم بستة قروش بيضا ، أى أنها تأكل فى الشهر بيضا يكفى ثمنه للإنفاق على غذاء أسرة لشهر كامل . ولا غرو فقد كنا نشترى بنصف القرش ما نحتاج إليه من خضر ، وأما مكونات السلاطة الخضراء فقد كنا نحصل عليها بلا مقابل فهى هدية من الخضرى ما دمنا من زبائنه !.

كانت الحياة سهلة ميسورة فما كنا نستشعر خوفا من المستقبل وما كنا نلمس حقد طبقة على طبقة . ترى أكان ذلك كذلك أم أننى كنت أرى الدنيا من خلال عيشة مستقرة ؟ إننى فى لحظات تأملى كنت أتذكر ذلك التلميذ الذى كان معى فى الفصل وطرد من المدرسة لأن أهله لم يستطيعوا أن يسددوا للحكومة المصاريف ، وكانت ستة جنيهات !

كانت دنياى حتى ذلك الوقت لا تتعدى البيت وملاعب الكرة والمدارس التى تعلمت فيها ودور السينما والسلاملك ؛ فلم أكن قد شاهدت من مآسى الحياة إلا تلك التى كانت تقع فى أسرتى أو فى حينا أو لأحد من زملاء الدراسة . وكان الموت هو مأساة أسرتى فكنت منذ نعومة أظفارى أتأهب لاستقباله ، فكان هو الباعث الأول لكل تصرف من تصرفاتى وكان ما سواه مما يقع للأفراد فى دنياهم يحركنى إلى حين . ولولا أن دينى الذى أومن به يحض المؤمنين على السعى والعمل لاعتكفت وأعرضت عن الدنيا ، وما كنت أول من فعل ذلك فى أسرتى فما أكثر من أعرض منهم عنها !

وانقضت الإجازة الصيفية وتأهبت للذهاب إلى المدرسة . إنها لم تعد مدرسة عليا بل ضمت إلى كليات جامعة فؤاد الأول وأصبحت كلية التجارة . وسنكون أنا وزملائى أول دفعة تحصل على البكالوريوس منها .

٨٥

كانت جدتى تشغل بال أبى فبات يفكر فى بناء مدفن جديد ؛ لأن مدفن الأسرة الذى يقع خلف الزلاقة فى حى الحسينية قد غص بالأموات وأضحى ملكا لكل فرد من نسل جدى الأكبر ، فصار مثوى للأجيال .

كان أبى يريد أن يكون له ولذريته من بعده قبر غير تلك القبور التى يتجمع عندها فى المواسم رجال ونساء وإن كانوا يحملون اسم الأسرة ؛ إلا أن بعضهم أصبح لا يكاد يعرف الآخر .

وراح أبى يبحث عن قطعة أرض يبنى عليها المدفن الجديد ، فجعل يبحث فى نفس

المنطقة التى يقع فيها مدفن الأسرة لأنها قريبة من مسكننا ، ومن عادة أسرتنا أن تكون منازل آخرتها على بعد خطوات من منازل دنياها . ولو كانت الدولة تسمح بإقامة مقابر فى الدور كما كان الحال لدى البابليين لكانت أفنية دور أسرتنا مدافن فاخرة لا تغادرها أبدا نسوة لا يعرفن وسيلة من وسائل التسلية والترفية غير الجلوس عند المقابر وتزجية الوقت فى نتف وبر الأقارب والأباعد .

واشترى أبى قطعة أرض فى جبل يطل على شارع ضيق يخترق القبور يربط ما بين باب النصر وبوابة الحسينية أو كان يربط بينهما ، فقد أزيلت بوابة الحسينية بعد أن اتسع العمران وامتدت المبانى إلى العباسية ، وهدم سبيل أم عباس وأعيد تخطيط ميدان الحسينية الذى صار فيما بعد ميدان فاروق .

سبيل أم عباس ؟! يا للذكريات ! فلطالما صعدنا أنا وأخواى أحمد وسعيد ثلاث درجات لنشرب منه ، نغترف من مائه من الطاسات النحاسية التى ربطت بسلاسل شدت إلى أعمدة السبيل التى كانت تحجز بين حوض الماء وبين الناس ولا تسمح إلا بدخول الطاسات فارغة وخروجها بماء عذب فرات لذة للشاربين .

أم عباس ؟! إننى وأنا صغير كنت أعجب كيف أن أم عباس الندابة قد استطاعت أن تبنى ذلك السبيل ! فلما بعدت عن دائرة تأثير أم عباس الندابة واتسعت مداركى عرفت أن التى بنت السبيل هى أم الخديوى عباس أم المحسنين !

كانت قطعة الجبل التى اشتراها أبى على بعد يسير من السبيل ، فأمسى حديث الليل فى السلاملك كيف ينقل الجبل وتمهد الأرض للشروع فى البناء . وجاء الينا رجال آخرون غير السمار الذين اعتادوا أن يأتوا كل ليلة ؛ كانوا يتحدثون عن الأسعار التى يقبلونها لنقل متر التراب والحجارة . وانتهت المشاورات بأن أسندت العملية إلى أحدهم .

وكنت أذهب بين الحين والحين مع أبى لنباشر العمل ؛ إن أكوام التراب تختفى فى المقاطف فى بطون العربات التى تحولت إلى صناديق ، وراح الجبل ينهار وينكمش تحت ضربات السواعد القوية ، وتلقنت درسا عمليا : إن العزم والتصميم والإرادة قادرة على قهر الجبال .

وكان أبى قد هدم الدكان وأعاد بناءه وأدخل فيه دكان العم سيد الدخاخنى وبنى فوقه بيتا صغيرا ، وكان الذين قاموا بالبناء وأعمال النجارة والبياض هم نفس الرجال الذين بنوا بيتنا فى شارع سكة الظاهر . ولما كان أبى محافظا فى كل شيء فقد أسند بناء المدفن إلى نفس البنائين والنجارين ؛ ومن عجب أن كل ما قام به أبى من تشييد لم يصممه مهندس معمارى بل كان من تصميم رجال يرتدون جلابيب داكنة وعمامات ، قلما يستعملون المتر فى القياس وغالبا ما يلجئون إلى الفتحة بين القدمين وما اكتسبوا من خبرة على مر الأيام .

وقد صرت لا أخرج مع أبى فى جولاته وطوافه على المساجد بعد الزواج واقتصر خروجى معه على يوم الجمعة . وفى ذات مساء بينما كنا نتجول فى حى السيدة إذ راح أبى يحدثنى ويقول إنه يريد أن يترك الدكان لمحمد وأحمد وأن يستريح فدخله من إيجارات البيوت يزيد على المائة جنيه وهو يكفينا وزيادة .

كان مرتب الوزير فى ذلك الوقت لا يزيد كثيرا على هذا الدخل . إنه دخل يضمن لصاحبه حياة مستقرة . ولكن هل يستطيع أبى حقا أن يستريح وهو الذى اعتاد أن يكون حركة دائبة ؟ ويستريح من ماذا ولماذا ؟ إنه لم يبلغ الثانية والخمسين بعد وإنه موفور النشاط .

وألقيت إليه سمعى دون أن أنبس بكلمة ، واستمر فى حديثه فقال لى إن هناك مصنعا للصابون فى الجمالية يريد أصحابه أن يبيعوه ، وإنه ينتظر حتى إذا ما تخرجت فى الجامعة ليشتريه لى . فلما قلت له إننى لا أعرف شيئا عن صناعة الصابون قال لى فى بساطة :

— خليها على الله .. ح اقف معاك لغاية ما تعرف كل حاجة .

وارتفع صوت المؤذن يؤذن بالعشاء فأسرعنا إلى المسجد لنصلى مع الناس .

٨٦

كنت رئيس فريق الكرة بالكلية ، وفى العادة أن يكون الكابتن أقدم لاعب فى الفريق ، ولكننى لم أكن كذلك . فبعد أن لعبت سنة واحدة للفريق التف حولى اللاعبون وطالبوا بأن تكون الرئاسة بالانتخاب .

راح المشرف على الفريق يحاول إقناع المتمردين بأن ما يلتمسونه لم تجر به عادة فى أى مكان ، فتقاليد الكرة تحدد طريقة اختيار الكابتن . كان كلامه منطقيا يتفق مع العرف السائد فى كل فرق الأندية والمدارس والمعاهد والكليات ولكن اللاعبين أصروا على مطلبهم وأعرضوا عن صوت المنطق والعرف والتقاليد . وتعب الرجل من الحوار فنزل على حكم أبنائه وقبل أن تجرى الانتخابات بينى وبين أقدم لاعب فى الفريق .

وبدىء فى توزيع الأوراق للتصويت فانزويت بعيدا وأنا أحس خجلا وإشفاقا على الزميل صاحب الحق الطبيعى . إننى وقفت بكل ما أملك من منطق إلى جوار المشرف وهو يسوق حججه القوية ، إلا أن الزملاء نحونى بعيدا زاعمين أنه لا يجوز لى أن أدلى برأى فى موضوع شخصى !

وتم فرز الأصوات وإن كانت النتيجة معروفة قبل إعلانها ، فقد حصلت على الأصوات كلها ما عدا صوت الزميل الذى سلبت منه حقه . لماذا قبل الزميل مبدأ إجراء انتخابات ليس لها سند من قانون أو عرف ؟ لست أدرى . لماذا لم ينسحب قبل الانتخاب وأنسحب بعده ؟ هل استجاب لصوت العقل ؟ ومتى قادنا العقل المتزن إلى نتيجة طيبة فى دنيا تتحكم القوى فيها وتجنى المغامرات ثمرة طيشها ؟!

وصرت بعد سنة واحدة لعبتها لمدرستى كابتن فريقها والممثل لها فى اللجنة الرياضية لاتحاد الجامعات والمدارس العليا ، فأتيحت لى فرصة العمل مع المسئولين عن الرياضة فى الجامعة وكانوا جميعا يعرفوننى مذ كنت لاعبا فى المدارس الثانوية .

ذهبت إلى الكلية فى بداية العام الدراسى الرابع والأخير ، فلما عرف أعضاء الفريق

أنى تزوجت فى الإجازة دون أن أدعو أحدا منهم أصروا على أن أعد لهم وليمة ، فدعوتهم للغداء وحددت لذلك يوما ، فراح كل من فى البيت يعاون زوجتى لإعداد طعام لفريق الكرة والأستاذ المشرف وبعض الأساتذة من مشجعى الفريق .

كانت أمى تقوم بإعداد الفطير وإرساله على صاجات إلى الفرن ؛ وفى شقة أخى محمد أعد السمك ؛ وفى شقة أخى أحمد أعدت بعض ألوان من الحلوى ؛ وقامت زوجة أخى سعيد بتجهيز اللحوم ؛ واهتمت زوجتى بالحمام والدجاج . وفى اليوم الموعود كان أعضاء الفريق وبعض الأساتذة يهرولون فى الدرج وهم يسرون إلى السماء فقد كانت شقتى فى الدور الخامس .

واستراحوا قليلا فى غرفة الاستقبال وقمت لألقى نظرة أخيرة على المائدة فإذا بها عامرة بالفطائر واللحوم والطيور والأسماك والتفاح والموز وألوان من الحلوى ، فعدت إلى الصحاب أدعوهم للغداء .

وأكلوا وتبادلوا النكات وضحكوا وجلجلت ضحكاتهم فى أرجاء البيت ، وبعد أن شربوا القهوة والشاى انصرفوا وهم يهنئوننى ويطلبون منى أن أبلغ تهانيهم وشكرهم للعروس ، فما كان النسوة فى بيتنا يظهرن أبدا أمام الغرباء .

وجاء كل من فى البيت ليعاونوا زوجتى على رفع أنقاض الوليمة وغسل الصحاف وإعادة تنسيق الشقة . وكانت وليمة يشيد بها الزملاء كلفتنى مائة وخمسين قرشا ، نصف ما أنفقه فى شهر !

ولم أعد أهتم بالتدريب على لعب الكرة بعد أن تزوجت ، وكان ذلك يضايق أخى محمد فقد اندمج فى أوساط الأندية وكان يحب أن يرانى لاعبا فى فريق الترسانة أو المختلط ، إلا أنى زهدت فى الكرة وفى الأندية وفى ألاعيب المشرفين عليها .

وتقرر إقامة مباراة بين منتخب الجامعة ومنتخب البوليس والحربية ورشحت قلب هجوم للمنتخب ، ولا أدرى لماذا رشحت وقد زاد وزنى وبرزت كرشى . وأقيمت المباراة وأحرز منتخب البوليس والحربية هدفه الأول ، فأشعل ذلك حماسنا وهجمنا وشددنا الهجوم وإذا بكرة ترفع من الجناح الأيمن لتصل إلى وأنا فى حلق المرمى . لم يكن الأمر يحتاج منى إلا أن أسند الكرة بصدرى لنحرز هدف التعادل ، ولكننى أردت أن

أمزق الشبكة فاستقبلت الكرة بقدمى اليمنى فإذا بها تمر من فوق العارضة .

وانتهت المباراة بفوز منتخب البوليس والحربية . وبعد أن أطلقت صفارة الانتهاء جاء إلى لاعب دولى قديم وقال لى إنه على استعداد لأن يدفع لى عشرة جنيهات إن استطعت مرة أخرى أن أستقبل الكرة التى رفعت من الجناح الأيمن ووصلت إلى وأنا فى حلق المرمى وأبعدها عن الهدف !

ومرت شهور وأعلن أن منتخب الجامعة فى كرة القدم سيشترك فى دورة باريس وأننى رشحت للسفر . فعزمت على أن أتدرب حتى لا أضيع هذه الفرصة فما كنت أحلم أن ستتاح لى رؤية باريس فى يوم من الأيام .

وقامت عقبة فموعد السفر هو موعد عقد امتحان البكالوريوس . وفكرت و لم يطل تفكيرى فقد عزمت على السفر وأن أؤجل دخول الامتحان إلى الدور الثانى . فالسفر إلى باريس يستحق تأجيل الامتحان من مايو إلى سبتمبر .

وخطر لى خاطر : هل يرضى أبى عن ذلك ؟ وقررت أن أطوى سرى فى صدرى حتى إذا ما حان موعد السفر وضعت أهلى أمام الأمر الواقع . إنها لحظات عتاب ثم أكون بعدها فى باريس مدينة النور .

٨٧

كان أبى يذهب إلى المتجر فى الصباح ويعود عند الظهر إلى البيت ليتناول غداءه ويستريح قليلا حتى إذا ما صلى العصر خرج ثانية إلى المتجر ، وقبل أن يؤذن المؤذن للعشاء يعود هو وأخواى محمد وأحمد . وكنت قبيل الظهر أقف فى الشرفة أرقب الطريق ، فإذا ما لمحته قادما يحمل بعض الطيبات هبطت فى الدرج مسرعا لأستقبله فى الشارع وأحمل عنه ما يحمله وأسير إلى جواره متهللا الفرح ، فقد كنت أسعد بالقرب منه وأستشعر نشوة كلما جرى بيننا حديث .

كان ذلك قبل أن أتزوج ، أما وقد تزوجت وانشغلت بالمذاكرة فقد كنت أهبط لأشارك سمار السلاملك بعض سهرتهم ولأطفئ شوقى إلى أبى فما عدت لأشاركهم فى



الغداء والعشاء .

وكان زميل الدراسة صلاح يأتى كل يوم لنستذكر دروسنا معا ، فكانت زوجتى تنزل إلى حيث يجتمع نساء الأسرة عند جدتى ؛ فكنت إذا ما انتهيت من المذاكرة ذهبت إلى شقة جدتى وشاركت من هناك فى جلستهم حتى إذا ما انصرف أبى إلى شقته انطلقت أنا وزوجتى نعرج فى الدرج حتى الدور الخامس .

كان من حسن حظى أننى تزوجت وأنا طالب ، فزوجتى منذ أن دخلت بيتى قد ألفت أن أدخل مكتبى أقضى فيه الساعات وقد أغلقت على نفسى الباب ، فلم تشعر بغيرة من مكتبى ، ولم تشك فى أننى أتركها وحدها وألوذ بكتبى وأوراقى ، ولم تر فى ذلك اعتداء على حقوقها ولم تتهمنى بالأنانية كما حدث لبعض زملائى الكتاب ، فزوجتى لا تزال تعتقد حتى الآن أننى لا أزال أذاكر وأن مذاكرتى لن تنتهى حتى أحصل على شهادة الوفاة .

وذات يوم لاحظت أسى يكسو وجه أمى فأردت أن أعرف السبب ، فإذا بى أكتشف أن أبى يشكو من أنه بات يحس كآبة ويضيق صدره كلما اقترب من بيتنا . أمسى البيت بغيضا فى عينيه . وشغلنا كلنا بحالة أبى وراح كل من يحتكون به يقترحون علاجا . وكانت جدتى قلقة فراحت تقول لأبى :

ـــ إذا كان البيت بيضايقك سيبه .

وتناثرت أقاويل من كل جانب : « البيت اتحسد » . « اتعمله عمل » . وصار البخور يعبق فى أرجاء البيت . ولم يطرأ أى تحسن على أبى فكان القرار الأخير أن نترك البيت إلى بيت آخر .

ووجد أبى بيتا خاليا فى شارع السرجانى بالعباسية الشرقية وقد نزع صاحبه السلالم الرخام وباعها ، فأجره أبى على أن يصلحه ويركب له سلالم جديدة . وراح العمال يعملون فى تقسيم الشقق الواسعة إلى شقق تتسع لأبى وإخوتى محمد وأحمد وسعيد وجدتى .

وأعد البيت الجديد لاستقبال الأسرة فإذا بكل من فى بيتنا ينتقلون إليه . ولم يطق عمى حنفى البعد عن أبى فأجر شقة تطل على السكن الجديد ، وبقيت وحدى فى بيتنا

القديم الذى أصبح خاليا إلا منى ومن زوجتى .

وما كان أبى ليتركنى بعيدا عنه فراح يبنى لى شقة فوق البيت الذى اكتراه وراح يكسو حيطانها بالورق إكراما لى . وفى أثناء تجهيز الشقة أصبت بأنفلونزا فأرسل إلى السيارة وحملنى أنا وزوجتى إلى شقته وأصر أن أبقى ضيفا عنده إلى أن أبرأ .

ومرت الأيام وانتقلت إلى الشقة الجديدة وسرعان ما سرى فى الحى قصة الطالب المتزوج . فكنت إذا ما خرجت أنا وزوجتى أو عدنا سيرا على الأقدام كانت الشبابيك تفتح ويطل النسوة والفتيات علينا كأنما كنا شيئا عجيبا . فإن كانت شهرتى قد أفلت أو كادت فى ملاعب الكرة فقد تألقت فى شارع الجنزورى والعباسية الشرقية !

وجاء الشتاء وانهمرت الأمطار غزيرة ؛ فاستيقظنا على صوت الرعد الذى كان يزمجر كطلقات مدافع متتالية ، فما إن نزلنا من فوق السرير ولمست أرجلنا الأرض حتى انتابنا فزع . كانت غرفة النوم أشبه ببركة ماء ، فهرولت زوجى إلى غرفة الصالون فإذا بالسجاجيد تطفو فوق الماء . ولحقت بها فرأيت السقف كالمصفاة والورق المزخرف قد نفر من الحائط وتدلى كأنما قد تأهب ليقفز ليشارك فى السباحة .

كادت الدموع تطفر من عينى زوجتى فهى تهتم اهتماما خاصا بالأثاث لا تحتمل أن ترى فيه خدشا ، ولكن لم يكن هناك وقت للبكاء فقد راحت تحاول أن تنتشل السجاجيد وأن تنقذ ما يمكن إنقاذه . ولولا أن أهل البيت جميعا قد هرعوا إلينا ليساعدونا فى نزح الماء وفى تغطية الفراش والأثاث بملاءات لانهارت زوجتى من التعب والغيظ والكمد .

وصفت السماء وصعد أبى ووعد بإصلاح كل ما أصابه التلف ، وما إن خرج حتى أرسل من يغطى سطح شقتنا بالبلاط . ولم تسترح زوجتى لكل ذلك فمعنى الإصلاح أن نستمر فى تلك الشقة التى ما كانت تصل إلى فخامة الشقة التى تركناها .

وراحت الأيام تترادف وإذا بخبر إلغاء مباريات الكرة فى دورة باريس يصل إلينا ، فاختلطت على مشاعرى لا أدرى أأحزن أم أفرح . ولما كنت قد روضت نفسى على قبول الواقع فسرعان ما رددت إلى طبعى ورأيت فيما حدث مصلحة حقيقية لى . لم يشأ الله أن أضيع مستقبلى بيدى فلن أؤجل دخولى لامتحان البكالوريوس ، وقد

علمتنى الأيام أن ما يختاره الله لى خير مما أختاره لنفسى . كنت قد صممت على السفر مع منتخب المدارس الثانوية إلى فلسطين وتأجيل امتحان البكالوريا ولكن اختاروا غيرى فى آخر لحظة من لاعبى الأندية من غير طلبة المدارس الثانوية لأجتاز عقبة البكالوريا ، وكنت قد رتبت حياتى على الالتحاق بمدرسة البوليس ولكن الله قد اختار لى طريقا آخر ، فسقط الرجل الذى كان قد اختارنى مريضا يوم كشف الهيئة لأتجه وجهة أخرى ، نحو قبلة أخرى . وكنت قد عزمت على السفر إلى باريس وترك امتحان البكالوريوس، وها هى ذى كرة القدم تلغى من الدورة. إننى أحاول أن أفسد مستقبلى ولكن الله يأبى إلا أن أسير فى طريقى المرسوم ، وعلمتنى الأيام ألا أصارع قدرى .

٨٨

خرج الناس من البيوت إلى الحدائق فقد كان أول مايو عام ١٩٣٧ يوم شم النسيم وبقيت فى غرفة مكتبى أستعد لامتحان البكالوريوس الذى لم يبق عليه إلا بضعة أيام . وانقضى النهار وعاد أبى إلى البيت فهبطت لأشاركه ليلته وأستريح من الاستذكار .

قام أبى وصلى العشاء فى تؤدة ، وما انتهى منها حتى أقبل على يحادثنى . وبعد قليل استأذنت لأخرج أتمشى فى الخلاء المحيط بالحى فالجو كان خانقا ، وكنت أحس أننى فى حاجة إلى البعد عن قيود الكتب وأن أهيم فى الفضاء .

وتجولت فى الطرقات أملأ صدرى بهواء ثقيل قد شلت حركته ، ولم ينجح السير فى أن يشرح صدرى فعدت إلى الدار فإذا بأبى ينتظرنى فى الشرفة الواسعة التى كانت تقود إلى مدخل البيت ببضع درجات ، فما كان أبى ينام قبل أن يطمئن إلى أننا جميعا قد دلفنا إلى فرشنا . وطلب منى أن أصعد إلى شقتى من خلال شقته إلا أننى شكرته وأخبرته أننى سأصعد إليها من الباب الرئيسى .

وارتقيت فى الدرج مسرعا وأغلقت الباب خلفى وذهبت إلى السرير . وما إن وضعت رأسى على الوسادة حتى رن جرس الباب رنينا متصلا مفزعا فهببت أنا وزوجتى مرعوبين ، فهرولت وما إن فتحت الباب حتى سمعت من يصرخ فى وجهى

بأن أبى قد مات .

وانتابنى خور ودار رأسى وكدت أن أنهار ، وفى ذهول نزلت ورجلاى على وشك أن تعجزا عن حملى وأحشائى تتحرك واندفعت وأنا لا أكاد أعى شيئا مما حولى وإذا بالحقيقة تصدمنى . رأيت أبى ممددا فى فراش على الأرض وأمى تبكى أحر بكاء وجدتى قد جلست عند رأس أبى تمسح بمنديلها الدم الذى كان يسيل من فمه ونساء البيت يصرخن ، فإذا بنار تندلع فى أعماق تشوى كبدى وإذا بقوة هائلة تضغط على عنقى وإذا بى أصرخ صرخات ملتاعة وأرتمى على الأرض أضرب بلاط الشرفة التى كنا نتسامر فيها بكفى وأروى أرضها بدموعى .

نار .. نار ترعى فى كل حواسى ، سواد يجلل كل مشاعرى ، يأس قاتل يحتوينى ، فما كنت بقادر أن أصدق أن كل شىء قد انتهى ، فقدت أبى وصديقى وحبيبى ، فقدت الروح التى كانت تبعث فىّ الأمل والحياة ، لم تعد حياتى شيئا .. خواء .. خواء .. خواء .

وبكيت وبكيت فقد فقدت أثمن ما وهبتنى دنياى ، وعاد أخى محمد وأحمد وفى رفقتهما طبيب كان له صديقا ، فما إن فحص الرجل عنه حتى بكى وانسل دون أن ينطق حرفا فموت أبى كان رزءا لكل من عرفه .

وجاء عمى محمد ودخل وهو واله حزين ، فما إن رأى جثمان أبى حتى وقف ينتحب ويلتدم كما تلتدم النساء . وقامت فى البيت مناحة ، الناس يتدفقون من كل صوب وحدب يبكون فما حدث كان صدمة مروعة لكل من وصل إليه النبأ الفاجع الأليم .

ولم يرقأ لى دمع طوال الليل ؛ كنت أرى إخوتى القصر وهم يبكون فتتفجر فى أعماق مشاعر الألم والحزن والإشفاق والرثاء ، فقد كنت أستشعر فداحة ما نزل بهم من خسارة بعد أن فقدوا ينبوع الحنان .

وانقضى الليل وجاء النهار وروحى مجللة بالسواد ويأس عميق قد استولى على وتحولت إحساساتى كلها إلى أعين تذرف العبرات ، وفاض وجدانى بالمرارة وخيل إلى فى تلك اللحظات أن دنياى قد انتهت وأن لم يعد هناك معنى للحياة .



وراح أناس يأتون ويذهبون ويقيمون أمام الدار سرادقا كبيرا ، وجاء المعزون يشدون على أيدينا وأنا غائب عن كل ما حولى بمشاعر الحزن التى ضاق بها صدرى فراحت تفرى كبدى . وساد بيننا صمت مريب ، وسرعان ما تحول الصمت إلى صوات وصراخ وبكاء ، فخمنت أن الرجال يحملون الجثمان إلى نعشه فألهب ذلك عواطفى فرحت أجهش بالبكاء وأنا أحس أن روحى تكاد أن تفر من بين جنبى .

وخرج النعش من البيت فإذا بالرجال يبكون ، وانطلقت الجنازة فى الحر الشديد وقد أصر الرجال على أن يحملوا النعش على الأعناق من العباسية إلى الحسين مارين به على الدكان فى شارع سوق الجراية . وسرت وأنا أغسل وجهى بدموعى يزيد فى أساى أصوات النسوة التى كانت تنطلق من الشبابيك على جانبى الطريق مشحونة بالحزن مجلجلة بالعويل .

ووصلنا إلى الحسين وقد امتزج عرق بدموعى ، وأدخل النعش للصلاة ووقفنا نتلقى العزاء فإذا بأكثر المعزين يأبون إلا أن ينطلقوا مع جثمان أبى حتى مقره الأخير .

كان الحر شديدا ولكن وفاءهم لأبى كان أشد ، فما إن خرج النعش من الحسين حتى استأنفت الجنازة سيرها إلى المدفن .

وحمل جثمان أبى ليدفن فإذا بى أنفجر بالبكاء ، وإذا برجال يجذبوننى بعيدا حتى لا أرى أبى وهم ينزلون به إلى مثواه الأخير . وما خفف ذلك من لوعتى فكل مشاعرى كانت قد تحولت إلى أعين ترى فداحة النكبة .

وعدنا إلى البيت بعد أن تركناه فى المدفن وحده وما كنا قد افترقنا عنه طوال حياتنا أبدا ، فجلست فى السرادق أبكى وإذا بصديق من أصدقاء أخى محمد يأتى إلى ويقول مواسيا :

— كفاية بقى ما فيش حاجة ح تتغير . البركة فى محمد ح يدفع لك كل حاجة !

وملأنى إحساس بحقارة الحياة وحقارة الناس . أيحسب أننى أبكى أبى لأنه تركنى بلا عائل ؟! أكل ما يربطنى بأبى تلك الجنيهات التى ينفقها على وعلى زوجتى ؟ أيستطيع أحد أن يدرك مبلغ حبى لأبى وتعلقى به وأنه كل حياتى ؟ أيستطيع أحد أن يدرك أننى فقدت الصديق والناصح الأمين وحبى الكبير ؟ إننى أحس أن سفينة حياتى باتت بلا ربان وأنها قد صارت فى بحر عاصف تتلاطمها الأمواج ، ترى هل ترسو على شاطئ ؟!

٨٩

صبغت أمى بياضات كراسى غرفة الاستقبال والأرائك والملابس بالسواد ، وغطت كل المرايا بملاءات سوداء ، وحرمت طهو أصناف كثيرة من الطعام فما كان يتفق مع الحداد أكل السمك أو الحلوى أو تقديم أى من المشروبات غير القهوة السادة . وما كان ذلك يثير فى نفوسنا أية دهشة فما كانت تقوم به أمى يعكس بعض ما فى نفوسنا من ظلام .

إننى عصر كل يوم كنت أسير فى الشارع الذى يقع فيه منزلنا حتى أصل إلى كوم الردم الذى يفصل بين الطريق الذى أقيم فيه مصنع الطرابيش وبين مدفن أبى ،





فأصعد إلى قمته ثم أنحدر إلى المدفن الذى أغلقت أبوابه وأمسك حديد الشباك الخارجى بكلتا يدى وأقرأ الفاتحة ، ثم أطلق لدموعى العنان وآخذ فى مناجاة أبى مناجاة حارة . كنت أستشعر فى أغوارى أنه معى وأنه يسمعنى ، حتى إذا ما ازورت الشمس عن القبر ومالت للغروب درت على عقبى وعدت أرقى فى التل الصغير ثم أنحدر عنه إلى الطريق وأسير منكس الرأس والألم يحز فى روحى فلا يجد له منفسا إلا فى العبرات والزفرات والأنين .

وحان موعد امتحان البكالوريوس ، الامتحان الذى كنت أرقبه لأنهى مرحلة الدراسة وأبدأ مرحلة الكفاح وتحمل مسئولية بيتى ، فإذا بى أفكر فى أن أطلب تأجيله إلى الدور الثانى . وقد هممت بأن أفعل ذلك لولا أن بعض أصدقائى قد شجعنى على أن أجرب حظى فقد أنجح ، وإذا خاننى حظى فى مادة أو مادتين فأمامى فرصة الدور الثانى . واقتنعت ودخلت الامتحان وما راجعت شيئا من دروسى . وكيف أقرأ وأستفيد مما قرأت فى جو متوتر غارق فى التعديد والدموع ، فما كانت جدتى تكف عن العويل وما كانت عمتى تفعل شيئا غير البكاء وكانت أمى تسفح العبرات وزوجتى

وزوجات إخوتى قد جلسن وتسربلن فى السواد وحملن رءوسهن على أكفهن .

ودخلت الامتحان و لم أستطع أن أخرج من الحالة النفسية التى استولت علىّ . كنت عصر كل يوم أخرج لأذهب إلى قبر أبى أناجيه وأبثه لواعج نفسى و كنت أحدثه فى أشياء ما كنت أجرؤ أن أفصح عنها لو كان على قيد الحياة !

ومرت أيام الامتحان وما كنت راضيا كل الرضا عن إجاباتى ؛ كان هم الممتحن أن يعرف مدى حفظنا للكتب والمحاضرات التى بين أيدينا وكان ما حل بى كافيا لأن يبدد كل ما حفظته طوال العام . ومرت الأيام وأنا عاكف فى البيت أنتظر ظهور النتيجة فما كنت أحب أن أذهب إلى سوق الجراية حيث أخى محمد وأخى أحمد . إننى ذهبت إلى هناك بعد موت أبى فإذا بى أقف أمام الدكان وأنفجر بالبكاء . وجاء إلى محمد وأحمد وأخذا يواسيانى ويطلبان منى أن أكف عن النشيج ، فجاء إلينا سى عبد المجيد كاتب حسابات المحل وقال لهما :

— سيبوه ، إذا كان مش ح يعيط عليه ح يعيط على مين ؟

واغرورقت عينا سى عبد المجيد بالدموع . إنه منذ ذلك اليوم الذى كشفت فيه عن ضعفى أمام الملأ آثرت أن أبتعد عن المكان الذى كان كعبتى أيام أبى .

وظهرت النتيجة فإذا بى من الراسبين ؛ رسبت فى المحاسبة . وذهبت إلى قبر أبى وأفضيت إليه بنبأ رسوبى ووعدته بأننى سأطوى حزنى وسأستعد للدور الثانى ، إن هى إلا شهور وأنال البكالوريوس .

وفى أثناء عودتى إلى البيت ثار فى نفسى سؤال : ماذا سأفعل بعد أن أنال البكالوريوس ؟ كان أبى قد وعدنى بشراء مصنع صابون فى الجمالية يملكه لى . أأستطيع بعد أن أصبحت وحدى أن أقدم على مثل ذلك المشروع ؟ وتقاصرت نفسى . إننى أعجز من أن أنهض بلا سند من أبى وخبرته بأى مشروع ، ماتت آمالى بموت أبى .

كانت الأمة فى فرح لأن فاروقا قد بلغ سن الرشد وجلس على عرش إجداده وإن الأمة لعلى استعداد دائما لأن تشارك أى ملك جديد فى أفراحه ؛ فالشعب دائما يتلهف على ظهور زعيم أو مصلح يقوده ويخرجه من الظلمات التى يعيش فيها وأن يحقق له

آماله . وقد نجحت أبواق الدعاية فى أن تقنع الناس بأن فاروقا هو الأمل المرتجى ، وكانت وسامة الملك وشبابه سبيله إلى قلوب الجماهير .

ورحت أستعد لتأدية امتحان المحاسبة فى الدور الثانى ، فلما خرجت من لجنة الامتحان كنت واثقا من نجاحى فرحت أفكر فيما سأفعله بعد ظهور النتيجة ، فلم أر مفرا من أن أصبح موظفا فى الحكومة .

لم يعرف أحد من أسرتى من قبل طريق الوظائف ، فأهلى كلهم من التجار وطريق الحكومة يحتاج إلى وساطات وما كنا نعرف أحدا من ذوى النفوذ والسلطان ، كل ما تفتقت عنه دراساتنا وأبحاثنا أن نلجأ إلى عضو مجلس الأمة المنتخب عن دائرتنا فالرجل يعرفنا جيدا ولطالما سألنا العون فى الانتخابات .

وظهرت نتيجة الدور الثانى وكنت من الناجحين ، فانطلقت أنا وأخى محمد إلى مكتب ممثل دائرتنا فى البرلمان ؛ فلما فاتحه أخى فى الموضوع أنكر الرجل رغبتى فى التوظف وأشار على أن أشق طريقى فى العمل الحر كما شقه أبى وجدى وكل أهلى .



وخرجنا من عند الرجل ورفضه أن يتوسط لى لأنال وظيفة فى الحكومة يصفعنا ، ولم يتسرب إلى نفسى اليأس فثقتى فى ربى لم تتزعزع يوما ؛ كنت على يقين أن رزقى فى السماء وكنت قد روضت نفسى على أن أتكل على الله فهو حسبى وأن أسلم له وجهى .

ومرت أيام وأخى محمد يبحث بين رجال النادى الرياضى الذى كان يؤمه كل يوم عن صاحب نفوذ فى الحكومة ، فوقع على موظف صغير زعم أن وكيل وزارة الحربية صديقه فاجتمعنا بالرجل فى قهوة تطل على ميدان الأزهار ، وراح الرجل يتحدث فى مواضيع متشعبة تافهة ، ظل يقص علينا كيف يختار قطعة اللحم التى يفضلها وكيف أنه يتركها فى الثلاجة خمسة عشر يوما حتى تنعم ، وكيف وكيف وأنا ضيق بحديثه فما



كنت أعرف شيئا عن الثلاجة فى ذلك الوقت ، فهى نوع من الترف لا نعرفه ، إننا نأكل طعام يوم بيوم وما يفضل نضعه فى النملية !

وانتهت الجلسة بأن اتفقت معه على أن نلتقى فى الصباح لنذهب إلى صديقه فى وزارة الحربية .

وفى الميعاد التقينا وانطلقنا فى تاكسى إلى وزارة الحربية ، فما استعمل أحد السيارة بعد موت أبى . كان الإضراب عن ركوبها لونا من الحداد وما كان أحد يفكر فى أن يستعملها بعد أبى خوفا من غضبة أمى وثورتها .

واستأذن الرجل فى الدخول على وكيل الوزارة فأذن له فأخذ بيدى ودخلنا ، وما إن جلسنا حتى راح الرجل يتسامر مع الوكيل وذكر له فيما ذكر موضوعى فإذا بالوكيل يكتب ورقة إلى مدير المستخدمين يطلب منه أن يلحقنى بالعمل بالوزارة .

كانت معاهدة ١٩٣٦ قد وقعت وكانت الحكومة قد قررت تقوية الجيش ، ولما كانت اعتمادات الوظائف والسيارات هى أول ما يستخدم من الاعتمادات فقد نشطت الوزارة فى تعيين الموظفين وكان من حظى أننى جئت فى وقت زادت فيه الوظائف زيادة لم يكن لها سابقة من قبل .

وذهبت إلى إدارة المستخدمين فسرعان ما أعطونى كتابا أذهب به إلى القومسيون الطبى فأخذت الكتاب وتلكأت فى الذهاب إلى القومسيون، ومر يوم ويومان وأنا أتسكع أمام إدارة المستخدمين فإذا بموظف قديم يقبل علىّ وينصحنى أن أسرع بالذهاب حتى أنهى مسوغات التعيين . وراح يقول لى فى أسى إننى أضيع مستقبلى ، فكل دقيقة أتأخرها معناها إهدار لأقدميتى ، فالأقدمية فى الحربية تحتسب بأقدمية تسجيل اسمك فى الكشف الواحد . ولم أقتنع بمنطقه ورحت أسخر منه ومن الأقدميات جميعا ، ولطالما تذكرت نصيحة الرجل فيما بعد عندما حالت الأقدمية بينى وبين الترقية .

وأتممت مسوغات تعيينى وتسلمت كتابا إلى السلاح الجوى الملكى بالماظة ذكر به أننى قد عينت كاتبا به بالدرجة الثامنة الكتابية بمرتب قدره ثمانية جنيهات ونصف ، وأخذت الكتاب وذهبت به إلى مكتب مدير سلاح الطيران بالوزارة فاستقبلنى الرجل مرحبا وسألنى عن مؤهلى ، ثم أصدر أمرا بأن يكتب للسلاح بأننى قد عينت مترجما .

وفى الليل التقيت أنا وأخى محمد والرجل الذى وظفنى وإذا بأخى يخرج من جيبه ورقة مالية ويضعها فى يد الرجل ، فلما انصرفنا عرفت أن الثمن الذى دفعته للحصول على وظيفتى كان خمسة جنيهات . أصبحت موظفا فى الحكومة بخمسة جنيهات ويا له من ثمن !

رقم الإيداع ٣٣٢٤

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة





الثمن •

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه